

من كائنات تسولون خوف

المجلد ٢
أرضنا
البر



3.4.2016



مخائيل شولوخوف

المؤلفات المختارة
في أربعة مجلدات

المجلد ٢

أرضنا
البلكر

الكتاب الاول



دار «رادوغان»
فرع طشقند

ترجمة غائب طعمة فرمان
رسوم بورس اليكسندروفيتش عليهموف

М. ШОЛОХОВ

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ

в 4-х томах

ТОМ II

ПОДНЯТАЯ ЦЕЛИНА

Книга I

На арабском языке

III $\frac{4702010200-520}{031(01)-86}$ 073-86

© الترجمة الى اللغة العربية - دار «رادوغا» فرع طشقند،
١٩٨٦، طبع في الاتحاد السوفيتي.

ISBN 5—05—000706—2

ISBN 5—05—000704—6

في حقول «الأرض البكر»

ان ظهور شولوخوف في الأدب السوفيتي كالاسطورة حقا. وهو في سن الثالثة والعشرين كانت قد ظهرت له مجموعتان قصصيتان والجزء الأول من «الدون الهادي» الذي جعله على الفور في مصاف أحسن كتاب البلاد السوفيتية والعالم.

ومع ذلك فقد سبق هذا كله نضج المؤلف المبكر في دروب الثورة والحرب الأهلية. لم يكن شولوخوف قد تجاوز العشرين حين كان يطارد مع رفاقه عصابات البيض في سهوب الدون الأعلى. وحين أنتج قلمه كتابي «السهب اللازوردي» و «قصص الدون» لم تكن في صفحاتهما مشبعة بوهج الخزامى الربيعية فقط، ولم يكن فيهما ما يشوبه الشك، بل كان كل شيء فيهما معاشاً، ومجرّباً لمساً، ومعجوناً بدم القلب. والتقسيم الطبقي العظيم الذي تسلسل الى سهب القوزاق بطريق ملتو سرعان ما وجد صورته الملحمية وتجسيده في رواية «الدون الهادي» بعد أن طلع لأول مرة على صفحات هذه القصص. ولك ان تتصور ذلك الضوء الساطع الوهاج الذي نفذت فيه عينا شولوخوف وقلبه الى الحياة، فراح «يتصفح» في داخله صفحات روايته القادمة «الدون الهادي». تماماً مثلما سيفعل بعد عشر سنين، حين يتصفح في ذهنه صفحات روايته المقبلة «أرضنا البكر».

لقد ورث هذه الموهبة بالطبع من أمه وابيه وبالقطرة. الا أن ركوبه متن الموجة التي اثارها الأحداث الثورية في

السهب القوزاقي هو الذي مكنه من ان يظهر هذه الموهبة بمثل هذه القوة.

وحين يقال ان حياة شولوخوف نفسها هي الأخرى رواية تنتظر مؤلفها، فانما يقصد بذلك أيضا ذلك التمازج النادر تماماً بين سيرة شولوخوف الذاتية وسيرة زمانه الذي استقت منه عبقريته الفنية قوتها.

كان شولوخوف نفسه واحداً من منظمي الكولخوزات، سمع طلقات غدارات الكولاك، ورأى الحرائق، ووقف ضد الانحرافات، ودافع عن الكولخوزيين المخلصين والشيوخيين، وتحمل نفسه هجوم اولئك الذين كان يعيقهم بمكانته وقوته الخلقية عن التعسف... وكان عليه أن يحل ليس فقط عقد الأحداث الشديدة التعقيد على الطريقة الشولوخوفية في صفحات الروايات غير الكاملة، بل ورومانسية الحياة التي كانت تواجهه كل يوم، ويصارع اولئك الذين كانوا احيانا يرتكبون باسم الحزب افعالا معادية للحزب. وكل ما سيتشبع فيما بعد بحقنه وألمه وحبه على صفحات كتبه استقاه من الحياة، والأصح نفذ بقوة طاغية الى قلبه. وابطال كتب شولوخوف، فضلا عن ذلك، كانوا يحاصرونه، ويطرحون عليه اسئلتهم اللاهبة وامانيهم واعمالهم، بل وصاروا يزاحم بعضهم بعضاً فيتأخر اقدمهم ليتقدم الآخر. فالقوزاقي غريغوري ميليوخوف («الدون الهادي») الذي ازاح بكتفه دافيدوف البراد في مصانع بوتيلوفسكي («ارضنا البكر») قد اضطر الى التنحي جانبا، والانتظار بصبر. وبعد ذلك يضطر سيميون دافيدوف الى أن يخلي المكان لغريغوري ميليوخوف. فقد طلع الجزء الأول من «أرضنا البكر» ما بين الجزئين الثالث والرابع من «الدون الهادي»، وطلع ما بين الجزئين الأول والثاني من «أرضنا البكر» الجزء الرابع من «الدون الهادي» والفصول الأولى من «قاتلوا من أجل الوطن» وقصة «مصير انسان». ولم يكن من السهل ان يتنقل الانسان بين هذا العدد الكبير من اللقاءات والفراقات، الافراح والاتراح... أن يلبس البزة العسكرية مع اللعاعات الأولى

للحرب ضد الفاشية في عام ١٩٤١، وان يدفن في دسكرة فيشينسكيا أمه العزيزة التي صرعتها قبلة فاشية، وأن يتأخر، وهو خارج الى الجبهة، مع الذين حاربوا في سبيل السلطة السوفيتية، بعد أن بدأ معهم طريق التراجع الكئيب من الدون الى الفولغا. وبعد ذلك واستجابة لنداء القلب يعود، بعد النصر، الى غريمياتشي لوغ بعد ثلاثين عاماً يزور مع فاريا والجد شوكار قبري دافيدوف وناغولنوف، في الجزء الثاني من «ارضنا البكر».

ان شولوخوف ابن فلاح بسيط صار أعظم كاتب في عصرنا، وقد اجتمع فيه وفي ابداعه بشكل موفق كل ما يميز الأدب السوفيتي اليوم: شبابه الثوري، وصلته العميقة مع ينابيع ثروات الشعب الروحية، واخلاصه الرفيع للمثل التحررية للانسانية، وحديثه مع اعداء الحرية الحقيقية والديموقراطية.

لقد صارت ارض الدون الموضوع الاساسي لاهتمام شولوخوف. وفي سنوات الحرب الأهلية كانت المشاعر الهائجة متأججة في الدون. وظهر انقسام عميق بين طبقة القوزاق العليا الغنية التي كانت تملك الأرض، وبين الفلاحين المعدمين. ولكن انتزاع الارض، كما كان لينين يقول، لا يمكن الا في الدفاع عن السلطة السوفيتية.

قبل شولوخوف كتب كتاب آخرون في الأدب الروسي عن الفلاحين ولكن لم يتيسر لأحد أن يجد مثل كلماته الصادقة وألوانه لتصوير انقسام القوى الطبقيّة المتناحرة في القرية، ويصوغ بتلك الضخامة المجسدة صورة الفلاح الذي قهر في صراع قاس عدوه الأبدي - الكولاك - وطلع على طريق الحياة التعاونية. وتحدث «أرضنا البكر» عن التحول في مصائر قوزاق الدون، الجزء المهم جداً والفريد من الفلاحين الروس. الفريد في نسبه، الذي يعود في نشأته الى الفلاحين المحبين للحرية، الذين هربوا في العهود السحيقة من نظام القنانة، وفي عاداته التي تكونت في ظروف الحياة الطبقيّة القائمة على الحرب والحملات. والقوزاقي البسيط في مقاطعة الدون

لا يتميز عن الفلاح الكادح في اية ولاية او مقاطعة روسية أخرى الا في العادات والخصال الطائفية البطريارقية. فقد كان فقرهم وكل مصائبهم وعذاباتهم متماثلة في الأصول والاسباب. وكان لهم نفس الاعداء: الحكم المطلق وأصحاب الأراضي والكولاك. ولم تكن المصالح الاساسية للقوزاق الكادحين والفلاحين الروس الكادحين قاطبة تتصادم، بل تتطابق. وبالخداع فقط استطاع اعداؤهم أن يفرقوا بينهم من حين لآخر، مستعدين القوزاق على الجماهير الاخرى من الفلاحين الروس، بائين الفتن بينهم.

ان ربيع ١٩٣٠ الثوري يدخل بشكل عاصف في دساكر وعزب الدون. و محراث الكلخزة الذي أعاد حراثة الحدود الفاصلة بين الحقول الفردية الصغيرة ترك حزاً عميقاً في وعي القوزاق الكادحين. وتنبوأ «أرضنا البكر» مكاناً سامقاً بالنسبة لعمل أدبي، بعد أن صارت وثيقة فنية وتاريخية للتحول الثوري في زراعة البلاد. والأحداث والأشخاص الذين شملهم المؤلف بعنايته الفنية هم بالذات من كان في وسعهم أن يمثلوا الحقبة على أحسن وجه. فنحن نرى في شخصيات البلاشفة دافيدوف وناغولنوف ورازميوتنوف، وفقراء الفلاحين ومتوسطيهم مايدانيكوف وشوكار وليوبشكين وفي شخصي الكولاكي اوستروفونوف والضابط الأبيض السابق بولوفتسيف الواقفين في الجهة المعاكسة التناسب في القوى المتصارعة في الريف.

إن الصراع الطبقي في الدون في أعوام الكلخزة يصاغ باشكال درامية. وموت دافيدوف وناغولنوف يضيء، كالوهج الساطع، ميدان هذا الصراع الصارم، وترتيب القوى، وعظمة النصر، الذي احرزه فلاحو الدون بقيادة الحزب. وشولوخوف ببقائه مخلصاً لحقيقة الحياة، يهب قلبه بالكامل لأولئك الذين كانوا يعيدون بناء الحياة في سهب الدون على أسس ثورية جديدة.

وسيكرر القارئ قول المؤلف في آخر الكتاب: «وهذا كل شيء». كل شيء عن دافيدوف وناغولنوف، عن حياتهما

ونضالهما. ولكن الحياة والنضال الذي ضحيا بحياتهما من أجله يستمران.

وعلى هذا النحو تتم «أرضنا البكر».

ولكن الشعور الذي تثيره صفحاتها الأولى، حين يبدأ تعرفنا باللذين لم تعد شحارير الدون توقظهما يظل طرياً في النفس... ونحن ما نزال لانعرف اي شيء تقريباً عن دافيدوف القادم الى غريمياتشي لوغ ماعداً بعض الدقائق والتفاصيل الطفيفة: وشم مرساة صغيرة على يد هذا البراد في مصنع بوتيلوفسكي، من بطرسبورغ، مركز اكبر الثورات رومانسية على الأرض.

والقارىء، حين يشهد لقاء دافيدوف الاول مع ناغولنوف في غريمياتشي لوغ يشهد ايضاً ميلاد صداقتهما التي يحافظان عليها حتى الممات. لقد كانت صداقة صارمة برجولة، شجاعة ورقيقة. ولا جدال في التأثير الذي تركه سيميون دافيدوف على ماكار ناغولنوف كصديق. ومما يرفع من مكانة دافيدوف لدى ماكار أنه لم يحرز هذه المكانة بالكلام الجميل وبالتصنع. ان الناس يقولون ان الصداقة يجب ان تمتحن بالزمن. ولكن اي زمن! لقد ولدت صداقة دافيدوف مع ناغولنوف في زمن مشبع جداً بالأحداث الثورية، وان حسابه لا يجوز ان يقاس بالأيام والاشهر، بل بدقات القلب المستثار بهذه الاحداث.

لا جدال في تأثير دافيدوف في ناغولنوف، ولكن هذا التأثير متبادل. وهنا يجدر التذكير بأن دافيدوف الذي جاء الى غريمياتشي لوغ لحرث قطع الاراضي الفاصلة بين استثمارة فلاح واستثمارة فلاح آخر، لا يأتي الى شيء جاهز، بل الى أرض خالية. وقبل مجيئه كان ماكار ناغولنوف يتردد عليها، ويفكر مرة بعد الأخرى من أي جهة يتقدم على هذه الارض البكر. وحين وصل دافيدوف الى العزبة رأى في الحال أن ناغولنوف لا ند له هنا بقوة ايمانه وقوة خلقه. وشولوخوف، حين يتابع تعريف القارىء به يرسم خلقه على الفور أيضاً بضربات دقيقة حادة من ريشته. كل شيء في

ملاحم ناغولنوف منحوت وناتيء. وسيطور خلقه اكثر، ولكن كل شيء محدد فيه منذ الآن. وسيتعين على دافيدوف الاقتناع بأن لا أحد في غريمياتشي لوغ يضارع ماكار في معرفته في الوضع، وحسه الطبقي أكثر حدة من حس اندريه رازميوتنوف الرئيس السابق لسوفيت غريمياتشي.

ان الصداقة الحقيقية، كالحب، لا تقبل المساومة، وجدالات دافيدوف وناغولنوف في اجتماعات الخلية الحزبية في غريمياتشي هي جدالات صديقين تربطهما وحدة المصالح والاهداف ربطا لا انفصام له. والمؤلف الى اي جانب يميل؟ الى جانب دافيدوف الذي لا تعتور الشكوك اقتناعه في عدم التساهل مع الانحرافات عند تنظيم الكولخوزات؟ أم الى جانب ناغولنوف الذي لا يخضع للشك أيضاً ولاؤه للحزب، ولو أنه يفوت انحرافات؟

ان شولوخوف الى جانب الحقيقة. ومهما يكن كلا البطلين - دافيدوف وناغولنوف - قريبين الى قلبه، فان بطله الرئيسي يظل الحقيقة. وهي تلخص في وجوب التخلص فوراً من كل الانحرافات في سبيل نقاوة وانتصار فكرة الكلخزة، وجذب الفلاحين الكادحين في المستقبل عن طريق الاقناع فقط، وليس بالاكراه. وهذه الحقيقة تتجلى أيضاً في أن الحزب، حتى حين يضطر الى معاقبة ابنائه المخلصين من مثل ماكار ناغولنوف، على الأخطاء، لا يستطيع التنكيل بهم، وتركهم الى عسف القدر، ومعاملتهم كاعداء. ورغم كل الاختلاف في خلقي دافيدوف وناغولنوف فهما متحدان في صفة واحدة متأصلة بهما كليهما، وهي النقاوة الخالصة في تأملات العقل والقلب المنذورين الى الشعب كلية. إن دافيدوف البحار والعامل مر بدروس ماكان في وسع ناغولنوف أن يمر بها، رغم كونه إنساناً وهب نفسه لقضية الثورة، وحارب أيضاً في جبهات الحرب الأهلية. وشخصية كوندرات مايدانيكوف في «أرضنا البكر» هي بدون شك الشخصية الرئيسية من كل شخصيات الفلاحين القوزاق. وقد قضى كوندرات وهو من عائلة

قوزاقية متوسطة الحال كل الحرب الأهلية مقاتلا في سبيل السلطة السوفيتية، وعاد الى بيته في عزبة غريمياتشي لوغ. وحين ينظم الكولخوز يفهم لا بعقله الفلاحي المتحوط فقط، بل وبقلبه أيضاً ويشعر بأنه لا يمكن أن يكون له خيار آخر غير الخروج الى هذا الشاطئ الجديد. فيكتب كوندرات في عريضة انتسابه: «أرجو قبولي في الحياة الجديدة، لأنني موافق عليها كلياً». ومع ذلك فإن الحبل السري للملكية الفردية يمسكه، ويشده الى ملكه الذي حصل عليه بعمل غير يسير. ويحزن كوندرات، حين يعرف أن عليه في الغد أن يأخذ ثيرانه الى الحظيرة العامة. وينعكس حزنه الفلاحي هذا في أن يضع «ضمة ضخمة من التبغ» في معلف ثيرانه حين يفارقها.

وفي الحقل عند بذار الربيع يسميه دافيدوف الصدامي الأول في غريمياتشي لوغ. وفيما بعد يخلف كوندرات في رئاسة كولخوز غريمياتشي براد مصنع بوتيلوفسكي سيميون دافيدوف الذي قتل على يدي بولوفتسييف الضابط القوزاقي الأبيض السابق.

الناس في «أرضنا البكر» يصلون الى سعادتهم خلال طرق وعرة. فالزمن المصور بشكل حي على صفحات هذه الرواية لم يكن خالياً من المشاق، وكان النضال قاسياً. واذا كانت صفحات «أرضنا البكر» تتخللها الدعابة، فإن ذلك لأن الروس حتى في اكثر لحظات الحياة مأساوية لا يفقدون حب الحياة، ولا يتخلون عن المزاح، ويقدرّون أن ينظروا الى بلاياهم ايضاً ولمعان المرح في عيونهم. ولهذا يشغل الجد شوكار هذا المكان على صفحات الرواية.

والفصول الختامية من «أرضنا البكر» مكتوبة بلمسات قصيرة مقتصدة معبرة. والمؤلف لا يخاف أن يكشف امام القارئ قلبه المفجوع بدافيدوف وناغولنوف، ويوجه كلامه الساخط الى بولوفتسييف ولاتيوفسكي اللذين أرادا الوقوف ضد تيار الحياة الجديد. ويذكر المؤلف باقتضاب اوستروفونوف الذي كان من المحاكمين المشتركين في

المؤامرة المعادية للثورة في جنوب البلاد. وبهذا الذكر المقتضب فقط قدر شولوخوف أن ينتهي منه. ولا حاجة لأكثر من ذلك، فكل شيء واضح. فان هذا القاتل لوطنه الأم ميت وان كان يعيش.

وتنتهي «أرضنا البكر» نهاية جهماء ولكن الشمس تضيء بنورها المرتقى الذي طلع اليه فلاحو الدون الروس. والشمس تضيء بسخاء الألوان الألق الشعري في الكتاب، ولوحات الطبيعة الحية. فان المؤلف يعشق بهذا الشكل طبيعة سهب الدون الحبيب اليه، والأرض التي ناضل عليها وأحبها ومات وانتصر الناس الاعزاء على قلبه. والأعز من ذلك للناس السعادة المكتسبة في هذا النضال.

... ان شولوخوف العظيم لم يعد بيننا...

... وحتى الآن أرى رأي العين قرص الشمس الأسود في

سما شباط الباردة فوق سهب الدون.

وعلى رصيف محطة ميليروفو ينتحب بصمت فلادلين لوغاتشيف سكرتير اللجنة الحزبية لمدينة ميليروفو، وابن رئيس اللجنة التنفيذية لمنطقة فيشينسكيا، صديق ميخائيل الكسندروفيتش شولوخوف في زمن «أرضنا البكر».

كم من مرة كان علي أن اسافر من ميليروفو الي فيشينسكيا في هذا الطريق، وفي كل مرة كم من اللوحات الباهرة والذكريات تتابع علي الذاكرة، حين كان السهب الذي أحبه شولوخوف ونورته عبقريته يترامي من يمين وشمال كصفحات كتاب ضخم، ولكن هذا الطريق لم يبد لي قط بهذا الطول الذي لاح لي في هذه المرة. كانت الأرض تلوح سوداء هنا وهناك في الرقع التي ذاب عنها الثلج، والربيع الجديد على الأبواب، ولكن شولوخوف لن يستقبله في هذه المرة مع ابناء منطقتة، ولا يخرج الي مخيم الحقل، الي المزرعة، الي الحقول المحروثة التي يتصاعد منها البخار، كما في عام ٣٠ البعيد، وكما قبل فترة قصيرة جداً، حين انتزع نفسه بهمة من سلطان المرض ليخرج الي الناس، الي العشب المخضر وسط جذور

أشجار الغابة الشتوية، الى خفق الرياح الذي يلذع قلبه...
... من النافذة المشرفة على شاطئ فيشينسكيا الشديد
الانحدار كان شولوخوف يحدق مثبتاً بصره في التلال
البعيدة المترعة بنور الشمس الشتائية. وما كان يراه
هناك لا يطاله إلا بصره. وكان يمزح مع أهل بلدته، مع
اصدقائه من فيشينسكيا، الذين كانوا يصعدون اليه في
الأعلى. وقبل ثلاثة ايام قال في الصباح لزوجته ماريا
بيتروفنا ببسمة ساخرة: «صرنا أنا وأنت متشابهين
كثيراً، حتى أنني رأيت في الحلم أنهم اسرجوا لنا كليناً
فرساً واحدة، وانظر فأراها خضراء...»

... والناس في كل مكان، في السهب كله، في دساكر
القوزاق، في الحواضر والعزب، لا يخجلون من ذرف الدموع في
اجتماعات الرثاء. وتبكي عجوز في منديل رأس أسود عند
الباب الخارجي لفناء آل شولوخوف قائلة: «منه لم نعرف الا
الخير».

ان أعمال شولوخوف كلها - من أول سطر الى آخر
سطر - مشبعة بالشجاعة التي تفعم افئدة الناس بالايمان
بقواهم. وهذه الشجاعة لم تفارقه في حياته حتى آخر لحظة.
وقبل هنيهات من فراقه الحياة تناول ورفع الي شفتيه يد
المرأة التي رافقته في حياته كلها. منذ أن تسلم في موسكو
المكافأة على أول قصة نشرت له، وجلب الي بيته سمكة
رنجة سلقتها زوجته في قدر حديدي، فراحا يقيمان مأدبة،
وهما الشابان المتحاببان، الي أن صار «غناؤه السهبي»
الجبار الذي سمعه العالم أجمع يرن رنين البرونز من طنّف
فيشينسكيا العالي.

وها هو مصاعاً من البرونز، يحدق بحدة بصر ورقة
الي ماوراء الدون المشتي من الشاطئ الشديد الانحدار،
وعلى مسافة غير بعيدة يسجى جثمانه البارد المبيض
تماماً في بيته، على طاولة، في نفس القاعة التي كانت
تضج دائماً، ويجتمع فيها الكثيرون من اصدقائه وقرائه من
جميع انحاء الأرض ونبات البخلود السهبي بازاره الرصاصية

الفضية يلتف من الجانبين حول جبينه الجميل الجبار. وكم
تأججت في قلبه المقعم بحب الناس نشوة البهجة امام جمال
العالم المحيط به!

عقارب الساعة الحائطية في منزل شولوخوف أوقفت
عند ٢١ شباط، الساعة الواحدة، و ٤٠ دقيقة ليلا. ولكن
منذ ذلك الوقت ستظل ساعة الخلود التي خلفها وراءه للناس
كاتب الشعب العظيم تسمع من هناك بوضوح يزداد كل
يوم. لقد رحل شولوخوف الى الخلود، في اثر أبطال كتبه،
الذين بهروا وخلبوا الانسانية القارئة، بفرادة شخصياتهم،
ومصائرهم الدرامية، في اثر غريغوري ميلخوف، اكسينيا،
ناتاليا، في اثر فيدور بودتيلكوف، سيميون دافيدوف،
ماكار ناغولنوف، في اثر العديد والعديد من الأبطال الآخرين
الذين أضنتهم الصبوات والبحث المتأني عن الطريق الى
الحقيقة، اولئك المتعطشين الى العدالة والحب السامي.
لقد رحل شولوخوف الى الابدية.

اناتولي كالينين
دسكرة فيشينسكيا.

الفصل الأول

بساتين الكرز تفوح رائحة عذبة في نهاية كانون الثاني، وقد نفتحها أنفاس الدفء الأولى. وفي الظهيرة، في الأماكن المحجوبة من الريح (إذا كانت الشمس تدفئ) تمتزج الرائحة الشجية المنبعثة بخفوت من قشرة الكرز بالرطوبة العذبة للثلج الذائب وبالأنفاس الجبارة العتيقة للأرض الطالعة من تحت الثلج، من تحت أوراق الشجر الميتة. ويظل العبق الناعم العديد الألوان عالقاً فوق البساتين وقتاً طويلاً حتى حلقة المساء الأخيرة، والى أن يندر قرن الهلال المغبش من خلال الغصون العارية، وتترك الأرانب السميئة آثار أقدامها المريشة على الثلج. ثم تحمل الريح الى البساتين من جانب التلال السهبية نفحة الأفسنتين الملفوح بالصقيع، نفحة في غاية الرقة، وتخفت روائح النهار واصواته، فيفقد الليل من جانب الشرق متسللاً كالذئب الاغبر الصامت عبر نبات الشيع والاعشاب البرية، وجذامات ذيل الثعلب الحائلة، واخاديد الحقول المحروثة تاركاً وراءه في السهب ذيول الظلال الداكنة.

* * *

دخل فارس الى عربة غريمياتشي لوغ من الزقاق
المحاذي للسهب في امسية من امسيات كانون الثاني عام
١٩٣٠.

اوقف عند الجدول حصانه المتعب وقد علقت حبوب
الجمد على اربيتيه وترجل. كان القمر في محاقه يقف
عالياً فوق اسوداد الحداثق، الممتدة على جانبي الزقاق
الضييق، وفوق احراش الحور الملمومة كالجزر. كان الزقاق
مظلماً وهادئاً. ونبج كلب نباحاً عالياً في مكان ما في الجانب
الآخر من الجدول، وتوامض ضوء مصفر. عب الفارس الهواء
الصاقع بمنخريه بنهم، وخلع قفازه بتؤدة، واشعل سيكارة،
واحكم شد حزام السرج، وحشر اصبعه تحت غطاء ظهر
الفرس، وتلمس ظهره الحار العرق، ثم ألقى جسمه الضخم
على السرج بخفة. وأخذ يخوض في الجدول الضحل غير
المتجمد حتى في الشتاء. مد الفرس عنقه ليشرب اثناء سيره
مصلصلا بحوافره على حصى القاع صلصلة منخفضة الرنين،
الا ان فارسه استعجله، فقفز الفرس على الشاطئ القليل
الانحدار، مرسل انة عميقة.

اوقف الفارس فرسه ثانية، حين سمع من الجهة المقابلة
له كلاماً وصريف عربية زلاجة. فحرك الفرس أذنيه على
الصوت باحتراس، والتفت. وقع ضوء القمر على حاجب
الصدر الفضي، وعلى الحنو العالي المزجج بالفضة حنو
السرج القوزاقي، فالتمعا فجأة لمعاناً ابيض قاطعاً في
الزقاق المظلم. القى الفارس المقود على حنو السرج،
واسرع في ارتداء القلنسوة القوزاقية من وبر البعير، التي
كانت حتى ذلك الحين مدلاة على كتفيه، واحاط بها وجهه،
وانطلق في عدو خيب. وحين تجاوز العربية، عاد الى سيره
المتأن، ولكنه لم يخلع القلنسوة.

وحين دخل العزبة سأل امرأة قابلته:

- خبريني، يا عمة، اين يعيش ياكوف اوستروفنوف
عندكم؟

- تقصد ياكوف لو كيتش؟

- اي، نعم.

- ذاك بيته ذو السقف القرميدي وراء شجرة الحور،

الا تراه؟

- أراه. شكراً.

ترجل الفارس عند البيت الرحب المسقف بالقرميد،
وقاد الفرس داخل باب الحديقة، ونقر على النافذة بمقبض
سوطه في هدوء ونادى:

- يارب الدار! ياكوف لو كيتش. اخرج لي دقيقة.
خرج رب الدار الى مقدمة البيت حاسر الرأس، وسترته
محلولة، وأمعن النظر في القادم، ونزل درجات المدخل.
وسأل مبتسماً في شاربيه الأشيبين:

- من هذا الذي القت به الدواهي؟

- الا تجزر، يالوكيتش؟ دعني اقضي الليلة عندك. اي
مكان دافئ يمكن ان تضع فيه الحصان؟

- لا، أيها الرفيق العزيز، لا احزرك. ألعك من
لتم*؟ أو قسم الزراعة؟ احس بشيء... صوتك، على ما
اظن، ليس غريباً على أذني...

ازاح القادم قلنسوته، وهو يبتسم من شفتين حليقتين.
- هل تذكر بولوفتسيف؟

وفجأة تلفت ياكوف لو كيتش في الجانبين مذعوراً،
وامتقع لونه وهمس:

- صاحب النبالة! من اين نبعث؟ السيد النقيب!
سنخدم الفرس على الفور... هيا الى الاسطبل... كم
انقضت من سنين...

- حسناً، حسناً خفض صوتك! مر زمن طويل... هل
لديك قماشة ظهر للحصان؟ هل بيتك خال من الغرباء؟
اعطى القادم المقود لصاحب البيت، اطاع الفرس حركة
اليد الغريبة بونى، رافعاً رأسه عالياً على رقبتة المشرئبة،
وسار الى الاسطبل تعباً مجرراً قائمته الخلفيتين. وضرب
الأرض الخشبية بحافره برنين - ونخر حين شم رائحة حصان
غريب يتخذ مأواه هناك. استقرت اليد الغريبة على خطمه،
وحررت اصابعها باقتدار وعناية مشفري الفرس المحكوكين

* اختصار ل... اللجنة التنفيذية للمنطقة.

بجديدة الشكيمة الماسخة. قعد الفرس على القش ممتناً.
- أرخيت سيوره. اتركه يقف قليلا في سرجه، حتى
يبرد قليلا، وبعد ذلك اخلع عنه سرجه.
كان رب البيت يقول ذلك، ملقياً على الفرس بعناية
قماشة ظهر باردة. واستطاع من تلمسه السرج، ومن القدر
الذي شد به حزام السرج، وارتخت سيور الركابين، ان
يحدس ان الزائر جاء من مكان بعيد، وانه قطع خلال اليوم
مسافة غير قصيرة.

- هل لديك حبوب، يا ياكوف لو كيتش؟
- القليل منها. سنسقيه، ونقدم له الحب؟.. هيا،
الى البيت، لادري كيف انا ديك الآن... اذا كان على القديم
فقد اقلعنا عنه، وفيه حرج أيضاً - وكان رب البيت يتسمم
في الظلام مرتبكا رغم انه كان يعرف ان ابتسامته لاترى.
- نادني باسمي واسم ابي... هل نسيت؟ - اجاب
الضيف، وكان اول من خرج من الاسطبل.

- انسى! وقد قضينا الحرب الالمانية كلها سوية،
وهذه الحرب ايضاً... كثيراً ما اذكرك، يا الكسندر
انيسيموفيتش. منذ ان افترقنا في نوفوروسيسك وأنا لم
اسمع عنك خبراً. حسبت انك نزحت الى تركيا مع القوزاق.
ودخلا المطبخ المدفأ تدفئة حارة. خلع القادم قلسوته
والطاقية من فرو الضأن الأبيض، وكشف عن جمجمة ضخمة
عجاء عليها شعر ابيض خفيف، والقى على الحجر نظرة
سريعة من تحت جبين عال حسير اشبه بجبين الذئب، وقلص
مبتسماً عينيه الزرقاوين الفاتحتين اللامعتين بضيق من
وقيهما العميقين، وأنحنى محييا المرأتين الجالستين على
المسطبة، وهي ربة البيت وكنتها.

- كيف الاحوال، يا اهل البيت!
- حمدا لله - اجابته ربة البيت بحیطة، بعد ان
القت على زوجها نظرة متحفزة متسائلة، وكأنها تقول: «من
هذا الرجل الذي جئت به، وكيف ينبغي ان نعامله؟»
أوعز رب البيت باقتضاب:

- هيئن العشاء.

ودعا الضيف الى المائدة في حجرة الجلوس.

وبينما كان الضيف يحتسى حساء الكرنب بلحم الخنزير ادار الحديث، بحضور المرأتين، عن الطقس، وعن الذين خدموا معه في فوجه. وكان فكه الاسفل الضخم وكأنه منحوت من حجارة يتحرك بصعوبة. كان يمضغ الطعام ببطء وتعب، كثور منهك في مريضه. نهض بعد العشاء، وصلى عند الايقونة المحاطة بزهور ورقية مغبرة. ونفض فتات الخبز عن صدرته العتيقة الضيقة عند الكتفين، وقال:
- شكراً على الخبز والملح، يا ياكوف لو كيتش! والآن تعال نتحدث قليلا.

نظفت ربة البيت وكنتها المائدة على عجل، وخرجتا الى المطبخ، مستجيبتين لاشارة من حاجبي رب البيت.

الفصل الثاني

جلس سكرتير لجنة الحزب للمنطقة الى منضدته، وكان رجلا قصير النظر، بطيء الحركة، وبعد ان القى نظرة جانبية على دافيدوف، راح يقرأ وثائقه، مقلصاً عينيه، جامعاً تحتها غضوناً منتفخة.

في الخارج كانت الريح تصفر في اسلاك التليفون، وكان عقق يتمشى مائل الجنب على ظهر حصان مشدود برسنه الى سياج حديقة بيت، وينقر شيئاً هناك. وكانت الريح تعبث في ذيله، وتجعله يطير، ولكنه عاد فاستقر على ظهر ذلك البرذون الشائخ المتعب، غير المكترث بشيء، واجال عينيه الكاسرتين على الجانبين منتصراً. وكانت السحب المهلهلة تسري واطئة فوق الدسكرة*.

وكانت اشعة الشمس المنحرفة تسقط عبر الشقوق في

* في النص «ستانتسا» وهو اسم قوزاقي لمركز المنطقة.
المترجم.

السحب من حين لآخر، فتشع قطعة السماء زرقاء زرقاء صيفية، وعند ذاك كانت عطفة الدون المرئية من النافذة، والغابة وراءه، والمضيق الجبلي البعيد بطاحونته الهوائية الضئيلة عند الافق تكتسب نعومة الرسم المتماوجة.

— اذن، فقد أخرج المرض في روستوف؟ وليكن...
الثمانية الباقية من الخمسة والعشرين الفأ قد وصلوا قبل ثلاثة ايام. وجرى اجتماع. استقبلهم ممثلون عن الكولخوزات - ومضغ السكرتير شفتيه مفكراً - وضعنا الآن معقد بشكل خاص. نسبة المنضمين الى التعاونيات في المنطقة لاتتجاوز الـ ١٤,٨ بالمائة. واغلبية التعاونيات عندنا من جمعيات الفلاحة المشتركة المسماة (توز). بعض الكولاك والميسورين ما يزالون متخلفين في تسليم الحبوب الى الدولة. نحن بحاجة الى ناس. كثيرا منهم! الكولخوزات ارسلت طلبيات لتجهيزها بثلاثة واربعين عاملا، بينما لم يرسلوا لنا غير تسعة.

ونظر في عيني دافيدوف نظرة طويلة متفحصة فيها شيء من الجدة، من تحت جفنيه المنتفخين، وكأنما يزن ما يستطيع ان يفعل هذا الرجل.

— اذن، فانت ميكانيكي، ايها الرفيق العزيز؟ جيد جداً! هل أنت في مصنع بوتيلوف منذ زمن بعيد؟ خذ سيكارة.

— منذ التسريح. تسع سنوات - ومد دافيدوف يده ليأخذ سيكارة، والتقط السكرتير بنظرة القاها على كف دافيدوف، وشماً كامد الزرقاء، فابتسم بطرفي شفتيه المتدليتين.

— بهاء البلاد وفخرها؟ هل خدمت في الاسطول؟

— نعم.

— ها انا ارى وشم المرساة عليك...

— ذاك في شبابي، انت تعرف... ابتسار وحماسة، فوشمت نفسي - وبسط دافيدوف رده الى الاسفل في

ضيق، مفكراً مع نفسه «يعاين الاشياء غير الضرورية، ولا يكاد يلتفت الى تخزين الحبوب!»

صمت السكرتير، وأسرع في ازالة ابتسامة الضيافة الفارغة من وجهه العليل المنتفخ.

- ستهب اليوم، ايها الرفيق، كممثل مغول من لجنة الحزب المنطقية لتنظيم الكلخزة* الشاملة. هل قرأت آخر توصية من لجنة الاقليم؟ مطلع عليها؟ اذهب، اذن، الى سوفيت قرية غريمياتشي. ستستريح فيما بعد. لاوقت الآن. الهدف هو تطبيق نظام التعاونيات مائة بالمائة. هناك ارتيل صغير في القرية. ولكن يجب أن نقيم الكولخوزات العملاقة. وحالما ننظم فريقاً للدعاية والتحريض سنرسله لكم. والآن سافر، واقم كولخوزاً على اساس التضييق الحذر على الكولاك. ويجب ان يضم كولخوزك جميع استثمارات الفلاحين الفقراء والمتوسطين. وبعد ذلك انشئوا صندوقاً عاماً للبذور لكل المساحة التي ستبذر تعاونيا في عام ١٩٣٠. التزم الحذر واياك ان تثير حفيظة الفلاحين المتوسطين! في غريمياتشي خلية حزبية من ثلاثة شيوعيين. وسكرتير الخلية ورئيس سوفيت القرية رجلان جيدان، ونصيران من الانصار الحمر في الماضي - وزم شفثيه ثانية واطاف - مع كل الملابس الناجمة عن ذلك. مفهوم؟ الضحلان في الثقافة السياسية يمكن ان تكون لهما هفواتهما. وحين تظهر صعوبات تعال الى مركز المنطقة، السبيء ان الاتصال التلفوني مايزال مفقوداً! كما ان سكرتير الخلية هناك حائز على وسام، وفيه بعض الحدة، مليء بالنتوءات، وكلها... حادة.

نقر السكرتير باصابعه على قفل المحفظة اليدوية، وحين رأى ان دافيدوف واقف. قال بحيوية:

- انتظر قليلا، هناك شيء آخر: ارسل البلاغات كل يوم مع فارسى، وحمس الرجال هناك. والآن اذهب الى مدير

* مصدر من كولخوز: اي اشاعة الكولخوزات. المترجم.

قسم التنظيم وانطلق. سأبلغهم أن يركبوك خيول اللجنة التنفيذية للمنطقة. اذن، صعد التعاونيات الى مائة بالمائة. ساقيم عملك بالنسبة المئوية هذه. سننشىء كولخوزاً عملاقاً من السوفيات الريفية الثمانية عشرة. ماذا تقول؟ مصنع بوتيلوف الزراعي الأحمر. وضحك لهذا التشبيه الذي صاغه بنفسه، واعجب به بنفسه.

سأل دافيدوف:

- ما هذا الذي كنت تقوله لي عن الاحتراس من الكولاك؟ كيف يمكن ان يفهم ذلك؟
- هكذا - وابتسم السكرتير ابتسامة تطفية - هناك كولاكي ينفذ مهمة تسليم الجيوب الى الدولة، وهناك كولاكي لايقوم بذلك عن اصرار. والمسألة واضحة مع الثاني. تطبيق المادة المائة وسبعة عليه، ويقضى عليه. اما الاول فالعمل معه اصعب. كيف ستتصرف معه، مثلاً؟
استغرق دافيدوف يفكر...

- كنت ساعطيه مهمة جديدة.

- روعة! لا، يا رفيق، هذا لاينفع. بهذه الطريقة يمكن تقويض كل ثقة بمشاريعنا. وماذا سيقول الفلاح المتوسط عند ذلك؟ سيقول: «هذه هي السلطة السوفيتية! تعصر الفلاح بثتى الطرق. بينما علمنا لينين ان زراعي ميول الفلاحين بصورة جدية، وانت تقول «نعطيه مهمة جديدة». ان هذه، يا اخ، صيبانية.

- صيبانية؟ - وأحمر دافيدوف - الظاهر أن ستالين كان على خطأ، في رأيك. ها؟

- وما علاقة ستالين هنا؟

- لقد قرأت خطابه في مؤتمر الماركسيين ال... أوه راح عن بالي... الذين يشتغلون في أمور الارض... ماذا يسمون؟ الارضيين، أم كيف؟

- الزراعيين.

- نعم، الزراعيين.

- ماذا بهم؟

- أطلب عدد «برافدا» المنشور فيه هذا الخطاب.
جلب كاتب الاوراق عدد «البرافدا». فتش دافيدوف
الجريدة بعينه بنهم.

نظر السكرتير الى وجهه ميتسماً بتوقع.

- هكذا. كيف هذا؟.. «كان لا يجوز السماح بتجريد
الكولاك من ملكيتهم، طوال ما كنا ملتزمين بوجهة نظر
التضييق...» طيب، وفيما بعد... هذا: «أما الآن؟ الآن
مسألة أخرى. الآن عندنا امكانية القيام بهجوم حازم على
الكولاك، وتحطيم مقاومتهم، والقضاء عليهم كطبقة...»
كطبقة، هل فهمت؟ فلماذا لا يجوز اعطاؤهم مهمة ثانية في
الجبوب؟ لماذا لا نقصعه باظفرنا، كالقمل؟
طرد السكرتير الابتسامة عن وجهه، واكتسى امارة
الجد.

- فيما بعد يرد القول بأن تجريد الكولاك من ملكيتهم
يقوم به الفلاحون الفقراء والمتوسطون المنضمون الى
الكولخوز. أليس كذلك؟ اقرأ.

- عجيب انت!

- لا تتعجب! - قال السكرتير غاضباً، حتى ان صوته
أهتز - طيب، وماذا تقترح انت؟ اجراءً ادارياً لكل كولاكي
دون تمييز؟ وهذا في منطقة لم ينظم فيها الى الكولخوز الا
اربعة عشر بالمائة من الفلاحين، وحيث المتوسطون من
الفلاحين يتهمون لتوهم الى الدخول في الكولخوز. في هذا
العمل يمكن ان تفقد رأسك في لحظة واحدة. هؤلاء هم الناس
الذين يأتون الينا، بدون اية معرفة بالظروف المحلية -
وضبط السكرتير نفسه، ومضى يقول بهدوء اكثر - بهذه
الآراء يمكنك ان ترتكب اخطاء كثيرة.

- كيف اقول لك...

- كن على اطمئنان! لو كان هذا الاجراء ضرورياً وفي
أوانه، لأمرتنا لجنة الاقليم الحزبية دون موارد: «اقضوا
على الكولاك!...» وانتهى الأمر، ببساطة. عندكم ميليشيا،

وجهاز كامل تحت تصرفكم. ولكننا الآن نعاقب الكولاكي الذي يغيب الحبوب اقتصادياً فقط، وبشكل جزئي، وعن طريق المحاكم الشعبية، وفق المادة المائة وسبعة.

- أتظن، اذن، أن الاجراء الزراعيين وفقراء الفلاحين ومتوسطيهم يعارضون تجريد الملكية من الكولاك؟ يناصرون الكولاك؟ يجب تحريضهم على الكولاك.

صلصل السكرتير بقفل المحفظة بحدة، وقال بجفاف:
- أنت تحب ان تفسر كل كلمة للقائد تفسيرك الخاص، ولكن المسؤول عن المنطقة هو مكتب لجنة المنطقة الحزبية، وانا شخصياً. اعمل حيث نرسلك، وانتهج نهجنا، لا النهج الذي تخترعه انت. اعذرني، لا وقت لدي اجادلك فيه. عندي اشغال اخرى غير هذا، - ونهض.

ومرة اخرى تدفق الدم بشدة على وجنتي دافيدوف، الا أنه ضبط نفسه، وقال:

- سانتهج نهج الحزب. أما انت، يا رفيق، فأقول لك بصراحة كما هو معهود من عامل: ان نهجك خاطيء، ومغلوط سياسياً. تلك حقيقة! - انا مسؤول عما افعله... أما هذه «كما هو معهود من عامل» فقد قدمت... كما...

رن جرس التلفون. اختطف السكرتير السماعة. وبدأ الناس يأتون الى الغرفة، فذهب دافيدوف الى مدير قسم التنظيم.

كان يفكر وهو خارج من مقر لجنة المنطقة: «انه يعرج على رجله اليمنى.. تلك حقيقة! ساقراً من جديد كل خطاب ستالين الى الزراعيين، أتراني على خطأ؟ لا، يا اخي العزيز، اعذرني! من خلال تسامحك في العقيدة تركت الكولاك يسرحون. ويقولون عنه في لجنة الدائرة «شاب كفو»، بينما الكولاك يقصرون في تسليم الحبوب. ان تضيق عليهم شيء، وأن تستأصلهم كالعشب الضار شيء آخر. ولماذا لا تقود الجمهور؟» وظل يناقش السكرتير في ذهنه بهذا الشكل مخاطباً اياه. وكما هي الحال دائماً لا تأتي اكثر الحجج اقناعاً الا فيما بعد. في ذروة احتدامه وانفعاله في مقر لجنة المنطقة

التقط أول ما طراً على باله ليرد عليه. كان يجب ان يكون
اهداً اعصاباً. سار يبقبقي في البرك المتجمدة، متعثراً بروث
الثيران المتجمد في ساحة السوق.

وقال دافيدوف بصوت مسموع:

– المؤسف اننا انتهينا من حديثنا بسرعة، والا
لسددت عليك الطرق.

وصمت في شيء من الضيق، وقد رأى امرأة تمر به
وهي تبتسم.

* * *

وصل دافيدوف الى «بيت القوزاقي والفلاح»، وأخذ
حقييته الصغيرة، وابتسم، وقد تذكر أن أمتعته – الي
جانب تبديلتين من الملابس الداخلية، والجوارب، وبدلة
واحدة – تتكون بشكل رئيسي من المفكات، وزردية ومبرد،
ومنقر لشق المعادن، وبرجل، ومفتاح صامولة، وغير ذلك
من الادوات البسيطة التي اخذها لنفسه من لينينغراد. «لا
أظنني سأستخدمها! تصورت انني قد أصلح جراراً، بينما
لا يوجد جرار هنا. اغلب الظن انني سأظل اتقل في المنطقة
كممثل كامل الصلاحية. سأهديها لحداد كولوجوزي
عليه اللعنة». وعزم على ذلك، وهو يلقي الحقيبة في
الزلاجة.

خفت الخيول المعلوفة جيداً، والتابعة للجنة التنفيذية
المنطقية، لتنتقل بالزلاجة ذات المتكأ، المصبوغة بألوان
زاهية صارخة. وما كادت الزلاجة تغادر الدسكرة حتى
تجمدت اوصال دافيدوف. لف عبثاً وجهه بياقة معطفه
المحكوكه من فراء الغنم، وغطس طاقيته في رأسه، كانت
الريح والجمد الرطب ينفذان تحت البياقة، وفي الردينين،
ويشيعان فيه القشعريرة. وقد جمدت قدماه بشكل خاص،
وهما في حذائيه القديمين الخفيفين.

كانت الطريق بين الدسكرة وغريمياتشي لوغ تمتد
ثمانية وعشرين كيلومتراً في سلسلة من التلال المقفرة

وتمر الجادة البنية من جراء جمد الروث الذائب على قمم سلسلة التلال. وعلى امتداد البصر يرى الرائي ارضاً بكرّاً كساها الثلج. كانت نباتات الشيح والاشواك تحني هاماتها في مسكنة. ومن منحدرات الوهاد وحدها، تطل الارض على العالم بعيونها من الطفال الرملي. فقد كانت الريح هناك تعابث الثلج ولا تتركه يستقر في مكان، بينما كانت الحدبات المدكوكة جيداً تتناثر بارزة في قيعان الوهاد والمنخفضات.

ظل دافيدوف يعدو وقتاً طويلاً ممسكاً بظهر الزلاجة، ساعياً لتدفئة قدميه، ثم قفز الى داخل الزلاجة، وانكمش، وهوم في سنة من النعاس. كانت زحافات الزلاجة تصرف، وسنابك الخيول تنفذ في الثلج بحدواتها الحديدية محدثة خشخشة جافة. ويرن عريش العربة الى اليمين. كان دافيدوف ينظر من حين لآخر من تحت جفنيه المثقلين بالجمد، الى اجنحة غربان الزرع ترتفع من الطريق خاطفة، وتتوهج ومضات الصاعقة البنفسجية البعيدة، ثم يعود النعاس الحلو ليطبق عينيه.

أيقظه البرد بكماشته التي عصرت قلبه، ففتح عينيه، فرأى من خلال قطرات الدموع الصغيرة العالقة في أهدابه كالوان قوس قزح الى الشمس الباردة، والى الصدر المهيب للسهب الصامت، والى السماء الرمادية بلون الرصاص عند حافة الافق، والى ثعلب أحمر أصفر متواضع يقف على القمة البيضاء لربوة غير بعيدة عنه. كان الثعلب يصطاد فئران الحقول. وقف على قائمته الخلفيتين، وتلوى، وقفز الى الاعلى وسقط على مخلبيه الاماميين، وحفر بهما، ولفه غبار الثلج الفضى المتلألئ بينما انزل ذيله بنعومة وانسياب، واستقر على الثلج مثل لسان احمر من اللهب.

وصلوا الى غريمياتشي لوغ قبيل المساء. كانت زلاجة يجرها حصانان تقف فارغة في فناء سوفيت القرية الرحب. وكان زهاء سبعة من القوزاق يتجمعون عند المدخل يدخنون.

توقفت الخيول عند المدخل وقد تحول العرق على وبرها الخشن الى حبات جمد.

- مرحباً، يا مواطنون! أين الاسطبل هنا؟

- عوفيت - رد قوزاقي كهل، وهو يرفع يده، الى طرفوره من فراء الارنب - الاسطبل هناك، يا رفيق، سقفه من القصب.

- اذهب الى هناك - أوعز دافيدوف الى الحودي، وقفز من الزلاجة ركيناً مكتزاً. وسار وراءها، وهو يمسح وجهه بقفازه.

توجه القوزاق الى الاسطبل أيضاً، وقد حيرهم ان القادم الذي يبدو على أنه مستخدم، ويتكلم اللهجة الروسية الخشنة في بعض حروفها، يسير وراء الزلاجة، ولا يتجه الى سوفيت القرية.

كان بخار الروث يخرج نازلاً من باب الاسطبل بسحاب دافئة. اوقف حودي اللجنة التنفيذية المنطقية خيول الزلاجة. أخذ دافيدوف يفك السيور عن الخيول بحركة واثقة. تبادل القوزاق النظرات، وهم يتجهرون بالقرب منه. ثمة عجوز في فروة نسائية بيضاء قلص عينيه، كاشطاً الجمد عن شاربيه، وقال بسخرية:

- حذار أن ترفسك، يا رفيق!

كان دافيدوف قد فرغ لتوه من فك ذيل الحصان من طوق المؤخرة، فالتفت الى الشيخ، وابتسم من شفيتين مسودتين، مظهراً عند الابتسام فراغ السن الامامية المفقودة.

- كنت، يا جد، جندي مدفع رشاش، وسافرت على خيول أشرس من هذه الخيول.

- بالمناسبة ألم تفقد سنك بضربة من حافر حصان؟ - سأل ذلك قوزاقي اسود كغراب القيقظ نمت لحيته الجعداء حتى منخرية.

ابتسم القوزاق في غير شماتة، ولكن دافيدوف رد النكتة قائلاً، وهو يخلع طوق الرأس بهمة:

- لا، فقدت السن من زمان، اثناء السكر. وهذا افضل، فالنساء لا يخافن بعد هذا أن اعضهن. اليس كذلك، يا جد؟

قبلت النكته، وهز الجد رأسه بلوعة اصطناعية.
- فات زمن العض، بالنسبة لي، يافتى. منذ سنين وسني نازلة الى الاسفل.

ضحك القوزاقي ذو اللحية السوداء ضحكة كسهيل حصان فحل، كاشفاً عن اسنان بيض، وظل ممسكاً بالعصابة الحمراء المشدودة بقوة على سترته القوزاقية، وكأنه يخشى أن ينفك من الضحك.
قدم دافيدوف السكائر الى القوزاق، واشعل سيكارة، وسار الى سوفيت القرية.

قال الشيخ، وهو يتعقب دافيدوف بالحاح:

- اذهب. هناك الرئيس، وسكرتير حزبنا ايضاً.

وسار القوزاق الى جانبه وهم ينتهون من سكاثرهم بمصتين. وقد راق لهم كثيراً أن القادم لا يتصرف كما يتصرف عادة القادمون من رئاسة المنطقة، فهو لم يقفز من الزلاجة، ويدخل سوفيت القرية رأساً، ماراً بالناس، متشبثاً بمحفظته، بل هو الذي بدأ بفك الخيول بنفسه مساعداً الحوذي بذلك، مظهراً براعة عريقة وقدرة في خدمة الخيول. ولكن ذلك أثار دهشتهم في الوقت ذاته. قال ذو اللحية السوداء دون اصطبار...

- كيف لا تشمئز من أن ترعى الخيول، يا رفيق؟ وهل هذا شغل المستخدم، مثلاً؟ وما شغل الحوذي، إذن؟

فاعترف الشيخ بصراحة:

- هذا عجيب علينا بالكثير.

لم يكن لدافيدوف الوقت ليحجب.

- ولكن هو نفسه حداد يصنع الحدوات للخيول! -

هتف قوزاقي شاب اصفر الشاربين في خيبة اقل، مشيراً الى يدي دافيدوف ببشرتهما المسودتين عند الكفين من الاشتغال في الحديد، وبأظافرهما ذات الندبات القديمة.

قال دافيدوف يصلح كلامه:
- بل ميكانيكي. طيب، وانتم لماذا تذهبون الى
سوفيت القرية؟

- من مصلحتنا - اجاب الشيخ نيابة عن الجميع،
واقفاً على درجة المدخل السفلي - يهمننا ان نعرف
لاي شيء جئت الينا؟ اذا كان عن تسليم الجيوب من
جديد...

- بخصوص الكولخوز.
صفر الشيخ صفيراً ممدوداً حزيناً، وكان اول من نكص
عن المدخل.

* * *

كانت الحجرة الواطئة ترسل رائحة دافئة
حادة حامضة منبعثة من معاطف فراء الغنم، ومن رماد
الخشب. وكان رجل طويل مستقيم الكتفين يقف مواجهاً
دافيدوف، وهو يخفض ذبالة المصباح. كان وسام «الراية
الحمراء» يلوح حمرة على قميصه العسكري. وحدهس
دافيدوف أن هذا الرجل هو سكرتير خلية غريمياتشي
الحزبية.

- أنا الممثل المفوض للجنة المنطقة الحزبية. فهل
انت سكرتير الخلية، يا رفيق؟

- نعم، أنا ناغولنوف، سكرتير الخلية. اجلس،
يا رفيق، سيأتي رئيس السوفيت حالا.

ودق ناغولنوف الجدار بقبضته، وتقدم من دافيدوف.
كان عريض المنكبين، مقوس الساقين كالمعود على
ركوب الخيول، وكانت عيناه المصفرتان نوعاً، ببؤبؤيهما
الواسعين بشكل ناشز، والمترعين بما يشبه القطران،
مظللتين بحاجبين اسودين مقوسين. كان من الممكن ان
يبدو جميلاً ذلك الجمال الرجولي الهاديء والعالق في الذهن،

لو لا تلك الحدة الكاسرة جداً في منخري انفه العقابي الصغير، وتلك الغشاوة الكدرة في عينيه.

خرج من الغرفة المجاورة قوزاقي ركين في طاقة رمادية من فراء الماعز سارحة الى علبائه، وسترة طويلة من جوخ المعاطف، وسروال قوزاقي مزين بشرائط جانبية حمراء، محشور في جوربين صوفيين أبيضين.

- هذا هو رئيس السوفيت اندريه رازميوتنوف.

مسد الرئيس بكفه شاربيه الفاتحين الأجددين، مبتسماً،

ومد يده لدافيدوف باعتبار.

- ومن انت؟ مفوض من لجنة المنطقة الحزبية؟ أها.

وثائقك... هل رأيتها، يا ماكار؟ أظنك في مهمة بخصوص الكولخوز؟ - وتفحص دافيدوف بعفوية ساذجة يرف كثيراً بعينه الصافيتين كسماء الصيف. وقد شف عن ترقب طرف وجهه الكدر غير الحليق منذ زمان، بالندبة العميقة المائلة الممتدة على جبينه.

جلس دافيدوف الى الطاولة، تحدث عن المهمات التي وضعها الحزب في القيام بحملة لمدة شهرين من أجل اشاعة التعاونيات كلياً، واقترح أن يعقد غداً اجتماع للفلاحين المعدمين والنشطاء.

وأخذ ناغولنوف في عرضه للوضع، يتحدث عن «جمعية الفلاحة المشتركة» (توز) في غريمياتشي.

اصغى رازميوتنوف اليه بنفس الانتباه، مضيفاً عبارة هنا وهناك، دون ان يرفع كفه عن خده المكتسي حمرة بنية.

- هنا عندنا ما يسمى بـ «جمعية الفلاحة المشتركة للارض». واقول لك بصراحة، ايها الرفيق العامل، انها مجرد السخرية على تطبيق التعاونيات، وخسارة صريحة للسلطة السوفيتية - كان ناغولنوف يتكلم بانفعال ظاهر - تتألف الجمعية من ثمانية عشر بيتاً، من الفقراء المعدمين لاغير. فماذا كانت النتيجة؟ سخرية أكيدة. جمعوا ما عندهم، فاذا البيوت الثمانية عشر لا تملك غير اربعة خيول وثورين،

بينما لها مائة وسبعة افواه تعيلها. فكيف يجب أن يثبتوا في الواقع جدارة ما فعلوه؟ انهم، بالطبع، يتلقون قروضا طويلة الأمد لشراء الآلات وحيوانات الجر. ويأخذون هذه القروض، ولكنهم لن يستطيعوا تسديدها حتى على الأمد البعيد. وسأوضح السبب رأسا. بحث آخر لو سيكون لهم جرار، ولكنهم لم يعطوهم جرارا، والثيران لا تجعل الانسان غنيا بين عشية وضحاها. وازيد على ذلك انهم ينتهجون سياسة خاسرة. ولو كان الأمر يعتمد علي لكنت قد طردتهم منذ زمان على بقائهم تحت ضرع السلطة السوفيتية كالعجل الكسيح يمتصونه دون أن ينمو. وتسرى بينهم مثل هذه الآراء: «سيقدمون لنا النقود في كل الاحوال، وليس لنا ما يأخذونه منا لقاء ديوننا». ولهذا تجد بينهم تحللا من الانضباط. ستكون هذه الجمعية في عداد الاموات. فكرة جيدة جدا أن يجمع الكل في كولخوز. سيكون ذلك روعة، ولكن القوزاق قوم ذوو عناد. واقول لك بصراحة يتعين كسر جماحهم.

سأل دافيدوف وهو يتلفت في محدثيه:

— هل احد منكم في هذه الجمعية؟

رد ناغولنوف:

— لا، في عام ١٩٢٠ انضمت الي كومونة. وقد تفككت بمرور الزمن بسبب الأناية. تخلت عن ملكيتي. وامتلأت حقدا عليها، ولهذا تخلت عن ثيراني وادواتي الزراعية للكومونة المجاورة رقم ستة (وهي ماتزال قائمة حتى الآن) ولا املك انا وزوجتي شيئا. ولم يكن رازميوتنوف قادراً على تقديم هذا المثل. فهو نفسه أرمل، وليس له غير أمه العجوز. اذا انضم غطس في جب لا يخرج منه... سيقولون: «فرض علينا امه العجوز كلباس العيد على غجري، بينما هو لا يشتغل في الحقل. هذه القضية غير بسيطة. اما العضو الثالث في خليتنا - وهو الآن غائب فهو مقطوع الذراع، قطعت آلة الدراس يده. وهو يستحي

من الدخول في الجمعية، وحاله كهذه، يقول: لديهم ما يكفيهم من الافواه ليطعموها.
وقال رازميوتنوف مؤكداً:

- نعم، مصيبتنا مع الجمعية. رئيسها اركاشكا لوسيف مزارع سييء التدبير. كيف انتخبناه! اخطأنا في هذه المسألة بصراحة. ما كان يجب أن نعطيه هذه الوظيفة.
- والسبب؟ - سأل دافيدوف، وهو ينظر في قائمة أملاك البيوت الكولاكية.

- لأنه - قال رازميوتنوف باسمًا - انسان مريض، كان يجب في الطريقة التي يعيش فيها أن يكون تاجرًا. وهو مريض بهذا الداء يبيع ويشترى بكل شيء. خرب الجمعية كلياً، اشترى ثوراً جيداً، وانتوى أن يبادله بموتوسكيل. اقنع اعضاءها، وهو لا يتشاور معنا. فوجئنا بأنه قادم بهذا الموتوسكيل من المحطة. تحسرننا، وامسكنا برؤوسنا دهشة وقنوطاً. طيب، جلبه معه، ولا أحد يستطيع أن يسوقه ثم ما حاجة الناس الى هذا الموتوسكيل؟ شر البلية ما يضحك! فعاد به الى الدسكرة، حيث عاينه العارفون به، وقالوا له: «حثة ارمه مع النفايات». كانت تنقصه قطع غيار لا يمكن صنعها الا في المصنع. كان الاخرى أن يرأسهم ياكوف لوكيش اوستروفنوف فهو اهل لهم. دماغ شغال! طلب صنفاً جديداً من القمح من كراسنودار، يصمد لأي ريح جافة. ويبقي الثلج باستمرار في حقوله المزروعة ويحصل على احسن غلة دائماً. وقد ربي مواشي أصيلة. ورغم أنه يتدمر قليلاً بأننا نخنقه بالضرائب، الا أنه مزارع جيد، حاصل على شهادة اطراء.

- دائماً في معزل عن الآخرين كالوز البري وسط الدواجن، يعيش لوحده.

قال ناغولنوف وهز رأسه بريية.
فاعترض رازميوتنوف قائلاً بقناعة:

- لا أظن! انه واحد منا.

الفصل الثالث

في تلك الليلة التي وصل بها الى ياكوف لوكيتش اوستروفنوف أمر وحدثه السابق النقيب بولوفتسييف جرى بينهما حديث طويل. كان ياكوف لوكيتش يعتبر في الضيعة رجلا ذا عقل كبير، ومسلك ثعلبي وميل الى الحذر، الا انه لم يستطع أن يبقى في معزل عن الصراع الذي سرى بضراوة في الضياع، فجذبتة الاحداث في دوامتها. ومنذ ذلك اليوم سارت حياة ياكوف لوكيتش في منحدر خطر...

بعد العشاء، في تلك الليلة، تناول ياكوف لوكيتش كيس تبغ، وجلس على الصندوق ضاماً تحته قدمه المجاورة بجورب صوفي سميك، وانطلق يتحدث، وسكب ما ظل يغلي في صدره بمرارة طوال سنين.

- عم اتحدث، يا الكسندر انيسيموفيتش؟ لا مسرة في الحياة ولا بهجة. القوزاق بدأوا قبل حين في تدبير شؤونهم قليلا، ويغتنون. كانت الضرائب في عام ٢٦ و ٢٧ محتملة على نحو ما. اما الآن فقد قلبونا على البطانة من جديد. وعندكم في الدسكرة هل سمعت عن تطبيق التعاوانيات ام لا؟

- سمعت - اجاب الضيف باقتضاب، مبللا ورقة السيكاراة بلسانه، متفحصاً مضيغه بانتباه، من تحت حاجبيه.
- يعني يذرفون الدموع في كل مكان على هذه النغمة الجديدة؟ طيب، سأحدثك عن نفسي الآن. عدت في عام عشرين بعد تراجع القوات، وقد تركت على البحر الأسود حصانين وكل ما املك. عدت الى بيتي الفارغ ومنذ ذلك الحين صرت أعمل ليل نهار. اعتدى علي الرفاق لأول مرة بنظام مصادرة الجبوب في شيوعية الحرب وغرفوا كل ما عندي من الجبوب. ثم تكررت هذه الاهدانات، وضاع علي الحساب. ولو في الامكان حسابها. فهم حين يعتدون عليك يكتبون لك وصلا حتى لا تنسى. - ونهض ياكوف لوكيتش، ومد يده الى ماوراء المرأة، وسحب حزمة من الاوراق،

مبتسماً من تحت شاربيه المشذبين - هذه هي الوصولات لما اعطيته عام واحد وعشرين من القمح واللحم، والزبدة، والجلود، والصوف، والطيور. كنت اسلم ثيراناً كاملة الي مركز التجميع. وهذه وصولات الضريبة الزراعية الموحدة والضريبة الذاتية ثم وصولات التأمين... ودفعت علي الدخان الذي يخرج من مدختي، وعلى بقاء الماشية حية في سقيفتها. وعن قريب سيكون عندي ما يملأ زكبية من هذه الاوراق. وباختصار، يا الكسندر انيسيموفيتش، عشت اقتات على الأرض، وأعيش الآخرين علي. نتفوا لي ريشي مرات، وفي كل مرة كنت انمي لي ريشاً جديداً. لملمت لي في الاول، زوجاً من الثيران، حتى كبرا، فاعطيت الحكومة واحداً منهما ليذبح ويؤكل لحمه واشترت ثوراً آخر بماكنة خياطة زوجتي. وفيما بعد، في عام خمسة وعشرين رزقت بزوج آخر من البقرتين اللتين عندي. يعني صار لي زوجان من الثيران وبقرتان. ولم يجرموني من صوتي في الانتخابات، فاعتبروني فلاحاً متوسطاً ركيناً.

فاستفسر الضيف:

- وهل لديك خيول؟

- تمهل قليلاً، وسأحكي لك عن الخيول. اشترت من جارتني حولياً والدته من نسل الدون الأصيل (الوحيدة التي بقيت في الضيعة كلها) وكبر وصار مهرة، ما احلاها! ليست عالية لتصلح للخدمة العسكرية. أقل بنصف ذراع. ولكنها في الجري لا تضارع! في معرض الحياة الريفية في مركز الدائرة اعطوني عليها مكافأة وشهادة تقدير على اصالة الدم. واخذت استمع الي ما يقوله المهندسون الزراعيون وأخذت ارعى الارض، وكأنها حرمة مريضة. ذرتي الأولى في الضيعة، والمحصول احسن من الجميع. كنت اقوم بحماية البذور من المواد المضرة، كما صنعت اعتدة للاحتفاظ بالثلج في الحقل وكنت لا أبذر بذور الربيع الا في الاراضي المحروثة في الخريف، ولا احث في الربيع. فكانت لي دائماً احسن الاراضي المرثاحة. وباختصار صرت

زارع محاصيل كبيرة، وعندى شهادة تقدير على ذلك من الدائرة الزراعية في مركز الدائرة. انظر.

لقى الضيف نظرة خاطفة باتجاه اصبع ياكوف لو كيتش المشيرة الى ورقة مختومة بختم شمعي، ومؤطرة باطار خشبي، ومعلقة قرب الايقونات الى جانب صورة فوروشيلوف. - نعم، ارسلوا لي شهادة التقدير هذه، بل أن

المهندس الزراعي أخذ ضمة من سنابل قمحي ليعرضها على السلطات في روستوف. - مضى ياكوف لو كيتش يقول فخوراً - في الاعوام الأولى كنت ازرع حوالي خمسة دسياتينات*، وبعد ذلك، حين انتعشت، وبذلت جهدي وأخذت ازرع ثلاث دوائر** وخمسة وسبعاً، بهذا الشكل! كنت اشتغل وابني وزوجته. ولم نستأجر شغيلة الا مرتين في ذروة الموسم. فماذا كانت السلطة السوفيتية تنصحننا في تلك الاعوام؟ ازرع قدر ما تستطيع! وهكذا كنت ازرع حتى اتعب لاقصى حد وحق المسيح الصادق! اما الآن، يا الكسندر انيسيموفيتش، أيها المحسن، فصدقني. اخاف! اخاف انهم بذريعة هذه الدوائر السبع يدخلونني في سم الخياط، ويجعلون مني كولاكا. رئيس سوفيتنا، النصير الأحمر الرفيق رازميونوف، أو اندريوشكا كما نسميه ببساطة، ساقني الى هذا الاثم، كان الله بعونه! فقد كان يقول لي: «ازرع الحد الأقصى، ياكوف لو كيتش، قدر الامكان وساعد السلطة السوفيتية، فهي الآن بحاجة شديدة الى الحبوب». وكنت اتشكك في ذلك والآن يبدو ان الحد الاقصى هذا سيربط رجلي الى قفاي بجبل والله العظيم!

سال الضيف:

- هل الناس عندكم ينضمون الى الكولخوز؟ - كان يقف قرب الموقد مطوي الذراعين وراء ظهره، واسع المنكبين، كبير الرأس، مكتنزاً مثل شوال من الحبوب.

* الدسياتينا وحدة روسية للمساحة تساوي ١,٠٩ هكتار.

** الدائرة تساوي اربعة هكتارات.

- الى الكولخوز؟ لم يلحوا علينا كثيراً جداً بعد، ولكن اجتماعاً لفقراء الفلاحين سيعقد غداً. جاءوا ليبلغونا به، قبل أن يحل المساء اليوم. ظلوا يزعمون على جماعتنا منذ عيد الميلاد: «انضموا، انضموا» ولكن الناس كان يرفض كليا، ولم يسجل أحد. ومن يقبل أن يصير عدواً لنفسه؟ ولا بد انهم سيلحون غداً ايضاً. يقال في مساء اليوم قدم عامل من مركز المنطقة، وسيسوق الجميع الى الكولخوز. وستكون النهاية لحياتنا. ها انت قد كدحت وكدحت حتى امتلات يداك عقداً، و احدوب ظهرك، والآن الق ما عندك في القدر العام: مواشيك، وحبوبك، ودواجنك، وبيتك هو الآخر؟ يعني تخل عن زوجتك لصاحبك، واذهب انت الى... لا اكثر ولا أقل. احكم بنفسك، يا الكسندر انيسيموفيتش، ساعطي الكولخوز ثورين (لحقت ان ابيع الثورين الآخرين الى مصلحة اللحوم) ومهرة ووليدها، وكل الأدوات الزراعية، والحبوب، بينما يعطي الآخر سرواله المقل. سنضم ما عندي الى ما عنده، وبعد ذلك سنتقاسم الارباح مناصفة. اليس في ذلك اهانة لي؟.. ربما هذا الآخر قضى حياته كلها راقداً على سطح الموقد، يحلم بلقمة حلوة... بينما أنا... ولكن ما نفع الكلام! السكين حادة! - ومرر ياكوف لو كيتش حد كفه الخشن على حلقومه، - طيب، لننته من ذلك. كيف احوالك؟ في اي دائرة تخدم الآن أم تشتغل بحرفة؟

تقدم الضيف من ياكوف لو كيتش، وجلس على مقعد وراح يلف سيكارة من جديد. حدق مركزاً بصره في كيس التبغ. بينما راح ياكوف لو كيتش يحدق في ياقة البلوزة العتيقة المنغرزة في رقبة محدثه البنية الممتلئة المنتفخة العروق على كلا الجانبين أسفل تفاحة آدم.

- لقد خدمت في وحدتي، يا لو كيتش... أنت تذكر ذلك الحديث الذي اجرته مع القوزاق في يكاترينودار، على ما اظن حول السلطة السوفيتية؟ حتى في ذلك الحين حذرت القوزاق. هل تذكر؟ قلت «انتم على خطأ شديد، يا اولاد!

سيضيق عليكم الشيوعيون، ويذلونكم. وستدركون الامر، ولكن بعد فوات الآوان». - وصمت، وفي عينيه الزرقاوين الفاتحتين تقلص البؤبؤان الدقيقان كراس الدبوس، وابتسم ابتسامة خفيفة - الم اكن صائباً في هذا؟ لم اغادر نوفوروسيسك مع زملائي. لم اوفق في ذلك. خانونا آنذاك، وتركنا المتطوعون* والحلفاء** ودخلت الى الجيش الاحمر، وصرت امراً لكوكبة، في الطريق الى الجبهة البولونية... لقد كانت لهم لجنة تفتيشية، لامتحان الضباط السابقين. فاقصتني هذه اللجنة من مناصبي، واعتقلتنى، واحالتنى الى محكمة عسكرية ثورية. كان سيرميني الرفاق، حتماً، او يلقونني في معسكر اعتقال. وهل تحزر لاي شيء؟ واش ابن كلب قوزاقي من دسكرتي ابلغ بانني ساهمت في اعدام بودتيلكوف***... وهربت في الطريق الى المحكمة. واختفيت لمدة طويلة وانتحلت اسماً آخر، وفي عام ثلاثة وعشرين عدت الى دسكرتي. واستطعت ان احتفظ بالهوية التي تشهد على أنني كنت في وقت ما امر كوكبة، وصادقني شبان طيبون، وباختصار نجوت. في اول الامر جروني الى لجنة الدون الاستثنائية، في مركز الدائرة، ولكنني تخلصت بطريقة ما، واخذت ادرس، ودرست حتى الآونة الاخيرة. والآن... الآن، شيء آخر. انا في طريقي الى اوست - خوبرسكيا في شأن من الشؤون، وقد عرجت اليك كواحد من رجال وحدتي القدامى.

- يعني كنت معلماً؟.. أنت انسان متعلم، متبحر في علم قراءة الكتب. كيف ستكون الحال في المستقبل؟ الى اين تفضي بنا هذه الكولخوزات؟

* يقصد جيش دينكين من الحرس الأبيض.

** انكلترا، وفرنسا، والولايات المتحدة وغيرها من الدول الاستعمارية.

*** فيدور بودتيلكوف: قوزاقي غير حزبي، رئيس لجنة الدون الثورية ورئيس لجنة مفوضي الشعب لجمهورية الدون السوفيتية.

- الى الشيوعية، يا اخ. الى الشيوعية الحقيقية. لقد قرأت أنا كارل ماركس، والبيان الشهير للحزب الشيوعي. هل تدري الى م تؤدي فكرة الكولخوز هذه؟ في البداية كولخوز، وبعد ذلك كومونة، وهي القضاء الكلي على الملكية. لن يأخذوا منك الثيران فقط، بل واطفالك لتربية الدولة. كل شيء سيكون مشاعاً: الاطفال، والزوجات، والاقداح، والملاعق. اذا احببت ان تأكل شوربة من حواصل الدجاج اطعموك الكفاس*. ستكون قنا على الأرض.

- واذا كنت لا اريد؟

- لن يسألوك رأيك.

- وكيف هذا؟

- هكذا.

- ماكرون.

- بالطبع! والآن أنا اسألك: هل يمكن العيش بهذا

الشكل بعد هذا؟

- لا يمكن ابداً.

- ومادام لا يمكن يجب العمل، يجب الكفاح.

- ما هذا الكلام، يا الكسندر انيسيموفيتش! لقد

جربنا، وكافحنا... غير ممكن قط. لا استطيع حتى التفكير بذلك.

- ولكن حاول - واقترب الضيف لصق محدثه، ونظر

الى باب المطبخ المحكم الاغلاق، وشحب فجأة، وصار يتحدث بما يشبه الهمس:

- اقول لك بصراحة: أنا اعتمد عليك. القوزاق في

دسكرتنا يتهبأون للانتفاضة. ولا تتصور آن ذلك، رمية

بغير رام. نحن على اتصال بموسكو، بجنرالات يخدمون

الآن في الجيش الأحمر، وبمهندسين يعملون في الفبارك

والمصانع، بل وابعد من ذلك بما وراء الحدود. نعم، نعم!

واذا ما عملنا بتآلف، وتحركنا الآن بالذات، فسيكون الدون

* الكفاس - شراب روسي حامض من دقيق الجودار.

نظيفاً في الربيع القادم بعون الدول الاجنبية. ستزرع ارضك بحبوبك، ولك وحدك. انتظر، تستطيع ان تتحدث فيما بعد. في منطقتنا الكثيرون من المتعاطفين معنا. ويجب توحيدهم وجمعهم. ولهذا الغرض أنا ذاهب الى اوست - خوبرسكيا. هل ستنضم الينا؟ في منطقتنا حتى الآن اكثر من ثلثمائة قوزاقي من المحاربين القدامى. وعندنا جماعاتنا القتالية في دوبروفسكي، وفويسكوفوي، وتوبيانسكوي، ومالي اولخوفاتسكي، وفي ضياع اخرى. ويجب تنظيم جماعة من هذا القبيل عندكم في غريمياتشي... طيب، تكلم.

- الناس يتدمرون من الكولخوزات، ومن تسليم الحبوب...

- علي مهلك! أنا لا اعني بكلامي الناس، بل انت بالذات. اسألك أنت... ها؟

- وهل يبت في مثل هذه الامور رأساً؟.. انت بذلك تضع رأسك تحت الساطور.

- فكر في الموضوع... حين يصدر الأمر سنهب من جميع الضياع هبة واحدة. نستولي على حاضرة منطقتكم، ونلتقط الميليشيا والشيوعيين من منازلهم واحداً بعد واحد، وبعد ذلك ستشرب النار في الهشيم.

- وبأي وسيلة؟

- سنجد الوسيلة. العل شيئاً تبقى عندك ايضاً؟

- من يدري... ربما هناك شيء ما مطروح في مكان ما... من طراز نمساوي...

- ليس علينا الا ان نبدأ، وبعد اسبوع ستجلب البواخر الاجنبية المدافع والبنادق. بل وستكون هناك طائرات... ها؟

- دعني اتروى، يا حضرة النقيب! لا تجبرني رأساً... اتكأ الضيف علي الموقد، والشحوب ما يزال يغشي وجهه، وقال بصوت كامد الرنين قليلاً:

- نحن لا ندعو الي الكولخوز، ولا نجبر احداً... انت حر، ولكن احترس من لسانك... لو كيتش! عندي لك ست،

والسابعة... - وأدار في جيبه قرص مسدسه الناغان
باصبعه بخفة وقد قرع قرصه.

- يمكنك ان تطمئن من لساني. ولكن عمك فيه
مجازفة. ولا اخفي عنك انني اخاف الانخراط في قضية كهذه.
ولكن حياتنا الراهنة مقطوعة ايضا، - وصمت وبعد لحظة
صمت قال رب البيت بمرارة - لولا مطاردة الاغنياء هذه
لربما كنت الآن الرجل الاول في الضيعة بما ابذله من جهد.
ولكانت لي، في حياة الحرية، سيارتي الخاصة الآن! - ومع
ذلك فان الاقدام على هذه الأمور لوحدي... انهم يكسرون
رقيبتي في الحال.

- ولم لوحدي؟ - قاطعه الضيف في ضيق.
- هذا من ناحية القول. وماذا عن الآخرين؟ كيف
الناس؟ هل سيأتون؟
- الناس مثل قطيع من الاغنام. يجب ان تسوقهم.
وانت هل قررت؟

- لقد قلت لك، يا الكسندر أنيسيموفيتش...
- يجب ان أعرف معرفة اكيدة: هل قررت؟
- لا مخرج لي، ولهذا سأقرر. وعلى كل حال اعطني
مهلة اراجع فيها عقلي. غداً صباحاً، سأقول الكلمة الاخيرة.
- وبلاضافة الى ذلك يجب ان تستميل القوزاق
الموثوق بهم. ابحت عن لهم ضغينة على السلطة
السوفيتية. - قال بولوفتسييف بلهجة آمرة هذه المرة.
- انها موجودة لدى كل انسان، في حياتنا هذه.
- وابنك كيف هو؟
- وكيف الاصبع من يد واحدة؟ يتحرك كما
اتحرك أنا.

- وهل هو فتى صلب؟
- قوزاقي جيد. - رد صاحب البيت بكبرياء هادئة.
فرشوا للضيف حشية رمادية وفروة قرب الموقد في
الحجرة الامامية. خلع حذاءه الطويل، ولكنه لم يخلع ثيابه،
وغفا حالما مس خده الوسادة الباردة الفواحة برائحة الريش.

...قبيل الفجر ايقظ ياكوف لو كيتش أمه العجوز ذات الثمانين عاماً، التي كانت نائمة في حجرة جانبية صغيرة. وحكى لها باقتضاب عن اهداف قدوم أمر وحدته السابق. راحت العجوز تصغي مدلية من الموقد ساقها بعروقهما المسودة، ومفاصلهما المشوهة من البرد، وتكور أذنها المصفرة بكفها. وركع ياكوف لو كيتش قائلاً:

– هل تباركينني، يا أمي؟

– تمرد عليهم، تمرد على الاعداء، يا ولدي. والله يباركك! انهم يغلقون الكنائس... ويشردون القسس... تمرد...

في الصباح ايقظ ياكوف لو كيتش ضيفه.

– قررت! مرني أطمع.

– اقرأ هذا، ووقع. – وأخرج بولوفتسيف ورقة من

جيبه:

«الله معنا! أنا قوزاقي في جيش الدون العظيم، انضم الى «اتحاد تحرير الوطن الدون» واتعهد بأن احارب بكل القوى والوسائل، ولآخر قطرة من دمي، وبأمر رؤسائي، البلاشفة الشيوعيين، اعداء العقيدة المسيحية الالءاء، ومضطهدي الشعب الروسي. اتعهد بأن اطيع رؤسائي وقادتي طاعة مطلقة. أتعهد بأن اقدم كل ما املك الى مذبح الوطن الارتردوكسي. وعلى هذا أوقع».

الفصل الرابع

كان الاثنان والثلاثون شخصاً – نشطاء غريمياتشي وفلاحوها الفقراء – يتنفسون نفساً واحداً. لم يكن دافيدوف خطيباً مفوهاً. ولكنهم استمعوا اليه، في البداية، كما يستمعون الى أبرع راو.

– أنا نفسي، ايها الرفاق، عامل في مصنع كراسنوبوتيلوف. وقد ارسلني حزبنا الشيوعي والطبقة العاملة اليكم لأساعدكم في تنظيم الكولخوز، والقضاء على

الكولاك كمصاصي دماننا جميعا. ساتكلم بايجاز. يجب ان تتحدوا جميعا في الكولخوز، وتجعلوا الارض وكل ادواتكم ومواشيكم ملكاً اجتماعياً لكم. ولماذا الانضمام الى الكولخوز؟ لأن الاستمرار على العيش بالطريقة التي تعيشون فيها مستحيل! ومصعب الحبوب عندنا ترجع الى أن الكولاك يخزنونها في الارض حتى تتعفن، ويقتضي انتزاع الحبوب منهم عنوة! بينما انتم تسرون في أن تقدموا الحبوب للدولة، لولا انها قليلة عندكم. حبوب متوسطي الفلاحين وفقرائهم غير قادرة على ان تطعم الاتحاد السوفيتي. يجب ان يزرع المزيد منها. وكيف تستطيع انت، ايها الفلاح، ان تزرع اكثر بمحراثك الخشبي أو ذي السكين الواحدة؟ الجرار وحده يمكن ان يسعفك. تلك هي الحقيقة! أنا لا اعرف كم يحرت الناس من الأرض عندكم في الدون بمحراث واحد، خلال الخريف...

- اذا امسكت المحراث من الليل الى الليل حرثت حوالي اثني عشر دسياتينا حتى مجيء الشتاء.
- اهوه! اثنا عشر! واذا كانت الارض صلبة؟

- عم تتحدثون، يا من هناك! - صدر صوت نسائي رنان - المحراث الواحد يحتاج الى ثلاثة وحتى اربعة ثيران معافاة. ومن أين هي لنا؟ قد يوجد زوجان، أجلحان ولكن ليس عند كل الناس... اكثر الناس يحرثون بشيران ذات ضروع. الأغنياء وحدهم يرفلون في النعيم. تأتيهم الريح رخاء.

فتردد صوت مبجوح:
- ليس هذا هو المقصود. كان الاخرى بك أن تعلقى ذيل ثوبك، وتسكتي.
- يا لعقلك الراجح! خير ان تعلم زوجتك، لا أن تعلمني.
- وبالجرار؟..

انتظر دافيدوف حتى يسود الصمت، واجاب:

- بالجرار، ولو من ذلك النوع الذي نصنعه نحن في مصنع بوتيلوف، تستطيعون بسواقين جيدين عارفين ان تحرثوا في وجبتين اثني عشر دسياتينا ايضاً.
وسرت آهات التعجب في الجمع. ونطق احدهم بارتباك:
- يا اولاد...!

وقال آخر بحسد، وزفرة صافرة:
- هذه هي الروعة! حبذا لو نحرث على مثل هذا
الفرس.

مسح دافيدوف بكفه شفثيه المتيبستين من الانفعال،
ومضى يقول:

- نحن في مصنعنا نصنع لكم الجرارات. والفلاح
المعدم والوحيد المتوسط الحال لا يستطيعان ان يشتريا
جراراً: اليد قصيرة! اذن، من أجل شراء الجرارات يجب ان
يتحد العمال الزراعيون والفلاحون الفقراء ومتوسطو الحال.
وانتم تعرفون أن الجرار آلة ستخسر، اذا ما استخدمت في
قطعة من الأرض صغيرة بل ينبغي استخدامها في ارض
واسعة. كما ان فرق العمل الصغيرة في فوائدها مثل ما يدر
الماعز من الحليب.

- بل أقل من ذلك!
قال ذلك صوت عميق مهيب صدر من الصفوف
الخلفية.

وتابع دافيدوف يقول دون ان يلتفت الى هذه المطارحة.
- اذن، ما العمل؟ الحزب ينادي بالكلمة الكاملة،
ليربطكم بجرار، ويخرجكم من عوزكم. ماذا كان الرفيق
لينين يقول قبيل وفاته؟ لا خلاص للفلاح الكادح من الفقر
الا في الكولخوز. والا فسيهلك. سيتمص الكولاكي مصاص
الدماء دمه الى النهاية... ويجب أن تسيروا في الطريق
المرسوم بصلابة تامة. والكولخوزيون باتحادهم مع العمال
سيقذفون بكل الكولاك والاعداء. وانا اقول ذلك بصدق.
والآن لانتقل الى فرقتم الرفاقية. انها من عيار صغير،
ضعيفة، وشؤونها من جراء ذلك تدعو الى الرثاء. وبذلك

تعرف الماء الى طاحونة الاعداء... وباختصار والحقيقة لاماء منها، بل خسارات لا غير! ولكن يجب أن نحول هذه الرفاقية الى الكولخوز، ولتكن العظم اندي سينمو حوله الفلاح المتوسط لهما...

- انتظر، ساقطعك قليلا! - ونهض ديمكا اوشاكوف المنمش الاحول، الذي كان في وقت ما عضواً في الفرقة الرفاقية.

- اطلب الاذن بالكلام، وبعد ذلك تكلم - خاطبه ناغولنوف بحدّة، وكان جالساً وراء الطاولة الى جانب دافيدوف واندرية رازميوتنوف.

- ساتكلم أنا بلا أذن، - رد ديمكا، وإحول عينيه حتى بدأ وكأنه ينظر الى منصة الرئاسة والمجتمعين في آن واحد - وما السبب، وارجو المعدرة، في حدوث هذه الخسارات وارهاق السلطة السوفيتية؟ ما السبب في جعلنا كالطفيليين نعيش على تسليف الرفاقية؟ اريد ان أسألك. السبب هو محبوبنا رئيس الغرفة الرفاقية! السبب هو اركاشكا البائع الشاري!

- انت تكذب كعنصر مشبوه! - صدر هذا الصوت الحاد من الصفوف الخلفية. وشق اركاشكا طريقه الى هيئة الرئاسة دافعاً الناس بكوعيه.

- سأثبت! - وتقاربت عينا ديمكا الشاحب من قسبة أنفه. ولكنه استدار نحو اركاشكا، دون ان يلتفت الى رازميوتنوف وهو يضرب الطاولة بقبضته القوية - لن تقدر ان تفلت! ليس بسبب قتلنا غطسنا في الفقر بكل كولخوزنا، بل بسبب بيعك وشرائك. أما عن وصفك اياي بـ«العنصر المشبوه» فساحاسبك حساباً عسيراً. ألم تبدل ثوراً بموتوسيكل، دون ان يطلب اليك؟ ابدلت! ومن ابتدع مبادلة الدجاجات المبيضة...

دافع اركاشكا على الماشي:

- تكذب مرة اخرى!

فتابع ديمكا بهيئة الظافر:

– ألم تستهويننا لنبادل ثلاثة خرفان مخصية وعجلة
بعربة خفيفة؟ تاجر، يا لك... مغفل! هذا هو الأمر.
– احتشما! لماذا تنهاوشان كديكين، – قال ناغولوف
يعضهما، واختلجت عضلة خده من تحت بشرته
المحمره.

وطلب اركاشكا الذي شق طريقه الى الطاولة:

– اسمحوا لي ان اتكلم.

وكان قد جمع لحيته الشقراء في قبضته متهيئاً لأن
يتكلم، ولكن دافيدوف نجاه.

– دعني أنهي كلامي، ولا تعطلني الآن رجاء... اذن،

اقول، يا رفاق: من خلال الكولخوز فقط يمكن...

قأطعه النصير الأحمر بافل ليوبشكين الذي كان في
جلسته اقرب الناس الى الباب:

– لا حاجة الى تحريضنا! سننضم الى الكولخوز بكل

ما عندنا.

– موافقون على الكولخوز.

– بحجة فرق العمل الصغيرة يمكن ان يضرب اي

شخص.

– فقط ان تحسن تسيير الأمور.

غطى على الصيحات ليوبشكين هذا، فقد نهض من
مقعده، وخلق طاقيته القوزاقية السوداء البالية، واتكأ على
الباب طويلا متين المنكبين.

– يا عجيب، ما الحاجة الى ان تروج لنا السلطة

السوفيتية؟ نحن الذين اوقفناها على قدميها في الحرب،
واسندناها باكتافنا حتى لا تسقط. ونحن نعرف ما هو

الكولخوز، وسننضم اليه. اعطونا آلات: – ومد كفه
المتشقة – الجرار شيء جيد، ولا أحد ينكر ذلك. ولكنكم،

ايها العمال، تصنعون القليل منه، وعلى هذا نعاتبكم! ليس
لنا ما نمسك به، وتلك هي المصيبة. اذا كانت المسألة أن

نسير الثيران بيد، ونمسح الدموع باليد الأخرى، ففي
الامكان أن نفعل ذلك بدون الكولخوز. أنا نفسي، قبل

التحول الى الكولخوز فكرت في ان اكتب رسالة لكالينين ليساعدنا نحن، زراع الحبوب، في البدء بحياة جديدة. فان السنوات الأولى، كما تعرف، كانت كما في النظام القديم، ندفع الضرائب وحياتنا لا تهمهم. ولأي شيء حزب العمال والفلاحين؟ طيب، اخذنا الحكم، وماذا بعد؟ نبقى على القديم، نحترث على المحراث، اذا كان لديك ما تربطه عليه. والذي لا يملك شيئاً؟ يمد يده عند ابواب الكنيسة؟ ام ينتظر التجار السوفيت والتعاونيين في الطريق العامة ليخيط لهم ياقاتهم الغالية بآبرة من خشب؟ سمحوا للاغنياء باستئجار الأرض، واكرء الشغيلة ليشغلوا فيها. أهذا ما املته الثورة في عام ١٩١٨؟ شددتم عينها بالعصا! وحين يقول احدنا «لأي شيء حاربنا اذن؟» يسخر من هذا الكلام المستخدمون الذين لم يشموا رائحة البارود في حياتهم، ومن خلفهم يضحك كل الاوغاد من الحرس الابيض. لا، لا داعي الى استمالتنا سمعنا الكثير من الكلمات الجميلة. اعطنا آلة قرصاً او لقاء حبوب، آلة حقيقية وليست محراث جر. اعطنا الجرار الذي تكلمت عنه! على أي شيء تلقيت هذا؟ - وسار خلال ركب الجالسين على المقاعد، متجهاً الى الطاولة، وفي طريقه فتح قبة سرواله الممزقة. وحين وصل اليها ازاح ذيل قميصه، وشده الى صدره بحنكه. وكشف على بطنه الأسمر وفخذيه عن الجلد المشوه من ندوب مريعة، - على أي شيء تلقيت هذه الهدية من الكاديت؟

صاحت الارملة أنيسيا في انزعاج، وكانت تجلس الى جانب ديمكا اوشاكوف:

- ايها الشيطان الخليع! الاخرى بك أن تنزل سروالك نهائياً!

حول ديمكا عينيه عليها بازدرء وقال:

- أتريدين ذلك؟

- اسكتي، يا عمة انيسيا! أنا لا اخجل من عرض جروحي على عامل. ولير! ثم لو بقينا نعيش عيشتنا هذه، لما بقي لي ما استر به هذه العورة! سروالي حتى في حاله

هذه لم يبق منه الا اسمه. ما ان أمر بالفتيات نهراً حتى يفزعن من منظره.

صدرت من الخلف قهقهات ولغط، الا أن ليوبشكين اجال فيهم نظرة صارمة، وعادت هسهسة فتيل المصباح الهادئة تسمع من جديد.

– الظاهر انني حاربت الكاديت ليعود الاغنياء يعيشون احسن مني. ها؟ ليأكلوا قطعة حلوى، وأنا آدم الخبز بالبصل؟ هكذا، ايها الرفيق العامل؟ لا تغمز لي، يا ماكارا! أنا اتكلم بالسنة مرة، احتاج الى ذلك.
أوماً دافيدوف برأسه وقال:
– استمر.

– سأستمر. زرعت هذه السنة ثلاثة دسياتينات من القمح. وعندي ثلاثة اطفال، واخت مقعدة، وزوجة عيلة.
الم أود حصتي من الحبوب، يا رازميوتنوف؟
– اديت. ولكن لا تحدث ضجة.

– لا، سأحدث ضجة! وماذا عن الكولاكي فرول المهلهل... روحه!..

– اياك! – وضرب ناغولنوف الطاولة بقبضته.
– هل أدى فرول المهلهل حصته؟ لا؟
– ولكن المحكمة غرمته، واخذوا منه الحبوب.
قال رازميوتنوف وعيناه الجسورتان تلتمعان، وهو يتلذذ بسماع ليوبشكين.

وتذكر دافيدوف سكرتير لجنة المنطقة الحزبية: «ليتك هنا، يا سلحفاة!»

– سيعيد اعتبار فرول اغناتيتش مرة اخرى في هذا العام! وسيأتي الي في الربيع من جديد ليستأجرني! – وألقى طاقيته القوزاقية السوداء عند قدمي دافيدوف – فلم تحدثني عن الكولخوز؟ إبعثوا شرايين الكولاك وسنأتي! اعطونا آلاته وثيرانه، اعطونا قوته، وعندئذ نكون متساوين! والا فليس هناك الا كلاماً في كلام: «القضاء على الكولاك»

بينما هم ينمون من عام الى آخر، كالنبات الشائك، ويحجبون الشمس عنا.

ابتدر ديمكا يقول:

- اعطونا املاك فحول، وسيدلها اركاشكا البائع الشاري بطائرة.

- ها، ها، ها، ها، ها..!

- بالضبط.

- كونوا شهوداً على الاهانة!

- شش، تشوش علينا. اسكت!

- ألا تسكتون، يا شياطين؟

- طيب، هدوء...

وبعد جهد استطاع دافيدوف أن يوقف اللغظ.

- تلك هي سياسة حزينا! ولماذا تدق على باب، اذا

كان مفتوحا؟ القضاء على الكولاك كطبقة، ونقل الملكية الى

الكولخوزات، حقيقة! أما انت، ايها الرفيق النصير، فعبثاً

ان ترمي قبعتك تحت الطاولة، فما يزال رأسك بحاجة اليها.

لا مجال الآن لاستئجار الاراضي واكراء العمال الزراعيين!

اضطررنا الى تحمل الكولاكي بسبب الحاجة، فقط كان يعطي

من الجيوب اكثر مما تعطيه الكولخوزات. والآن العكس.

والرفيق ستالين حسب الحساب بالضبط، وقال: اقضوا

على الكولاك! اعطوا املاكهم للكولخوزات... كنت تبكي

دائماً على الآلات. تخصص للكولخوزات خمسمائة مليون

روبل للنهوض بها، فما رأيك؟ ألم تسمع بذلك؟ فما الداعي

الى هذا الضجيج؟ في البداية يجب تكوين الكولخوز، وبعد

ذلك اهتم بالآلات. ولكنك تريد أن تشتري عدة، وعلى

مقاس هذه العدة تشتري حصاناً. لماذا تضحك؟ هذا،

بالضبط.

- عاد ليوبشكين على عقبه!

- هو، هو... هو...

- ندخل الكولخوز بكل ارواحنا العزيزة!

- بخصوص العدة... أجاد...

- ندخل ولو في هذه الليلة!

- سجلونا الآن!

- قودونا لتحطيم الكولاك.

اقترح ناغولنوف قائلاً:

- من يريد الانضمام الى الكولخوز يرفع يده.

ولما عدت الأيدي المرفوعة كان الراغبون ثلاثة وثلاثين شخصاً. والظاهر أن بعضهم، في غمرة الحماس، رفع يده الثانية أيضاً. اضطر احتباس الهواء دافيدوف الى ان يخلع معطفه وسترته. وفك ياقة القميص، وانتظر مبتسماً ان يسود الهدوء.

- وعيكم جيد. حقيقة! ولكن هل تتصورون الانضمام الى الكولخوز هو كل شيء؟ لا، هذا قليل! انتم، ايها الفلاحون الفقراء، عماد السلطة السوفيتية. انتم، واللجنة على الشيطان، يجب ان تنضموا بانفسكم الى الكولخوز، وتجروا معكم الفلاح المتوسط الحال المتخلخل.

سأل اركاشكا البائع الشاري:

- وكيف تجره، اذا كان لا يريد؟ أهو ثور لتشدده

وتقوده؟

- اقنعه! اي مناضل أنت من أجل حقيقتنا، اذا كنت

لا تستطيع أن تكسب شخصاً آخر؟ غداً سيعقد اجتماع.

صوت بـ«نعم» واكسب جارك المتوسط الحال. والآن لنبدأ

بمناقشة قضية الكولاك. هل نصدر قراراً باخراجهم وراء

حدود اقليم شمال القفقاس ام كيف؟

- نصدر.

- لنقلعهم من الجذور.

- لا، الأفضل مع الجذور، وليس من الجذور - صحح

له دافيدوف وتوجه الى رازميوتنوف - اقرأ قائمة الكولاك.

سنصادق الآن على مصادرة املاكهم.

اخرج اندريه ورقة من الملف، وناولها لدافيدوف.

- فرول دامسكوف. هل يستحق هذه العقوبة

البروليتارية؟

ارتفعت الايدي دفعة واحدة. ولكن دافيدوف، بعد عد الأصوات، اكتشف صوتاً ممتنعاً واحداً.

- غير موافق؟

ورفع حاجبيه المبللين بالعرق البخاري.

- امتنع.

رد باقتضاب من لم يدل بصوته، وهو قوزاقي هادىء بمظهره وغير جذاب الطلعة.

اصر دافيدوف:

- ولماذا؟

- لأنه جاري، ورأيت منه الكثير من الخير. ولهذا لا أستطيع ان ارفع يدي عليه.

أمره ناغولنوف بصوت مختلج، رافعاً جسده وكأنما على ركاب.

- أخرج من الاجتماع حالا!

قاطعته دافيدوف بحدة:

- لا، لا يجوز بهذا الشكل، يا رفيق ناغولنوف. لا

تخرج، يا مواطن! اشرح وجهة نظرك. هل دامسكوف، في رأيك، كولاكي ام لا؟

- أنا لا افهم ذلك. أنا أمي، وارجو ان تعفوني من الاجتماع.

- لا، اشرح لنا ارجوك: أية افضال تلقيت منه؟

- كان يساعطني دائماً: يعطيني ثيراناً، ويقرضني بذوراً... وغير ذلك... ولكنني لا اخون السلطة. أنا مع السلطة.

تدخل رازميوتنوف في الحديث قائلاً:

- هل رجاك أن تحامي عنه؟ هل كافأك بنقود أو حبوب؟

هيا، اعترف، ولا تخف! طيب، قل: هل وعدك بشيء؟

وابتسم لا ارادياً خجلاً على الرجل، وعلى اسئلته المحرجة.

- ربما لم يعدني بشيء. فكيف تعرف؟

صاح احد من الصفوف:

- تيموفي، انت تكذب! انت رجل مشترى، ومعنى ذلك أنك تتملق الكولاك!

- سموني ما تشاؤون، على هواكم...
سأل دافيدوف، وكأنما يضع سكيناً في حنجرة الرجل:
- هل انت مع السلطة السوفيتية ام مع الكولاك؟ لا تجلب العار على الطبقة الفقيرة، يا مواطن، وأبلغ المجتمعين صراحة: مع من انت؟
قاطعته ليوبشكين حانقاً:

- لا حاجة الى مجاملته! يمكنك ان تشتريه مع سقط متاعه بزجاجة فودكا. تتأذى عيناى من النظر اليك، يا تيموفي!

وقبيل نهاية الاجتماع اجاب تيموفي بورتشيف بخضوع متصنع، بعد امتناعه عن التصويت:
- أنا مع السلطة السوفيتية. فما هذا الالاح؟ جهلي هو الذي توهني.

الا أنه عند إعادة التصويت رفع يده على مضض ظاهر. وكتب دافيدوف في دفتر ملاحظاته باقتضاب: «تيموفي بورتشيف مضلل من العدو الطبعي. يعالج». ثبت المجتمعون بالاجماع اربعة ملكيات أخرى باعتبارها ملكيات كولاكية.

ولكن حين قال دافيدوف:

- تيت بورودين. من يصوت على أنه كولاكي؟ صمت المجتمعون صمتاً ثقيلاً. وتبادل ناغولنوف النظرات مع رازميوتنوف بارتباك. ومسح ليوبشكين جبينه العرق بطاقيته.

- ما هذا الصمت؟ ما المسألة؟ - وأجال دافيدوف بصره في صفوف الجالسين بحيرة، ولما تلتق عيناه بأي عين حول بصره الى ناغولنوف. فأخذ هذا يقول بتردد:

- المسألة أن بورودين هذا، الذي نسميه تيتوك بكلامنا الدارج دخل الى الحرس الأحمر معنا متطوعاً في عام

١٨. وحارب بصلافة، وهو المنحدر من عائلة فقيرة. واصيب بجروح، وتفوق، ونال ساعة فضية على سجله الثوري. وخدم في فصيلة دومينكوف. وانت تفهم، ايها الرفيق العامل، كم حز في قلوبنا؟ حين عاد الى بيته انشب اسنانه في شؤون مزرعته كما ينشب كلب في فطيسة... وأخذ يغتني، رغم تحذيراتنا، عمل ليلا ونهارا. وترك شعره ينمو كالمتوحش، وكان صيفاً وشتاء يرتدي بنطلوناً واحداً من الخيش. حتى حصل على ثلاثة ازواج من الثيران، وفتق من جراء رفعه لمختلف الاثقال، وكل ذلك لم يسد شهيته! أخذ يستأجر اثنين وثلاثة من الشغيلة. واقتنى طاحونة هوائية، وبعد ذلك اشترى محركاً بخارياً بخمسة احصنة، وأخذ يقيم معصرة زيوت، ويباع ويشاري بالمواشي. بينما كان يقتر على نفسه بالطعام، ويجيع العمال، رغم انهم يشتغلون عشرين ساعة في اليوم، ويستيقظون خمس مرات في الليل ليتفقدوا الخيول والماشية. وقد استدعيناه اكثر من مرة الى الخلية الحزبية، والى مجلس القرية، وعيرناه بشدة، وكنا نقول له: «اترك، يا تيت، ولا تقف في طريق سلطتنا السوفيتية العزيزة! فانت نفسك كنت تحارب البيض في الجبهات في سبيلها...» وتنهذ ناغولنوف، وبسط ذراعيه يأساً: - ماذا يمكن ان نفعل اذا كان الرجل قد مسه الشيطان؟ نحن نرى الملكية تأكله! سنستدعيه مرة أخرى، ونذكره بالمعارك، وقتالنا سوية، ونحاول اقناعه، ونهدده بأن نسحقه بالأرض، ان يقف في طريقنا، وصار برجوازيًا، ولا يريد ان ينتظر الثورة العالمية.

ترجاه دافيدوف بنفاد صبر:

- اختصر.

اهتز صوت ناغولنوف، وصار أهدأ:

- لا يجوز الاختصار في ذلك. انه ألم ممزوج بالدم... طيب، ويرد علينا، تيتوك هذا: «أنا أنفذ أمر السلطة السوفيتية، وأزيد المحصول. واستخدامي الشغيلة مشروع، زوجتي مريضة بامراض النساء. كنت لا شيء وصرت كل

شيء، عندي كل شيء، ولأجل هذا حاربت. ثم لا تستند السلطة السوفيتية عليكم. فانا بيدي اعطيها ما تعيش به، أما انتم، حملة المحافظ، فلا اهتم بكم». وحين نتحدث له عن الحرب وعن المشاق التي تحملناها سوية تلمع الدموع في عينيه احياناً، ولكنه يجلسها، ويدبر وجهه، ويقسي قلبه، ويقول: «ما فات مضي وانقضى!» حرمانه من حق التصويت. فراح يروح هنا وهناك، ويكتب العرائض الى مركز الاقليم والى موسكو. ولكنني افهم أن الذين يتولون مناصب رئيسية في المؤسسات المركزية ثوريون قدامى، وهم يدركون: ما دام قد خان، فهو عدو، ولا رحمة به.

- الا تستطيع أن تختصر...

- سانتهي حالا. وحتى هناك لم يعيدوه الى حالته الطبيعية، فهو بهذا الشكل حتى الآن، سوى أنه لم يعد يستخدم الشغيلة...

- طيب، ما حقيقة المسألة، اذن؟

وتفرس دافيدوف في وجه ناغولنوف.

الا أن هذا غطى عينيه باهدابه القصيرة المتقلصة من

الشمس، وأجاب:

- لهذا السبب يصمت المجتمعون. كنت اوضح فقط

اي شخص كان في الماضي العزيز تيت بورودين، الكولاكي الآن.

زم دافيدوف شفتيه، واربد لونه.

- ما هذه الحكايات البائسة التي تقصها علينا؟ كان

نصيراً في الماضي، وكرم على ذلك، وصار كولاكياً، عدواً،

فيجب سحقه! قأي مجال للأخذ والرد هنا؟

- ليس كلامي شفقة عليه. لا تتحامل علي بدون داع،

يا رفيق!

- من يؤيد مصادرة املاك بورودين ككولاكي؟

وأجال دافيدوف بصره في الصفوف.

ولم ترتفع الايدي رأساً، بل بتفرق.

وبعد الاجتماع دعا ناغولنوف دافيدوف لبيت عنده.

وقال، وهو يتلمس طريقه للخروج من رواق مجلس القرية المظلم.

– غداً سنخصص لك مسكناً.

سارا جنباً الى جنب على الثلج الهسهاس. فك ناغولنوف معطفه الفرائي القصير، وانشأ يقول بصوت خافت:

– اشعر الآن، ايها الرفيق العامل، بأني اتنفس بطلاقة اكثر، بعد أن سمعت بأن علينا أن نضم كل ملكيات مزارعي الحبوب في كولخوز واحد. عندي كراهية للملكية منذ الصغر. كل الشرور منها: الرفيقان المطلعان ماركس وانجلس كانا على حق فيما كتباه. والا فان الناس، حتى في عهد السلطة السوفيتية، يتعاركون، كالخنازير عند الجرن، ويتهاوشون، ويتدافعون، بسبب هذه الآفة اللعينة. عندما يفكر الانسان فيما كان يحصل في العهد البائد يصاب بالفرع! كان أبي قوزاقياً موسراً، كان يملك اربعة ازواج من الثيران، وخمسة خيول. وكانت المساحة التي نزرعها ضخمة، ستين وسبعين وحتى مائة دسياتينا. وكانت عائلتنا كبيرة، شغيلة. وكنا نحن نقوم بكل شيء بانفسنا. تصور، كان لي ثلاثة اخوان متزوجين. وقد انغرز في ذاكرتي حادث جعلني ضد الملكية. ذات مرة تسلل خنزير الجيران الى حديقة الخضروات في بيتنا، واقتلع بعض جذور البطاطس. ورأته أمي، فأخذت قذح ماء فائر من القدر، وقالت لي: «هشه، يا ماكار، وسأقف أنا وراء باب الحديقة». كنت آنذاك في الثانية عشرة. وبالفعل طردت ذلك الخنزير البائس طبعاً، فسكبت أمي عليه الماء الفائز. حتى أن وبره أخذ يدخن! كان الوقت صيفاً، ونمت الديدان على الخنزير وازدادت مع مضي الزمن، حتى نفق أخيراً. واضمر الجار حقدأ. وبعد اسبوع احترقت عندنا في السهب ثلاثة وعشرون كومة من الحنطة. وعرف ابي من فعل ذلك، ولم يحتمل، ورفق القضية الى المحكمة. وحصلت بينهما عداوة شديدة حتى لم يعد أحدهما يطبق رؤية الآخر! حالما يشربون قليلا حتى يحصل عراك بينهم. وظلت القضية تجرر في المحكمة خمسة أعوام، حتى وصلت الى

حادث موت. فقد وجد ابن الجار قتيلا في سقيفة الدريس في يوم من ايام المرافع. طعنه أحدهم بمذراة في مواضع عديدة من صدره. ومن هنا وهناك حدثت ان هذه هي فعله اخواني. وجرى تحقيق، ولم يعثروا على القتلة. وكتبوا في المحضر أنه صرع في حالة سكر. ومنذ ذلك الحين تركت ابي وصرت عاملا زراعياً، واشتركت في الحرب. كنت استلقي احياناً، والالمان يقذفوننا بالقذائف الثقيلة، والدخان الأسود يتصاعد مع التراب الى السماء. كنت استلقي وافكر: «من أجل من ولأية ملكية أواجه الذعر والموت هنا؟» فكنت من شدة الرمي أود لو اتحول الى مسمار، لأنغرز في الأرض حتى رأسي! اوه، فظاعة، فظاعة! شممت الغاز، وتسممت. والآن ما ان اصعد قليلا الى مرتفع من الأرض حتى تتقطع انفاسي، ويفور الدم في رأسي، فاتصور انني غير قادر. العارفون من الناس لقنوني بعض الأشياء، منذ ان كنت في الجبهة، فتحولت الى بلشفي. وفي الحرب الأهلية، اوه، يا ويلى، حصدت الأوغاد بدون رافة! واصبت بصدمة من جراء انفجار قرب كاستورنا، وبعد ذلك صارت تصيبني نوبات. أما الآن فهذا الوسام - ووضع ناغولنوف كفه الضخمة على الوسام، وترددت في صوته نفحات جديدة من دفء غريب - انه يدفئني في الحال. فاشعر فوراً، وكأنني في ايام الحرب الأهلية، وفي خط القتال. يجب أن ننغرس في الأرض، ونجذب الجميع الى الكولخوز. اقرب فاقرب الى الثورة العالمية.

سأله دافيدوف متفكراً، وهو يسير الى جانبه:

- هل تعرف تيت بورودين عن قرب؟

- بالطبع. كنا صديقين، ولكننا افرقنا لأنه انغمس في الملكية، الى ذقنه. في عام عشرين اشتركنا سوية في سحق انتفاضة في احدى مناطق اقليم دونيتسك. اشتركت في الهجوم كوكبتان من الخيالة ووحدة للمهمات الخاصة. وذبح الكثيرون من العصاة خارج القرية. وفي الليل جاء تيتوك الى المسكن يحمل زكينة، ونفضها فتساقطت منها

على الأرض ثماني سيقان مبتورة. فيقول له رفيق: «هل جنت، يا ابن...؟! أخرج معها فوراً!» فيقول له تيتوك: «حتى لا يتمردوا مرة أخرى...! اربعة ازواج من الاحذية تنفعني. ساعطيها لعائلتي». واذاب الجمد عنها على الموقد، وأخذ يخلعها من الأقدام. كان يفتق الدرور بسيفه، ويخلعها. وبعد ذلك حمل السيقان العارية ودفنها في كومة قش. ويقول: «دفنتها» ولو كنا نعرف في وقتها لرميناه بالرصاص، كعثة! ولكن رفاقه لم يشوا به. وفيما بعد استفسرت منه: اهذا صحيح؟ قال: «نعم، صحيح، لم استطع أن اخلعها من سيقانهم، بعد أن انتفخت من الصقيع، فبترتها بالسيف. فأنا، كاسكاف، يعز علي أن اترك أحذية جيدة مرمية في الأرض - ولكنني الآن اشعر بالفزع، أنا نفسي. احيانا استيقظ في الليل، واطلب من زوجتي أن تتركني أنام عند الحائط، انا اخشى النوم على حافة السرير...»

...ها قد وصلنا الى بيتي:

ودخل ناغولنوف الفناء، وسحب مزلاج الباب.

الفصل الخامس

في عام ١٩١٣ شيعوا اندريه رازميوتنوف عند خروجه ليخدم في الجيش العامل. وكان عليه، حسب تقاليد ذلك العهد، أن ينضم الى الخدمة ومعه حصانه. الا انهم لم يكونوا يملكون ليس فقط ما يشترتون به حصانا له، بل والبزة التي يفترض ان يرتديها القوزاقي اذ لم يكن اندريه قد ورث من ابيه غير سيف جده في غمد رث فاقد اللمعان. واندريه لن ينسى طوال حياته هذه المذلة المرة! في اجتماع الدسكرة قرر الشيوخ أن يرسلوه الى الخدمة على نفقة القوات العامة. اشتروا له حصانا اصهب رخيصا، وسرجا، ومعطفين، وسروالين، وحذاء طويل. وقال الشيوخ لاندريه: «اياك ان تنسى عطفنا هذا، ولا تشن الدسكرة، واخدم القيصر بصدق».

كان أبناء القوزاق الاغنياء في سباق الخيول يتخطرون على خيول مطهمة غالية من مزرعة كورولكوفسكي، أو جياذ اصائل من بروفوليه وسروجهم ثمينة، وأعنتهم مزينة بالفضة، وملابسهم قشبية... أخذت ادارة الدسكرة حصة اندريه من الأرض، وظلت تؤجرها طوال ما كان اندريه يتقلب بين الجبهات، مدافعاً عن ملكية الآخرين، وحياتهم الممتلئة. وحصل اندريه في الحرب ضد الالمان على ثلاثة أو سمة (صلبان) القديس غيورغي وبعث النقود التي حصل عليها من هذه «الصلبان» الى زوجته وأمه. فكانت هذه العجوز تعيش بها مع كنتها. وتلك راحة متأخرة بعض الشيء كان على اندريه أن يوفرها لشيخوختها المشبعة بمرارة الدمع.

وفي الخريف في نهاية الحرب اشتغلت زوجة اندريه في درس الحبوب كعامله أجيرة، وجمعت النقود، وسافرت الى الجبهة لترى زوجها. قضت هناك اياما قليلة (كان فوج قوزاق الدون الحادي عشر الذي يخدم فيه اندريه، يعسكر للاستراحة) واستلقت على ذراع زوجها، في تلك الليالي المتلألئة كبروق الصيف. ولكن هل تحتاج سعادة المرأة الظمأى الى كثير من الوقت لتشبع؟ وعادت من هناك متألفة العينين وبعد أن اكتمل حملها وضعت لاندرية، وهي في الحقل، طفلا شبيها به، دون صياح ولا دموع، وكان ذلك عرضاً.

في عام ١٩١٨ عاد رازميوتنوف الى نغريمياتشي لوغ لفترة قصيرة. ولم يطل مكوثه في الضيعة. اصلح المحارث الخشبية المتفسخة ودعائم السقائف، وحرث ديساتينين من الأرض، ثم قضى يوما كاملا يرعى ابنه، يجلسه على عنقه المغرور في كتفيه المشبع برائحة الجندي، ويركض به في حجرة الجلوس، ويضحك، ولحظت زوجته دموعا تترقق في زوايا عينيه الوضاءتين الغضوبتين عادة، وأمتعت: «هل ستسافر، يا اندريوشا؟» «غدا. هيئي طعاما للسفر». وفي صباح اليوم التالي أجمع هو وماكار ناغولنوف،

على مقربة من بيته، بالاتماني* ليوبشكين، وتيت بورودين،
وثمانية قوزاق آخرين من جنود الجبهة، وبعد ذلك حملتهم
الخيول المسرجة المختلفة الالوان الي ما وراء الطاحونة
الهوائية، ولوقت طويل ظل عالقا في الجو، على الطريق
الواطئة، الغبار الربيعي الخفيف الذي اثارته سنايك خيولهم
المنعلة بحدوات صيفية.

في ذلك اليوم طارت من الجنوب الي الشمال اسراب
من طيور الوز البرية محلقة بصمت و عجالة فوق غريمياتشي
لوغ، والمياه الطافحة، والسهب، وفوق الدنيا الزرقاء كلها.
في كامينسكيا تخلف اندريه عن رفاقه. وزحف مع احدى
وحدات فوروشيلوف على موروزفسكيا - تساريتسين. أما
ماكار ناغولنوف، وليوبشكين والآخرين فقد وجدوا انفسهم
في فورونيج. وبعد ثلاثة أشهر، حين كان اندريه راقدا في
مركز التضמיד قرب «كريفيا موزغا» مجروحا جرحا خفيفا
بشظية قنبلة يدوية عرف من شخص من ابناء دسكرته التقاه
مصادفة ان القوزاق البيض من ابناء ضيعته غريمياتشي لوغ
بعد هزيمة فصيلة بودتلكوف، استباحوا زوجته انتقاما من
انضمامه الي الحمر، وشاع ذلك كله في الضيعة كلها، حتى
ان يفدوكيا لم تتحمل هذا العار الشنيع، وقضت على نفسها.
...يوم زهيري. نهاية كانون الأول. غريمياتشي لوغ.
بيوت، سقائف، اسيجة مضفورة، الاشجار في أطر من الجمد.
القتال وراء أكمة بعيدة. مدافع الجنرال غوسيلتشيغوف تهدر
هديراً أصم. اندريه يصل الي الضيعة قبيل المساء على حصان
مزبد. انه ما يزال يتذكر. ما ان يغمض عينيه حتى تسرع
ذاكرته الي الماضي عجلي... صر باب السياج الخارجي.
اندريه يجر اللجام وراءه لاهث الانفاس. ويقود حصانه
المترنج تعباً الي الفناء. خرجت أمه من الرواق حاسرة الرأس
راكضة.

آه، كم وخز أذنيه صوتها الباكي الناعي.

* القوزاقى الذي كان يخدم في فوج الحرس «اتمانسكي».

- ولدي الحبيب! انفلقت عينها الصافيتان الى الأبد...
وكان رازميوتنوف دخل فناء غريبا . شد المقود على
درايزين المدخل، ودخل البيت. وأجال عينيه الغائرتين
كعيني الميت، في حجرة الجلوس الفارغة، والمهد الفارغ.
- أين الطفل؟

دفنت الأم وجهها في مئزرها، هزت رأسها الشائب
الخفيف الشعر.

وجاء الجواب بعد عسر.

- لم أقدر على صون ابنك العزيز! مات من الخناق،
بعد اسبوعين من موت امه.

- لا تتفجعي... ليتني! ليتني أجد الدموع! من اعتدى
على يفتدوكيا؟

- انيكي ديفياتكين. جرها الى سقيفة الدريس.
وطردني بسوطه... ودعا الاولاد الى السقيفة. وظل يضرب
يديها البيضاءين بغمد السيف، حتى جاءت مسودة كلها...
سوى عينيها...

- هو في البيت الآن؟

- في التراجع.

- هل له أحد في بيته؟

- امرأته و ابوه العجوز. اندريوشا، لا تعاقبهما! ليسا
مسؤولين عن جريمة غيرهما...

- أها!.. تدلينني على الطريق الذي اسلكه؟! - واريد

وجه اندريه، وتقطعت انفاسه. فك بحركة حادة
ابازيم معطفه، وياقة صدره العسكري، وقميصه الداخلي.
اسند على قدر الماء صدره العريان البارز الاضلاع،
وشرب، عاضا باسنانه على حافته. ثم نهض، وسأل، دون
ان يرفع بصره:

- ماما! بماذا اوصتني قبيل موتها؟

اندست الأم قي الركن الأمامي، وأخرجت من وراء
الايقونة، ورقة مصفرة. وبدا لاندرية وكأنه يسمع صوت
زوجته الحبيبة تردد هذه الكلمات قبيل موتها: «عزيزي

اندريوشينكا! دنسني الملاعين، وهزأوا بي وبجبي لك. لن اراك بعد الآن، ولن ارى الدنيا. ضميري لا يبيح لي أن أعيش بأفة مزرية. اندريوشينكا، يا زهرتي، يا حبيبي! منذ ليال عدة وأنا لا أنام، وابلل وسادتي بالدموع. أنا أتذكر حبنا وسأظل أتذكره في العالم الآخر أيضا. آسف فقط على ابني وعليك وعلى أن حياتنا وحبنا كانا قصيرين بهذا الشكل. وإذا ما جئت بامرأة أخرى الى البيت دعها، بحق الرب، أن تحذب على ابننا، واحذب انت أيضا، على يتيمي هذا. اطلب الى امك أن تعطي الى اختي تنوراتي واشوالي وبلوزاتي. فهي في سن الزواج، وعليها...»

وصل اندريه الى بيت ديفياتكين على حصانه في عدو سريع، وترجل وسل سيفه من غمده، واندفع الى مدخله يعدو. رآه والد انيكي ديفياتكين - وهو شيخ طويل اشيب - فرسم علامة الصليب، وركع امام الايقونات.

اندريه ستيبانيتش!

ناداه بذلك فقط، وركع على قدمي اندريه، ولم ينطق باية كلمة أخرى، ولم يرفع صلعة رأسه الوردية من الأرض. - ستكون مسؤولا عن ابنك امامي! سحقا لآلهتك وصليبك! - وامسك اندريه لحية العجوز الشائبة بيده اليسرى، ورفس الباب ليفتحه، وجر ديفياتكين على درجات المدخل بفرقة.

كانت العجوز تستلقى عند الموقد مغمى عليها، الا أن كنة ديفياتكين - زوجة انيكي - لملت اطفالها (كانوا ستة اطفال) ووثبت الى مدخل البيت معولة. أبيض اندريه كعظم ميت عرقته الرياح، ومال بجنبه، ورفع السيف فوق عنق العجوز، الا أن الأطفال انكبوا على قدميه باكتافهم الصغيرة والكبيرة ناشجين زاعقين مولولين. وصاحت افديوتيا زوجة انيكي:

- اقتلهم جميعا! كلهم ذرية انيكي! اقتلني أنا ايضا! -
وتقدمت من اندريه، وقميصها الوردى محلول، يتأرجح ثدياها اليابسان المنكمشان، مثل كلبة كثيرة الجراء.

بينما كان الصغار يدبون عند قدميه، وأحدهم اصغر من الآخر.

تراجع اندريه، مجيلا بصره بوحشية، وأغمد سيفه، واتجه الى حصانه متعثرا غير مرة في الارض المنبسطة. سار العجوز وراه حتى باب الحديقة باكيا من الفرح وانقشاع الفزع، وحاول أن يمسك بركابه ويقبله، الا أن اندريه كان يجذب قدمه ويلوى سحنته بأزدراء، ويردد بصوت ابج: - حظك... الأطفال...

في البيت ظل اندريه يشرب الخمرة البييتية ثلاثة أيام، ويبكى في سكره، وفي الليلة الثانية احرق السقيفة التي شنقت افدوكيا نفسها على رافدة فيها، وفي اليوم الرابع ودع أمه بهدوء منفوخ الوجه رهيبا، فضغطت هذه رأسه الى صدرها، ولحظت لأول مرة خيوط الشيب الزغباء على ناصية ابنها.

وبعد عامين عاد اندريه الى غريمياتشي لوغ من الجبهة البولونية. وقضى عاما يطوف في اقليم الدون الأعلى مع فصيلة جمع المؤن، وبعدها انخرط في الزراعة. وكان يلتزم الصمت حين كانت تنصحه بان يتزوج. الا أن أمه الحت ذات مرة لتحصل منه على جواب.

- تزوج، يا اندريوشا! لم أعد اقوى على القدور. أية فتاة تتزوجك بطيب خاطر. فمن نخطب؟
- لن افعل، يا أمي، فلا تلحي!

- عدت الى ديدنك! انظر الى نفسك، وقد تسلل بياض الثلج الى رأسك. متى ستعزم امرك؟ حين تشيب كليا؟ نسيت امك تماما. بينما كنت اتصور أنني سأربي أحفادي. جمعت الصوف من معزتين، وأود أن احوك للاطفال جوارب... اغسلهم واحمهم، وهذا كل ما أريد. والبقرة صار يصعب علي حلبها، لم تعد اصابعي تطاوعني - وانفجرت باكية - على أي معتوه طلعت؟! وتعود وتنسج. لم انت ساكت، يا عفريت!

كان اندريه يتناول قبعته، ويترك البيت صامتا. الا أن العجوز لم تسكت عند ذلك. فقد اعقب ذلك احاديث مع الجيران، وهمسات، ونصائح...

وأصر اندريه على موقفه وعقا:

- لن ادخل اية امرأة أخرى بعد يفدوكيا.

وتحول غيظ الأم الى المرحومة كنتها.

- سحرته هذه الافعى! - كانت تقول للعجائز حين

تلتقيهن في الطريق، او وهي جالسة قبل مساء قرب فنائها - شنقت نفسها، وتريد أن تنتزع الحياة منه. لا يريد أن يتزوج أخرى. وهل ذلك سهل علي؟ اوه، يا عزيزي! أنظر الى احفاد الآخرين واغرق في دموعي. العجائز في البيوت الاخرى يفرحن ويسترحن، بينما أنا وحدي كالسولق في جحره...

في ذلك العام تصادق اندريه مع ماريا ارملة رقيب الخيالة ميخائيل بياركوف الذي قتل قرب نوفوتشير كاسك. وكانت في ذلك الخريف قد تخطت الاربعين، الا أن جسدها الممتلىء القوي ووجهها الأسمر ظلا محتفظين بالجمال السهبي الخفيف.

في تشرين الثاني سقف اندريه بيتها بالأسل. وقبيل حلول الظلام دعتة الى بيتها، واعدت المائدة بحداقة، ووضعت طاسة من حساء الكرنب، وألقت على ركبتى اندريه فوطة نظيفة موشية، وجلست قبالته، وقد وسدت وجنتها البارزة كفها. راح اندريه يختلس النظر الى رأسها الأشم المثقل بلمة سوداء لامعة من شعرها الكثيف الخشن في مظهره كهرف الحصان، والملتف عند اذنيها الصغيرتين برقة وارتابك طفولي. تفرست مارينا في اندريه بعينيها السوداوين الحولاوين قليلا. وسألت:

- اصب لك المزيد؟

- طيب. - وافق اندريه، ومسح بكفه شاربه الاشقر.

وانكب على حساء الكرنب من جديد. وعادت مارينا، في جلستها امامه، تنظر اليه نظرة متحفزة حذرة كنظرة

وحش، الا ان لحظ بنظرة طارئة الى عنقها الممتلىء عرقا
ازرق ينبض بشدة، فارتبك لسبب ما، ووضع الملعقة.
- ماذا بك؟ - ورف حاجباها حيرة كحناحين أسودين.
- شبعتم. شكرا. سأتي غدا صباحا لأتم التسقيف.
دارت مارينا حول المائدة، وسألت هامسة، وهي
تبتسم كاشفة ببطء عن اسنان قوية متماسكة، ضاغطة
صدرها الكبير الناعم على اندريه.

- ربما تنام عندي؟

- وهذا ممكن ايضا.

لم يجد اندريه في ارتبائه غير هذه الكلمات.
وانتقاما من هذه الجملة الحمقاء احنت مارينا له قوامها
المرع.

- شكرا، يا رجل! احترمت الارملة... بينما أنا،
الآثمة، كنت اتخوف، واظنك سترفض...
ونفخت على المصباح بخفة، وفي الظلام اعدت الفراش،
واغلقت باب الرواق بالمزلاج، وقالت بازدراء، وضيق لا
يكاد يلحظ:

- ليست فيك قطرة قوزاق. صنعوك هناك
صنعا آخر.

- وكيف؟ - قال اندريه متكدرا، بل وكف عن خلع
حذائه.

- هكذا، لا تفترق عن الاخرين الكثيرين. عيناك
جسورتان، ولكنك تهيب من أن تطلب من امرأة. وحصلت
ايضا على نياشين في الحرب، على ما اظن! - كانت تتكلم
في غير ما وضوح، وقد وضعت الدبابيس بين اسنانها،
وراحت تفك شعرها - هل تذكر زوجي ميشا؟ كان اقصر
قامة مني. وانت بنفس طولي، بينما هو اقصر. ومع ذلك
فقد احبته على جراته وحدها. كان في الحانة لا يتنازل
حتى لأقوى الناس، حتى ولو كان انفه ينزف، ولكنه لا
يقهر. ولربما بسبب هذا قتل. وكان يعرف لأي شيء احبه.
وقالت جملة الأخيرة بفخر.

وتذكر اندريه حكايات قوزاق الضيعة الذين كانوا يخدمون مع زوج مارينا في فوج واحد، وشهدوا مصرعه. حين كان في الاستطلاع قاد حضيرته لمهاجمة وحدة للحمر تتفوق مرتين على حضيرته بعدد رجالها، فاضطرتها وحدة الحمر بمدفع الرشاش الى الهرب، وجندلت اربعة قوزاق عن صهواتهم، وقطعت ميخائيل بياركوف نفسه عن بقية رجاله، وحاولت اللحاق به. فقتل ثلاثة من ملاحقيه الحمر، مطلقا النار اثناء عدوه، وأخذ، وهو أفضل فارس في فوجه، يقوم بحركات رياضية وهو على صهوته يتملص فلاتصيبه الطلقات، وكاد ينجو لولا أن حصانه قد كبا في حفرة، وكسر ساق راكبه عند سقوطه. فكان في ذلك نهاية رقيب الخيالة الجسور هذا...

ابتسم اندريه حين تذكر قصة مقتل بياركوف. استلقت مارينا واقتربت من اندريه وهي تلهث. بعد نصف ساعة استمرت بما بدأت من حديث وهمست:

– احببت ميشكا على جسارته، وها أنت... ولا لأي شيء وضغطت أذنها الصغيرة الملتهبة على صدر اندريه. وبدا له في الظلمة أن عينها تتوهج ناراً ومناعة، مثل فرس عنود لم تروض بعد.

وقبيل الفجر فقط سألت:

– هل ستأتي غدا لتتم التسقيف؟

فاجاب اندريه مندهشاً:

– وكيف لا؟

– لا تأتي...

– ولم ذلك؟

– اهوه، واي بانى سنقوف انت! العم شوكار يسقف

أحسن منك – وضحكت ضحكة عالية – تعمدت أن ادعوك

لغرض في نفسي. فبأي شيء آخر اغويك للمجيء؟ إلا

أنك ألحقت بي خسارة! يجب ان يعاد تسقيف البيت من

جديد.

وبعد يومين سقف بيتها العم شوكار، معيها عمل اندريه السييء أمام صاحبة البيت.

ومنذ ذلك الحين أخذ اندريه يلتقي بمارينا كل ليلة. وبدا له حلوًا حب امرأة تكبره عشرة أعوام، حلوا مثل تفاعلة برية شتوية أصابها أول الصقيع.

وسرعان ما عرفت علاقتهما في الضيعة، ووقف الناس منها مواقف شتى. كانت أم اندريه تبكي وتتشكى لجاراتها: «شناعة! تعلق بعجوز». الا أنها استسلمت فيما بعد، وهدأت. أما الجارة نيوركا الفتاة التي كان اندريه يتمازح معها، ويتدلل، فقد ظلت تتحاشى لقاءه طويلا، ولكنها التقت به ذات مرة وجها لوجه اثناء التحطيم في الخريف، فشحب وجهها، وسألته مبتسمة بشفتيها الراضيتين، ودون ان تحاول اخفاء الدموع الملتمة تحت رموشها:

- أسرجتك العجوز؟

فقال اندريه مازحا:

- وقطعت انفاسي!

سألته نيوركا، وهي تبتعد:

- ألم تجد أصغر منها؟

- وأنا أيضا مثلها، انظري في اي حال أنا. - وخلص

طاقيته القوزاقية مشيرا بقفازه الى الشيب الآخذ برأسه.

- بينما أنا الحمقاء، احببتك الاشيب، أيها الكلب!

طيب، مع السلامة.

وانصرفت رافعة رأسها بشعور من الالهانة.

قال ماكار ناغولنوف باقتضاب:

- لا اوافقك، يا اندريوخوا! انها تجعل منك رقيب

خيالة، ومالكا متوسطا طيب، طيب، أنا امزح، ألا ترى؟

وذات مرة تسامحت أمه، وقالت:

- تزوجها بالطريق الشرعي. ولتكن كنتي.

اجاب اندريه مراوفا:

- لا داعي.

كانت مارينا تبدو وكأنها لم تتجاوز عتبة العشرين الا لتوها. كانت تلتقي باندرية في الليالي، وتعاثه بقوة رجولية، واللمعان في عينيها المحولتين قليلا، وحتى انبلاج الصبح لا يفارق التورد الباهر وجنتيها السمراوين الناتثتين. وكأنما عادت الى عهد الصبا! كانت تخطط لاندرية اكياس تبغ ملونة وموشية من الفضلات الحريرية، وتلتقط بتفان كل حركة من حركاته، وتتودد اليه، وبعد ذلك استيقظت فيها الغيرة والخوف من فقدانه بقوة مريعة. فصارت تحضر الاجتماعات لمجرد أن تراقبه، أعله يغازل شابات غيرها؟ ألا ينظر الى امرأة؟ في بادئ الأمر كان اندريه يضيق من هذه الوصاية غير المتوقعة، ويعنف مارينا، بل وضربها في بعض المرات، وبعد هذا ألف ذلك، بل وارضى غروره كرجل. وكسبا لوده له اعطته مارينا كل ملابس زوجها. واذا باندرية الذي كان حتى ذلك الحين رث الثياب يتختر في غريمياتشي، دون خجل، في سراويل رقيب الخيالة وقمصانه، وكأنما خليفة له، وفي اكمام وياقات كانت قصيرة وضيقة عليه بشكل ملحوظ.

وكان يساعد محبوبته في شؤون زراعتها، ويحمل اليها بطيبة نفس اربنا كان قد صاده، أو ربطة من طيور الحجل. ولكن مارينا لم تسيء قط استخدام سلطتها، ولم تبخس أم اندريه حقها، رغم أنها كانت تضر لها شعور العداء المستتر.

كما انها نفسها كانت تقوم بشؤون زراعتها بشكل لا بأس به وكان في استطاعها أن تدبر أمرها بدون مساعدة رجل. وكان اندريه قد راقبها غير مرة باستمتاع خفي. وهي ترفع بالمدراة ضمة بودات ثلاثة من سنابل القمح المشبوكة باللبلاب الوردي، أو تقذف، وهي جالسة على الحاصدة، امواج الحنطة المحصودة من تحت اذرعها الصارفة. لقد كانت تنطوى على الكثير من مهارة الرجل وقوته. وحتى الحصان كانت تطقمه، على طريقة الرجال، سائدة ركبتها في حلقة الطوق لتشد رباطها.

ومع السنين نضجت عاطفة اندريه نحو مارينا وتجدرت
آمنة. وكان اندريه يتذكر زوجته الأولى احيانا، ولكن
تذكره لم يعد يشير في قلبه ذلك الألم الجارح. وحيانا
فقط، حين يلتقي بأبن انيكي ديفياتكين الكبير، الذي هاجر
ابوه الى فرنسا، كان يمتقع لونه للشبه الصارخ بين الأب
وابنه.

وبعد هذا عاد الى العمل، والى الكفاح من أجل قطعة
خبز، وفي غمرة الحياة اليومية تسرب الحقد، وكل الألم
الممض وصار كذلك الألم الذي يعن عليه احيانا من ندبة
في جبينه تذكارا خلفته ضربة سيف ضابط مجري.

* * *

توجه اندريه الى مارينا بعد اجتماع فقراء الفلاحين
مباشرة. فوجدها تغزل الصوف بانتظاره. كان المغزل
يطن في الحجرة الصغيرة الواطئة ذلك الطنين المنوم،
والحجرة مدفأة تدفئة ساخنة. وماعز صغير أجعد الشعر
مرح يضرب ارضها الترابية بحوافره الصغيرة يريد أن
يتفزز على السرير.

قلص رازميوتنوف وجهه في ضيق:

- أوقفي تدوير المغزل.

رفعت مارينا قدمها المنتعلة بصندال مدبب من قاعدة
المغزل، وتمطت بتلذذ، مقوسة ظهرها العريض ككفل
حصان.

- ماذا حصل في الاجتماع؟

- سنبدأ غدا بنفض الكولاك.

- حقيقة؟

- اليوم انضم المجتمعون كلهم من فقراء الفلاحين
الى الكولخوز - وخلع اندريه سترته، واستلقى على
السرير، ورفع الماعز بيده، كتلة دافئة من الصوف -
اجلبي الطلب غدا.

قالت مارينا مندهشة:

- أي طلب؟

- طلب انضمامك الى الكولخوز.

تأججت مارينا، وركنت المغزل الى الموقد بقوة.

- هل جنت؟ ولم أفعل ذلك؟

- مارينا دعينا - لانتجادل في ذلك. يجب أن تنضمي

الى الكولخوز. سيقول الناس عني: «يدفع الآخرين الى

الكولخوز، ويحجب مارينا عنه». سيؤنّبني ضميري.

- لن اذهب! مهما يكن لن اذهب! - ومرت

مارينا بالسريير، ونفحت اندريه برائحة العرق والجسد

الملتهب.

- عندئذ ستنقطع علاقتنا.

- تهددني!

- ليس تهديدا، بل لا سبيل آخر لي.

- طيب، افعل ما تريد! اذا كنت اعطيهم بقرتي، فماذا

سيبقى لي؟ حين تأتي الي ستطلب ما تشربه.

- سيكون الحليب مشاعا.

- ولعل النساء ستكون مشاعات ايضا؟ اتخوفني

بذلك؟

- كنت سأضربك، ولكنني اتكاسل.

ودفع اندريه الماعز الى الأرض، ومد يده الى قبعته،

ولف لفاعه الناعم حول رقبته كالانشوطة.

«علي أن أقنع كل شيطان وأترجاه! حتى مارينا تشب

كالفرس. ماذا سيحصل غدا في الاجتماع العام؟

سيضربوننا، اذا ضغطنا بقوة». كان اندريه يفكر في

حنق، وهو يتجه الى بيته. وظل يتقلب في فراشه لوقت

طويل دون أن يأتيه النوم، وسمع أمه تنهض مرتين

لتعائن العجين. وفي الزريبة ارتفع صوت ديك صارخ بشناعة.

وراح اندريه يفكر بقلق في يوم غد. وفي التغيير الموشك

الحدوث في الزراعة بأسرها. وتخوف من أن دافيدوف

الجاف الناشف (كما كان تصوره) سيبعد الفلاحين المتوسطين بفعلة غير متريثة منه. ولكنه تذكر شخصه الركين المسبوك، ووجهه المجهد المنكمش، بغضونه القاسية على جانبي خديه، وعينييه الذكيتين الساخرتين وتذكر كيف انحنى دافيدوف نحوه، من وراء ظهر ناغولوف، في الاجتماع، وقال اثناء خطاب ليوبشكين نافئا من فمه رائحة نظيفة طفولية فيها حموضة الشراب: «هذا النصير شاب جيد، ولكنكم اهملتموه، ولم تربوه. حقيقة! يجب أن يعالج». تذكر، وقال لنفسه بعزيمة وفرح: «لا، هذا لن ينكت بنا. ماكار هو الذي يجب أن يشكم! فلا يصيب احدا في عرامته. ماكار حين يغيظه شيء لايبقي ولا يذر. يعني لا عربة ولا حصان! ماذا؟ عربة!.. ما علاقة العربة هنا؟ ماكار... تيتوك... غدا». وتسلس النوم اليه فضبب وعيه. وغفا اندريه وتقطرت الابتسامة من شفثيه ببطء، كقطرات الندى، من صحن ورقة شجر.

الفصل السادس

حين دخل دافيدوف الي سوفيت القرية في الساعة السابعة صباحا وجد الاربعة عشر من فقراء غريمياتشي مجتمعين هناك.

— منذ زمان ونحن في انتظارك، منذ الصباح الباكر. —
وابتسم ليوبشكين، وهو يضم في كفه القوية يد دافيدوف.

— نغد الصبر... — اوضح الجد شوكار.
انه نفس الشخص ذو المعطف الفرائي الابيض النسائي، الذي تمازح مع دافيدوف في فناء سوفيت القرية في اليوم الاول من قدمه. ومنذ ذلك اليوم اعتبر نفسه صاحبا مقربا لدافيدوف، وكان يتعامل معه، خلاف الآخرين، بلا كلفة ودية. وهكذا كان يقول قبل وصوله: «مثلما نقرر مع دافيدوف سيكون. يوم أمس الاول تكلم معي طويلا. طيب،

وبين حديث جدى وآخر خضنا في حديث فكه، ولكن الأكثر ناقشنا الخطط، وكيف نقيم الكولخوز. انه انسان بشوش مثلي...»

عرف دافيدوف الجد شوكار من معطفه الابيض، واهانه بقسوة دون أن يدري حين قال:

– أهذا انت، يا جد؟ ها انت ترى: قبل يومين تكدرت على ما يبدو بعد أن عرفت السبب من مجيئي، أما اليوم فأنت نفسك كولخوزي. شاطر!

– حينها لم يكن عندي وقت... ولهذا انصرفت.

غمغم الجد شوكار بذلك متنجيا عن دافيدوف.

تقرر نفي الكولاك، والانقسام الى مجموعتين احدهما تذهب الى الجزء الأعلى من العزبة، والثانية الى الأسفل منها. عرض دافيدوف قيادة الجماعة الأولى على ناغولنوف، الا ان هذا رفض كليا. وارتيك ارتياكا سيئا تحت النظرات المتقاطعة، فدعا دافيدوف الى ناحية. فسأل هذا ببرود:

– ما هذه اللعبة التي تلعبها؟

– الأفضل أن اذهب مع الجماعة الثانية، الى الجزء

الاسفل.

– وما الفرق؟

عض ناغولنوف على شفتيه، وأشاح وجهه، وقال:

– عن هذا... طيب، ستعرف على كل حال! زوجتي...

لوشكا... تعيش مع تيموفي ابن فرول داماسكوف الكولاكي. لا اريد! ستحصل أقاويل. سأذهب الى الجزء الاسفل، وليذهب رازميوتنوف مع الجماعة الأولى.

– ايه، تخاف الاقاويل، يا اخ... ولكنني لا اصر.

تعال معي، مع الجماعة الأولى.

وتذكر دافيدوف فجأة الازرقاق الاصفر المخضوضر

النابت الذي رآه اليوم فوق حاجب زوجة ناغولنوف حين كانت هذه تقدم له الفطور، وسأل وهو يغضن وجهه ويحرك رقبته، وكأنما وقعت وراء ياقته قشة:

– أتلک الزرقة من صنع يدك؟ تضربها؟

- لا، لست أنا.
 - ومن اذن؟
 - هو.
 - ومن تعني بـ «هو»؟
 - تيموفي... ابن فرول.
 صمت دافيدوف حيران لبضع لحظات، ثم انفجر غاضبا:
 - اللعنة! أنا لا أفهم! لنذهب، ولنتحدث عن ذلك فيما بعد.

وخرج ناغولنوف من سوفيت القرية بصحبة دافيدوف وليوبشكين والجد شوكار وثلاثة قوزاق آخرين.
 - بمن نبدأ؟ - سأل دافيدوف دون ان ينظر الى ناغولنوف. فقد كان كلاهما يشعران بعد ذلك الحديث، بنوع مختلف من الحراجة.
 - بتيتوك.

ساروا في الشارع صامتين. كانت النسوة ينظرن اليهم من نوافذ بيوتهن بفضول. لحق الأولاد بهم، الا ان ليوبشكين خلع غصنا من أحد الاسيجة المضفورة، وحدى الأولاد، وكفوا عن ملاحظتهم. وحين وصلوا الى بيت تيتوك فقط قال ناغولنوف دون أن يتوجه بقوله الى أحد.
 - هذا البيت يصلح لأن يكون مقرا للكولخوز. فهو واسع. وسقائفه يمكن ان تكون اسطبلا للكولخوز.

كان البيت واسعا بالفعل. وكان تيتوك قد اشتراه في سنة ١٩٢٢، احدى سنوات المجاعة، من عزبة توبيانسكوي لقاء بقرة غير ولود وثلاثة بودات من الطحين. وقد هلك جميع عائلة مالك البيت القديم ولم يبق من يقاضي تيتوك على هذه الصفقة المجحفة. نقل تيتوك هذا البيت الى غريمياتشي، واعد تسقيفه من جديد، وأقام زريبة من الروافد واسطبلا، وأستقر به الى الأبد... وكان قد خط على افريز مصبوغ مطل على الشارع بحروف سلافية حاذقة: «ت.ك. بورودين، ١٩٢٣»

تفحص دافيدوف البيت بفضول. وكان ناغولنوف أول

من دخل باب الحديقة. قفز من وراء الشونة على صرير المزلاج كلب هائل بلون الذئب، اندفع دون نباح، وشب على قائمته الخفيتين، حتى لمع بطنه الأبيض الناعم، وراح يهر متقطع الانفاس مبجوح الصوت من اطباق الطوق على حنجرته. يشب الى الامام. وينقلب على ظهره، محاولا عدة مرات ان يقطع السلسلة، ولما عجز عن ذلك انطلق عائدا الى الاسطبل، حيث راحت حلقة السلسلة ترن فوقه بارتظامها بالسلك الحديدي الممتد على طول الاسطبل.

- اذا ركبك هذا العفريت، لاتجد منه مفكا. - تتمم الجد شوكار مديرا بصره بتخوف، غير مبتعد عن السياج تحسبا لكل طارىء.

دخلوا البيت في جمع واحد. كانت زوجة تيتوك. وهي امرأة نحيلة طويلة، تسقي عجلا من اجانة. حدثت في الضيوف غير المدعوين بريبة حانقة. وردت على التحية بما يشبه «عليكم اللعنة». سأل ناغولنوف:

- تيت في البيت؟

- لا.

- وأين هو؟

ردت ربة البيت باقتضاب:

- لا ادري.

- انت تعرفين، بيرفيلوفنا، لماذا جئنا؟.. جئنا... -

ابتدر الجد شوكار يقول في ابهام، الا أن ناغولنوف حدجه بنظرة حادة، جعلت ريق الجد، يتحشرج. في حلقة، نخر الجد، وجلس على المسطبة، ولملم أذيال فروته البيضاء غير المدبوغة بحركة لاتخلو من وقار.

وسأل ناغولنوف، وكأنما لم يلحظ جفاوة اللقاء:

- والخيول في مرابطها؟

- نعم.

- والثيران؟

- لا. لماذا جئتم؟

- لانستطيع معك... - شرع الجد شوكار يقول من

جديد، الا أن ليوبشكين في هذه المرة جذبته من ذيل معطفه، في تراجعته الى الباب، فلم يستطع الجرد أن يكمل جملته، ويد ليوبشكين تشده بقوة الى الرواق.

- اين الثيران؟

- خرج تيت عليها.

- الى اين؟

- قلت لك لا ادري؟

غمز ناغولنوف لدافيدوف، وخرج. واثناء ذلك لوح بقبضته لشوكار قرب لحيته، ونصحه قائلاً:

- اسكت، حتى تدعى للكلام! - ثم توجه الى

دافيدوف - الأمور سيئة! يجب أن نرى أين ذهب الثيران. اخشى أن يكون قد صفاها...

- لنترك الثيران، اذن...

- كيف هذا! - قال ناغولنوف مذعورا - عنده أحسن

ثيران في العزبة. أعلى منك قامة. فكيف نتركها! يجب ان نبحث عن تيتوك وعن الثيران.

تهامس مع ليوبشكين، وذهبوا الى زريبة المشية، ومن هناك الى السقيفة، ومنها الى ساحة الدريس. وفي

خمس دقائق أجبر الكلب على التراجع، متسلحا بعضا طويلة، وساقه الى ما تحت الشونة، بينما اخرج ناغولنوف

من الاسطبل حصانا رماديا عاليا، والجمه، وقبض عليه من عرفه، وصعد عليه. خرجت ربة البيت على المدخل، ووضعت

يديها على خاصرتيها، وصاحت:

- ماكار، كيف تتصرف باسطبل الآخرين دون أن

تستأذنهم؟ سيعود زوجي، سأخبره... وسيعرف كيف يريك!..

- بلا صياح! أنا الذي كنت سأريه، لو كان في

البيت. يارفيق دافيدوف، تعال الي!

اقترب دافيدوف مأخوذا بتصرف ناغولنوف.

- هناك آثار ثيران طازجة من ساحة الدريس الى

الطريق. الظاهر أن تيت تجسس مجيئنا، وخرج بالثيران

ليبيعتها. ولكن الزلاجة ماتزال قرب السقيفة. المرأة تكذب! أذهبوا وانتهوا من كوتشيتوف، بينما سأذهب أنا على الحصان الى توبيانسكري. فليس لتيت مكان آخر يسوقها اليه. اقطع لي هذا الغصن لأسوق به الحصان. ومن ساحة الدريس طلع ناغولنوف الى الطريق رأسا تاركا وراءه غبارا أبيض استقر ببطء على الاسيجة المضفورة، وانصان حشائش طفيلية طويلة كالفضة البلورية الباهرة. كانت آثار الثيران والى جانبها أثر آخر لحوافر حصان تمتد حتى الطريق، وعندها تختفي، قطع ناغولنوف بفرسه نحو مائة ذراع باتجاه توبيانسكري، وادا به يرى نفس تلك الآثار على رقع الثلج في الطريق، وقد تغطت قليلا بعصف الريح الارضية، فاطمأن الى انه يسير بالاتجاه المطلوب، وخفف من سرعة سيره. قطع بهذا الشكل حوالي فرسخ ونصف، وادا بالآثار تختفي من على رقعة ثلج جديدة استدار بالفرس استدارة حادة، ووقفز منه، يمعن النظر في الأرض لعل الثلج قد غطى على تلك الآثار. كانت رقعة الثلج عذراء صافية لم تطأها قدم. والى الاسفل تماما كانت تلوح آثار رباعية خلفها عقق. اطلق ناغولنوف شتيمة، وعاد يسير الهوينى، ملتفتا على الجانبين. وسرعان ما عثر على الآثار. والظاهر أن الثيران تركت الطريق في بقعة غير بعيدة عن مرعى وقد غابت آثارها عن بصر ناغولنوف، في عدوه السريع. خمن أن تيتوك توجه الى عزبة فويسكوفوي عبر الرابية مباشرة. فكر مع نفسه، وهو يتعقب الآثار، ويمسك حصانه عن الاسراع: «ربما توجه الى أحد معارفه». في الجانب الآخر من الرابية، قرب «الوهدة الميتة» لاحظ ناغولنوف على الثلج روث ثيران، فتوقف. كان البروث طريا، لحق فقط أن يتغطى بطبقة خفيفة جدا من الجمد. تلمس ناغولنوف كرنافة المسدس الباردة في جيب معطفه الفرائي القصير.

سار في الوهدة يخطو، وبعد أن قطع فرسخا ونصفا فقط رأى في بقعة غير بعيدة، وراء مجمع من أشجار البلوط

العارية، فارسا وثورين طليقين من الجبل الذي يشد على القرون عادة. وكان الفارس يلوح عليهما بهذا الجبل، وينحني على سرجه. وكان خط ازرق من دخان التبغ يتصاعد من وراء كتفي الفارس، ويتلاشى باتجاه ناغولنوف.
- استدر!

اوقف تيتوك الفرس الذي اخذ يسهل وتلفت، وبصق السيكاراة من فمه، وسار ببطء قدام الثورين، وقال بصوت غير مرتفع:

- ما هذا؟ بررو، توقف!

تقدم ناغولنوف. قابله تيتوك بنظرة طويلة.

- الى اين كنت متجها؟

- اردت ان ابيع الثورين، يا ماكار. أنا لا أنكر. -

وتمخط تيتوك واعتنى بمسح بقفازه شاربيه الاصهبين المتدلين كشاربي المغولي.

وقفا على فرسيهما متقابلين، وفرسهما ينخران ويتشمم احدهما الآخر. وكان وجه ناغولنوف الملفوح بالريح متوهجا غضوبا. وتيتوك هادىء في مظهره ساكن.

أمره ناغولنوف مبتعدا في ناحية:

- استدر بالثورين، وعد بهما الى البيت.

تردد تيتوك لحظة. ونقل مقود حصانه من يد الى أخرى، وقد احنى رأسه ناعسا واغمض عينيه نصف اغماضة. فكان في قفطانه الرمادي من النسيج البيتي بقلنسوته المطروحة على طاقيته القوزاقية الممزقة اشبه بعقاب ناعس. وكان ناغولنوف يقول لنفسه، وهو لا يصرف بصره عن تيتوك الجامد: «إذا كان يحمل سلاحا تحت قفطانه، فسيقفك العروة الآن» الا ان هذا بدا وكأنه صحا، فلوح بالجبل. وسار الثوران عائدين.

وبعد صمت طويل سأل تيتوك، وقد لمع بياض عينيه المزرق من تحت القلنسوة السارحة على حاجبيه، وهو ينظر الى ناغولنوف.

- ستأخذونها؟ تجردون الكولاك؟
لم يصطبر ناغولنوف فصرخ:
- هكذا صرت! اسوقك، كما اسوق عدوا وغدا.
اقشعر تيتوك. وظل صامتا حتى الرابعة. وبعد ذلك
سأل:

- والى اين سترسلونني؟
- نبعذك. ما هذا الذي يبرز تحت قفطانك؟
- غدارة!

ونظر تيتوك الى ناغولنوف بمؤخر عينه، وازاح ذيل القفطان، فاطل مقبض الغدارة المبقع المسحوج بلا عناية من جيب السترة كعظمة بيضاء.
- اعطها لي. - ومد ناغولنوف يده، الا أن تيتوك
نحاها بهدوء.

- لا، لا اعطيها! - وابتسم كاشفا تحت شاربيه المتدليين عن اسنان سوداء من أثر التبغ، ناظرا الى ناغولنوف بعينين حادتين كعيني فأر الخيل، ولكنها مرحتان، وكرر. - لا اعطيها. تصادرون الملكية، وعلاوة على ذلك. تأخذون آخر غدارة؟ الكولاكي يجب ان يحمل غدارة. هذا ماتكتب الجرائد عنه. بغدارة من كل بد. ربما ساحصل بها على كفايي من الخبز، ها؟ مراسلو الريف لا يهتمونني... وضحك هازأً رأسه، ولم يرفع يديه من حنو السرج، ولم يصر ناغولنوف على تسليم الغدارة، خاطبه في سره: «سأريك في العزبة».

ومضى تيتوك يقول:

- ربما تقول لنفسك، يا ماكار، لماذا خرج من العزبة ومعه غدارة؟ اللعنة عليها... كانت عندي، منذ أن جلبتها في عهد العصيان الاوكراني، هل تذكر؟ وظلت مرمية، يعلوها الصدأ. نظفتها، ودهنتها، حسب الاصول، وقلت لنفسى ربما ستنتفع في اصطياد حيوان. أو للحماية من رجل طائش. ويوم امس عرفت أنكم قادمون لنفض الكولاك.

ولكنني لم اتصور أنكم ستأتون بهذه السرعة... والا
لتصرفت بالثورين في الليلة البارحة.

- من أين عرفت؟

- وتريد ان اخبرك! الدنيا مملوءة بالأذان. ن...م...
م... تشاورت في الليل مع الزوجة لأترك الثورين في
أيد مأمونة. وأخذت الغدارة معي لأدونها في السهب حتى
لا تعثروا عليها في البيت، ولكن اسفت على ذلك. وها
انت! جعلت ركبي ترتعش - كان يتكلم بحيوية، مقلبا عينيه
بسخرية، زاحما جواد ناغولنوف بصدر فرسه.
- امزح فيما بعد، يا تيتوك! أما الآن فكن اكثر
جادا.

- ها! الآن بالذات احس بالحاجة الى المزاح. حاربت
فكسبت لنفسى حياة حلوة، ودافعت عن الحكم العادل، فاذا
به يأخذ بخناقي...

وتقطع صوت تيتوك. ومنذ تلك اللحظة سار صامتا،
كابجا حصانه عن عمد، ليدع ناغولنوف يتقدمه، ولو بنصف
حصانه، الا أن هذا كان يلتزم الحذر، ويتأخر عنه ايضا.
وابتعد الثوران عنهما كثيرا.

- تحرك، تحرك، - قال ناغولنوف ناظرا الى تيتوك
نظرة متوترة، ضاغطا على المسدس في جيبه. كان يعرف
أي شخص هو تيتوك، يعرفه اكثر من اي شخص آخر ومضى
يقول - ولا تتأخر! واذا كنت تنوي ان تطلق النار، لن
تلحق، على اية حال.

صرت تخوف! - ابتسم تيتوك قائلا وضرب حصانه
بالجبل، ورمح الى الامام.

الفصل السابع

وصل اندريه رازميوتنوف وجماعته الى بيت فرول
داماسكوف، حين كان هذا يتناول غداءه. كانت المائدة
تضم فرول نفسه وهو عجوز ضئيل واهن مدبب اللحية، احد

منخريه ممزق (نتيجة سقوطه من شجرة تفاح في طفولته، ولهذا سمي بالأشرم) وزوجته، وهي عجوز ممتلئة مهيبة، وابنه تيموفي، الشاب في الثانية والعشرين من عمره، وابنته، وهي فتاة في سن الزواج.

نهض من وراء المائدة تيموفي الممشوق الوسيم الشبيه بأمه. ومسح بقماشة شفتيه النضرتين من تحت شاربيه الازغبين الصبويين، وقلص عينيه الوقحتين الجاحظتين، وأشار بيده بخفة احسن عازف هارمونيكا في العزبة، ومعشوق الفتيات:

- تفضلوا، اجلسوا، يا اصحاب السلطة!

- لا وقت لنا لنجلس - واخرج اندريه ورقة من الملف - قرر اجتماع فقراء الفلاحين اخراجك، ايها المواطن فرول داماسكوف، من البيت، ومصادرة كل ملكيتك وماشيتك. فافرغ من غدائك وفرغ البيت وسنكتب نحن قائمة بالممتلكات.

- ولم ذاك؟ - ألقى فرول الملعقة، ونهض.

فاوضح له ديمكا اوشاكوف:

- نقضي عليك كطبقة كولاكية.

ذهب فرول الى الحجره الامامية، وجلب من هناك ورقة وهو يصرف بجدائه اللبادي الطويل الفاخر بنعليه الجلديين.

- هذا الوصل الذي وقعته انت، يا رازميوتنوف.

- اي وصل؟

- عن تسليمي حصتي من الحبوب.

- لا علاقة للحبوب هنا.

- على اي شيء تطردني من البيت، اذن، وتصادر ممتلكاتي؟

- هذا ما قرره فقراء الفلاحين. اوضحت لك.

صاح تيموفي بحدّة:

- لا وجود لمثل هذه القوانين. انتم تنهبون! بابا، انا ذاهب حالا الى الجنة المنطقه. أين السرج؟

- ستذهب الى لجنة المنطقة ماشيا، اذا كنت تريد ان تذهب. لن اعطيك الحصان. - وجلس اندريه على حافة المائدة، واخرج قلما وورقة...
ازرق انف فرول المشروم، وأخذ رأسه يرتعش، وتهاوى على الارض من وقفته لا يكاد يحرك لسانه المنتفخ المسود.

- اولاد الكلب. اولاد الكلب! انهبوا! اقتلوا!
- بابا، انهض، بحق المسيح! - وشرعت الفتاة تبكي، وهي تمسك اباهما من ابطيه.
تمالك فرول نفسه، ونهض، وانطرح على المسطبة، ومن هناك راح يسمع ولكن بدون اكرات كيف يملي ديمكا اوشاكوف وميخائيل ايغناطينوك الطويل الخجول على رازميوتنوف.

- سرير حديدي ذو كرات بيضاء، حشية، ثلاث مخدات، ثم سريران خشبيان آخران...
- خزانة أوان. هل أعدد كل الاواني؟ سحقا ما اكثرها!

- اثنا عشر مقعدا، ومقعد آخر طويل له ظهر. هارمونيكا من ثلاثة صفوف.
اختطفه تيموفي من يد ديمكا.

- لن اعطيكم الهارمونيكا! لا تتجاسر، يا أحول، والاً أدميت أنفك!

- وسأدميك أنا دماية لاتغسلها حتى أمك.
- اعطينا مفاتيح الصناديق، ياربة!
- لا تعطئها لهم، يا ماما! ودعيهم يكسرونها، اذا كانت لهم مثل هذه الحقوق.

- هل لدينا الحقوق في ان نكسر؟ - سأل دميد الصموت بدفقة من الحيوية، وهو المعروف بانه لايتكلم الا عند الضرورة القصوى، وفي الاوقات الأخرى كان يعمل صامتا، ويدخن صامتا مع القوزاق الذين كانوا يجتمعون في أيام الاعياد، ويجلس صامتا في الاجتماعات، وفي العادة

يجيب احياناً على اسئلة محدثه، ويبتسم باشفاق وبشعور بالتقصير.

كان العالم الرحب مملوءاً بالنسبة لديميد، بالفائض من الاصوات العالية التي تطفح بها الحياة على الحوافي، ولا تهجع حتى في الليل، وتعيق الانصات الى السكون، وتحطم ذلك الصمت الكيس الذي يملأ السهب والغابة في الخريف عادة. وكان ديميد لايجب لغط الناس، ويعيش في عزلة في طرف العزبة، وكان شغولاً، والأول في المنطقة كلها من حيث القوة، ولكن القدر أخنى عليه، وأبخسه حقه... قضى خمسة اعوام يشغل لفول داماسكوف، وبعد ذلك تزوج، وصارت له استثمارته، وما كاد يستقر فيها حتى احترقت. وبعد عام نكب بحريق آخر لم يترك في فناء داره غير مجاريت محترقة تفوح دخاناً. وبعد قليل هجرته زوجته قائلة: «عشت معك سنتين لم اسمع فيهما كلمتين منك. فعش لوحذك. الذئب الوحيد في غابة ابهج الي من العيش معك. الحياة معك تفسد للانسان حتى عقله. فأخذت اتكلم مع نفسي... ولكن المرأة كانت قد تعودت على ديميد. في الاشهر الأولى بكت، في الحقيقة، والحت على زوجها قائلة: «ديميدوشكا! على الأقل لو تكلمت معي قليلاً. طيب، قل لي كلمة!» فكان ديميد يكتفي بالابتسام ابتساماً طفولياً هادئاً، ويحك صدره المشعر. وحين يعيل صبره من الجاح زوجته عليه يقول بصوت عالي النبرة صادر من اعماقه: «انت عقق تماماً!» ويخرج. ولسبب ما اشيع عن ديميد بأنه انوف وماكر، ومن الناس «المنغلقين على انفسهم». العل ذلك لانه كان طوال حياته يتحاشى الصخب والصاخبين من الناس؟

ولهذا السبب رفع اندريه رأسه، حين سمع صوت ديميد الكامد يهدر فوقه.

- حقوق؟ - عاد يسأل ناظراً الى الصموت وكأنما

يراه لأول مرة - عندنا!

دخل ديميد حجرة الجلوس مائل الخطو ملوثاً الأرض

بِحذائه المستهلك المبلل. كان تيموفي يقف عند الباب،
فأزاحه بيده بسهولة وكما يزيح غصنا، وتبسم، وسار الى
الصندوق مارا بالخزانة والاواني ترن على وقع خطاه.
قرفص، وادار باصابعه القفل الثقيل. وبعد دقيقة كان
القفل بسقاطته المكسورة ملقى على الصندوق. واذا
باركاشكا البائع الشاري يهتف اعجابا، وهو ينظر الى
الصموت بدهشة غير خفية:

— هذا الرجل الذي يبارى!

لم يلحق اندريه أن يسجل. فقد تقاطرت عليه من
الحجرة الامامية ومن القاعة اصوات ديمكا اوشاكوف
واركاشكا والعمة فاسيليسا — المرأة الوحيدة في جماعته —
تهتف مختلفة النبرات:

— معطف فرائي نسائي، من الدون!

— معطف سميك!

— ثلاثة ازواج جديدة من الاحذية الطويلة مع
كالوشاتها! — اربع قطع من الجوخ!

— اندريه! رازميوتنوف! هذه بضاعة لا تكفيها حتى
عربة! قماش قطني، وساتان أسود، وغير ذلك...

اتجه اندريه الى الحجرة الامامية، فسمع من الرواق
نواح الفتاة، وصياح ربة البيت، وصوت ايغناطيونوك،
المتوسل. دفع اندريه الباب:

— ماذا يجري هنا؟

كانت ابنة صاحب الدار الفطساء منتفخة العينين
تفرق في دموعها، وهي متكئة على الباب. وعلى مقربة منها
أمها تلبط وتقوىء. أما ايغناطيونوك، الأحمر بكليته، فقد
كان يسحب الفتاة من ذيل ثوبها مبتسما بارتباك.

— ماذا تفعل هنا؟ — ودفع اندريه ايغناطيونوك بقوة،
مقطع الانفاس من الغيظ، ودون ان يعرف جلي الأمر.
سقط هذا على ظهره، وارتفعت في الهواء رجلاه في
حذائيهما اللبادين الممزقين — هذه سياسة محض! هجوم
على العدو، وانت تلامس الفتيات في الزوايا؟ ستحاكم...

- ولكن انتظر، على مهلك! - وقفز ايغناطيونوك من الأرض مذعورا - لا شأن لي بها!.. كيف ألامسها! انظر اليها تضع عليها التنورة التاسعة! أنا امنعها من ذلك وانت تتحارش...

عندئذ فقط حدس اندريه أن الفتاة سلت من الحجرة الامامية خلال الضجة، صرة من الملابس، ولحقت ان تلبس عددا من الثياب الصوفية، وكانت تنزوي في ركن وتجر عليها اذيال تنورتها، كتلة خرقاء بشكل غريب، مكتنزة من كثرة الملابس التي تعيق حركتها. احس اندريه بالقرف والاشمئزاز من رؤية عينيها النديتين الحمراوين كعيني الارنب البري... صفق الباب، وقال لايغناطيونوك:
- لاتعب نفسك في خلع ما عليها! ولتذهب بما لبسته. اما الصرة فخذها منها.

اوشكوا على الفراغ من تسجيل الممتلكات في البيت. فطلب اندريه قائلا:

- هاتوا مفاتيح الشونة.

لوح فرول بيده وقد اسود كالخشبة الفاحمة.

- لا مفاتيح.

فأمر اندريه ديميد قائلا:

- اذهب واكسر الباب.

فتوجه هذا الى الشونة، وفي طريقه خلع من العربة قضيبها الحديد.

لم يستجب القفل الثقيل الضخم لضربات الفأس الا بعد جهد.

- لا تكسر عضادة الباب! فالشونة لنا الآن. اعمل

بحسن تدبير. اخف، اخف!

توجه ديمكا بهذه النصيحة الى الصموت.

وشرعوا يزنون الحبوب. واقترح ايغناطيونوك وقد اثلته الفرحة:

- ربما نغربلها حالا؟ هناك غربال مرمي في مخزن الحبوب.

فضحكوا منه، وكتوا عليه وقتا طويلا، وهم يصبون القمح الثقيل في الميزان. وقال ديمكا اوشاكوف، وهو يغوص في الحبوب الى ركبته:
- في الامكان ايضا ان ترسل منها مائتا بود كحصة الدولة من الحبوب.

وغرف القمح بمجرفته الى حافة الهرى، وتلمسه بيده، وترك حباته تنزل من خلال اصابعه.

- يساوى وزنه ذهباً. ولكن يبدو أنه كان مطمورا في الأرض. انظر أثر الأرض عليه.

كان اركاشكا البائع الشاري وفتى آخر من المجموعة مشغولين في الفناء. كان اركاشكا يمسد لحيته الشقراء، ويشير الى روث ثيران تبرز منه حبات ذرة غير منهضمة.
- وكيف لاتعمل؟ ما دامت تأكل الحب الصافي، بينما نحن في الرفاقية يصعب علينا الحصول حتى على القش.

ترامت من الشونة اصوات مرحة وقهقهة، وغبار قمح شدي وفي بعض الأحيان كلمة مملحة جدا... عاد اندريه الى البيت. كانت ربة البيت وابنتها تجمع القدور والوانى في كيس. وكان فرول يشابك اصابعه على صدره كالमित في رقدته على المسطبة وليس على رجليه غير الجوارب. أما تيموفي الذي كان قد استكان، فقد القي على اندريه نظرة عدائية، وادار وجهه الى النافذة.

وفي حجرة الجلوس رأى اندريه الصموت مقرفصا. وقد ارتدى حذاء فرول اللبادي ذي النعل الجلدي. وحين دخل اندريه كان يغرف العسل بملقعة طعام من علبة تنك كبيرة، ويأكله، مقلصا عينيه و متمطقا، بتلذذ، مدبقا لحيته بقطراته اللزجة الصفراء دون ان يراه.

الفصل الثامن

كان الوقت ظهرا حين وصل ناغولنوف الى العزبة ومعه تيتوك. وكان دافيدوف خلال غيابهما قد سجل الممتلكات

في بيتين للكولاك، وافرغهما من ساكنيهما، ثم عاد الى بيت تيتوك، وبالتعاون مع ليوبشكين قاس ووزن الحبوب التي عشر عليها في مخزن الجلة المستخدمة للوقود. كان الجد شوكار قد صب في المعلق ما تبقى من طعام للاغنام، وخرج نشيطا من الزريبة، حين رأى تيتوك مقبلا...

سار تيتوك في الفناء بقفطانه المحلول حاسر الرأس. وتوجه الى ساحة الدريس، الا ان ناغولنوف صاح به:

- ارجع حالا، والا حبستك في الشونة!..

كان حانقا منفعلا، خداه يختلجان اكثر من المعتاد... فقد فاته ان يرى كيف ومتى استطاع تيتوك أن يرمى الغدارة، الا أنه سأل، حين اقتربا من ساحة الدريس فقط:

- هل ستسلم الغدارة؟ والا انتزعناها منك.

قال تيتوك:

- كف عن المزاح! - وراح يبتسم - ألكك تحلم

بها؟

لم تكن الغدارة موجودة تحت قفطانه. وكان من غير المعقول العودة الى حيث كانا، والبحث عنها. فليس في الامكان على كل حال العثور عليها في الثلج العالي، والاعشاب. قص ناغولنوف على دافيدوف حكاية الغدارة ساخطا على نفسه، فتقدم هذا من تيتوك، وكان طوال الوقت يتفحصه بفضول:

- اعطنا السلاح، يا مواطن! فان ذلك سيكون اخف

عليك.

- لم يكن معي سلاح. وناغولنوف ابتكر ذلك غيظا

مني. - وابتسم تيتوك مقلبا عينيه الشبيهتين بعيني فأر الخيل.

- اذن، سنضطر الى اعتقالك، وارسالك الى مركز

المنطقة.

- أنا؟

- نعم، انت. وماذا كنت تتصور؟ سنأخذ ماضيك

بعين الاعتبار. أنت تخفي الحبوب، وتتهيا...

- أنا؟.. - كرر تيتوك، وهو يحيي جذعه وكأنما يهيم بالقفز، ويصفر في نفسه.

وفي تلك اللحظة تخلى عنه كل مالمديه من المرح الظاهري وضبط النفس ورباطة الجأش. فقد كانت كلمات دافيدوف الشرارة التي فجرت الغيظ الضاري المتجمع والمكبوت حتى تلك اللحظة. تقدم نحو دافيدوف الذي أخذ يتراجع، وتعثر بنير كان ملقى وسط الفناء، وانحنى وسحب، على حين غرة، قضيبا حديديا من ذلك الذي يغلق النير على رقبة الثور. اندفع ناغولنوف وليوبشكين نحو دافيدوف. وركض الجدد شوكار خارجا من الفناء، ومن سوء الحظ تعثر باذيال فروته الطويلة جدا، وسقط، واستغاث بصوت وحشي:

- يا حرس، يا طيبون! جريمة قتل!

كان دافيدوف قد لحق ان يمسك تيتوك من مشط يده اليسرى، الا أن هذا استطاع ان يوجه ضربة على رأسه بيده اليمنى. ترنح دافيدوف، ولكنه لم يسقط. تدفق الدم من شق الجرح كثيفا في عينيه، وغطى على بصره. اطلق دافيدوف يد تيتوك، وغطى عينيه بكفه مترنحا. ألقته الضربة الثانية على الثلج. وفي تلك اللحظة امسك ليوبشكين تيتوك من وسطه. ولكنه لم يستطع أن يبقيه، رغم قوته الضليعة. افلت تيتوك منه، وهروا نحو ساحة الدريس بقفزات. لحق ناغولنوف به عند البوابة، وخبطه بمقبض المسدس على علبائه المسطحة الغزيرة الشعر. وزادت زوجة تيتوك في الاضطراب. اندفعت نحو الشونة، حين رأت ليوبشكين وناغولنوف يركضان نحو زوجها، واطلقت الكلب من سلسلته. فاندفع الكلب في الفناء مصلصلا بطوق رقبته. لفتت انتباهه صيحات الجدد شوكار الفزعة، وفروته المبسوطة على الثلج، فانطلق نحوه... وتناثرت من هذه الفروة البيضاء المزق وخصل الصوف مثيرة الغبار والقرقعة. وثب الجدد شوكار رافسا الكلب برجليه بضراوة، محاولا أن يقلع خازوقا من السياج

المصنوع من الاغصان المضفورة. جرجر تقسه زهاء ذراعين، والكلب المسعور على ظهره ناشبا في ياقته، وترنج تحت جذباته الجبارة، حتى استطاع بعد جهد مستميت أن يقلع خازوقا. قفز الكلب عنه نابجا، الا أنه لحق، في نهاية الأمر، ان يمزق فروة الجد الى نصفين.

صاح الجد شوكار بصوت صارخ وقد جحظت عيناه، وهو يتنشط:

- اعطني المسدس، ماكار!.. اعطه لي مادام قلبي يغلي! سأقتله مع صاحبته!

وخلال ذلك اعانوا دافيدوف ليدخل البيت، وحلقوا الشعر حول الجرح الذي كان الدم الأسود ما يزال يتدفق منه مبققا. كان ليوبشكين يشد في الفناء حصانين الى زلاجة تيتوك. وراح ناغولنوف وراء الطاولة يكتب بعجالة: «الى ممثل اسد* الرفيق زاخارتشنكو.

أرسل اليك للنظر في أمره الكولاكي بورودين تيت كونستنتينوفيتش بوصفه عنصرا كريها معاديا للثورة، عند القيام بتسجيل ممتلكات هذا الكولاكي قام علنا بالهجوم على الرفيق دافيدوف أحد الخمسة والعشرين ألف، واصابه مرتين على رأسه بقضيب حديدي.

وبالاضافة الى ذلك اعلن انني رأيت عند بورودين غدارة روسية الطراز لم استطع اخذها منه بسبب الظروف، ونحن على الراية، وخشية اراقة الدماء. وقد القى الغدارة في الثلج دون أن ألحظه. وسنرسلها لكم، حين نجدها، لتكون دليلا ملموسا.

سكرتير خلية غريمياتشي للحزب الشيوعي
(ألبشفي) لعموم الاتحاد، والجائز على
وسام الراية الحمراء م. ناغولنوف».

* اختصار من «الادارة السياسية للدولة». المترجم.

أجلسوا تيتوك في الزلاجة. طلب تيتوك أن يشرب ماء، ودعا ناغولنوف اليه. فصاح هذا من مدخل البيت:

— ماذا تريد؟

— ماكارا! تذكر! — صاح تيتوك، وهو يهز كالسكران يديه المشدنتين — تذكر أننا سنلتقي يوما ما. الآن دست علي، وعند ذاك سأدوس عليك. سأقتلك مهما يكن. صداقتنا انقبرت!

لوح ناغولنوف بذراعه، وقال:

— اغرب، أيها المعادي.

وتحرك الفرسان من الفناء بقوة.

الفصل التاسع.

قبيل المساء صرف أندريه رازميوتنوف جماعة الفلاحين الفقراء التي كانت تعمل معه، ومن فناء الكولاكي المخلوع غايف أرسل العربية الاخيرة من ممتلكاته المصادرة، الى بيت تيتوك، حيث كانت تجمع كل مقتنيات الكولاك، وذهب الى سوفيت القرية. وكان في الصباح قد اتفق مع دافيدوف على الالتقاء هناك قبل ساعة من الاجتماع العام الذي كان يجب ان يبدأ مع حلول الظلام.

رأى أندريه النور في حجرة الركن لسوفيت القرية حتى وهو في الرواق، دفع الباب واسعا ودخل. وعلى خبطة الباب رفع دافيدوف رأسه المضمّد بخرقه بيضاء، وابتسم. — ها هو رازميوتنوف ايضا. ها نحن نحسب مقدار الجيوب التي صادرناه من الكولاك. طيب، كيف الامور عندك؟

— ماشية... لماذا ضمدت رأسك؟

كان ناغولنوف يصنع ظليلة مصباح من ورق الجرائد، فقال بدون رغبة:

— تيتوك ضربه بقضيب. وقد ارسلت تيتوك الى زاخارتشنكو في أسد.

- انتظر، سنخبرك حالا - ودفع دافيدوف المعداد على الطاولة - اضع مائة وخمسة عشر. ها؟ مائة وثمانية.
- انتظر! انتظر! - غمغم ناغولنوف متوجسا، وهو يضع اصبعه على كرات المعداد.
نظر اندريه اليهما. وارتعشت شفثاه، وقال بصوت كامد:

- لا اعمل بعد الآن.
- كيف لا تعمل؟ اين؟ - ونحي ناغولنوف المعداد.
- لا اشتغل بعد الآن في نفص الكولاك. ما لك تبخلق؟
هل تريد أن تصيبك نوبة ام كيف؟
- هل انت سكران؟ - وحدق دافيدوف بقلق في وجه اندريه المعبأ بالحزم العائق - ماذا بك؟ ماذا يعني: لا اشتغل؟
اغتاظ اندريه من نبرته الهادئة، فصاح بانفعال متلجلج اللسان:

- لست متدربا على ذلك. لست... لست متدربا على مقاتلة الاطفال... الجبهة مسألة أخرى! هناك أياً من كان يمكن بسيف وبما تشاء... اذهبوا انتم الى... أنا لا اذهب!..

كان صوت اندريه كالوتر المشدود يعلو اكثر فأكثر حتى لكأنه سينقطع بين لحظة وأخرى. الا أن اندريه تنهد في بحة، وانتقل بشكل مفاجيء الى الهمس الواطء:

- وهل هذا عمل؟ ماذا أنا؟ جلاذ؟ أم قلبي من حديد؟ شبت من الحرب... - وعاد الى الصياح من جديد - لغايف أحد عشر طفلا. حين وصلنا ملأوا الدنيا صياحا وجعلوا شعر رأسي ينتصب! أخذنا نخرجهم من البيت... اغمضت عيني، وسددت أذني، وركضت خارجا من البيت! اغمي على النساء، وسكبوا الماء على الكنة لتفريق... والاطفال... اتقوا الله!

- ابك! وستستريح. نصحه ناغولنوف، وضغط بكفه

على عضلة خده المرتعشة ضغطا قويا، وهو لا يصرف عنه عينيه اللاهيتين.

- سأبكي! ربما ابني... - وتلجلج اندريه، ومطأ شفتيه، وادار ظهره الى الطاولة بحدة. وساد صمت.

رفع دافيدوف جسمه عن المقعد ببطء... وبنفس البطء تغطي خده غير المضمّد بزرقّة الموت، وشحبت اذنه. تقدم من اندريه، وامسك كتفيه، وأداره برفق. وأنشأ يقول متقطع الانفاس، غير صارف عينه المتسعة عن وجه اندريه.

- تشفق عليهم... ترثي لهم... وهل اشفقوا هم علينا؟ هل بكى الاعداء على دموع اطفالنا؟ بكوا على يتامى الذين قتلوهم؟ ها؟ أبي طردوه من المصنع بعد الاضراب ونفوه الى سيبييريا... وكنا اربعة أطفال لأمي، وكنت أنا، اكبرهم، في التاسعة من عمري آنذاك... ولم يكن لنا ما نأكله... فنزلت أمي... انظر الى هنا نزلت أمي الى الشارع، حتى لانموت من الجوع. وتأتي بضيف الى حجرتنا الصغيرة - كنا نعيش في قبو... ولم يبق الا سرير واحد... فكنا ننام وراء ستارة، على الأرض... كنت في التاسعة من العمر... كان السكرارى يأتون اليها... فكنت أسد افواه اخواتي الصغيرات، حتى لايبكين... ومن مسح الدموع من عيوننا؟ هل تسمع؟ في الصباح أخذ هذا الروبل للمعين... - ورفع دافيدوف كفه الجاسئة الى وجه اندريه، وصرف باسنانه بعذاب - الروبل الذي كسبته أمي، واذهب لأشتري الخبز... - وفجأة رفع قبضته السوداء عاليا، وانزلها على الطاولة مثل كتلة من الرصاص، وصاح: - انت!! كيف يمكنك ان تشفق؟!!

وهبط الصمت من جديد. تشبث ناغولنوف بسطح الطاولة وامسك به مثلما تمسك حدأة بفريستها. ولزم اندريه الصمت. ذرع دافيدوف الحجرة برهة وهو ما يزال

مُتَاقِلِ الْإِنْفَاسِ، ثُمَّ طَوَّقَ كَتْفِي أُنْدَرِيهَ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَيِ الْمَسْطَبَةِ، وَقَالَ بِصَوْتِ مَرْتَجٍ:

– يَا، أَيِ سَخْفٍ مِنْكَ! جِئْتَ وَهَاتِ يَا صِيَاخَ! «لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتُغْلَ... الْإِطْفَالِ... الشَّفِيقَةَ...» طَيِّبٌ، فَكَّرَ بِمَا قَلْبُهُ، وَأَفْقَ عَلَيِ نَفْسِكَ! تَعَالَى نَتَكَلَّمُ. أَشْفَقْتُ عَلَيِ أَقْصَاءِ الْعَوَائِلِ الْكَوْلَاكِيَّةِ؟ فَتَصَوَّرْ! نَحْنُ نَقْصِيهِمْ، حَتَّى لَا يَعِيقُونَا عَنْ بِنَاءِ حَيَاتِنَا، بِدُونِ هَؤُلَاءِ... حَتَّى لَا يَتَكَرَّرُ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. أَنْتِ السَّلْطَةُ السُّوفِيَّتِيَّةُ فِي غَرِيْمِيَاتَشِي وَتُرِيدُنِي أَنْ أَحْضِكَ عَلَيِ ذَلِكَ؟ – وَابْتَسَمَ بِعَسْرٍ وَضَيْقٍ – أِذْنِ، فَلْنَقْصِ الْكَوْلَاكِ إِلَى الْجَحِيمِ، نَقْصِيهِمْ إِلَى سُولُوفَكِي. أَتُظَنُّهُمْ سِيْمُوتُونَ هُنَاكَ؟ سَيَعْمَلُونَ، وَسَنُطْعِمُهُمْ. وَحِينَ تُبْنِي الْحَيَاةَ مِنْ جَدِيدٍ لَنْ يَعودُ الْإِطْفَالُ كَوْلَاكِ. سَتُعِيدُ الطَّبَقَةَ الْعَامِلَةَ تَرْبِيَّتِهِمْ. – وَأَخْرَجَ عِلْبَةَ سَبْكَائِرِهِ، وَظَلَّ وَقْتًا طَوِيلًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ سِيكَارَةً بِأَصَابِعِهِ الْمُرْتَعِشَةِ. كَانَ أُنْدَرِيهَ يَطِيلُ النَّظْرَ فِي وَجْهِ نَاغُولِنُوفِ الْمَكْتَسِي نَقَابِ الْمَوْتِ. فَنَهَضَ بِسُرْعَةٍ، دُونَ أَنْ يَتَوَقَّعَ دَاْفِيدُوفَ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَفَزَ نَاغُولِنُوفُ كَالنَّابِضِ.

– حَقِيرٌ! – نَفَثَ بِهَمْسٍ رَنَانَ ضَامًا قَبْضَتِيهِ – كَيْفَ تَخْدُمُ الثُّورَةَ؟ تَشْفِقُ؟ بَيْنَمَا أَنَا... أَعْطَانِي آلَافَ الشُّيُوخِ وَالْإِطْفَالِ وَالنِّسَاءِ دَفْعَةً وَاحِدَةً... وَقَلَّ لِي أَفْتَكُ بِهِمْ... مِنْ أَجْلِ الثُّورَةِ... سَأَصْلِيهِمْ بِرَشَاشَةٍ... أَقْتُلُهُمْ جَمِيعًا! – صَاحَ نَاغُولِنُوفُ فَجَاءَ بِوَحْشِيَّةٍ، وَلَمَعَتِ الضَّرَاوَةُ فِي حَدَقَتِيهِ الْهَائِلَتَيْنِ الْمَتَسَعَتَيْنِ، وَفَاضَ الزَّبَدُ فِي زَوَايَا شَفْتِيهِ. قَالَ دَاْفِيدُوفُ هَلْعَا:

– وَلَكِنْ لَا تَصْرُخْ! اجْلِسْ!

أَوْقَعَ أُنْدَرِيهَ كَرْسِيًّا، وَتَقَدَّمَ مِنْ نَاغُولِنُوفِ بِعَجَالَةٍ، لِأَنَّ هَذَا أَتَكَأَ عَلَيِ الْحَائِطِ، وَأَلْقَى رَأْسَهُ إِلَى الْخَلْفِ، وَصَاحَ بِصَوْتِ مَمْدُودٍ مَرْنٍ، مَقْلِبًا عَيْنِيهِ:

– سَأُ... قَتَلُ... لَكَ... – وَهَوَى هُوَ عَلَيِ جَنْبِهِ، وَاخْتَطَفَ الْهَوَاءَ بِيَدِهِ الْيَسْرَى بِجِثَا عَنْ غَمْدِ السِّيفِ، وَبِالْيَمْنَى تَلَمَسَ بَارْتَعَاصَ مَقْبِضِ السِّيفِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ.

لحق اندريه أن يمسك به، شاعرا كيف تنبض كل
عضلة في جسد ناغولتوف المثقل ترتعده رهيبية، وتنفك
رجلاه كذا بضمين من فولاذ.
واستطاع اندريه ان يصيح بدافيدوف:
- جاءته النوبة... امسك رجله!..

* * *

حين وصلوا الى المدرسة رأوها غاصة بالناس الذين
جاءوا لحضور الاجتماع. لم يكن المكان يسع الجميع، فكان
القوزاق والنساء والفتيات يقفون بجمع حاشد في الممر
وعلى المدخل. وكان البخار المخلوط بدخان التبغ يخرج
من فتحة الباب المفتوح على مصراعيه.

كان ناغولتوف اول من سار في الممر شاحبا؛ وقد
تجمد الدم على شفثيه المجرحتين. كانت قشور بذور عباد
الشمس تخشخش تحت خطوه الواضح. نظر القوزاق
اليه بمهابة، متراجعين عنه. وتهامسوا حين رأوا
دافيدوف.

- أهذا دافيدوف؟ - سألت فتاة في لفاح مورد
بصوت مرتفع، مشيرة الى دافيدوف بمنديل منتفخ ببذور
عباد الشمس.

- في معطف... بينما هو نفسه ليس بالكبير.
- ليس كبيرا، ولكنه كالحصان الصغير. عايني
على رقبتة، كرقبة الثور اللطيف! ارسلوه لنا للتلقيح. -
وضحكت احدهن، وهي تخزر دافيدوف بعينيها
المستديرتين الرماديتين.

- وكتفاه عريضتان، كتفا عامل شغول. اتصوره كيف
يحتضن الفتيات - كانت ناتاليا المفروكة تتحدث بلا حياء،
وهي تغمز بحاجبها المزجج.

وتهكم فتى بصوت تشوبه غلظة وبجة من اثر
التدخين، قائلا:

- أي شيء في سروال يلائم فتاتنا ناتاليا.

- هل نقرأوا له رأسه؟ مضمدا...

- لعل هذا من اثر اسنان...

- لا. هذا من فعل تيتوك...

- يا بنات! يا حلوات! ما لكن تبهلقن برجل غريب؟

وهل أنا اسوأ منه؟ - قال قوزاقي تخطى سن الشباب مزرق الوجه من اثر الحلاقة، وطوق بذراعيه الطويلتين سر با كاملا من الفتيات، وهو يضحك، وضغظهن على الجدار.

ارتفع زعيق. ودقت الفتيات بقبضاتهن على ظهر

القوزاقي.

تصبب دافيدوف عرقا حتى وصل الى باب النصف.

كانت روائح زيت بذور عباد الشمس، والبصل، والتبغ

البيتي وجشاء القمح تتصاعد شذية من حشد المجتمعين.

وتفوح من الفتيات والنساء الشابات الرائحة العذبة للحلل

التي كانت محفوظة في الصناديق والمرامح العطرية. وكان

طينين أصم كطينين النحل يخيم على المدرسة. كما أن

الناس أنفسهم كانوا يضحون ضجيجا أسود فوارا مثل

سرب النحل المثار.

قال دافيدوف بارتباك حين صعد الى المنصة:

- فتياتكم جسورات.

وعلى المنصة الخشبية مقعدان من مقاعد التلاميذ ضما

سوية. جلس دافيدوف وناغولنوف. افتتح رازميوتنوف

الاجتماع. واختيرت هيئة الرئاسة دون تأخير.

- الرفيق دافيدوف ممثل لجنة المنطقة الحزبية

يتحدث عن الكولخوز. - وصمت صوت رازميوتنوف.

وتضائل لغط الأصوات خامدا بسرعة.

نهض دافيدوف، وعدل الضمادة على رأسه. وتكلم

زهاء نصف ساعة بصوت بح في نهاية خطابه. صمت

المجتمعون. وضافت الصدور أكثر فأكثر باحتباس الهواء،

ورأى دافيدوف في ضوء المصباحين الباهت وجوه

الجالسين في الصفوف الأولى لامعة بالعرق، وأبعد من ذلك كان كل شيء يختفي في الظلمة الشاحبة.

لم يقاطعه أحد، إلا أنه حين فرغ من خطابه، ومد يده الى قدح الماء، جوبه بوابل من الاسئلة:

- هل سيشاع كل شيء؟
- والبيوت أيضا؟
- هل الكولخوز وقتي أم دائم؟
- ماذا سيكون من أمر الفلاحين الافراد؟
- هل سيأخذون الأرض منهم؟
- والأكل مشاع أيضا؟

ظل دافيدوف يرد على الاسئلة باقتدار ولوقت طويل. وحين كان الأمر يتعلق بالمسائل المعقدة للزراعة كان ناغولنوف واندرية يساعده في توضيحها. وقرية النظام الداخلي التقريبي للكولخوز، ومع ذلك لم تتوقف الاسئلة. وفي النهاية نهض من الصفوف الوسطى قوزاقي في قبعة من فراء الثعلب، وفروة سوداء محلولة تماما. وطلب اذنا بالكلام. ألقى المصباح المتدلي ضوءا مائلا على قبعته، وتوهج فراؤها الاصهب، وبدا وكأنه يرسل دخانا.

- أنا مزارع متوسط الحال، واقول لكم بصراحة، يامواطنون، ان الكولخوز شيء جيد، ولا شك في ذلك، ولكن يجب التفكير في هذا كثيرا. ولا يجوز الاستعجال، وتفضل كل شيء جاهز. كان الرفيق مفوض اللجنة الحزبية يقول «اجمعوا ما لديكم من قوة، وسيكون في ذلك نفع لكم. وحتى الرفيق لينين كان يقول بذلك». والرفيق المفوض قليل المعرفة في الزراعة، ويبدو انه لم يسر وراء المحراث في حياته كعامل، وعلى الأغلب لايعرف من أي جهة يأتي الثور. ولهذا السبب وقع في الخطأ قليلا. واعتقد ان ضم الناس الى الكولخوز يجب ان يتم بهذا الشكل: الناس الشغولون والذين لهم ماشية يضمون الى كولخوز واحد، والفقراء في كولخوز آخر، والموسرون على حدة، بالطبع، أما الكسولون تماما فينفضون لتعلمهم ا. س. د. العمل. لا يكفي ان تضم

الناس في تكويرة واحدة، فلن ينفك هذا بشيء. فذلك مثل البجعة في الحكاية الشعبية. البجعة تخفق بجناحيها تريد ان تطير، بينما جراد البحر امسكها من ذيلها، ويجرها الى الخلف، والسمة تلبط تريد أن تعوم... قابل المجتمعون ذلك بضحك مكتوم. وفي الخلف زعقت فتاة بجدة، وأرتفع على الفور صوت منفل: هنا! - انتن يمكنن ان تتلامسن في الخارج. اخرجن من هنا!

مسح ذو القبة من فراء الثعلب جبينه وشفتيه بمنديل صغير، وتابع يقول:

- يجب اختيار الناس، مثلما يختار المزارع الجيد ثيرانه. فهو يشد الثيران المتساوية بالقوة والحجم بعضا الى بعض. ولكن ماذا سيحصل لو شددت ثيرانا مختلفة من حيث القوة؟ سيندفع الذي هو اقوى، ويبقى الاضعف في مكانه فيضطر الأقوى الى التوقف باستمرار. فأي عمل تجنيه من هذه الثيران؟ الرفيق قال: العزبة كلها في كولوخور واحد، ما عدا الكولاك... ولكن الذي يحصل أن تبت وأفاناس يختلفان عن الناس!..

نهض ليوبشكين، وارتجف شاربه الاسود المنفوش بشؤم، واستدار نحو المتكلم:

- احيانا اراك معسول اللسان، يا كوزما! لو كنت امرأة لبقيت اسمعك طوال عمري. (هسهسة ضحك) انت تستميل المجتمعين، كما تستميل بالاغا كوزميتشيفا...

انفجرت القاعة بالضحك. وتصاعد من المصباح لسان حاد من اللهب متلويًا كالافعي. وفهم جميع الحاضرين تلك الغمزة التي كانت تنطوي، في اغلب الظن، على شيء لماجن بشكل مخجل. وحتى ناغولنوف ابتسم، ولكن بعينيه. وأراد دافيدوف أن يسأله فقط عن سبب الضحك، حين عاد صوت ليوبشكين ليغطي على لفظ الاصوات.

- الصوت صوتك، ولكن الأغنية لغيرك! يحسن بك

ان تختار الناس بهذا الشكل. ألعك تعلمت ذلك، حين كنت عند فرول الأشرم في رفاقية المكائن؟ المحرك وأخذه منك في العام الماضي. والآن جردنا صاحبك فرول من كل شيء! وقد اجتمعتم حول محرك فرول بما يشبه الكولخوز، ولكنه كولخوز للكولاك وحدهم. هل نسيت كم كنتم تستقطعون منا على الدرس؟ أليس عن كل ثمانية بودات؟ ربما تريد أن تفعل ذلك الآن أيضا: أن تنحاز الى الاغنياء...

وحصل لفظ شديد لم يستطع رازميوتنوف أن يعيد النظام الا بعد جهد جهيد. ومع ذلك فقد ظلت الملاحظات الحادة تنهال وقتا طويلا كمطر الربيع.

- كنتم متكاتفين في الابتزاز.
- القمل وحده لا يمكن أن تقصعه بجرار.
- قلبك مع الكولاك.
- عوروه!

- رأسك لا يصلح الا للتوافه.
وكانت الكلمة التالية للفلاح المتوسط البسيط نيقولاى ليوشنيا. حذره ناغولنوف قائلا:

- لا تدخل في مماحكات. القضية واضحة.
- وكيف ذلك؟ ربما أريد أن أماحك. ام لا يحق لي أن أتكلم ضد رأيك؟ سأقول بهذا الشكل: الكولخوز مسألة لا الزام فيها. اذا شئت ان تنضم انضم، واذا لاتشاء تفرج من مكانك. وهكذا نحن نريد ان نتفرج من اماكننا.
- سأل دافيدوف: ومن «نحن» هذه؟
- اقصد المزارعين.

- تكلم عن نفسك، يا عم. لكل واحد لسانه، ويستطيع ان يتكلم.

- استطيع ان اتكلم عن نفسى أيضا. أقصد أنا أتكلم عن نفسى الآن. أريد أن أرى كيف تبدو الحياة في الكولخوز. فاذا كانت لطيفة دخلت، واذا كانت لا، فلا فائدة

من الدخول الى الكولخوز. السمكة الحمقاء وحدها تقحم نفسها في الشبكة...

- صحيح!

- لتتريث في الدخول!

- دعوا الآخرين يجربون الحياة الجديدة!

- اقحم، تقحم! لا حاجة الى تجريب. فهل هي فتاة

لتجربها؟

- الكلام الآن لأخفاتكين. تكلم.

- سأتكلم عن نفسي، ايها المواطنين الاعزاء أنا

وأخي بيتر كنا نعيش سوية. ولكن الحياة سوية لم تصف

لنا. مرة تتعارك زوجتانا فيما بينهما فلا تفصل بينهما الا

بشق الأنفس وبجرهما من شعرهما. ومرة لا ننسجم أنا

وأخي. والآن يريدون ان يجمعوا العزبة كلها في كومة

واحدة! فأى شربة ستحصل. سنتعارك حتما اذا خرجنا الى

السهب نحرث. سيجور ايفان على ثيراني، وسأهمل أنا

خيوله... لا! سنحتاج الى ميليشيا تعيش معنا اربعا

وعشرين ساعة. وسيمتلىء القم بالدم. بعضنا يعمل اكثر،

وبعضنا الآخر يعمل أقل. وعملنا ليس واحدا، ولا يشبه

الوقوف وراء مغرطة في مصنع، حيث تعمل ثماني ساعات،

وبعد ذلك تأخذ عصاك ومع السلامة.

- هل كنت في مصنع يوما ما؟

- لم اكن، يا رفيق دافيدوف، ولكنني أعرف.

- أنت لا تعرف شيئا عن العامل! اذا لم تكن هناك

يعني لم تر، فلا حاجة الى الهذر! الكولاك وحدهم يتفوهون

بهذه الاحاديث عن العامل يحمل عصا!

- طيب، بعضا او بغير عصا. يشتغل وينصرف. أما

عندنا فالواحد منا ينهض والظلام مايزال، ويحرث، ويظل

العرق يتصبب منه حتى الليل، وتظهر على قدميه نفض

دموية بحجم بيضة الدجاج، وفي الليل يرعى الثيران، ولا

ينام، فالثور اذا لا يشبع لا يجز المحراث. لنفرض أنني

سأبذل جهدي في الكولخوز، بينما غيري، من امثال صاحبنا

كوليبا، سينام في اخدود من اخاديد المحراث. قد تقول السلطة السوفيتية: لا يوجد كسولون بين فقراء الفلاحين، وان ذلك من تصور الكولاك. الا ان ذلك غير صحيح. كوليبا قضى عمره كله نائما فوق سطح الموقد. والعزبة كلها تعرف كيف استرخي ذات مرة في فصل الشتاء على سطح الموقد، ومد قدميه الى الباب، وفي الصباح كانت قدماه مكسوتين بالجمد، وجنبه محروقا بأجر الموقد. يعني أن الرجل كسل الى حد أنه لم يستطع ان ينهض من الموقد عند اقتضاء الحاجة. فكيف سأعمل مع شخص كهذا؟ لن اوقع على الكولغوز!

– الكلمة الآن لكوندرات مايدانيكوف. تكلم.

طلع من الصفوف الخلفية قوزاقي طويل بقفطان، وقضى وقتا طويلا في شق طريقه الى المنصة. وتمايلت قبعته البوديونية الحائلة اللون فوق الطاقيات القوزاقية والقبعات، فوق لفاحات النساء ومناديلهن الملونة.

ولما وصل وقف، وظهره الى هيئة الرئاسة، ودس يده في جيب سرواله غير متعجل.

سأل ديمكا اوشاكوف باسم:

– هل ستقرأ خطابك من الورقة؟

– اخلع قبعتك!

– تكلم عن غيب.

– انه طوال عمره يسجل حياته على الورق.

– ها. ها! مت...علم!..

أخرج مايدانيكوف دفتر ملاحظات متسخا، وأخذ يبحث بعجالة عن صفحات مكتوبة بخط مخربش. وشرع يقول في غضب:

– انتظروا ولا تضحكوا، ربما ستضطرون الى البكاء.

نعم، اكتب عن مورد رزقي. والآن اقرأ ما كتبت. في هذه القاعة ترددت آراء مختلفة ليس فيها أي رأى نافع. انتم قليلو التفكير في الحياة... .

ارهدف دافيدوف سمعه. وتراءت بسمات في الصفوف الأولى وسرت همهمة اصوات في المدرسة.

وشرع مايدانيكوف يقول بثقة ودون ارتباك:

- مزرعتي متوسطة. في العام الماضي زرعت خمسة ديساتينات. وأنا املك، كما تعرفون، ثورين، وحصانا، وبقرة، وزوجة وثلاثة أطفال. والقوى العاملة هم وحدهم. حصدت من المساحة المزروعة تسعين بودا من القمح، وثمانية عشر من الجودار، وثلاثة وعشرين من الشوفان. وأنا نفسي احتاج الى ستين بودا لاطعام العائلة، والدواجن تحتاج الى حوالي عشرة بودات، والشوفان يبقى للحصان. فماذا تستطيع ان ابيع للدولة؟ ثمانية وثلاثين بودا. والسعر في كل مكان ومتوسط الاسعار روبل وعشرة كوبيكات للبود الواحد، والحاصل واحد واربعون روبلا من الدخل الصافي. طيب، وابيع الدواجن، وأخذ البط الى سوق الدسكرة فاحصل على حوالي خمسة عشر روبلا - ورفع صوته، ولاحت اللوعة في عينيه - فهل تستطيع بهذه الفلوس أن اشترى لنفسى والعيالي ما يكفيننا من الملابس والأحذية، واشترى الكيروسين، والكبريت، والصابون؟ وتنجيل الفرس الا يحتاج الى نقود؟ لماذا انتم ساكتون؟ وهل تستطيع ان اوصل العيش بهذا الشكل؟ وهذا جيد في زمن الغلة سواء كانت شحيحة أو وفيرة، ولكن ماذا في زمن القحط؟ ماذا سأكون عند ذلك؟ فقيراً معدماً! فأني حق لكم، يا ابناء الكذا، في أن تحيدوني عن الكولخوز، تصرفوني عنه؟ هل معقول انني سأكون فيه أسوأ من هذه الحال؟ تكذبون! انتم في ذلك على حد سواء، يا متوسطي الحال. دعوني اقول لكم الآن: لماذا تعارضون وتدوخون رؤوسكم ورؤوس الآخرين؟

صاح ليوبشكين في غمرة ابتهاج:

- أكل لاولاد الكلبة، يا كوندرات!

- أكيل لهم، وليشعروا! انتم ضد الكولخوز لأنكم

لا ترون من الدنيا غير بقرتكم، ومزرعتكم الهزيلة. ولكن هزيلة، ولكنها لي. الحزب الشيوعي لعموم الاتحاد يدفعكم الى الحياة الجديدة، بينما انتم كالعجل الأعمى، يسيرون به الى ضرع البقرة، وهو يرفس برجليه، ويضرب برأسه. وإذا لا يرضع العجل لن تكتب له الحياة في هذه الدنيا. هذا كل ما في الأمر. اليوم ساقعد، واكتب طلب انتساب الى الكولخوز، واحض الآخرين على ذلك. ومن لا يريد دعوه لا يعيق الآخرين.

نهض رازميوتنوف.

– المسألة واضحة الآن، يا مواطنون! المصايح توشك على الانطفاء، والوقت متأخر. من يؤيد الكولخوز يرفع يده. ارباب البيوت وحدهم يصوتون برفع الايدي.

ومن المائتين والسبعة عشر الحاضرين من ارباب البيوت لم يرفع ايديهم غير سبعة وستين شخصا.

– من يعارض؟

لم ترتفع اية يد.

سأل دافيدوف:

– لا تريدون الانتماء الى الكولخوز؟ اذن صحيح ما كان يقوله الرفيق مايدانيكوف؟

قال صوت نسائي مقرف:

– لا نرغب!

– صاحبك مايدانيكوف ليس الزاما لنا.

– أبأؤنا وأجدادنا عاشوا...

– لا ترغمنا!

وحين سكتت الهتافات صدر من الصفوف الخلفية، من الظلام المضاء بتوهجات السكائر صوت متأخر ينطق بالضراوة:

– لا أحد يسوقنا سوق الحمقى! مرة أسال تيتوك دمك، وفي الامكان أيضا...

واحس دافيدوف وكأنما سيط بسوط. وقف في

الصمت الرهيب لحظة دون ان ينطق بكلمة، ممتقع الوجه،
وفمه المكلوم نصف مفتوح، ثم صاح بصوت أبح:

– انت! ايها الصوت المعادي! قليل علي ان يسيلوا
دمي! بل سأعيش حتى تضرب اعناق كل الذين من
امثالك. وعند الضرورة سأعطي كل دمي من أجل الحزب،
... من أجل حزبي، من أجل قضية العمال... هل تسمع،
أيها الحشرة الكولاكية؟ كل دمي الي آخر قطرة!

وانتصب ناغولنوف ليقول:

– من صاحب هذا الضجيج؟

وقفز رازميوتنوف من المنصة. وصرفت مسطبة في
الصفوف الخلفية، وخرج الي الممر حشد ضاج من حوالي
عشرين شخصا. وأخذ الجالسون ينهضون في الصفوف
الوسطى أيضا. وصدر صوت زجاج ينكسر ويتهشم، ودفع
شخص فتحة نافذة. ونفذت منها ريح طرية، ودوم بخار
أبيض كالزوبعة.

– هذا ضجيج تيموشكا! ابن فرول الاشرم...

– ابعدهم عن العزبة.

– لا، هذا أكيم. يوجد هنا بعض القوزاق من

توبيانسكوي.

– يا للمشاغبين، عساهم بالقرحة. ابعدهم...

وانتهى الاجتماع في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل.
تحدثوا مع الكولخوز وضده الي ان بحت اصواتهم، وزغلت
عيونهم. وفي بعض الأحيان كان المتجادلون يحتشدون،
حتى قرب المنصة، ويمسك احدهم بصدر مجادله، يبرهن
علي صحة رأيه. هجم علي كوندرات مايدانيكوف عراب
اطفاله وجاره، ومزق قميصه حتى الصرة. وكاد الأمر يصل
الي حد العراك بالايدي. انطلق ديمكا اوشاكوف لنجدة
كوندرات قافزا عبر المساطب، وعبر رؤوس الجالسين، الا
أن دافيدوف حاجز بين كوندرات وعراب اطفاله. وكان ديمكا
أول من قرع مايدانيكوف بلذاعة لسان:

- فكر، يا كوندرات، كم ساعة ستحترث لتعوض قميصك الممزق؟

- احسب انت، كم لزوجتك...

- هوه، هوه! على هذه المزحة ساخرجك من الاجتماع. كان ديميد الصموت ينام وديعا تحت مسطبة في الصفوف الخلفية. واضعا رأسه باتجاه تيار الهواء المتسرب من تحت الباب، كما يفعل الحيوان عادة، وقد لف رأسه بذييل قفطانه ليقيه من الضجيج الزائد. وكانت النسوة المسنات اللواتي كن يحملن حتى في الاجتماع جوارب لم يكملن حياكتها يعقبن كالدجاجات الجاثمات، وقد افلتت منهن الأبر وبكرات الخيوط. وانصرف كثيرون. وحين أراد اركاشكا البائع الشاري ان يقول شيئا في الدفاع عن الكولخوز، وكان قد تكلم قبل هذا عدة مرات في الاجتماع خرج من حنجرته ما يشبه فحيح الوز الضاري. تحسس اركاشكا تفاحة آدم في رقبته، ولوح بيده بمرارة، ومع ذلك لم يصطبر، وحين كان يجلس أشار لنيقولاى اخفاتكين عدو الكولخوز اللدود الى ما سيحصل له بعد الكلخزة التامة، اذ وضع على اظفر ابهامه الملطخ باصفرار التبغ اظفر ابهامه الآخر وقصع! فاكتفى نيقولاى بأن بصق، وشتم همسا.

الفصل العاشر

خرج كوندرات مايدانيكوف من الاجتماع. كانت الثريا تتوهج فوقه كالنار. وكان الهدوء شاملا حتى كانت تسمع من بعيد أصوات تشقق الأرض من شدة القرس، وهسهسة غصن متجمد. وفي البيت اتجه كوندرات الى الثورين في الزريبة، ووضع في معلقهما ضمة شحيحة من القش، وقد تذكر انه سيأخذهما غدا الى الزريبة الجماعية، وتناول حزمة ضخمة من القش، وقال بصوت عال:

- ها قد حلت ساعة الفراق... تحرك، يا اصلع! اربعة اعوام ونحن نعمل، القوزاقي للثور، والثور...

للقوزاقي... وما من شيء نافع صدر منا. انتما في كفاف، وأنا في ضيق. ولهذا استبد لكما بالحياة المشاعة. ولكن ما لك ترهف السمع وكأنك تفهم شيئاً مما اقول؟ - وضرب برجله الثور ودفع بيده شدقه الماضغ المروّل، وحين التقت عيناه بعين الثور الليلكية قفز الى ذاكرته فجأة كيف انتظر هذا الثور قبل خمسة اعوام. وكانت البقرة العجوز تستقبل ثورا بسريرة تامة فلا الراعي رأى، ولا كوندرات. وفي الخريف والوقت طويل لم تظهر عليها علامة على أنها حامل. وشعر كوندرات بالبرودة، وهو ينظر الى البقرة: «اظنها عاقرا، الملعونة» لكن في نهاية تشرين الثاني، قبل شهر من الانجاب، ظهر عليها تغير مثل جميع الأبقار. كم من مرة استيقظ كوندرات في ليالي كانون الاول الباردة وكان شيئاً يرجه، ويحشر قدميه في حذائه اللبديين ويهرع في سرواله الداخلي فقط ليتفقد الزريبة الدافئة. أعلها ولدت؟ كان الصقيع في شدته، ومن الممكن ان يجمد العجول، ما ان تكمل امه من لحس... وفي اواخر ايام الصوم لم يكن ينام تقريبا. وذات مرة دخلت عليه زوجته أنا صباحا بادية الفرح، بل ومتهللة:

- العجوز استرخت... أظنها ستلد الليلة...

في ذلك المساء رقد دون ان يخلع ملابسه، ولم يطفىء شعلة المصباح. وخرج الى البقرة سبع مرات! وفي المرة الثامنة فقط، قبيل الفجر، وقبل ان يفتح زريبة البقرة سمع انينا عميقا صادرا من الصدر، فدخل. كانت البقرة تفرغ المشيمة، وكان عجل صغير أبيض العرنين منفوش الشعر مرتجف قد فرغت أمه من لحسه، يبحث عن الضرع بشفتيه الباردتين. اختطف كوندرات المشيمة حتى لا تأكلها البقرة*، ثم رفع العجل على يديه، ودفأه بانفاسه الدافئة ودثره بذيل ققطانه، وانطلق به الى بيته.

* كان الاعتقاد السائد في الدون الأعلى ان البقرة اذا أكلت المشيمة يحرم حليبها لمدة اثنا عشر يوما. (ملاحظة المؤلف).

هتف فرحاً:

- انه ثورا!

رسمت آنا علامة الصليب وقالت:

- نحمدك، يا الهي! ربنا الرحيم رق لضيق يدنا.
وكان ضيق اليد يمسك بخناق كوندرات الذي لم يكن يملك غير حصان واحد هزيل. وكبر الثور، وعمل جيدا لكوندرات صيفا وفي زمهرير الشتاء، تاركا آثار حوافره المدببة مرات لا تحصى عدداً على الطرق والحقول جارا محراثا او عربة.

وفجأة شعر كوندرات، وهو ينظر الى الثور، بوخزة في حنجرته ولدع في عينيه. طفق يبكي وخرج من الزريبة، كالمتنفس عن نفسه بهذه العبرة التي طفرت الى عينيه. ولم ينم بقية الليل، ورقد يدخن.

... كيف ستكون الحال في الكولخوز؟ هل سيسهر كل انسان ويفهم، مثلما فهم هو بأن الطريق الى الكولخوز هو الطريق الوحيد، والمحتوم؟ مهما يكن مؤسفا فلا بأسف على ان يتخلى وينقل الى الاستخدام العام الماشية التي نمت مع الأطفال على ارضية البيت الترابية، ويجب ان يفعل ذلك. ويسحق هذا الأسف الوضيع على اشيائه، ولا يتركه يتسلل الى قلبه... كان كوندرات يفكر بذلك، وهو مستلق جنب زوجته الشاخرة، مجدقا في حالك الظلام بعينيه المكفوفتين من أثر الظلمة. ثم أخذ يفكر: «والى اين سنأخذ الحملان والمعزات؟ هي تحتاج الى مأوى دافئ، ورعاية كبيرة. وكيف سنفرق بينها، عليها اللعنة، مادامت متشابهة تقريبا. ستحير امهاتها والناس والبقر؟ كيف نزودها بالعلف؟ كم سنخسر؟ وماذا لو يجابه الناس بالصعوبات فيتفرقوا بعد أسبوع؟ عندئذ سأغادر غريمياتشي الى الأبد، واشتغل في منجم. اذ لن يكون لي شيء أعيش منه.

وقبيل الفجر سرح في غفوة. وفي النوم شعر بضيق وانحباس. لم يكن هضم الكولخوز سهلا على كوندرات!

فقد قاسى كثيرا ليقطع الجبل السرى الذي يربطه بممتلكاته، وبثوريه، وبقطعة أرضه العريضة. في الصباح تناول فطوره وقضى وقتاً طويلاً يكتب عريضة الانتساب، مغضناً بعذاب جبينه الملوح بشريط من لفتح الشمس. فكانت كالاتي:

«الى الرفيق ماكار ناغولنوف رئيس خلية غريمياتشي للحزب الشيوعي.

عريضة

أنا، كوندرات خريستوفوروف مايدانيكوف، الفلاح المتوسط الحال، ارجو قبول انتسابي الى الكولخوز مع زوجتي واطفالي، وكل ماشيتي وملكيتي الأخرى. وأرجو قبولي الى الحياة الجديدة، لأنني موافق عليها تماماً.

ك. مايدانيكوف»

سألته زوجته:

- هل انضمت؟

- انضمت.

- وتأخذ الماشية؟

- سأخذها حالاً... ولكن لماذا تبكين، يا خرعة،

يا حمقاء؟ كم صرفت عليك من الكلام لأقنعك، وتعودين الى دأبك القديم من جديد؟ كنت قد وافقت!

- أنا لا آسف، يا كوندرات، الا على البقرة... أنا

موافقة. ولكن قلبي يؤلمني كثيراً... - قالت باسمة، وهي تمسح دموعها بمئزرها.

وبعد الأم بكت الابنة خريستيشكا، الصبية في عامها

الرابع.

أطلق كوندرات الثورين والبقرة من الزريبة، وألجم الحمان، وساق الجميع الى النهر لتروي. ومان ارتوى الثوران حتى التفتا الى ناحية البيت، ولكن كوندرات سد عليهما الطريق وهو على ظهر حصانه، والغيط يعمل في صدره، ووجهها الى سوفيت القرية.

كانت النسوة يتطلعن من النوافذ لايفارقنها، والقوزاق

ببصبصون من خلف الأسيجة، دون ان يخرجوا الى الشارع. اغتاط كوندرات الا أنه حين استدار وراء المنعطف رأى، بالقرب من سوفيت القرية حشداً ضخماً من الناس والشيران، والخيوال، والاعنام كما في سوق ريفية. وطلع ليوبشكين من زقاق مجاور. كان يجرب بقرة يسير وراءها عجل يتدلى حبل من رقبتة.

- تعال نربط ذيولها، ونسوقها سوية.

حاول ليوبشكين ان يمزح، وان كان ساهما في هيئته جهامة. فقد كلفه غير قليل من العناء خروجه بالبقرة، والخدش الطري على خده شاهد على ذلك.

- من خدشك هذا الخدش؟

- زوجتي، ولا اخفي عليك! هجمت هذه المرأة اللعينة على البقرة - وحشر ليوبشكين طرف شاربه في فمه، وغمغم في ضيق - هجمت كالدبابة، وحصلت بيننا مذبحة عند الزريبة، والآن لا نستطيع ان نواجه الجيران من الخجل. هجمت علي بمقلاة ألا تصدق؟ واقول: «ها، تضربين نصيرا أحمر؟ وتتصورينني لا أقدر عليك، بينما كنا نضرب حتى جنرالات! وضربتها على صدغها. كنا فرجة للمتفرج من الخارج على ما أظن...»

وانتقلا من سوفيت القرية الى فناء تيتوك. وكان اثنا عشر فلاحا آخر من الفلاحين المتوسطين قد ترووا اثناء الليل، وجاءوا بماشيتهم وعرائض الانتساب.

في فناء تيتوك كان ناغولنوف ونجاران آخران يسحجون من خشب معالف للماشية، أولى المعالف الجماعية في غريمياتشي لوغ.

الفصل العادي عشر

استغرق كوندرات وقتا طويلا يدق الأرض المتجمدة بالمدق ليصنع حفرا للركائز. وكان ليوبشكين يجاهد الى جانبه. كان العرق يتصبب من تحت قبعته القوزاقية السوداء المخيمة كالسحابة الماطرة، وكان وجهه ملتها.

وكان يهبط بمدقه بضراوة وقوة فاغرا فمه، وكانت كتل
وفتات الأرض المتجمدة تتطاير الى الأعلى، وفي كل
الجهات، وتضرب الجدران تترى. صنعت المعالف على
عجل، وسيق الى الزريبة ثمانية وعشرون زوجا من الثيران
بعد تقييمها من قبل لجنة. دخل ناغولنوف الى الزريبة
وليس عليه غير قميص كاكي لاصق بظهره العرق.

- ما ان رفعت فأسك حتى تصببت عرقا؟ بئس
الشغيل انت، يا ماكار! - وهز ليوبشكين رأسه - انظر
كيف أنا! هاه، هاه، هاه.. مدق تيتوك جيد... ها!
البس معطفك حالا، والا فستصاب بنزلة برد... وينتهي
مفعولك!

ألقى ناغولنوف المعطف على كتفيه. وبالتدرج غاضت
من وجهه الحمرة القانية كالدم.

- هذه من الغازات السامة. ما ان أشتغل أو أصعد
مرتفعا حتى ألهث، وتسرع دقات قلبي... أهذه الركيزة
الاخيرة؟ هذا جيد! انظر أي استثمار لنا الآن! - واجال
ناغولنوف عينيه اللامعتين الساخنتين في الصف الطويل من
الثيران، المصفوفة على طول المعالف الجديدة الفواحة
برائحة الخشب المنجور حديثا.

جاء رازميوتنوف وديمكا اوشاكوف، بينما كانوا يوزعون
الأبقار في الزريبة المكشوفة. انتحى رازميوتنوف
بناغولنوف ناحية، وامسك يده.

- ماكار، يا صديقي. لاتزعل على ما حصل يوم
أمس... سمعت صياح اطفال، فتذكرت ابني. فشعرت
بخنقة...

- بودي لوأخنقك، أيها اللين اللعين!

- بالطبع، بالطبع! ومن عينيك أرى أن قلبك قد

فتر نحوى.

- كفاك، يا ثرثار. الى اين ذاهب؟ يجب جلب القش.

اين دافيدوف؟

- انه في سوفيت القرية ينظر في عرائض الانتساب

مع البائع الشاري. وأنا ذاهب. ما يزال لدي بيت كولاكي
لم يمس بعد. بيت سيميون لابشينوفا...
ابتسم ناغولنوف قائلاً:

- وهل ستعيد الحكاية، حين تعود منه؟
- دعك! من أخذ معي من الرجال؟ يبدو أن الحابل
اختلط بالنابل كما في القتال. الماشية تجر هنا، والقش
يجلب هناك. بل أن بعضهم جاء بالبذور أيضاً. لقد أعدتها
من حيث جاءت. فيما بعد سنشتغل بالبذور. من سأخذ معي
ليساعدني؟

- خذ كوندرات مايدانيكوف. يا كوندرات! ايه، تعال
الى هنا. اذهب مع الرئيس لنفض الكولاكي لابشينوفا.
لاتخوف؟ والا فان الآخرين لا يرغبون. هناك من يقرعهم
ضميرهم، مثلاً تيموفي بورتشيف... لا يخجل من لعق
احذية الكولاك، ولكن ضميره يقرعه من اعادة ماذهب من
قبل...

- بالتأكيد، ولم لا اذهب؟ سأذهب، عن طيب خاطر.
تقدم ديمكا اوشاكوف. وخرج الثلاثة الى الشارع. نظر
رازميوتنوف الى كوندرات، وسأل:

- ما لي اراك عبوساً؟ يجب ان نفرح، وانت ترى العزبة
تنتعش، مثل خلية نمل مهاجرة.
اجاب كوندرات بجفاف:

- لا داعي الى استعجال الفرح. سنجابه صعوبة.

- بأي شيء؟

- بالزرع وبرعاية الماشية. هل ترى هناك؟ ثلاثة
يعملون وعشرة يقرقصون تحت السياج يدخلون السكاثر.
- سيعمل الجميع! هذا في البداية. اذا كان احدهم
لا يجد ما يضعه تحت أسنانه، سيقل تدخينه، على ما اظن.
في المنعطف لاحت زلاجة مقلوبة. والى جانبها حزم
الدريس المتناثر، وحطام زحافاتهما. وكان الثوران غير
مشدودين اليها يمضغان النجيل الأخضر الساطع في
الثلج. وكان فتى في ريعان الشباب - هو ابن سيميون

كوجينكوف المنتسب الى الكولخوز - يلم الدريس بمذرة ثلاثية.

- مالك تتحرك كمن يسلم الروح؟ كنت في مثل عمرك وكأنتي على زنبرك! أهكذا يعمل الناس حقاً؟ طيب، هات المذرة - وانتزع ديمكا اوشاكوف المذرة من يدي الفتى الباسم، وتنحج ورفع الى الأعلى حزمة كاملة. سأل كوندرات، وهو يتفحص الزلاجة:
- كيف انقلبت بها؟

- لدى انحدارها من المنحدر. ألا تعرف كيف؟
- اسرع لجلب فأس، خذها من عند دونيتسكوف. رفعوا الزلاجة، وسحجوا لها دعائم، وثبتوها عليها. قام ديمكا بالتحميل، وسوى الدريس بالمدمة.
- أوه، كوجينكوف، كوجينكوف! وددت لو أدبغ جلدك غير المدبوغ، انظر كم داست الثيران من الدريس! كان الاخرى بك أن تسوقها الى السياج، وتفرد لها ضمة من الدريس، وتركها تأكل. من يتركها تسرح وتمرح؟

ضحك الفتى، وحرك الثيران.
- هي الآن ليست لنا، بل للكولخوز.
- هل رأيتما مثل ابن الكلبة هذا؟ - ونظر ديمكا الى كوندرات ورازميوتوف بعينيه المتباعدتين على طرفيهما، وشتم شتيمة مقذعة.

وبينما كان يجري تسجيل ممتلكات لابشينوفا تجمع في الفناء حوالي ثلاثين شخصاً معظمهم نساء من البيوت المجاورة، والقليل منهم قوزاق. وحين عرضوا على لابشينوفا، وهو عجوز طويل اشيب مدبب اللحية. أن يترك البيت، تردد في الجمع المحتشد في البيت همس وكلام خافت.

- هكذا! كسب وجمع، وعلى غفلة أخرج من بيتك.
- نعمة مقبضة...
- أظنه سيتأذى! ها؟

- كل جرح يؤلم صاحبه.
 - ليس بالهين عليه، على ما تصور. ولكنه لم يفكر بهذا حين أخذ من تريفونوف ملكه ردا لديونه في العهد السالف؟..

- الصاع بالصاع...
 - هذا ما يستحقه، الشيطان، ابو لحية الماعز! سمطوا له عجيزته!..

- حرام عليكم، يا نساء، أن تفرحن بمصائب الآخرين.
 فلربما ستصين بها في المستقبل القريب.
 - لا نظن! ما لدينا هو ما علينا.
 - في الصيف أخذ مني عشرة روبلات كاملة لقاء استخدامي لحصادته لمدة يومين. اهذا ضمير؟
 كان لابشينوفا يعتبر، منذ زمان، رجلا صاحب مال.
 كان الناس يعرفون أنه كان يملك ثروة غير قليلة حتى قبل الحرب، لأن هذا العجوز كان لا يستنكف من أخذ نسبة مئوية كبيرة من الفائدة على الديون التي يقرضها، ويتاجر بالمسروقات خفية. في أحد الاوقات كانت تسري شائعات قوية بأنه كان يخبئ الخيول المسروقة في زربته. وحيانا، وفي الليالي في الغالب، كان العجوز وتجار الخيول يترددون عليه. كما زعم ان الخيول المسروقة كانت تمر من خلال يديه المعروقتين لتتخذ طريقها الي تساريتسين. وتاغانروغ، واوريوبينسكيا. وكانت العزبة تعرف معرفة اليقين ان لابشينوفا في العهد البائد كان يذهب الى الدسكرة حوالي ثلاث مرات في كل عام ليبادل عملة يكاترينا الورقية بالليرات الذهبية الامبراطورية بل وحدثت محاولة في عام ١٩١٢ «مداعبة كيس نقوده» الا أن لابشينوفا - العجوز الضخم والقوى صد هجوم قطاع الطرق بقضيب حديدي، وفر بحصانه. وهو نفسه لم يكن يتورع عن الانتفاع بأموال الآخرين. فقد وجد في شبابه متلبسا في نقل حزم الآخرين من سنابل الحبوب في السهب، أما في شيخوخته فقد تعود تماما على أخذ ما ليس له. وكان من

شدة بخله يشعل في الكنيسة شمعة بكوبيك واحد أمام
 ايقونة القديس نيقولاى ميرليكيسكى وما ان تحترق
 قليلا، حتى يتقدم منها ويطفئها، ويرسم علامة الصليب،
 ويحشرها في جيبه. وهكذا كانت الشمعة الواحدة تكفيه
 لمدة سنة، وكان يرد على الذين يعاتبونه على هذا التقدير
 الزائد، وتقصيره في التزاماته ازاء الرب: «الله اذكى
 منكم، ايها الحمقى! وهو لا تهمة الشمعة، بل الشرف.
 والله لا يقبل بخسارتي. بل انه قرع بسوطه المتاجرين
 بالنقود في كنيسته».

استقبل لابشينوف بهدوء نبأ تجريده من ملكيته. فقد
 خبأ كل الاشياء الثمينة مسبقا، او نقلها الى ايد أمينه. وكان
 بنفسه يساعد في وضع قائمة بممتلكاته، وكان يضرب
 الأرض بقدمه تهديدا لزوجته المتباكية، وبعد دقيقة كان
 يقول بخضوع:

- لا تبكى، يا أم، الرب أدرى بعذاباتنا. وهو،
 الرحيم، يرى كل شيء...

فسأل ديمكا بجدية وبنفس اللهجة:

- طيب، وهل يدرى أين خبأت معطفك الفرائي الجديد؟

- اى معطف؟

- المعطف الذى كنت ترتديه في الكنيسة يوم الأحد

الماضي.

- لم يكن لدى معطف جديد.

- كان لك، واختفى فجأة!

- ما هذا، يا ديمكا، احلف لك بالرب أنه لم

يكن لدى.

- الرب سيعاقبك، يا جد سيسمرك!

- المسيح سيجازيك على... - ورسم لابشينوف

علامة الصليب.

- انت تجلب الاثم على نفسك! - وغمز ديمكا

للجمع، معتصرا البسمات من النساء والقوزاق.

- لست خاطئا امامه، بصراحة!

- طمرت ذلك المعطف! ستحاسب يوم القيامة!
لم يصطبر لابشينوفا، فقال محتدا:

- علي معطف املكه؟!

- علي اخفائه!

- ليس الرب فارغ العقل مثلك! لن يتدخل في مثل
هذه الأمور!.. لا يوجد معطف! من العيب عليك أن تسخر
من عبوز مثلي. عيب عليك امام الرب وامام الناس.
فسأله كوندرات:

- ألم يكن عيبا عليك ان تأخذ مني، كما تأخذ من
صغير ثلاث وزنات علي وزنتين من دخن أخذتهما منك
للبنر؟

كان صوته هادئا وفيه شيء من البحة، لا يكاد يسمع في
الضجيج العام، الا أن لابشينوفا استدار اليه بجيويه
الفتي:

- كوندرات! كان ابوك رجلا محترما، بينما أنت...
لا تأثم احتراماً لذكراه، علي الأقل! جاء في الكتاب المقدس
«لا تدفع الساقط». بينما انت كيف تتصرف؟ متى أخذت
منك ثلاث وزنات علي وزنتين؟ والله؟ فهو يرى كل شيء!..
صاحت زوجة لابشينوفا باعلي صوتها:

- يريد الحافي أن يقدم له كل شيء مجاناً!

- لا تزعقي، يا ام! الرب صبر وأمرنا بالصبر.
وهو، المعذب لبس الكليل الأشواك، وبكى بعينين
داميتين...

ومسح لابشينوفا دموعه كدرة بكمه.

هدأت النسوة اللواتي كن يلغظن، ورحن يرسلن
الزفرات. وقال رازميوتنوف بصرامة وكان قد أكمل
كتابته:

- طيب، يا جد لابشينوفا، اخرج من هذا البيت.
دمعتك لا تبعث علي الأسى الكثير. لقد أسأت للكثيرين
من الناس. والآن جاء دورنا لنحاسبك، بدون الرب. أخرج!
أمسك لابشينوفا يد ابنه الابله المعقود اللسان ووضع

طاقيته على رأسه، وخرج من البيت. اندفع جمهور الناس في أثره. في الفناء ركع العجوز على ركبتيه، وقد فرش ذيل فروته على الثلج مسبقاً، ورسم علامة الصليب على جبينه المقطب، وانحنى ساجداً في كل الجهات الأربع.

أمره رازميوتنوف قائلاً:

– هيا، هيا!

الا أن حشد الناس أخذ يطن طيننا اصم، وترددت صرخات.

– على الأقل اتركوه يودع ممتلكاته العزيزة!

– لا تكن طائشاً، يا اندريه! الرجل على حافة قبره

وأنت...

صاح كوندرات:

– كان الأولى به ان يكون في قبره الآن، للحياة

التي عاشها.

قاطعه العجوز غلاديلين سادن الكنيسة:

– تتزلف للسلطة؟ أمثالك يستحقون الضرب.

– ايها الكسيح، سأضربك ضرباً لا ترى فيه طريقك

الى بيتك!

ظل لابشينوفا يوزع الانحناءات، ويرسم علامة الصليب،

ورأح يتكلم بصوت عال ليسمعه الجميع، وليحرك قلوب

النسوة السريعات التأثر:

– وداعاً، يا مؤمنون! وداعاً، يا اعزاء! يعطيكم الله

الصحة... تمتعوا بملكي. عشت واشتغلت بنزاهة...

قاطعه ديمكا من وقفته عند مدخل البيت:

– كنت تشتري المسروقات!

– ... خبزي اليومي كنت أكسبه بعرق جبينني...

– كان يخرب الناس، ويأخذ الريح، ويسرق بنفسه،

تندم! وددت لو أمسكك من خناقك، ايها الكلب الفاجر،

واضربك بالارض!

– ... اقول خبزي اليومي، والآن، في شيخوختي...

اخذت النسوة ينسجن من انوفهن، ومسحن عيونهن

باطراف مناديلهن. هم رازميوتنوف برفع لابشينوف،
واخراجه من فناء البيت، وصاح: «لاستغفر، والا...» واذ
بضحيج ولغظ ينبعثان من مدخل البيت، حيث كان ديمكا
واقفا، متكئا على الدرايزين...

طلعت زوجة لابشينوف ناطة من المطبخ، تحمل في
احدى يديها سلة من بيض الوز للتفقيس، وفي الثانية
وزة وادعة مبهورة من الثلج وسطوع الضوء. أخذ ديمكا
الكيس منها دون عناء، الا ان الزوجة تشبث بالوزة بكلتا
يديها.

- لا تمسها، ايها الكافر! لا تمسها!

- الوزة الآن للكولخوز!.. - زعق ديمكا، ممسكا
الوزة من عنقها الممدود.

كانت زوجة لابشينوف تمسك الوزة من رجليها. وظل
كلاهما يجر الوزة اليه، ويسحب احدهما الآخر على مدخل
البيت.

- فك يدك، يا حول.

- سأفك لك يدك!

- اقول لك: اتركها!

- هذه وزة الكولخوز - صاح ديمكا منقطع الانفاس
ستفرخ لنا في الربيع... ابتعدى، يا عجوز، والا...
ستفرخ!.. أخذتم حصتكم...

ثبتت العجوز قدمها بعتبة الباب، وجرت الوزة نحوها،
وتناثر لعابها، في البداية كانت الوزة تصيح بصوت مكرب،
ثم همدت. والظاهر أن ديمكا ضيق عليها خناقها، الا أنها
ظلت ترفرف بجناحيها بسرعة جنونية. وتطير الزغب
والريش منها فوق مدخل البيت كندف الثلج. وبدا وكأن
ديمكا سيتغلب في اللحظة التالية، وينتزع الوزة شبه
الميتة من يدى الزوجة العجوز النحيفتين، ولكن رقبة الوز
الهشة قرقت في تلك اللحظة قرقة خفيفة، وانقصفت.
سقطت العجوز على الدرجات مكربة، وأذيال ثوبها فوق
رأسها. اما ديمكا فقد تأوه من المفاجأة، وسقط، ورأس

الوزة باق في يده على السلة التي كانت وراءه، كاسرا البيض بثقله. انفجر الضحك في قهقهة عالية أوقعت مواشير الجمد من السطح. نهض لابشينوفا من ركبتيه، ولبس قبعته، واستشرى، وجذب يد ابنه المروول غير المكترث لشيء، وجره من الفناء بما يشبه العدو. نهضت زوجته العجوز مسودة الوجه من الغيظ والألم نفضت تنورتها، وامتدت الى الوزة التي كانت تلبط عند الدرجات، إلا أن كلبا اصفر من كلاب الصيد كان يحوم قرب مدخل البيت رأى الدم يتدفق من عنق الوزة، وثب فجأة منفوش الشعر، واختطف الوزة من تحت أنف العجوز، وجرها في الفناء وسط صفير الأولاد وتهليلهم.

القي ديمكا في اثر العجوز رأس الوزة الذي كان ما يزال ينظر الى العالم بعينه البرتقالية الداهلة الى الأبد، ودخل الى البيت. ولوقت طويل بعد هذا ظلت نوبات الضحك ورنين الاصوات تعلو فوق الفناء والزقاق مروعة ومشردة العصافير من الاغصان الجافة.

الفصل الثالث عشر

كانت الحياة في غريمياتشي لوغ تشب شبوب فرس جموح أمام عقبة كداء. كان القوزاق يجتمعون نهارا في الازقة والبيوت، ويتجادلون، ويتحدثون عن الكولخوزات، ويطرحون الاقتراحات، كانت الاجتماعات تعقد كل مساء في غضون اربعة ايام متتالية، وتستمر حتى صياح الديكة في الفجر.

وخلال تلك الايام نحل ناغولنوف وكانما سقط صريع المرض لفترة طويلة. الا أن دافيدوف احتفظ، كالسابق، بهدوئه الظاهري، سوى أن ثنيات العناد العميقة فوق شفتيه، وحوافي خديه كانت اكثر حدة. كما استطاع على نحو ما أن يزرع الثقة في نفس رازميوتنوف السريع التهيج عادة المستسلم بسهولة الى هلع لامبرر له. وكان

اندريه يتجول في العزبة متفقدا زرائب الماشية الجماعية. والنظرة الساخرة الواثقة تطوف في عينيه المشوبتين بالغضب. وكان كثيراً ما يقول لاركاشكا البائع الشاري الذي ترأس الكولخوز والسلطة الكولخوزية حتى الانتخابات:

- سنريهم! سينضم الجميع الى الكولخوز.

ارسل دافيدوف الى لجنة المنطقة الحزبية خيالا يخبرها بان الكولخوز في الوقت الحاضر لا يضم غير اثنين وثلاثين بالمائة من الفلاحين، ولكن العمل في ضمهم الى الكولخوز مستمر بوتائر قياسية.

سكن الكولاك الذين طردوا من بيوتهم في بيوت اقاربهم والمقربين اليهم. ارسل فرول الاشرم ابنه تيموفي الى المدعى العام في مركز الاقليم، وسكن في بيت صديقه بورتشيف، وهو نفس الشخص الذي امتنع عن التصويت في اجتماع فقراء الفلاحين في حينه. وكان نشطاء الكولاك يجتمعون في بيت بورتشيف الضيق المؤلف من حجرتين. كانوا ينسلون الى بيت بورتشيف في النهار عادة، شخصاً شخصاً أو شخصين شخصين، داخلين من الابواب الخلفية وسقائف الدريس حذرا من أن يلفتوا انظار الناس، أو يثيروا انتباه سوفيت القرية. كان يتردد غايغ دافيد، والمحتال المتأصل لابشينوفا الذي صار، بعد تجريده من ملكيته الكولاكية، «الهائم بحب المسيح». ومن حين لآخر كان يأتي ياكوف لو كيتش اوستروفنوف يتحسس الوضع. وكان يأتي الى «المقر» بعض الفلاحين المتوسطي الحال الذين عارضوا الكولخوز معارضة قاطعة: نيقولاى ليوشنيا وآخرون. بل كان الى جانب بورتشيف فلاحان من الفقراء أحدهما القوزاقي فاسيلي اتامنتشوكوف الطويل العديم الحاجبين، الصموت ابدأ، العارى الحليق الرأس والوجه كالبيضة. وثانيهما نيكيئا المدفعي في بطارية الحرس، والذي كان يخدم عند بودتيلكوف، وتملص من الاشتراك في الحرب الأهلية، ومع ذلك وجد نفسه في عام ١٩١٩ يخدم في فصيلة التنكيل تحت امرة الكالميكى العقيد

اشتيموف. وهذه الحقيقة حددت ايضا حياة خوبروف فيما بعد، في عهد السلطة السوفيتية. وقد رآه ثلاثة أشخاص من أهل العزبة - ياكوف اوستروفونوف وابنه والعجوز لابشينوفا - اثناء التراجع عام ١٩٢٠ في فصيلة اشتيموف في كوشيفكا، وعلى كتافيته الشريط الأبيض لملازم ثان، وراؤه يسوق ثلاثة قوزاق كالميكين آخرين عمالا معتقلين من مستودع القطارات الى اشتيموف للاستجواب... رأوه... وكم عانى خوبروف بعد عودته من نوفوروسيسك الى غريمياتشي لونغ، حيث عرف أن اوستروفونوف وابنه ولابشينوفا سلموا ولم يصبهم اذى! وكم قاسى هذا الحرس المدفعي الجسيم من هلع في تلك السنوات القاسية في ملاحقة المعادين للثورة! ان خوبروف الذى كان يمسك أى فرس من رسغ قدمه الخلفية، اثناء تنعيه، كان يرتجف كورقة بلوط ذبلت من زمهرير اوأخر الخريف، حين كان يلتقي لابشينوفا بالباسم بدهاء. وكان يخافه اكثر من الجميع. كان يلتقيه فيقول له بصوت مبجوح محركا شفثيه بجهد:

- يا جدد، لا تخرب حياة قوزاقي، ولا تش بي!

فكان لابشينوفا يهدئه بغيظ مصطنع:

- ما هذا، يا نيكيتا! المسيح يحفظك! ألا تراني

أحمل قلادة الصليب؟ والمنقذ قد علمنا: «أحب لأخيك ما تحبه لنفسك» اخرج من ذهنك أنني سأشي بك. لو ذبحوني لن افعل. هذه طبيعتي... فقط أن تساعدني، اذا... ربما سيترك أحد ضدى في الاجتماع أو أقع في مأزق مع السلطة... احمني، عند الحاجة... اليد الواحدة عون للأخرى. والحديد لا يفل الا بالحديد. أليس كذلك؟ كما اريد ان اطلب منك أن تكون لي عوناً في الحراثة. فقد وهبني الرب ابناً ليس كامل العقل، وهو لا يصلح لأن يكون عوناً، كما أن تأجير يد عاملة أمر يكلف غالياً.

وكان نيكيتا خوبروف «عون» لابشينوفا عاماً بعد عام.

فكان يحرق مجاناً، ويسوى التربة و يدرس حنطة لابشينوفا

بدراسة لابشينوفا. ثم كان يذهب الى بيته بعد ذلك،
ويجلس الى الطاولة، ويظمر في يديه المتصلبتين وجهه
العريض الاصهب الشاربين. ويفكر: «الى متى ستستمر
هذه الحال. سأقتله!»

لم يكن ياكوف لو كيتش اوستروفونوف يلح برجاءاته،
ولا يلجأ الى التهديد، وكان يعرف أن الساعة اذا حلت
فانه سيطلب شيئا أكبر من زجاجة فودكا ولن يجرؤ
خوبروف على رفض رجائه. أما الفودكا التي كان غالبا ما
يشربها ياكوف لو كيتش عند خوبروف، فقد كان على
الدوام يشكره عليها قائلا: «شكرا على الضيافة».
فكان خوبروف يقول في سره ضامنا بكره قبضته
الضخمة: «عساك أن تختنق بها!»

كان بولوفتسيف ما يزال حتى ذلك الحين يقيم عند
ياكوف لو كيتش، في حجرة جلوسه الصغيرة، حيث كانت
أم ياكوف العجوز تحتلها من قبل وبعدها أخذت تنام على
سطح الموقد، وكان بولوفتسيف يدخل في الحجرة
بلا انقطاع تقريبا، مستلقيا على الاريقة القميئة، مسندا
قدميه المعروقتين الحافيتين على قرميد الموقد. وفي الليل
غالبا ما كان يطوف في البيت الهاجع (حيث دهنت مصاريع
الابواب بدهن الوز بعناية، فلا ترسل صريرا). واحيانا كان
يلقى فروة على كتفيه، ويطفىء سيكارتته، ويذهب لتفقد
حصانه في سقيفة قشور الحبوب. فكان الحصان الملول
يستقبله بنخير مكبوت راعش، وكأنما كان يعرف أن هذه
اللحظة ليست مناسبة للافصاح عن مشاعره بكامل صوته.
وكان صاحبه يمسد عليه يديه، ويتلمس مفاصل قوائمه
باصابعه الحديدية المتصلبة. وذات مرة، في ليلة داجية
تماما أخرجه من السقيفة، وانطلق به الى السهب بلاسرج.
وعاد قبيل الفجر. كان الحصان مبللا، وكأنما اغتسل بعرقه،
يلهث لهاثا شديدا، وفرائصه ترتعد. وفي الصباح قال
بولوفتسيف لياكوف لو كيتش:

- كنت في دسكرتي. انهم يبحثون عني هناك...

والقوزاق على أهبة الاستعداد، لا ينتظرون الا أن يصدر الأمر لهم بالانتفاض.

وهذا بمثابة تحريض له، حين عقد فلاحو غريمياتشي لوغ اجتماعهم الثاني بخصوص الكولخوز، خطب ياكوف لوكيتش يدعو الى الدخول الى الكولخوز، ففرح دافيدوف فرحا لا يوصف بخطابه الايجابي، السديد، وبالواحد والثلاثين من طلبات الانتساب التي قدمت مباشرة بعد خطاب ياكوف لوكيتش صاحب المكانة في العزبة، واعلانه الانضمام الى الكولخوز.

أجل، لقد تحدث ياكوف لوكيتش عن الكولخوز بشكل جيد، ولكنه في اليوم التالي طاف في البيوت، واستضاف، على حساب بولوفتسيف، فلاحين متوسطين موثوق بهم مناوئين للكولخوز، وما ان شرب قليلا حتى صار يتكلم شيئا آخر:

- عجيب انت، يا اخ! حري بي أنا اكثر منك أن انضم الى الكولخوز، ولا يجوز لي أن ارفع صوتي ضده. فقد عشت في يسر، وفي وسعهم أن يعتبروني كولاكيا، أما انت فما حاجتك الى ان تدس نفسك هناك؟ ألم تر نيرا من قبل؟ في الكولخوز سيشدون عليك النير، فلا تستطيع أن ترى النور! - ثم يأخذ بالتحدث بخفوفات عما حفظه عن ظهر قلب بشأن الانتفاضة الوشيكة الوقوع، وعن اشاعة الزوجات، واذا ما كان المستمع اليه سهل الانصياع، مستعدا لكل شيء لما يضر من ضغن، فانه يروح يستميله، ويستنطقه، ويهدده بالتنكيل، حين يأتي «اصحابنا» من وراء الحدود، وفي النهاية يحصل على مبتغاه، فينصرف منتزعا الموافقة على الانضمام الى «الحلف».

سار كل شيء سيرا حسنا وموفقا. فقد كسب ياكوف لوكيتش زهاء ثلاثين قوزاقيا، محذرا اياهم بشكل قاطع بالأ يتحدثوا بشيء لأحد عن انضمامهم الى «الحلف» وعن الحديث معه. ولكنه ذهب ذات مرة لينهي الأمر في مقر الكولاك (كان له ولبولوفتسيف اعتماد راسخ على الكولاك

المصادرة أموالهم، واولئك المتجمعين حولهم، ولهذا أجلا حتى نهاية الأمر ضم هؤلاء باعتبار ذلك أمرا ليس بالصعب. وهنا حصلت اول كبوة... التف ياكوف لو كيتش بقفطانه، وذهب الى بورتشيف قبيل المساء. كانت الحجرة الامامية الصغيرة غير المأهولة مدفأة بموقد صغير، وكان الجميع حضورا. كان رب البيت - تيموفي بورتشيف - راكعا على ركبتيه، يحشر في فتحة الموقد قطعاً صغيرة من الاغصان وكان فرول الاشرم، ولا بشينوف وغايف، ونيقولاي ليوشنيا، وفاسيلي اتامنتشوكوف، والمدفعي خوبروف جالسين على المساطب، وفي الركن على أكوام من القرع الصالح للأكل المشروط بالشرط برتقالية وسوداء مثل اشربة القديس غيورغي. وكان تيموفي بن فرول الأشرم الذي كان قد عاد لتوه من مركز الاقليم في ذلك اليوم يقف وظهره الى النافذة. كان يحدثهم كيف استقبله المدعي العام بجهامة، وكيف أراد ان يعتقله ويعيده الى المنطقة بدلا من أن ينظر في شكواه. دخل ياكوف لو كيتش، فصمت تيموفي، الا أن اباه شجعه قائلا:

- هذا من جماعتنا، يا تيموشا، فلا تخف منه.

فرغ تيموفي من روايته. وقال بارق العينين:

- اصبحت الحياة بحيث اتمنى لو تكون لدي عصابة

الآن، فامتطي فرسي، وأخذ بسفك دماء الشيوخ!

أكد ياكوف لو كيتش قائلا:

- نعم، صارت الحياة مرهقة، والحمد لله اذا لم تترد

الى اكثر من ذلك...

قال فرول الاشرم محتدا:

- وأي شر آخر ننتظر اكثر من ذلك؟ انت لم يمسوك

بشيء فانت في نعيم. أما أنا، فأخذوا يأكلون خبزي. كناء،

أنا واثت، متساويين تقريبا في عهد القيصر. أما الآن فأنت

كما كنت، بينما انتزعوا مني آخر حذاء لي.

- لا اعني انني اخشي أن يحصل لي شيء.

- ماذا اذن؟

- اخشي أن تنشأ حرب.
- عسى الرب أن يسمع من فمك! اجعلها تقع يا قديس يغور المظفر! ولو حالا! يقول الكتاب المقدس...
- كنا سنحارب بالخوازيق، كما فعل أهالي فيوشينسكي في عام ١٩١٩.
- سأنتزع عروقهم، وهم أحياء... آه!..
- كان اتامنتشوكوف الذي جرحته حنجرته عند الدسكرة فيلونوفسكيا، يتكلم بصوت نحيل غير واضح، مثل مزارم الراعي:
- الناس ركبهم الشيطان، وسيحاربون باسنانهم وما ملكت ايديهم!..

لمح ياكوف لو كيتش بحذر الى أن الوضع في الدساكر المجاورة غير هادئ، بل زعم أن الشيوعيين في بعض الاماكن يعادون الى الرشد، على الطريقة القوزاقية، مثلما كانوا في الماضي يلقنون الاتامانات غير المرغوب فيهم المتحالفين مع موسكو، ويلقنونهم بطريقة بسيطة، وهي أن يربطوا رؤوسهم في اكياس، ويلقوهم في الماء. كان يتحدث بهدوء واتزان وترو في كل كلمة يقولها. وأشار بشكل عابر الى أن القلاقل تعم إقليم القفقاس الشمالي، وأن الزوجات قد عممت بالفعل في الدساكر السفلى، وأن الشيوعيين هم أول من ينامون مع زوجات غيرهم علنا، ومن المنتظر نزول القوات الأجنبية في الربيع. وقد سر له ذلك ضابط يعرفه خدم معه في فوج واحد، حين مر بغريمياتشي لوغ قبل اسبوع. ولم يخف ياكوف لو كيتش غير شيء واحد، وهو أن هذا الضابط ما يزال مختبئا عنده.

سأل نيكيتا خوبروف وكان صامتا حتى ذلك الحين:

- ياكوف لو كيتش، الافضل ان تقول لي ماذا سنفعل بعد أن ننتفض ونقضي على الشيوعيين في دسكرتنا؟ قد نتغلب على الميليشيا، ولكن ماذا لو ارسلوا الينا وحدات الجيش من المحطة؟ ماذا سيكون من أمرنا عند ذلك؟ من

سيقودنا ضدهم؟ لا ضباط عندنا، ونحن جهلة، نكتشف طريقنا بالنجوم... بينما القوات في الحرب لا تهتدى الى الطرق بالتلمس، بل تبحث عنها في الخطط، والخرائط ترسم في مقرات الاركان. ستكون لنا أيد، ولكن بلا رأس. - وسيكون لنا رأس ايضا! - أكد ياكوف لو كيتش بحرارة - سيظهر ضباط، أكثر تعلمًا من الامراء الحمر. كانوا طلاب عسكرية قبل أن يصيروا رؤساء وقد تدارسوا العلوم النبيلة. وهل للحمر مثل هؤلاء الامراء؟ هل نأخذ صاحبنا ماكار ناغولنوف مثلا، على الأقل؟ يستطيع أن يقطع رأسا، ولكن هل يستطيع ان يفقد وحدة؟ مستحيل! وهل يفهم في الخرائط؟

- من أين سيظهر الضباط؟

- ستلدهم النساء! - قال ياكوف لو كيتش في غيظ. - اوه، نيكيتا، مالك لزقت بي لزقة البعرة في الية الخروف؟ «من اين؟ من اين؟»... وهل اعرف من أين؟ - سيأتون من خارج الحدود، سيأتون بالتأكيد! - قال فرول الاشرم مشجعا، وتلذذ مسبقا بالانقلاب الذي سيحصل، وبحلاوة الانتقام الدموية فارتعش منخره السليم الوحيد، فراح يمتص به هواء الحجرة الداخن. نهض خوبروف، ودفع القرعة بقدمه، وقال بمهابة ممسدا شاربيه الأصهبين:

- وليكن ذلك... ولكن القوزاق الآن فقط صاروا متعقلين. في الماضي كانت انتفاضاتهم تقمع بالموت. ولن يقدموا الآن. كوبان لن يساند... ضحك ياكوف لو كيتش في شاربيه الاشيبين، وأكد قائلا:

- سيقدمون كرجل واحد! وكوبان ايضا سيشتعل كله اشتعال النار في الهشيم. في العراك دائما كالأتي: مرة انت تحت تضغط الارض بكتفيك، وبعد لحظة تجد نفسك فوق منبطحا على عدوك، تسحقه. - لا، يا اخوان، افعلوا ما تشاؤون، ولكنني غير

هو افق على ذلك! - قال خوبروف متثلجا من دفق العزم في اعطافه - لن انهض ضد السلطة، ولا أنصح الاخرين بأن يفعلوا ذلك. وانت، يا ياكوف لو كيتش، عبنا ان تحرض الناس على مثل هذه الافعال... الضابط الذي قضى الليل عندك شخص غريب مريب. يعكر الماء، وينسحب وعلينا نحن ان نشربه من جديد. في هذه الحرب حرضونا ضد السلطة السوفيتية، ووضعوا الشارات على اكتاف القوزاق، وخبزوا. منهم ضباطا نصف ناصجين، بينما هم لاذوا في المؤخرة، في مقرات الاركان، يتسلون مع السيدات الناعمات... تذكر حين وصل الأمر الى دفع الحساب، من الذي دفع عن الخطايا العامة؟ في نوفوروسيسك قطع الحمر رؤوس الكالميكين في المرافىء، وفي نفس الساعة ركب الضباط والأعيان البواخر وسافروا الى الاقطار الدافئة. سيق جيش الدون كله الى نوفوروسيسك كما يساق قطع الاغنام، والجنرالات؟ ايه! نعم، واريد أن أسألك، بالمناسبة، «صاحب النبالة» الذي بات عندك، أما يزال محتميا في بيتك؟ لاحظتك مرتين تنقل الماء، الى سقيفة القشور... فاقول لنفسى: ما حاجة لو كيتش الى نقل الماء الى هناك، وأى شيطان يسقى؟ وبعد ذلك سمعت صهيل حصان.

وراقب خوبروف وجه ياكوف لو كيتش بتلذذ، وهو يكتسى لون شاربيه الاشبيين. وشاع الارتباك والذعر في الجميع. وامتلا صدر خوبروف بفرح وحشي، فكان يلقي الكلمات، ويتسمع اليها وكأنها صادرة من شخص آخر. قال ياكوف لو كيتش بصوت كامد:

- لا يوجد عندى أى ضابط. والصهيل الذي سمعته هو صهيل فرسى، أما عن الماء فانا لم أحمله الى سقيفة القشور، احيانا ارفع فضلات الماء... فنحن نحفظ بخنزير هناك.

- أنا اعرف صوت حصانك، فلا تخدعني! ثم ماذا يعني؟ أنا لا اتدخل في شؤونكم، بينما انتم... لبس خوبروف طاقيته، ونظر في الجانبين، وسار الى

الباب. وقف لأبشينوفا في طريقه. وكانت لحيته الشائبة ترتعش. سأل، وهو يعكف ركبتيه بشكل غريب، ويبسط ذراعيه:

- هل ستذهب لتشي، يا يهوذا؟ أيها المباع؟ وماذا لو قلت أنك كنت في عمليات التنكيل، مع الكالميكين؟..
- لا تستعجل، يا شيخ! - قال خوبروف بضراوة باردة، رافعا قبضته المسبوكة الى مستوى لحيه لابشينوفا - في البداية سأخبرهم عن نفسي، فاقول لهم: اشتركت في عمليات التنكيل، وكنت ملازما ثانيا عندهم، فاحكموا... ولكن انتم ايضا يجب ان تكونوا على حذر... انت، أيها الرسن الرث، انت ايضا... - وتقطعت انفاس خوبروف وفتح صدره العريض مثل منفاخ الحداد - انت كنت تمتص دمي دائما! على الأقل ان افوز عليك مرة واحدة!

ولطم لابشينوفا على وجهه لكمة مجترئة، ودون ان يرفع ذراعه، وخرج، صافقا الباب، دون ان ينظر الى العجوز الذي سقط على عضادة الباب. جلب تيموفي بورتشيف جردلا فارغا. ركب لابشينوفا عليه، وراح الدم ينزف من منخرينه، وكما من وريد مشقوق.

وفي الصمت المأزوم لم يكن يسمع غير نسيج لابشينوفا، وصريف أسنانه، وقطرات الدم وهي تنزل من لحيته على جدران الجردل.

قال غايغ الكولاكي المخلوع ذو العائلة الكثيرة العدد:
- وقعنا الآن!

وعلى الفور وقف نيقولاى ليوشنيا، وغادر البيت دون ان يودع أحدا، ودون أن يضع القبعة على رأسه. وفي اثره خرج اتامنتشوكوف وقورا، بعد أن قال مودعا بصوت رفيع أبح:

- يجب ان نتفرق. والا فلاخير ينتظرنا.
جلس ياكوف لوكيتش بضغ دقائق صامتا. وأحس بأن قلبه قد تورم، وتدحرج الى بلعومه. فتعسر عليه

التنفس، وراح الدم يدق في رأسه بالحاح، والعرق البارد يتفصد على جبينه. وأخيراً وقف، حين كان الكثيرون قد أخرجوا، وقال لتيموفي الأشرم بهدوء وهو يتجنب لابشينوفا المنحني على الجردل باستنكاف:

- تعال معي، يا تيموفي!

لبس هذا سترته وقبعته في صمت. وخرج الاثنان. وكانت الانوار الأخيرة تطفأ في انحاء العزبة.

سأل تيموفي:

- الى أين نحن ذاهبان؟

- إلى بيتي.

- ولماذا؟

- ستعرف فيما بعد. دعنا نسرع.

مر ياكوف لوكيتش بسوفيت القرية متقصداً، ولم يكن في المبنى ضوء، وكانت النوافذ مظلمة. دخلا فناء ياكوف لوكيتش. وتوقف ياكوف لوكيتش عند المدخل، ومس ردن سترة تيموفي.

- انتظر هنا قليلاً. سأناديك بعد.

- طيب.

دق ياكوف لوكيتش، سحبت كنته المزلاج.

- أهذا أنت، يا أب؟

- أنا.

وسد الباب وراءه بإحكام، ودق باب الحجرة الأمامية قبل أن يلج الى داخل البيت. صدر صوت مبجوح قليلاً وواطيء التبرة يسأل:

- من؟

- هذا أنا، يا الكسندر انيسيموفيتش. ممكن؟

- ادخل.

كان بولوفتسييف يجلس الى طاولة صغيرة مقابل نافذة أسدل عليها شال أسود، وكان يكتب شيئاً ما. غطي بكفه المعروقة الكبيرة الورقة المكتوبة، وادار رأسه الواسع الجبين:

- ماذا بك؟ كيف الأمور؟

- سيئة... مصيبة!

- ماذا؟ تكلم اسرع!.. - وقفز بولوفتسيف، ودس

الورقة المكتوبة في جيبه، واسرع في تزيير ياقة قميصه العسكري، وانحنى محتقن الوجه بالدم، محمرا، مضموما بكليته، متحفزا، مثل حيوان وحشي كاسر قبيل أن يطفر.

حدثه ياكوف لو كيتش عما حدث حديثا مفككا. اصغى

بولوفتسيف اليه دون أن يشارك بكلمة. وراحت عيناه الفاتحتا الزرقة تحدقان من وقبيهما العميقين تحديقة ثقيلة في وجه ياكوف لو كيتش. وبدأ يرفع هامته ببطء، ويضم ويفك قبضتيه، واخيرا لوى شفتيه الحليقتين بطريقة رهيبة، وتقدم من ياكوف لو كيتش.

- وغ... د! انت، ايها الوجه القبيح الشائب، تريد

أن تدمرنى! تريد أن تدمر القضية؟ لقد دمرتها الى النصف بالفعل، باستخفافك الاحمق هذا. كيف أمرتك ان تفعل؟ كيف أ... م... رتك؟ كان عليك في البداية أن تختبر مزاج الجميع واحدا واحدا أما انت فكالثور الجموح!.. - وكان همسه القوي المكتوم المتحشرج يشيع الشحوب في وجه ياكوف لو كيتش، ويدفعه الى المزير من الفزع والاضطراب. - ما العمل الآن؟ هل أبلغ خوبروف هذا بالفعل؟ ها؟ لا؟ انطق، يا قرع غريمياتشي! لا؟ أين ذهب، هل راقبته؟

- لا... يا الكسندر انيسيموفيتش، يا محسن، وقعنا

في داهية الآن!

وأمسك ياكوف لو كيتش رأسه. وتدرجت على خده

الملوح دمة مدغدغة نازلة الى شاربه الأشيب.

ولكن بولوفتسيف اكتفى بأن كز على اسنانه فارسلت

صريفا.

- انت! يا خنثى... يجب ان نفعل شيئا، والا... هل

ابنك في البيت؟

- لا ادري... جلبت معي شخصا.

- من؟

- ابن فرول الأشم.

- اها. ولم جئت به؟

والتقت عيونهما، وفهم احدهما الآخر بدون كلمات. وحين سأل بولوفتسييف: «أهو شاب موثوق؟» صرف ياكوف لوكيتش بصره، ولم يرد الا بهزة من رأسه. انتزع بولوفتسييف معطفه الفرائي من المسمار بعنف، واخرج من تحت الوسادة مسدس ناغان نظف قبل حين، وادار اسطوانته، فلاحت رؤوس الطلقات يتواض نيكلها دوائر مشعة في فتحات الحشو. واوعز بولوفتسييف بوضوح، وكما في معركة، وهو يزرر معطفه:

- خذ فأسا. واذهب بأقصر طريق. كم دقيقة

يستغرق الطريق مشيا؟

- غير بعيد من هنا، بعد حوالي ثمانية بيوت...

- هل عنده عائلة؟

- زوجة فقط.

- والجيران قريون منه؟

- في أحد الجانبين سقيفة دريس، وفي الجانب

الأخر حديقة.

- وسوفيت القرية؟

- بعيد عنه...

- لنذهب!

وخلال غياب ياكوف لوكيتش في سقيفة الحطب لجلب الفأس، ضغط بولوفتسييف على كوع تيموفي بيده اليسرى، وقال بصوت خافت:

- اطعني دون أي اعتراض! سنذهب الى هناك.

فعليك، يا فتى، أن تغير صوتك، وتقول: انك الحارس الخفير من سوفيت القرية، وأنت قادم اليه بورقة. ويجب أن يكون هو الذي يفتح لك الباب.

- حاسب، يارفيق، يا من... لا أعرف اسمك... ان

خوبروف هذا قوى كالثور، واذا لا تلتزم الحذر، يمكن ان يضربك بقبضته العارية ضربة...

شرح تيموفي يقول ذلك بوقاحة، الا أن بولوفتسييف قاطعه قائلاً: «اسكت!» ومد يده الى ياكوف لوكيتش، وقال:

– هاتها، ودلنا على الطريق.

ودس في حزام سرواله، تحت المعطف، مقبض الفأس الخشبي مدفاً ومبلا بكف ياكوف لوكيتش التي كانت تمسك به. ورفع بولوفتسييف ياقة معطفه.

ساروا في الزقاق صامتين. وكان تيموفي يبدو غلاماً، وهو يسير الى جانب بولوفتسييف المكنز الجسيم الضابط الابيض السابق، في مشيته المترنحة، ينظر في وجهه بفضول. ولكن الظلام والياقة المرفوعة كانتا تعيقانه عن التمعن.

تسلقوا السياج لينسلوا الى سقيفة الدريس. واوز بولوفتسييف همساً:

– لنسر واحدا خلف الآخر، فلا نخلف غير أثر واحد. انسلوا على الثلج العذرى انسلال الذئب، خطوة خطوة. وعند السياج المؤدى الى الفناء ضغط ياكوف لوكيتش كفه على جنبه الأيسر، وهمس بانقباض:

– ياربي...

أشار بولوفتسييف الى الباب.

– اطرق!..

أو هذا، بالأحرى، ماحدثه تيموفي من حركة شفتيه اكثر مما سمعه.

صر المزلاج بخفوت. كان الرجل الغريب ذوالقبة القوزاقية البيضاء يقف الى يمين الباب. وقد سمع تيموفي على الفور صريف اصابعه الضاري، وهي تفك ابازيم معطفه الفرائي. دق تيموفي مرة ثانية. نظر ياكوف لوكيتش بذعر الى كلب خرج من تحت مجرات يدوى ملقى في الفناء. الا أن الكلب المتثلج عوى بلاصوت وولول، وانصرف الى ظليلة مسقفة بالقصب.

وصل خوبروف الى بيته مثقلا بالافكار، الا أن المشي قد هدأه قليلا. هيات له زوجته ما يتعشى به.
أكل في غير ما رغبة، وقال بحزن:
وددت الآن لو اتناول قليلا من البطيخ المملح، يا ماريما.
فسألت هذه مبتسمة:

- لكسر الخمار؟

- لا، لم اشرب اليوم. غدا، يا ماشوتكا، سأبلغ السلطات بأنني اشتركت في أعمال التنكيل. لم يعد في طاقتي أن أعيش بهذا الشكل.

- أوه، يا للفكرة! ما لي أراك ذاهلا اليوم؟ أنا لا افهمك. ابتسم نيكيتا، وهو يمسد شاربته الاصبه العريض.

وعندما استلقيا لينا، عاد يقول بجدية:

- هيني لي بقسماطاً أو كعك الأسفار. سأقضي

فترة في الحبس.

وبعد ذلك ظل راقداً لوقت طويل مفتوح العينين، غير مصغ الى توسلات زوجته. وكان يفكر «سأبلغ عن نفسي وعن اوستروفونوف. وليعاقب هؤلاء الملاعين أيضاً! وماذا سيحصل لي؟ لا اظنهم سيقتلونني، ها؟ اقضي في الحبس ثلاثة اعوام أو نحوها، واقطع الخشب في الاورال، واخرج من هناك نظيفاً. وعند ذاك لن يقرعني أحد بماضي. ولن اضطر بعد ذلك الى العمل لأحد لاختفاء ذنبي. سأخبرهم باخلاص كيف وجدت نفسي مع اشتيموف. سأقول لهم هكذا: كنت اريد ان اتخلص من الجبهة، من يريد أن يعرض جبينه للرصاص؟ وليحاكموا، وسيكون الحكم خفيفاً لقدم الزمن. سأحدثهم بكل شيء! لم أرم احدا بيدي، أما الجلد طيب، تركت الجلد للقوزاق الهاربين من الخدمة، ولآخرين عقابا على البلشفية... آنذاك كنت في جهلي مثل سواد الليل، لا أعرف هذا من ذلك».

وغفا. واستيقظ من اغفائه الأولى على صوت طرق.

ظل راقدًا. «من هذا، يا ترى؟». تكرر الطرق. تنحنح نيكيتا في ضيق، وشرع ينهض من رقدته، وهم باشعال المصباح، ولكن ماريًا استيقظت، وهمست:

- يدعونك الى الاجتماع مرة اخرى؟ لا تشعل الضوء!
لا راحة لنا لا في النهار ولا في الليل... جن الملاعين!
خرج نيكيتا الى الرواق حافيا.
- من هناك؟

- هذا أنا، يا عم نيكيتا، من سوفيت القرية.
صوت غلامي لا يعرفه... وانتاب نيكيتا ما يشبه القلق، وشيء من الرهبة. فسأل:

- ولكن من أنت؟ ماذا تريد؟
- أنا نيقولاى كوجينكوف، جلبت لك رسالة من الرئيس يطلب منك ان تحضر الى السوفيت حالا.
- دسها من تحت الباب.

برهة صمت في الجانب الآخر من الباب...
ونظرة مهددة نافذة من تحت القبة الشعثاء البيضاء جعلت تيموفي يجد مخرجًا، بعد أن تحير لحظة.
- يجب ان توقع لي، افتح...

وسمع شحيط خطوات خوبروف عاجلة على أرض الرواق الترابية بقدميه الحافيتين. وسحب المزلاج. وظهرت قامة خوبروف بيضاء على خلفية سوداء لمستطيل الباب. وفي تلك اللحظة يدفع بولوفتسيف قدمه اليسرى الى العتبة، ويرفع الفأس، ويهبط بجمه غير الجارح على خوبروف في مكان أعلى من قصبه الأنف.

انهد نيكيتا على ركبتيه كالثور الذي يصعق بضربة مطرقة قبل أن يذبح، وانطرح على ظهره برفق.
ويوعز بولوفتسيف بصوت لا يكاد يسمع:

- الى الداخل! الباب بالمزلاج! ويتلمس مقبض الباب، ويفتح باب البيت دون أن يلقي الفأس من يده.

هسهسة خيش من السرير في الزاوية، وصوت نسائي ملهوف:

- هل اوقعت شيئاً؟ من هناك، نيكيتوشكا؟
يطلق بولوفتسيف الفأس من يده، ويندفع الى السرير
بذراعين ممدودتين.

- اوى، يا ناس، يا طيبون!.. من انت؟ الغياث!..
تيموفي يصطدم بعضادة الباب بألم، لدى اندفاعه في
البيت! يسمع أصوات نخير وكركمة في الركن. يسقط
بولوفتسيف على المرأة، ويضغط بالمخدة على وجهها،
ويلوى، ويشد يديها بفوطة. مرفقاه ينزلقان على نهدتها
الناعمين الرجراجين، وينخسف صدرها تحته بلدانة.
يستشعر دفء جسدها القوى اللابط في محاولة للخلاص،
وخفق قلبها المتسارع مثل قلب طائر مقتنص. رغبة حادة
لاذعة تعتمل في نفسه ولكن لبرهة خاطفة من الزمن،
وينخر، ويحشر يده تحت المخدة بعرامة، ويفتح فم المرأة،
كما يفتح فم حصان وكالمطاط تدعن الشفة المشقوقة
تحت اصبعه الملوية، ثم تسترخي، واصبعه في الدم
الدافئ، ولكن المرأة لاتعود تصرخ صراخها الكامد
الممطوط، فقد حشر تنورتها المكورة في فمها حتى
الحلقوم.

يترك بولوفتسيف تيموفي عند المرأة المربوطة،
ويذهب الى الرواق، يتنفس بحشرجة، مثل حصان مصاب
بالرغام.

- كبريت!

ويشعل ياكوف لوكيتش عود الثقاب. وفي الضوء
الشاحب ينحني بولوفتسيف على خوبروف المجندل ارضا.
ان هذا المدفعي منطرح وقد انعكفت رجلاه بطريقة صعبة،
وخده منغرز في الارض الترابية. انه ما يزال يتنفس،
وصدره العريض المقوس يرتفع باضطراب، ومع كل نفس
يهبط شأربه الأصهب في بركة الدم القاني. عود الثقاب
ينطفئ. ويتلمس بولوفتسيف في الظلمة موضع الضربة
على جبين خوبروف. ويرسل العظم المهشم هسهسة تحت
اصابعه. ويهمس ياكوف لوكيتش:

- اعفني... قلبي لا يتحمل منظر الدم.
الحمى تلهبه، ورجلاه تسيحان تحته، ولكن بولوفتسيف
يأمره دون أن يرد عليه:
- اجلب الفأس... هي هناك... عند السرير. وماء
أيضا.

والماء يجعل خوبروف يفيق. بولوفتسيف يضغط على
صدره بركبته ويسأل بهمس صافر:

- هل ابلغت، يا خائن؟ تكلم! يا انت، هات الكبريت!
مرة أخرى يضيء عود الثقاب لبضع ثوان، وجه
خوبروف وعينه نصف المغمضة. يد ياكوف لوكيتش
ترتجف، والشعلة الصغيرة ترتجف أيضا. وفي الرواق
تتراقص رصعات صفر من الضوء على جدائل القصب
المتدلي من السقف. ويصل عود الثقاب الى نهايته، ويلدغ
اظافر ياكوف لوكيتش، ولكنه لا يشعر بالألم. بولوفتسيف
يكرر السؤال مرتين، وثم يأخذ بلي اصابع خوبروف.
يشرع هذا بالأنين، وينبطح على بطنه فجأة، ويقف على
الأربع ببطء وصعوبة، وينهض. يحاول بولوفتسيف من
جديد أن يقلبه على ظهره متأوها من التوتر، ولكن قوة
المدفعي المضارعة لقوة الدب تساعده على النهوض على
قدميه. وباليد اليسرى يقبض على ياكوف لوكيتش من
نطاقه، وباليمينى يمسك بولوفتسيف من رقبتة. فيضم هذا
رأسه في كتفيه، ويخفي حلقومه الذي تتسلل اليه أصابع
خوبروف الباردة، ويصيح:

- ضوء!.. اللعنة عليك! قلت لك: ضوء! - اذ يتعذر
عليه ايجاد الفأس في الظلام بالتمس باليد.

يطل تيموفي من المطبخ، ويهمس بصوت عال وهو
لا يعرف جلي الأمر:

- اى، يا من هناك. اضربوه على أسفل صدره،
بالفأس، بجد الفأس، وسيتكلم!

الفأس في يدى بولوفتسيف الآن. بولوفتسيف يحرر
نفسه من قبضة خوبروف بجهد جهيد، ويضربه بجد الفأس

مرة ومرة ثانية. خوبروف يسقط، ولدى سقوطه يصطدم رأسه بالمسطبة، ويسقط جردل من المسطبة على الهزة. وسقوطه يحدث دويًا كصوت طلقة. ويقضي بولوفتسيف على طريقه كازا على أسنانه. يتحسس الرأس بقدمه، ويقطع بالفأس، ويستمتع إلى الدم يشخب ويقرقر لدى طلوعه. وبعد ذلك يدفع ياكوف لوكيتش إلى البيت بقوة، ويسد الباب وراءه، ويقول بصوت خافت:

- يا مرول، يا لعين!.. امسك المرأة من رأسها، يجب أن نعرف هل لحق أن يبلغ أم لا؟ وابت، يا شاب، اضغط على رجليها.

ويرتمي بولوفتسيف بصدوره على المرأة المربوطة. العرق العضلي الحاد يفوح من جسده يسأل ناطقًا بكل كلمة على حدة:

- بعد عودة زوجك من ذلك المساء هل ذهب إلى السوفيت أو إلى أي مكان آخر؟

وفي ظلمة البيت الباهتة يرى عينيها المخبولتين من الفزع، المنتفختين بالدموع المستعصية، ووجهها المسود من الاختناق. ويفقد السيطرة على نفسه، ويريد أن يخرج من المكان إلى الهواء الطلق بأقرب وقت... يضغط بأصابعه على خلف أذنيها بغيظ واشمئزاز. وهي تلبط من الألم المريع، وتغيب عن الوعي لبعض الوقت. وفيما بعد، حين يعود إليها الوعي تدفع بلسانها الغصة الرطبة الحارة من اللعاب، تلك التي تسد بلعومها، ولكنها لا تصيح، بل تسأل بهمس دقيق ناشج:

- اعزائي! اعزائي! اشفقوا! ساقول كل شيء!
وتتعرف على ياكوف لوكيتش. فهو قريبها، عمد ابن اختها قبل سبعة أعوام. ويصعب، يصعب عليها أن تحرك شفيتها المشوهتين الممزقتين واللسان المعقود:

- قريبي... عزيزي!.. لأي شيء هذا؟
بولوفتسيف يغطي فمها بكفه الواسعة مذعورا. وفي سورة أمل لأدرار الشفقة تحاول مرة أخرى أن تقبل هذه

الكف بشفتيها الداميتين. فانها تريد أن تعيش، وتستشعر
الرب.

- هل ذهب زوجك الى هناك أم لا؟
تهز رأسها نفيًا. ياكوف لو كيتش يمسك بيدي
بولوفتسيف:

- يا صاحب... صاحب ال... كسان انيسيميتش!..
لا تمسها... سنهددها، ولن تقول!.. عمرها لن تقول!..
بولوفتسيف يدفعه. ولأول مرة خلال كل هذه اللحظات
الصعبة يمسح وجهه بظاهر كفه، ويفكر: «غدا ستشي
بنا! ولكنها امرأة، قوزاقية، وأنا كضابط، خجلان...
اللعة!.. يجب أن اسد عينيها لكيلا ترى النهاية...»
يغطي وجهها بذيل قميصها الخيش، يوقف بصره
لحظة على الجسد المكتمل، جسد هذه المرأة ابنة الثلاثين،
والتي لم تلد حتى الآن. انها ترقد على جنبها عاكفة رجلها
تحتها، مثل طائر أبيض كبير جريح... وفجأة يرى
بولوفتسيف في الظلمة الباهتة منخفض نهديها وبطنها
الاسمر يأخذان بالالتماع بالعرق المتصبب. «فهمت لماذا
غطيت رأسها. اللعة!» وينفخ بولوفتسيف، ويهوى بحد
الفأس على الثوب الذي يغطي الوجه.

فجأة يشعر ياكوف لو كيتش بارتعاسة طويلة تمتد
في جسد قرييته. وتصطدم أنفه الرائحة العذبة للخدم
الطرى... ويتراجع ياكوف لو كيتش الى الموقد مترنحا،
تهزه نوبة رهيبية من القيء، فيدلق ما في داخله بالم...
على مدخل البيت ترنح بولوفتسيف كالكسران، وسقط
بشفتيه على الثلج الطازج الناعم كالزغب، المتساقط على
الدرابزين، وراح يمتصه. خرجوا الى باب السياج الخارجي.
تخلف تيموفي عنهما. دار حول مجمع البيوت، وسار على
صوت صادح صادر من المدرسة تبعته هارمونيكاً وعند
المدرسة جماعة من الشبان يرقصون ويغنون. شق تيموفي
طريقه من خلال الفتيات وهو يقرصهن، الى حلقة الرقص،
وطلب من العازف أن يعطيه الهارمونيكاً.

طلبت اليه احدى الفتيات:

- تيموشا، اعزف لنا اغنية عجزية بالترديد السريع.
أخذ تيموفي يتناول الهارمونيكا من يدي صاحبه،
فسقطت منه. ضحك ضحكة خافتة، وعاد يمد ذراعه ليأخذها
فسقطت منه ثانية، قبل ان يلحق ليضع سيرها على كتفه
الأيسر. لم تطعه اصابعه. أخذ يحركها، وضحك، واعاد
الهارمونيكا.

- عب كثيرا في مكان ما.

- انظرن، يابنات، أليس سكران؟

- وسكب على سترته ايضا!..

وابتعدت الفتيات عن تيموفي. كان صاحب الهارمونيكا
ينفخ الثلج عن منفاخ الهارمونيكا في غير رضى، فأخذ
يعزف «العجزية» في غير وثوق. نزلت الى الرقص اوليانا
اخفاتكينا، اضخم البنات جسما، «عروس لعملاق» كما
يطلق عليها في العزبة، تطلق بكعبي حذائها الواطئين،
وتلوى ذراعيها معكوفتين. وكان تيموفي يفكر مع نفسه
وكانما يعني شخصا آخر: «يجب أن ابقى معهم حتى الفجر
وعندئذ لن يفكر أحد في ان يتهمني، حين يتضح الأمر».
ونفض، وراح عن قصد يقلد حركات السكران، ويترنج،
وسار الى فتاة كانت جالسة على درجات باب المدرسة،
ووضع رأسه على ركبتيها الدافئتين:
- قبليني، يا حمامتي!..

* * *

اما ياكوف لوكيتش المخضوضر الوجه كورق كرنب
فما ان دخل بيته، حتى سقط على السرير، ولم يرفع رأسه
من المخدة. كان يسمع بولوفتسيف يغسل يديه فوق اجانة
الغسيل، ويطرطش الماء، وينخر، ثم ذهب الى مضجعه في
الحجرة الأمامية... وكان الليل قد انتصف حين ايقظ ربه
البيت.

- هل لديك نقيع الفواكه، يا سيدة البيت؟ هاتي لي شيئاً لأشربه.

شرب (كان ياكوف لو كيتش ينظر اليه بعين واحدة من تحت الوسادة) وتناول كمثرى مسلوقة ومضغها، وذهب مدخنا سيكارتة، ممسدا بطريقة نسائية، على صدره العارى الممتلىء.

في الحجرة الامامية مد بولوفتسيف قدميه الحافيتين على الفرز الذى مايزال دافئا. وكان يجب ان يدفىء في الليالي رجليه المتوجعتين من الروماتزم. فقد اضر به البرد في عام ١٩١٦، حين عبر نهر «بوغ» سابجا شتاء، وهو يخدم صاحب الجلالة الامبراطور بوفاء واخلاص، مدافعا عن وطنه. ومنذ ذلك الحين صار الضابط بولوفتسيف في حاجة الى الدفء، والى حذاء لبادي دافىء.

الفصل الثالث عشر

خلال اسبوع من وجود دافيدوف في غريمياتشي لوغ برزت جملة من القضايا تقف امامه كالسور... في الليالي حين كان يعود من سوفيت القرية، أو من ادارة الكولخوز، التي أحتلت بيت تيتوك الواسع، كان يذرع الحجرة مدخنا نوقت طويل، ويقرأ ما جلبه ساعي البريد من أعداد جريدتي «برافدا» و «مولوت» ثم تعود افكاره لتدور حول أهل غريمياتشي، والكولخوز، واحداث اليوم الفائت. وكان يحاول، كالدئب المحاصر، أن يطلع من دائرة الأفكار المتعلقة بالكولخوز، ويتذكر مصنعه، واصدقائه، وعمله. بل وكان يشعر بشيء من الحزن لأن أشياء كثيرة قد تغيرت هناك في غيابه، ولأنه لم يعد الآن قادراً على أن يقضي الليل كله منكباً على خرائط محرك جرار، محاولاً، أن يجد طريقة أخرى لاعادة تركيب علبة تغيير السرعة،

* «برافدا» - «الحقيقة»، «مولوت» - «مطرقة». المترجم.

ولأن مخرطته بنزواتها وتعنتها هي الآن في يد عامل آخر، هو في اغلب الظن غولدشميت، ذلك الواثق من نفسه، ولأن الناس، على ما يبدو، قد نسوه، بعد كل ما قالوه عنه من اقوال حارة طيبة لدى توديعهم للرجال الخمسة والعشرين الفا. ومرة أخرى كان تفكيره يتحول فجأة، الى غريمياتشي، وكأن شخصاً في دماغه كان يغير مفتاح تيار افكاره الى وجهة جديدة. انه لم يأت للعمل في الريف مشبعاً باوهام اهل المدن، ولكن سعة نطاق الصراع الطبقي، وعقده المشربكة، واشكاله الخفية الملتبسة لم تكن تبدو له معقدة الى الحد الذي تكشف امامه في الايام الاولى من وصوله الى غريمياتشي. لم يكن مفهوماً له ذلك التمتع العنيد لغالبية الفلاحين المتوسطين عن الانضمام الى الكولخوز، رغم ما في النظام الكولخوزي من مزايا. لم يستطع أن يعي الكثيرين من الناس، ولا العلائق المتبادلة بينهم. تيتوك النصير بالأمس والكولاك والعدو اليوم. وتيموفي بورتشيف الفلاح المعدم الذي يدافع عن الكولاك علناً. واوستروفونوف المزارع المتعلم الذي انضم الى الكولخوز عن وعي وموقف ناغولنوف العدائي الحذر منه. كان جميع اهالي غريمياتشي يتابعون امام باصرة دافيدوف الفكرية... وكان الكثير مما هم عليه يستعصي عليه، يغلفه حاجب خفي وغير مرئي. لقد كانت العزبة بالنسبة له، مثل محرك معقد جديد التركيب، وكان دافيدوف يجاهد بعناية وجهد للتعرف عليه، ودراسته، وتلمس كل قطعة فيه، والاصغاء لكل تخلخل في الايقاع الموصول الكدود والمتوتر لهذه الآلة العجيبة...

ثم جاء مقتل الفلاح الفقير خوبروف وزوجته بذلك الشكل المحير، فدفعه الى أن يخمن وجود نابض خفي يعمل في داخل هذه الآلة. فحدس بشكل غامض أن لموت خوبروف علاقة سببية بالكخزة، وبكل ماهو جديد وما كان ينخر بقوة في الجدران المنخوبة للزراعة المتجزئة. في صباح اليوم الذي اكتشفت فيه جثة خوبروف وزوجته تحدث طويلاً

الى رازميوتنوف وناغولنوف. وكان هذان أيضا ضائعين وسط الحدودس والتخمينات. لقد كان خوبروف معدما، ومن البيض في الماضي، وخاملا في الحياة الاجتماعية، وضالعا مع الكولاكي لابشينوفا على نحو ما. بعض الناس ذهب الى أن القتل حدث لغرض السرقة، وكان ذلك سخفا صراحا، لأن كل ما يملكه خوبروف بقي على حاله لم يمس، كما لم يكن لخوبروف ما يسرق منه. وقد استبعد رازميوتنوف ذلك قائلا:

– لابد أن لذلك علاقة بالاساءة الى واحدة من الوسط النسائي. شخص استحوذ على زوجته، فقرر أن يصفيه. صمت ناغولنوف. فقد كان لا يجب أن يقول شيئا لم يترو فيه. ولكنه أيد دافيدوف بجرارة، حين أوضح هذا أن حادثة القتل هذه لابد أن تكون من تدبير احد الكولاك، واقترح أن يجري اقصاؤهم عن العزبة في الحال، فقال ناغولنوف:

– قتل خوبروف من تدبيرهم، بلاشك! يجب اقضاء هؤلاء الأندال الى مناطق باردة!

ضحك رازميوتنوف، وهز كتفيه قائلا:

– يجب اقصاؤهم، بالتأكيد. فهم يعيقون الناس عن الانضمام الى الكولخوز. ولكن خوبروف لم يصرع على ايديهم. إذ لم تكن له علاقة بهم. صحيح أنه كان يركن الى لابشينوفا، ويعمل له باستمرار، ولكن هل كان ذلك بطرا منه؟ لا، ابدأ، بل كانت الحاجة تلجئه الى لابشينوفا. ولا يجوز أن يعزى كل شيء الى الكولاك. لاتسرفوا، يا اخوان! في المسألة رائحة امرأة، ولكم ماتشاؤون!

قدم محقق وطبيب من مركز المنطقة. شرحت الجثتان، واستجوب جيران خوبروف ولابشينوفا نفسه. الا أن المحقق لم يستطع أن يكتشف الخيط المؤدي الى الكشف عن المشتركين في القتل، ولا اسباب القتل. وفي اليوم التالي، يوم ٤ شباط، أتخذ اجتماع الكولخوزيين العام قرارا بالاجماع في اقضاء العوائل الكولاكية خارج حدود اقليم

للقفاس الشمالي. وصادق الاجتماع على انتخاب ادارة الكولخوز، فضمت ياكوف لو كيتش اوستروفونوف (أيد) ترشيحه كل من دافيدوف ورازميوتنوف بحرارة، رغم اعتراض ناغولنوف)، وبافل ليوبشكين، وديمكا اوشاكوف، ودخل اركاشكا البائع الشاري اليها بصعوبة، وكان الخامس دافيدوف، حيث انتخب بالاجماع، وبدون نقاش. وقد ساعد على ذلك وصول رسالة من اتحاد مزارعي المنطقة في عشية الاجتماع جاء فيها أن لجنة المنطقة الحزبية بالاتفاق مع اتحاد مزارعي المنطقة ترشح الى منصب رئيس ادارة الكولخوز الرفيق دافيدوف مفوض لجنة الحزب المنطقية.

* * *

كان دافيدوف ما يزال يقيم عند آل ناغولنوف. وكان ينام على صندوق محجوز عن سرير الزوجين بستارة غير عالية من القماش القطني. وكانت ربة البيت، وهي ارملة بلا اولاد، تقيم في الحجرة الاولى. وكان دافيدوف يحس بأنه يضايق ماكار، ولكنه بسبب الانشغال والهموم في الايام الاولى لم يكن له الوقت ليجتث عن مكان آخر. كانت لوشكا، زوجة ناغولنوف، دائمة الحفاوة بدافيدوف، ومع ذلك فبعد ذلك الحديث الطارئ مع ماكار، حين كشف له هذا أن زوجته تعاشر تيموفي الأشرم، صار يضر لها نفورا يصعب اخفاؤه ويثقل عليه اقامته عندهم. كان دافيدوف كثيرا ما ينظر الى لوشكا شزرا في الصباحات دون ان يدخل في حديث معها. كانت في مظهرها لا تتجاوز الخامسة والعشرين من العمر. وكان النمى الصغير المتكاثف يغطي خديها المستطيلين، وكان وجهها المرقط يشبه بيضة العقق. الأ أن جمالا غاويا فاسقا كان يطل من عينيها السوداوين الفاحمتين، ومن كل قوامها الممشوق الاعجف. وكان حاجباها المقوسين الرقيقين مرفوعين قليلا دائما، وكأنما كانت في انتظار ابدي لشيء مفرح، وكانت

الابتسامة توشك ان تفتت من زاويتي شفطيتها النفرتين، غير مخفية حدودتي اسنانها البارزة المسبوكة سبكا. وكانت تمشي هازة كتفيتها المتحدرتين وكأنا تتوقع ان يحتضنها أحد من الخلف في اللحظة التالية، ويطوق كتفها الضيقة، الشبيهة بكتف صبية. وكانت تلبس مثلما تلبس جميع القوزاقيات في غريمياتشي، ولكن بميل الى النظافة اكثر.

وذات مرة في الصباح، حين كان دافيدوف يلبس حذاءه سمع صوت ماكار من وراء الحاجز.

- في جيب معطفي حمالة، فهل طلبت من سيميون أن يشتريها لك؟ عاد يوم امس من الدسكرة، وطلب أن اعطيها لك.

فرد صوت لوشكا الدافىء من اثر النعاس، والمضمخ بالفرح:

- أصحيح، يا عزيزي ماكار؟

وقفزت من السرير وليس عليها غير القميص، الى معطف زوجها الفرائي، واخرجت من جيبه حمالة جوارب من صناعة المدينة لها حزام وحواف زرق، وليست مجرد ابازييم مستديرة. ورأى دافيدوف صورتها معكوسة في المرأة، وهي واقفة تقيس الحمالة على ساقها النحيفة المسبوكة، مادة عنقها الأعجف كعنق صبي، كما رأى في المرأة انعكاسات بسمتها على عينيها المتوهجتين، والحمرة الخفيفة على خديها المنمشين. ادارت وجهها الى دافيدوف، وهي تنظر بوله الى الجورب الاسود الملفوف على قدمها بشدة، وترجرج في شق القميص نهداها الصلبان الأسمران، ولمحته على الفور، من خلال الستارة، فلملمت ياقتها بيدها اليسرى، وبدلا من أن تستدير ابتسمت ابتسامة طويلة ممدودة، مقلصة عينيها. وكانت عيناها الجسورتين المبتسمتين تقول: «انظر، اي جمال لي!»

انهد دافيدوف على الصندوق الصارف، واحمر قليلا، وازاح شعره الاسود اللامع عن جبينه بأصابعه: «اللعنة!

قد تظن انني كنت اعاين عليها... شيء وسوس لي لأتهض!
ربما يخيل اليها أنني مهتم بها...»
دمدم ماكار في ضيق، بعد ان سمع دافيدوف يتنحج مرتبكا:

- على الاقل، لا تعرضي جسدك للغريب.

- هو لا يرى.

- لا، يرى.

سعل دافيدوف وراء الحاجز.

- دعه ينظر بالهناء والشفاء اذا كان يرى، - قالت
بعدم اكتراث، وهي تمرر تنورتها من رأسها. - ليس عندنا
غرباء، يا عزيزي ماكار. اليوم غريب، وغدا اذا رغبت
اتخذته لي صديقا، - ضحكت، والقت نفسها على السرير. -
انت وديع، يا فتاي! يا عجلي، عجلي اللطيف!..

* * *

بعد الفطور، وما ان خرجا من باب الحديقة حتى قال
دافيدوف بصراحة حادة:

- زوجتك خبيثة!

- هذا لا يخصك... - اجاب ناغولنوف بهدوء، دون

ان ينظر الي دافيدوف.

- ولكنه يخصك! سانتقل اليوم في الحال الى مسكن

آخر. هذا مقرف لي! تتراخي معها وانت الفتى الماجد!
أنت نفسك كنت تقول انها تعاشر الأشرم.

- تريدني أن اضربها؟

- لا تضربها، بل أن تؤثر فيها! ساقول لك بصراحة:

انا شيوعي، ولكن اعصابي لا تتحمل مثل هذه الاشياء. كنت
سأضربها، وأرسلها الى حيث القت! انها تقلل من شأنك
امام الجمهور، وانت ساكت. اين تغيب الليل كله؟ نعود
من الاجتماع، فلا نراها! انا لا أريد أن اتدخل في
قضاياكما الشخصية...

- هل انت متزوج؟
- لا. والآن وانا انظر الى حياتك الزوجية سأمتنع عن الزواج حتى القبر.
- ولكنك تنظر الى المرأة، وكأنها ملكية لك.
- اوه، ليأخذك الشيطان! فوضوي أعوج! الملكية، الملكية! الا تزال موجودة؟ فلماذا تلغيها؟ والعائلة أليست قائمة؟ بينما أنت... ينسلون الى زوجتك... انت تعين على الفسق، والتراخي في العقيدة. ساعرض ذلك على الخلية!.. الفلاح يجب أن يتخذ منك قدوة... وأية قدوة لطيفة!

- طيب، سأقتلها!
- يا لتفتق القريحة!
- طيب، اسمع... كف عن التدخل في هذا الأمر حالا. - طالب ماكار متوقفاً في وسط الشارع. - سعالج هذا الموضوع، والآن لا وقت لي اصرفه عليه. شيء آخر لو كان حديث العهد، ولكنني اصطبرت كثيراً... سانتظر قليلا، وبعد ذلك... قلبي مايزال متعلقاً بها... والا لكنت منذ زمان... الى اين ذاهب؟ الى السوفيت؟ - وحول الحديث بهذه الجملة.

- لا، اريد أن اذهب الى اوستروفنوف. احب أن اتحدث معه في مزرعته. انه فلاح ذكي. اريد أن اجعله مديرا للشؤون الاقتصادية. ما رأيك؟ نحن بحاجة الى مدير يجعل الكوبيك الكولخوزي يرث رنين الروبل. واوستروفنوف مثل هذا الرجل، على ما يبدو.

هز ناغولنوف ذراعه عيوا، وظهر عليه الغضب.
- نعود الى الحكاية نفسها! اوستروفنوف هذا آخذ بلبك ولبب اندريه، حاجة الكولخوز اليه كحاجة الكاهن الى... انا معارض. وسأعمل على اقصائه عن الكولخوز! لسنتين كان يدفع الضريبة الزراعية مع نسبة على المحصول الاضافي، هذا الحقير المشري. وقبل الحرب كان يعيش كولاكيا، ونحن نرشحه؟

- انه مزارع متعلم. وهل تظنني احرص على كولاكي؟
 - لو لم نشذب أجنحته لصار كولاكيا من زمان!
- وافترقا دون ان يصلا في حديثهما الى اتفاق، وأحدهما مستاء من الآخر استياءً شديداً.

الفصل الرابع عشر

شباط...

الارض تنكمش وتتلوى تحت موجات البرد، وتطلع الشمس في وهج الصقيع الأبيض. وفي الليالي تنشق الارض مقطقة، في الاماكن التي تزيح الرياح الثلج عن سطحها. وروابي المدافن القديمة في السهب تشرط بشقوق متلوية كثمار البطيخ بعد فوات نضجه. واكوام الثلج في الارض المحروثة خريفا خارج العزبة تلتمع لمعانا خاطفا للابصار لا يطاق. اشجار الحور المظلة على النهير مكسوة كلها بالفضة. وفي الصباحات تتصاعد اعمدة الدخان البرتقالية من مداخن البيوت مستقيمة كروافد البناء. وفي ساحات الدريس يبعث قش الحنطة رائحة آب اللازوردي قوية بفعل الصقيع، وانفاس الرياح الساخنة، والسماء الصيفية...

الثيران والابقار في الزرائب الباردة تتسكع حتى الصباح. وعند ذاك لن يبقى في المعالف نصل عشب واحد. وماشية الشتاء من صغار الحملان والمعزات لا تترك في الزرائب. في الليالي تاخذها النسوة الناعسات الي امهاتها، ثم يأخذنها مرة اخرى في تنوراتهن الي دفء البيوت الداخنة. فتفوح من المعزات، من شعرها الملتف، الرائحة البدائية الاكثر رقة، رائحة الهواء المتثلج، والاعشاب المتنوعة، ورائحة حليب الماعز العذب. والثلج تحت قشرته الصلبة ملح محبب مدور خشخاش. ومنتصف الليل ساكن جدا، والسماء المتثلجة خاوية في فسيفسائها العديدة النجوم الراجفة حتى لكأن العالم قد فارقتة الحياة.

وفي السهب الازرق حين يسير ذئب على الثلج الذي لم
تطأه قدم، فلاتخلف اقدمه أثراً عليه، الا في الاماكن التي
تقتلع فيها مخالفه قطعة من القشرة الثلجية، حيث يتبقى
خدش متلألئ - أثر لؤلؤي.

وفي الليل، حين تصهل فرس على مهرها بخفوت،
مستشعرة مجرى الحليب في ضرعها الحريري الاسود،
يسمع صهيلها على بعد عدة فراسخ حولها.
شباط...

السكون الازرق قبيل الفجر.

المجرة السحيقة تتوامض.

في نوافذ البيوت المظلمة يرف وهج اضواء متماوجة
حمراء هي انعكاسات المواقد المشتعلة.
الجليد يتكسر على النهير مخشخشا تحت ضربات
المعول.

شباط...

* * *

وحتى قبل ان يطر الفجر يقظ ياكوف لو كيتش ابنه
وزوجته وكنته. وأشعلوا الموقد. شحذ سيميون بن ياكوف
لو كيتش السكاكين على المسن. لف الرائد بولوفتسيف
لغافة الساقين بعناية حول جوربيه الصوفيين، وانتعل
حذاءه اللبادي. وخرج مع سيميون الى زريبة الاغنام.
ولياكوف لو كيتش سبع عشرة غنمة، وماعزين، وسيميون
يعرف اي غنمة حامل، واي واحدة قد وضعت حملها. انه
يمسك ويختار بالتلمس الخراف المخصية، اما الخراف
الاعتيادية، والعنينة التي لم تنجب بعد، فيدفعها الى سقيفة
مدفأة. وبولوفتسيف، بعد ان يدفع قبعته القوقازية
البيضاء على جبينه، يمسك خروفا مخصيا من قرنه
الملتوي البارد الخشن، ويطرحه ارضا، ويهبط بصدرة
على الخروف، ويدفع رأسه الى الخلف، وينحره

من حنجرته بالسكين، ويترك الدم الأسود المتدفق ينساب منه.

ياكوف لو كيتش رجل حسن التدبير. انه لا يريد أن يغذي لحم ضأنه عاملا او جنديا احمر في مطعم من مطاعم المصانع. انهما سوفيتيان، والسلطة السوفيتية تجور على ياكوف لو كيتش بالضرائب والجبايات منذ عشرة سنين، ولا تطلق له الامكانية في تطوير مزرعته التطوير الشامل، ونيل الغنى كأحسن ما يكون الغنى. السلطة السوفيتية عدو لياكوف لو كيتش وهو لها عدو، ولا توافق بينهما. وياكوف لو كيتش طول حياته منجذب الى الغنى مثل انجذاب الطفل الى النار. قبل الثورة بدأ يثبت اقدامه، وكان يفكر في ارسال ابنه ليتعلم في مدرسة نوفوتشركاسك العسكرية كما كان يفكر في شراء معصرة زيوت، بل وراح يجمع النقود، ويفكر في ان يتخذ لنفسه ثلاثة من الشغيلة يشتغلون له (بل كان قلبه يطير فرحا من عيش خرافي كانت الحياة تعد له!) وفكر في انه، بعد أن يقيم مؤسسته، سيشتري آلة صقل شبه مهمة من صاحب أراض خائب هو الضابط جوروف... حين ذلك كان ياكوف لو كيتش يرى نفسه في عين افكاره وقد تخلى عن سرواله البائس من نسيج بيتي، ولبس بدلة من الحرير السميك، والسلسلة الذهبية تمتد عبر بطنه، وصارت له بدلا من يديه المعقدتين يدان ناعمتان بيضاوان تنضوان عنهما الاظافر القديمة السوداء من الطين، كما تنضو الحية جلدها. ويتصور ابنه وقد ارتقى الى رتبة عقيد، وتزوج انسة متعلمة، وذات مرة يأتي ياكوف لو كيتش لياخذه من المحطة لا في مركبة ذات عجلتين، بل في سيارته الخاصة، كتلك التي يملكها صاحب الأراضي نوفوبافلوف... وغير ذلك من الاحلام الكثيرة التي كانت تهل على ياكوف لو كيتش في تلك الازمان التي لاتنسى، حين كانت الحياة تتألق، وتخشخش في يديه مثل ورقة نقدية جديدة من فئة المائة روبل! واذا بالثورة تلفح بزهرير زعازعها المنقطعة

النظير، ومادت الأرض تحت قدمي ياكوف لوكيتش، ولكنه لم ييأس. واستطاع بكل الرصانة المجدول عليها وبالمكر المستأصل به أن يتبين من بعيد الطامة المقبلة، وتخلص من ممتلكاته بسرعة ودون ان يلحظ ذلك جيرانه واهل عزبته... فباع المحرك البخاري الذي كان قد اشتراه في عام ١٩١٦، ودفن في دن فخاري ثلاثين قطعة ذهبية من فئة العشرة روبلات وجرابا جلديا مملوءاً فضة، وباع الماشية الزائدة، وقلص مساحة الارض المحروثة. تهيأ اذن. ومرت الثورة والحرب والجبهات به كما تمر زوبعة على اعشاب في السهب: قد تحنيها ولكنها لا تحطمها ولا تقتلعها. فاشجار الحور والبلوط وحدها تتحطم في العاصفة، وتقتلع من جذورها. اما العشب السهبي فينحني على الارض فقط، وينبطح عليها، ثم يرفع هامته مرة أخرى. ولكن «رفع الهامة» هذا لم يتسن لياكوف لوكيتش! ولهذا فهو ضد السلطة السوفيتية، ويعيش ضجرا كالثور المخصي، فلا تحدوه همة ابداع، ولا تشع منه فرحة سكر، ولهذا صار بولوفتسيف عنده الآن الصق اليه من زوجته، واقرب اليه من ابنه. فاما أن يعيد معه الحياة التي كانت تتألق في الماضي وتخشخش خشخشة ورقة النقد الجديدة من فئة المائة روبل واما ان يغادر هذه الحياة كليا! ولهذا السبب ينحر ياكوف لوكيتش عضو ادارة كولخوز غريمياتشي اربعة عشر خروفا دفعة واحدة ويفكر ياكوف لوكيتش: «ان القي جثث الاغنام الى هذا الكلب الاسود المرابض عند قدمي الرائد بولوفتسيف يلحق دمها الساخن بنهم خير من أن اضمها الى ماشية الكولخوز لتسمن وتنجب فتغذي السلطة المعادية! والرائد المتعلم بولوفتسيف محق في قوله: يجب ذبح الماشية! يجب تفجير الارض تحت اقدام البلاشفة. ولتنفق الثيران من الاهمال، فسنحصل على ثيران أخرى، حين نستولي على الحكم! سيرسلون لنا الثيران من امريكا والسويد. سنخنقهم بالمجاعة والتخريب والانتفاض! أما حسانك، يا ياكوف

لو كيتش فلا تأسف على مفارقته. حسن ان تكون الخيول
جماعية. فذلك انفع لنا، واجدى... وحين ننتفض ونحتل
العزب سيكون اخراج الخيول من الاسطبلات العامة ووضع
السروج عليها اسهل علينا من التنقل من فناء الى فناء
للبحث عنها». كلمات من ذهب! دماغ الرائد بولوفتسيف
موثوق في عمله مثل يديه...»

وقف ياكوف لو كيتش عند السقيفة قليلا، وراح ينظر
الى بولوفتسيف وسيميون وهما يسلخان ذبائح الاغنام
المعلقة على رافدة. كان فانوس «الخفاش» يجعل بياض
ما تحت الجلد من جثث الاغنام ساطعا. وكان السلخ سهلا.
نظر ياكوف لو كيتش الى جثة مقلوبة برقبته الى الاسفل،
وجدها المسلوخ مطوي ونازل حتى بطنها الازرق، ثم الى
رأس غنمة اسود ملقى قرب طست، وسرت رعدة في
جسده، وكأنما ضرب تحت ركبتيه، وشحب لونه.

رعب الموت كان يطل من عين الغنمة الصفراء بحدقتها
الهائلة التي لم يزايلها البريق بعد. وتذكر ياكوف لو كيتش
زوجة خوبروف، وهمسها المتلثم الفظيح: «قريبي!..
عزيزي! لاي شيء هذا؟!» نظر ياكوف لو كيتش باشمئزاز
الى جثة الغنمة الوردية الليلية، والى الياف وعقد عضلاتها
الطولانية المعرأة. ومثلما حدث في تلك المرة اثارت رائحة
الدم الحادة نوبة من الرغبة في التقيؤ، وجعلته يترنج.
فاسرع يغادر السقيفة.

- نفسي لا تقبل منظر اللحم... يا الهي!.. نفسي
لا تتقبل حتى التفكير فيه.

- على اي شيطان طلعت؟ يمكننا الاستغناء عنك،
يا رقيق النفس! وابتسم بولوفتسيف، واخذ يلف سيكارة
باصابعه الملوخة بالدم والمشبعة برائحة دهن الغنم المنفرة.
وأتموا عملهم قبل الفطور بقليل بعد جهد جهيد. تدلت
الجثث المسلوخة في الشونة. اذابت النسوة أليات
الخراف. واغلق بولوفتسيف الحجر الصغيرة عليه (ولم
يغادرها في النهار ابدا). جلبوا اليه حساء الكرنب من لحم

الضأن الغريض، وسلاء الية. وما كادت تخرج الكنة الطاسة منه، حتى صرف باب الفناء.

- بابا! دافيدوف قادم الينا، - صاح سيميون، وكان اول من رأى دافيدوف يدخل الفناء.

صار ياكوف لو كيتش اكثر بياضا من الطحين المنخول. اما دافيدوف فكان في تلك اللحظة قد نفض الثلج عن حذائه في الرواق، وسعل بقوة، وسار واثقا مطمئن الخطو.

كان ياكوف لو كيتش يقول لنفسه:

«رحت في داهية! طريقة مشيه، ابن الكلبة هذا! كأنه يملك الدنيا كلها! كأنه يدخل بيته! اوه، رحى في داهية! أظنه جاء ليعتقلني على نيكييتا، عرف، اللعين».

طرق في الباب، وصوت تينور قوي:

- هل لي ان ادخل؟

- ادخل.

أراد ياكوف لو كيتش ان يقول ذلك بصوت عال، ولكن صوته نزل الى حد الهمس.

وقف دافيدوف قليلا، ثم فتح الباب. لم ينهض ياكوف لو كيتش من وراء الطاولة (لم يكن قادرا! بل ورفع قدميه المرتجفتين الخائرتين عن الارض قليلا حتى لا يركب كعبا حذائه على الارض).

- مرحبا، يارب الدار!

- مرحبا، يارفيق!

رد ياكوف لو كيتش وزوجته بصوت واحد.

- الجوزمهيرير...

- نعم، بارد جدا.

- ماذا تتصور، هل سيضر الصقيع بالجودار؟

وادخل دافيدوف يده في جيبه، واخرج منديلا اسود لوساخته، وتمخط، وهو في قبضته.

دعا ياكوف لو كيتش قائلا:

- تفضل، يارفيق، واجلس.
وتساءل دافيدوف في سره وقد لاحظ شحوب الرجل،
وارتجاف شفثيه اللتين لا تكادان تتحركان: «غريب هذا،
لماذا هو مفزوع؟»

- اذن، ما رأيك في مسألة الجودار؟
- لا، لا اظن... الثلج يغطيه... ربما في بعض
الاماكن، حيث انزاح غطاء الثلج.

وكان ياكوف لو كيتش يفكر: «يبدأ بالجودار، والآن
أظنه سيقول: «هيا، هيا، هيا، نفسك!» وربما قد وشي شخص
ببولوفتسييف؟ فجاء يفتش؟». تغلب على فزعه قليلا، وظهر
الدم على وجهه، وطلع العرق من مساماته، وسال على
جبينه، وعلى شاربيه الاشيبين، وعلى حنكه الخشن.

- حل عندنا ضيفا، وتفضل الي الحجرة الامامية.
- جئت لأتحدث اليك قليلا. كيف أناديك باسمك
الكامل؟

- ياكوف بن لو كا.
- ياكوف لو كيتش؟ طيب، ياكوف لو كيتش، لقد تحدثت
بكلام جيد عن الكولخوز في الاجتماع. انت محق، بالطبع،
بخصوص حاجة الكولخوز الي آليات معقدة. اما بشأن
تنظيم العمل فقد كنت على خطأ. حقيقة! نحن نفكر في
ترشيحك مديرا للشؤون الاقتصادية. فقد سمعت انك
مزارع متعلم...

- تفضل، يا ايها الرفيق العزيز! غاشا، هيني
السماور. ام ربما تريد شيئا من حساء الكرنب؟ ام تقطع
لك بطيخا مملحا؟ تفضل، يا ضيفنا المحترم. الي حياة
جديدة تدعو... - وشرق ياكوف لو كيتش من السرور،
وكان جبلا انزاح من على كاهله - صحيح ما قلت، كنت
اطبق ما لدي من علم في مزرعتي. وكنت اريد أن احرف
فلاحينا الجهلاء عن عادات السلف... وكيف هم يفلحون!
ينهبون الارض لاغير! عندي شهادة تقدير من مديرية

الزراعة. سيميون! هات شهادة التقدير الموضوعية في
الطار. ولكن لا حاجة سنذهب نحن الى هناك.
قاد ياكوف لوكيتش ضيفه الى حجرة الجلوس بعد ان
غمز لسيميون بشكل غير ملحوظ. فهم هذا فخرج الى
الممر ليغلق باب الحجرة الصغيرة التي كان بولوفتسيف
يختلي فيها، واطل عليها، وارتعب. فقد كانت الحجرة خالية.
مد سيميون رأسه في القاعة. كان بولوفتسيف يقف في
جوربيه الصوفيين وحدهما، عند الباب المؤدي الى حجرة
الجلوس. اشار الى سيميون بان يخرج، ووضع على الباب
اذنه الغضروفية المنتصبة الشبيهة باذن وحش كاسر.
خرج سيميون من القاعة وهو يفكر: «يا له من شيطان
جسور!»

كانت القاعة الكبيرة في بيت اوستروفونوف لاتسكن
في الشتاء. وفي كل عام كانت بذور القنب ترقد في احد
الأركان على أرضها المصبوغة. وبالقرب من الباب برميل
صغير من التفاح المنقوع. جلس بولوفتسيف على حافة
البرميل. وكانت ترد الى سمعه كل كلمة من الحديث. وكان
نور الشروق الوردي يتسرب من النوافذ من خلال غربال
الثلج. كانت قدما بولوفتسيف متثلجتين، الا أنه ظل
جالسا لا يتحرك يتسمع بكراهية مكظومة الى صوت عدوه
العالي المبحوح لا يفصله عنه الا الباب: «بجحت، يا كلب،
في اجتماعاتك! انا لك.. آه، لو كان ذلك ممكنا الآن! -
وشد بولوفتسيف على صدره قبضتيه المنتفختين بالدم
الداقق، وانغرزت اظافره في كفيه.
ووراء الباب:

- سأقول لك كالاتي، يا قائد كولخوزنا العزيز: لا
ينفعنا السير على النهج القديم في الزراعة! خذ الجودار،
على الاقل. ما السبب في اصابته بالصقيع، وغلة عشرين
بودا من الهكتار الواحد اذا اسعف الحظ، والا فالكثيرون
لا يردون. البذور التي بذروها له؟ واما عندي فانت دائما
لا تستطيع ان تسير بين سنابله لكثافتها. احيانا كنت

اخرج على حصاني، فاربط السنابل، وانا على صهوته، سنبله بسنبلة. والسنبله نفسها لاتسعها كف. وكل ذلك لانني كنت ابقى الثلج في الحقل، واترك التربة ترتوي. بعض المواطنين يقطعون عباد الشمس من جذره طمعا قائلين ان السيقان ستنتفع كحطب لأن ابن الكلبة هذا لا يجفف الجلة في الفناء صيفا، فقد ولد والكسل في رحم واحد، فتدبق ولا يفهم ان سيقان عباد الشمس اذا لم تقطع، وقطعت زهراته وحدها ستحفظ الثلج، وتمنع الرياح من التغلغل فيها، فلا تذرو الثلوج الى المنخفضات. ومثل هذه الارض في الربيع أفضل من اية حراثة عميقة في الخريف. والثلج اذا لم تحتفظ به سيتبدد هدرًا، ويضيع الماء الخصب، بدون فائدة لانسان، ولا لأرض.

- هذا صحيح، بالطبع.

- فلا عبث، يا رفيق دافيدوف، ان تمنحني ولية نعمتنا السلطة السوفيتية شهادة تقدير! انا اعرف الماجريات. قد يحدث ان يخطيء المهندسون الزراعيون أيضا في هذا أو ذاك، ولكن في علمهم اشياء كثيرة نافعة وصحيحة. كنت مشتركًا في مجلة زراعية، وكان أحد من اولئك الذين يعلمون التلاميذ، وهو رجل متعلم جدا يكتب فيها أن الجودار لا يضر به الصقيع، بل يهلك اذا كانت الارض عارية، بلا غطاء من الثلج، فتشقق، وتقطع الجذور معها.

- هذا شيء طريف! لم اسمع به من قبل.

- انه على حق. وأنا أوافق. بل واجريت تجربة للتأكد من ذلك. احفر الأرض وإرى على الجذر المصاصات الصغيرة الدقيقة كالشعرات، تلك التي تمتص بها الحبة المزروعة دم الارض الأسود، وتتغذي منها، رأيتها قد تمزقت وتقطعت. فلا تجد الحبة ماتتغذي به فتهلك. شق شرايين الانسان فهل تراه يعيش؟ وهذا ما يحصل للحبة ايضا.

- نعم، ياكوف لو كيتش، انت تتكلم حقائق. يجب الابقاء على الثلج في الحقول. اعطني تلك المجالات الزراعية لاطالها.

وابتسم بولوفتسيف مفكرا مع نفسه: «لن تجديك! لن يكفيك الوقت لتقرأها. جبل حياتك قصيرا!»

- او كيف تحفظ الثلج على الارض المحروثة؟ ذلك يحتاج الى حواجز. وقد ابتكرت مثلا هذا الحاجز من الاغصان المقطوعة... ويجب ان تكافح الحفر، فهي في كل عام تحتجز منا أكثر من الف دسياتينا.

- كل ذلك صحيح. ولكن قل لي ما هي احسن طريقة لتدفئة مأوى المواشي، على ان تكون رخيصة وجيدة؟

- تقصد الزرائب؟ سنعالج كل شيء! علينا ان نطلب الى النساء أن يملطن الأسيجة. هذا أولا. أو يمكن نشر الروث الجاف بين سياج وآخر...

- نعم... وماذا بخصوص تنقية البذور؟ أراد بولوفتسيف ان يقعد على البرميل بشكل اروح، الا أن الغطاء انزلق من تحته، وسقط محدثا قرقة. صرف بولوفتسيف باسنانه، وهو يسمع دافيدوف يسأل: ماذا وقع هناك؟

- لا بد أن احدا أوقع شيئا. نحن في الشتاء لانسكن هناك. التدفئة تكلف كثيرا... والآن اريد ان اريك قنبا ممتازا. اوصيت عليه خصيصا. ونحن نحتفظ به شتاء في تلك القاعة. تفضل.

وثب بولوفتسيف الى مدخل الممر في قفزة واحدة، والباب المدهون بدهن الوز في الوقت المناسب لم يصرف عند ذاك، وغيبه دون ضجيج...

خرج دافيدوف من بيت ياكوف لو كيتش متأبطا ضبة من المجالات، راضيا عن نتائج زيارته، واكثر قناعة بفائدة اوستروفنوف. وكان يفكر، وهو في طريقه الى سوفيت القرية: «بأمثاله نستطيع ان نقلب القرية خلال سنة! فلاح

ذكي متعلم! ومعرفته في الاقتصاد والارض جيدة جدا!
وأية مؤهلات! لا أفهم لماذا لا يروق لمارك. في الحقيقة
انه يجلب للكولخوز فائدة هائلة!»

الفصل الخامس عشر

واخذ الناس يذبجون الماشية في غريمياتشي اقتداء
بياكوف لو كيتش. ما يكاد الظلام يجل، حين يسمع ثغاء
الغنم القصير المكتوم، ويشق السكون قباع خنزير أو
خوار عجل قبل الموت. وكان الذبح يجري من جانب
المنضمين الى الكولخوز، ومن جانب الفلاحين الافراد على
السواء. كانوا يذبجون الثيران والاغنام والخنازير، وحتى
الابقار. يذبجون حتى ما تبقى للانجاب... وخلال ليلتين قل
الى النصف عدد رؤوس الماشية في غريمياتشي. وأخذت
الكلاب في العزبة تسجل معها المصارين، وامتلات الاقبية
والانبار باللحم. وخلال يومين وزع حانوت جمعية الاستهلاك
الموحد زهاء مائتي بود من الملح كانت خلال عام ونصف
مرمية في مستودعه. وذاعت الاشاعة السوداء: «اذبحوها
فهي ليست لنا الآن!» «اذبحوها والا فان قصابي الدولة
سينحرونها!»، «اذبحوها فانهم لن يقدموا لنا اللحم في
الكولخوز!»، فذبحوها. واكلوا حد التخمة. واصيب الجميع
بألم البطن صغيرهم وكبيرهم. في اوقات الغداء كانت
الموائد تنوء باللحم المسلوق والمقلي. في اوقات الغداء
كان لكل واحد فم دهين، كل واحد يتجشأ كما في وليمة،
ولكل واحد عينان ناعستان من الشبع المسكر.

كان الجد شوكار من بين الاوائل في ذبح عجله الجولي.
أراد وزوجته العجوز ان يعلقاه على رافدة ليسهل عليهما
سلخه، وجاهدا وتعبا وقتا طويلا وبلا جدوى. (ظهر ان
العجل المسمن ثقيل الوزن!) حتى ان العجوز آذت فقراتها،
وهي تحاول ان ترفع الجزء الخلفي من الذبيحة. وظلت
اسبوعا بعد ذلك تعالجها المطببة من الفلاحات العجائز

بوضع الحديد المحمي على ظهرها. اما الجد شوكار فاضطر أن يقوم بشؤون الطبخ في صباح اليوم التالي، وخلال الغداء التهم قدرا من الضلوع المسلوقة اما حزنا على مرض زوجته أو افراطا في الجشع مما جعله يلازم الفناء طوال ايام وفي عز البرد، وراء السقيفة بين عباد الشمس وسرواله الشبيه بالزكبية محلول. ومن كان يمر في تلك الايام ببیت الجد شوكار المتداعي كان يرى طرطور الجد بارزاً في حديقة البيت وسط أجسام عباد الشمس جامدا لايتحرك. وبعد ذلك يظهر الجد شوكار نفسه فجأة من اجامات عباد الشمس، ويضلع الى البيت دون ان يلقي نظرة على الزقاق، ممسكا في سيره بسرواله المحلول. ويصل الى باب الحديقة متعبا لا يكاد يجرجر قدميه، وفجأة، وكأنما تذكر شيئا لا يمكن تأجيله، يستدير، ويختفي مرة أخرى في اجمة عباد الشمس في عدو سريع. ويعود طرطور الجد يبرز هناك ساكنا مهيباً. والقر شديد. والريح تدوم الثلج في الحديقة، مديرة حول الجد أكواماً مدببة السطوح...
 في اليوم التالي، ما ان علم رازميوتنوف ان ذبح الماشية اتخذ شكلا جماعيا، حتى هرع الى دافيدوف في المساء.

- قاعد؟

- اقرأ. - وعكف دافيدوف صفحة كتاب مصفر متوسط الحجم وابتسم في سهوم. - هذا يا اخ، كتاب يأخذ عليك انفاسك! - وضحك، فاتحا فمه بسنه المفقودة، ومد ذراعيه القويتين القصيرتين.
 - تقراً روايات! او كتاب اغان. بينما في العزبة...
 - تفاهة! تفاهة اية روايات واية اغان! - واجلس دافيدوف اندريه على مقعد قبالتة، وهو يضحك، ودس الكتاب في يديه. - هذا تقرير اندرييف في اجتماع حزبي للنشطاء في روستوف. انه يساوي عشر روايات، يا اخ! حقيقة! بدأت القراءة فنسيت الأكل، واستغرقتني القراءة آوه، يا للأسف... اظن الطعام قد برد كله الآن. -

ولاح أسف وغم على وجه دافيدوف المسمر قليلا. نهض واحكم بنطاله القصير في ضيق، ودس يديه في جيبيه، وذهب الى المطبخ.

سأل رازميوتنوف بتصلب:

- هل ستسمع ما أقول؟

- طبعاً، وكيف لا؟ حالا.

جلب دافيدوف من المطبخ طاسة فخارية فيها حساء كرنب بارد، وجلس. قطع بأسنانه رأساً قطعة كبيرة من الخبز، وراح يمضغها، محركا الجيوب الجلدية تحت وجنتيه المتوردتين، وتفرس في رازميوتنوف صامتا، بعينه الرماديتين المتقلصتين بتعب. وكانت قطع مدورة برتقالية اللون من شحم البقر تطفو على سطح الحساء مع شرائح من الفلفل الأحمر تلتمع كاللهب.

- هل الحساء باللحم؟ - سأل اندريه بلذع مشيراً

الى الطاسة باصبعه الملطخة بآثار التبغ.

هز دافيدوف رأسه في رضى غاصاً ومبتسماً بجهد.

- ومن اين يأتي اللحم؟

- لا ادري. ثم ماذا؟

- ثم ماذا، ونصف الماشية في العزبة قد ذبحت.

- من ذبحها؟ - وأدار دافيدوف قطعة الخبز ودفعها.

- الشياطين الملاعين! - واحمرت الندبة على جبين

رازميوتنوف. - يا رئيس الكولخوز! يا من يبني منشأة

عملاقة! ان كولخوزيك هم الذين يذبحون! والفلاحون

الافراد كذلك ركبتهم العفاريث! يذبحون كل شيء لا على

التعيين، وحتى الثيران!

- انت لك عادة الصياح، وكأنك في اجتماع... -

قال دافيدوف في ضيق، وشمر للحساء. - حدثني بهدوء

وتعقل: من يذبح، لماذا يذبح.

- من اين لي أن اعرف؟

- انت دائماً في صياح وصراخ... اذا اغمضت عيني

تصورت نفسي قد عدت الى عام ١٩١٧ العزيز.

- اظنك ستصرخ ايضا!

تحدث رازميوتوف عما عرفه عن ذبح الماشية الذي بدأ يجري في العزبة. وفي نهاية حديثه كان دافيدوف يأكل وهم لا يكاد يمضغ، وغاضت روح الدعابة منه، وتجمعت عند عينيه حزوز الغضون، وبدأ وجهه وكأنه قد شاخ.

- اذهب حالا، وادع الي عقد اجتماع عام. أخبر ناغولنوف... على العموم، سأذهب اليه بنفسى.

- ولم عقد الاجتماع؟

- كيف لم؟ سنمنع ذبح الماشية! سنطردهم من الكولخوز، ونقدمهم الى محكمة. ان ذلك مهم للغاية. حقيقة! هذا من صنع الكولاك مرة اخرى، يضعون العصا في عجلتنا! هاك دخن، وهيا، اذهب... نعم، بالمناسبة، نسيت ان اتباهى امامك.

ورفت على وجه دافيدوف ابتسامة هائلة غامرة عينيه بالدفء، فقد كان لا يعرف كيف يخفي فرحه، مهما كان يحاول ان يزيم شفتيه.

- تسلمت اليوم طردا من لينينغراد... نعم، طردا من الرفاق... - وانحنى، واخرج من تحت السرير صندوقا، ورفع غطاءه، في حمرة الفرح..

كان الصندوق يحتوي على علب سيكائر، وعلبة بسكويت، وكتب، ومحفظة سيكائر خشبية منحوتة، واشياء اخرى في اغلفة وصرر، وكل ذلك قد وضع بشكل مبعثر.

- هاجت الذكرى برفاقي، فارسلوا لي هذا... هذه، يا اخ، سيكائرننا، لينينغرافية... وحتى الشوكولاته هذه. واية حاجة لي بها؟ يجب ان اعطيها لطفل احد الناس... والمهم هنا ليس ما ارسلوه، بل ارسالهم بحد ذاته. اليس صحيحا؟ المهم انهم تذكروني وارسلوا لي، وتوجد رسالة ايضا...

كان صوت دافيدوف رقيقا على نحو غير اعتيادي، وتلك هي المرة الاولى التي يرى فيها اندريه الرفيق دافيدوف بمثل هذه السعادة الطافحة. وانتقل انفعال

دافيدوف الى رازميوتنوف على نحو غامض. فبربر، وهو يود ان يقول شيئاً لطيفاً:

- هذا جميل ايضاً. انت رجل اريحي، فارسلوا لك هذه الارسالية. اكثر من روبل حق هذه الاشياء.

- ليست العبرة في ذلك! انت تعرف أنني كالفصن المقطوع لا زوجة ولا أحد. حقيقة! واذا بي اتلقى هذه الارسالية. حقيقة مؤثرة... ثم انظر الى الرسالة كم فيها من تواقيع. - وكان دافيدوف يمد علبه سيكائر بيد، ويمسك بالأخرى رسالة حافلة بالتواقيع. وكانت يدها ترتجفان.

اشعل رازميوتنوف سيكارة لينينغرافية، وسأل:

- طيب، هل انت مرتاح في مسكنك الجديد؟ ربة البيت لا بأس بها، ها؟ هل دبرت أمر غسيلك؟ ربما تجلبه الى امي لتغسله؟ أم ستتفق مع ربة البيت؟ القميص الذي عليك لا يقده سيف، يلذع عرقه كالحصان المتعب. توردد دافيدوف واحمر.

- نعم، تلك هي الحال... عشت في بيت ناغولنوف مسلوب الراحة على نحو ما... اخط بنفسي، واغسل بنفسي ايضاً. بل ولم اغتسل منذ مجيئي. تلك حقيقة. وبلوزتي ايضاً... في الحانوت لا يوجد صابون، وقد طلبت من ربة البيت، فاذا هي تقول. «قدم لي الصابون». ساكتب للشبان ليرسلوا صابوناً للغسيل ولكن المسكن لا بأس به، ولا يوجد اطفال، فاستطيع ان اقرأ بدون عرقلة، وعموماً...

- اذن، اجلب الملابس لأمي لتغسلها. لا تخجل ارجوك. امي العجوز طيبة.

- سأدبر حالي في ذلك، فلا تقلق. وشكراً. يجب أن نصنع حماماً للكولخوز. سيكون ذلك شيئاً رائعاً! سنبنيه، حقيقة! طيب، اذهب، ونظم الاجتماع.

اتم رازميوتنوف تدخين سيكارتته، وانصرف. اعاد دافيدوف وضع العلب في الصندوق دونما غاية، وتنهده،

وعدل من وضع ياقة بلوزته البنية المصفرة المتسخة،
ومسد شعره الاسود المشط الى فوق، وأخذ يرتدي
معطفه.

في طريقه عرج على ناغولنوف. استقبله هذا وحاجباه
المقوسان مقطبان، وعيناه محولتان.

- يذبحون الماشية... أسفوا على فراق ملكيتهم.
البرجوازية الصغيرة في بلبلة. هذا مؤكد. - غمغم بذلك
بعد التحية. وفجأة استدار الى زوجته بحدة: - لوشكا،
اخرجي الآن. واقعي مع ربة البيت قليلا. انا لا استطيع
الكلام بحضورك.

خرجت لوشكا الى المطبخ بادية الحزن. وكانت طوال
هذه الأيام التي أعقبت خروج تيموفي الاشم مع العوائل
الكولاكية تبدو مكسورة خاطر. ظهر جيبان ازرقان
حزينان تحت عينها المنتفختين، واستدق انفها، وصار
كأنف الميت. والظاهر ان فراق حبيبها اثقل على قلبها.
وحين تجمع الكولاك للخروج الى مناطق الشمال الزمهريرية
قضت النهار كله علنا وبدون استحياء تروح وتجيء عند
بيت بورتشيف في انتظار تيموفي. وحين خرجت العربات من
غريمياتشي عند المساء بعوائل الكولاك وحاجياتهم، اطلقت
صيحة عرامة واستصراخ، والقت نفسها على الثلج. هم
تيموفي أن يترك العربة اليها، الا ان فرول الاشم اعاده
بصيحة متوعدة. وسار تيموفي وراء العربة، كثيرا التلفت
الى غريمياتشي، عاضا على شفتيه المبيضتين من ضراوة
الكراهية.

وهففت كلمات تيموفي الرقيقة متساقطة كاوراق
الحوار. والظاهر ان لوشكا لن تسمعها بعد الآن. وكيف
للرأة الشابة لاتجف من الوحشة والضنى، وكيف لا تكمد
لنفسها! ومن يقول لها الآن، وهو ينظر في عينها بوله:
«هذا الثوب الأخضر فاتن على قوامك، لوشكا! انت فيه
اروع من زوجة ضابط في الزمن القديم». ام بكلمات
الاغنية النسائية: «وداعا يا حسنائي، جمالك يسبيني».

تيموفي وحده كان قادرا على ان يحرك قلب لوشكا بالملق والكلمات العاطفية بدون خجل.

ومنذ ذلك اليوم صار زوجها غريبا عنها كليا. بينما كان ماكار آنذاك يتكلم بهدوء واتزان واكثر من المعتاد:
- أمكثي عندي اياما أخرى، ابقني قليلا. وبعد ذلك اجمعي اشطرتك وحمالاتك ومراهمك، واقلعي الى حيث تشائين. لقد عانيت في حبي لك الكثير مما هو مخجل، والآن نفذ صبري! تعلقت بابن كولاكي، وسكت على ذلك. اما الآن وقد ذرفت دموعك عليه امام جميع الكولخوزيين الواعين، فلم تتبق في قلبي قطرة صبر! وانا، يا بنت، ليس فقط لا يمكن ان اعيش معك لأشهد الثورة العالمية، بل وان يقصف عمري الى الأبد. انت في حياتي عبء زائد أحمله على ظهري. وانا انفض عنى هذا الحمل. فهمت؟
- فهمت، - ردت لوشكا، وهمدت.

في ذلك المساء أجرى دافيدوف حديثا صريحا مع ماكار.

- هذه المرأة مرغتك في الوحل! كيف ستنظر الآن في عيون الفلاحين الكولخوزيين، يا ماكار؟
- عدت الى منوالك القديم...
- انت خشبة! انت مصران ثورا! - واحمرت رقبة دافيدوف، وانتفخت العروق على جبهته.

- كيف اتكلم معك؟ - وسار ناغولنوف في الحجرة وطقطق بأصابعه، وابتسم ابتسامة هادئة مبطنة. - ما ان ازل قليلا حتى تشبثت بزلتني وتصيح: «فوضوي! منحرف!» انت تعرف شعوري ازاء هذه المرأة، وباية مشقة أصطبرت عليها. وقد قلت لك من قبل ان لدي ما يشغلني عنها. فهل فكرت انت بألية الخروف؟
- ل... ل... لا... - مط دافيدوف كلمة النفي هذه

مأخوذا بالتحول المفاجيء في كلام ماكار.
- اما أنا فقد فكرت لماذا خلقت الطبيعة للغنم اليات؟ انها تبدو بلافائدة. فالحصان او الكلب يستخدم ذيله ليهش

الذباب. اما الخرفان فانها تحمل ثمانية ارباط من الشحم وتهزها، ولكن لا تستطيع ان تطرد الذباب بها، وفي الصيف تشعرها بالحر اكثر، ويلتصق بها القراض...
اخذ دافيدوف يغضب في سره:

- وما علاقة الاليات والذبول هنا؟

الا أن ناغولنوف تابع كلامه دون أن يرتبك:

- اظن الالية قد خلقت لتخفي العورة. غير مريحة لها، ولكن كيف لها أن تستغني عنها؟ وهكذا أنا وامرأتي، اقصد زوجتي، انا بحاجة اليها مثل حاجة الغنمة الى الية. انا كليا معبأ للثورة العالمية. انتظرها، المحبوبة... بينما المرأة بالنسبة لي قلامة ظفر. المرأة لاثير في كبير اهتمام. كما ان الاستغناء عنها كليا غير ممكن. يجب حجب العورة... فانا رجل في عنفوانه. مهما اكن مريضاً، استطيع ان افعل ما ينبغي في اوقات الفراغ. واذا كانت امرأتي ضعيفة عن مقاومة شهوتها فلتذهب الى الجحيم! وهذا ما قلته لها: «افسقي، اذا كنت بحاجة الى فسوق، ولكن اياك أن ينتفخ بطنك، أو تصابي بمرض، والا فساقصف رقبتك!» ولكنك يارفيق دافيدوف لا تفهم شيئاً من هذا. انت مثل ذراع من الحديد الأصم. كما لا أراك تتحرق الى الثورة... فلماذا تقررني على جريرة امرأة؟ لقد تركت هذه المرأة لي ما يكفيني. ولكن ارتباطها بالكولاكي، وبكاءها عليه، على ذلك العدو الطبقي، جعلها كالافعى في عيني، انني سأطردها من بيتي لامحالة. اما ضربها فلا استطيعه، وانا ادخل حياة جديدة، ولا أريد ان الوث يدي. اما انت فاظنك قد تضربها، ها؟ اي فرق عندئذ بينك، وانت الشيعوي، وبين اي موظف في الماضي، مثلاً؟ فهؤلاء كانوا يضربون زوجاتهم دائماً. نعم، بالضبط! لا، يا اخ، اترك التحدث معي عن لوشكا. سأعالج امرها بنفسي، فلا تتدخل في هذه المسألة. المرأة قضية جدية جداً! يتوقف عليها الكثير. - وابتسم ناغولنوف ابتسامة حاملة، ومضى يقول بحرارة: - وحين نحطم جميع الحدود سأكون اول من يهتف: «اذهبوا».

وتزوجوا انسابا غير انسابكم». سيختلط الجميع، ولن يكون هناك عيب يلحق الانسان لكون جلده ابيض وجلد الآخر اصفر، والثالث اسود، فيعير ذوو الجلود البيض غيرهم من ذوي الالوان الاخرى، ويعتبرونهم احط منهم. الجميع سيكونون ذوي وجوه سمر، ومتشابهين. هذا ما افكر فيه احيانا في الليالي.

- انت تعيش، يا ماكار، وكأنك في حلم! - قال دافيدوف في غير ما رضى. - الكثير فيك لا افهمه. كلامك صحيح فيما يخص الفرق بين الاجناس. اما الاشياء الاخرى... أنا لا اتفق معك في مسائل المعيشة. ولكن، ما لي من هذا! كفى انني لم اعد اعيش عندك. حقيقة!

وجر دافيدوف حقيبته من تحت الطاولة (فارسلت الادوات المكومة فيها بلا جدوى رنيانا خافتا) وخرج. رافقه ناغولنوف الى مسكنه الجديد، بيت الكولخوزي فيليمونوف الذي ليس له اولاد. وطوال الطريق الى بيت فيليمونوف راحا يتحدثان عن الزرع، ولكنهما كفا عن التطرق الى قضايا العائلة والمعيشة. ومنذ ذلك الحين صارت علاقتهما اكثر برودة...

وفي هذه المرة أيضا استقبل ناغولنوف دافيدوف حادجا اياه بنظرة جانبية، ومن الاسفل، ولكن حديثهما بعد خروج لشكا صار اكثر حيوية:

- الاوغاد، ينحرون الماشية! يفضلون ان يموتوا من التخمة على ان يعطوها الى الكولخوز. وهذا ما اقترحه: ان يصدر الاجتماع توصية بأن يرمي بالرصاص المسرفون في ذبح الماشية!

- ما... ذا؟

- اقول يرمون بالرصاص. ومن علينا ان نطلب منه اذنا بالرمي؟ قد تستطيع المحكمة الشعبية. ها؟ وما ان نعدم اثنين من اولئك الذين ينحرون الابقار الولودة، حتى يتعظ الاخرون على ما اظن! يجب الآن ان نلتزم بأقصى درجات الصرامة.

لقى دافيدوف طاقيته على الصندوق، وراح يذرع
الحجرة. وكان صوته ينم عن عدم الرضى وعن الاسغراق
في التفكير:

- ها انت تغالي مرة أخرى... تعبت معك، يا ماكار!
طيب، فكر. هل من الممكن رمي انسان لمجرد ذبحه بقرة؟
لا توجد مثل هذه القوانين. حقيقة! كان هناك قرار من
اللجنة التنفيذية المركزية، ومجلس مفوضي الشعب، وقد
نص بوضوح على سجنه سنتين، ومن الممكن تجريده من
الارض، ونفي المسرفين خارج الاقليم، بينما انت توصي
بطلب الموافقة على الرمي بالرصاص. آوه، اي صنف انت
في الحقيقة...

- اي صنف! لا صنف! أنت دائما تقيس وتخطط.
وكيف سنتم البذار؟ اي شيطان يساعدنا اذا كانوا قد نحروا
جميع الثيران، قبل دخولهم الى الكولخوز؟
اقترب ناغولنوف من دافيدوف تماما، ووضع كفيه على
كتفيه العريضتين. كانت قامة دافيدوف تصل الى اعلى
رقبته تقريبا، وانشأ ناغولنوف يقول، وهو ينظر اليه من
فوق:

- سيميون، انا مشفق عليك، يا عزيزي! لم دماغك
كسول الى هذا الحد؟ - ورفع صوته حتى قارب الصياح: -
سندمر، اذا لم نوفق في البذار! معقول انك لا تفهم؟
يجب حتما رمي اثنين او ثلاثة على جنايتهم في حق الماشية!
يجب رمي الكولاك! هذه افعالهم! يجب ان نطلب من السلطات
العليا!

- احمق!

- مرة اخرى اطلع احمق... - وخفض ناغولنوف
راسه بجزع، ثم القاه الى الورا على الفور، كالحصان الذي
استشعر ضربة. مهماز، وهدر: سيدبحون كل شيء! الفترة
فترة قتال في المواقع، كما في الحرب الاهلية، العدو
يضغط في كل مكان، وانت! ستودي انت وأمثالك بالثورة
العالمية!.. لن تحل بسببكم، يا بطيئي التفكير! البرجوازية

في كل مكان تمزق الشعب العامل، وتحرق الجنود الحمر الصينيين بالمحارق، وتشنق كل السود، بينما انت تلاين الاعداء هنا! عيب! وعار كبير. الدم يجف في قلبي، حين افكر في اخواني، فيمن تهزأ بهم البرجوازية في الخارج. ولهذا السبب بالذات لا استطيع قراءة الجرائد!.. الجرائد تقلب كل شيء في رأسا على عقب! وانت... بأي تفكير تخص اخوانك الاعزاء الذين يحشرهم الاعداء في السجون؟ انت لا تشفق عليهم!..

ند من دافيدوف نخير مربع، وغرز اصابعه الخمس في شعره الاسود اللامع.

- سحقا لك! ما هذه «لاتشفق عليهم»؟ حقيقة! ولكن لا تصرخ ارجوك! تههستر، وتجعل الاخرين يتهسترون! وهل حاربت اعداء الثورة في الحرب من اجل عيون لوشكا؟ ماذا تقترح؟ تمالك نفسك! اقلع عن ذهنك فكرة الرمي بالرصاص! خير لك ان تقوم بعمل بين الجماهير، وتوضح سياستنا، أما الرمي بالرصاص فامر بسيط! انت دائما هكذا! ما ان يختل شيء حتى تلجأ الى التطرف. حقيقة! واين كنت قبل هذا؟

- حيث كنت انت!

- هذه هي الحقيقة! كلنا سهونا عن هذه الحملة، ويجب الآن تصحيح سهونا، لا التحدث عن رمي الناس بالرصاص! كفاك هستيريا! واشرع في العمل! انت اسوأ من أنسة مطلية الاظافر!

- اظافري مطلية بالدم!

- مثل كل الذين حاربوا بدون قفازات. حقيقة!

- سيميون، كيف تستطيع ان تنعني بالأنسة؟

- فلتة لسان.

- ارجع هذه الفلتة، - طلب ناغولنوف بهدوء.

فنظر دافيدوف اليه صامتا، واخذ يضحك.

- أرجعها. فاهدا، ولنذهب الى الاجتماع. يجب أن

نشير حملة تحريض كبيرة ضد ذبح الماشية!

- يوم امس قضيت كله في التنقل بين البيوت احث الناس.

- هذه طريقة جيدة. لا بد من جولة أخرى. كلنا يجب ان نفعل ذلك.

- ها انت مرة اخرى... يوم امس ما ان اخرج من بيت حتى أفكر: «طيب يبدو انني اقنعتهم!». اخرج وأسمع صياح خنزير آخر يذبح. بينما كنت قبل لحظة أحدث هذا الوغد الحريص على ملكيته عن الثورة العالمية والشيوعية! واحدته بكل حرارة! حتى تأثرت انا نفسي الى حد الدموع عدة مرات. نعم، لا يفيد معهم الاقناع، بل ان يضربوا على رؤوسهم ويقال لهم: «لا تصغوا الى الكولاكي، ايتها الحشرات المعادية! لا تتعلموا منه حب الملكية! ولا تذبحوا الماشية، أيها الاوغاد!» يتصورون انهم يذبحون ثورا، ولكنهم في حقيقة الأمر، يطعنون الثورة العالمية من ظهرها بالسكين!...

فقال دافيدوف مصرا:

- هناك من يفيد معه الضرب، وهناك من يفيد معه التعليم.

خرجا الى الفناء. كانت العاصفة الثلجية تسف رطبة. وكانت ندف الثلج الدبقة تغطي الثلج القديم، وتذوب على السطوح. شقا طريقهما الى المدرسة في الظلام الاردوازي. لم يأت الى الاجتماع الا نصف اهالي غريمياتشي. قرأ رازميوتنوف قرار اللجنة التنفيذية المركزية ومجلس مفوضي الشعب «عن تدابير مكافحة ذبح الماشية الضار». ثم تناول دافيدوف الكلام. وفي آخر خطابه طرح المسألة على المكشوف:

- عندنا، ايها المواطنين، ستة وعشرون طلبا للانتماء الى الكولخوز. وفي اجتماع الغد سننظر فيها ولن نقبل كل من التقط طعم الكولاك وذبح الماشية قبل الانضمام الى الكولخوز. حقيقة!

سأل ليوبشكين:

- والذين يذبجون صفار الماشية بعد ان انضموا الى الكولخوز، كيف تتصرف معهم؟
- سنظردهم!

صدر من المجتمعين تأوه ودوي مكتوم. صاح بورتشيف:
- اذن، حلوا الكولخوز! لا يوجد في العزبة بيت لم يذبح الماشية!

هدر ناغولنوف عليه هازا قبضتيه:
- اسكت، ايها الممالء للكلواك. ولا تتدخل في شؤون الكولخوز. سندبر أموره بدونك! ألم تذبج انت ثورك، وهو في الثالثة من عمره؟
- انا المتصرف في ماشيتي!

- سارسلك غدا الى السجن، وهناك ستتصرف!
صاح صوت قوي:

- صرامة شديدة! تتخذون اجراءات صارمة جدا!
كان الاجتماع عاصفا، وان كان قليلا في عدد افراده. وتفرق اهل العزبة في صمت، ولكنهم بعد ان غادروا المدرسة، وانعقدوا جماعات صاروا يتبادلون الاراء.

- اي شيطان وسوس لي لأذبح الخروفين! - تشكى الكولخوزي سيميون كوجينكوف لليوبشكين. - ستخرجون هذا اللحم من حلقومي الآن...

- وأنا نفسي، يافتى، تورطت، وذبحت معزتي... - وزفر ليوبشكين زفرة ثقيلة. - والآن تعال وواجه الاجتماع. اوه من تلك المرأة! ظلت تحثني على ارتكاب السوء! «اذبحها، اذبحها». كانت تشتهي لحما! آه منك، يا ابليس في ثياب امرأة. سأذهب واشدها من اذنها!

- هذا ما ينبغي، ينبغي ان تلقنها درسا - نصحه قريبه العجوز اكيم بيسخلينوف. - هذا مخرج لك بشكل خاص، فانت عضو في الكولخوز.

- بالضبط، - وتنهد ليوبشكين، وهو يمسح في الظلام ندف الثلج العالقة بشاربيه، ويتعثر بنتوء في الطريق. - وانت، يا جاد اكيم، هلا ذبحت ثورك الارقط ايضا؟ -

سأل ديمكا اوشاكوف وسعل. وكان ببسخليبنوف جاره:
- ذبحته، يا عزيزي. وكيف لا اذبحه وقد كسر الثور
قائمه؛ كسرهما ذلك اللعين الارقط! ساقته روح شريرة
الى السرداب، فسقط فيه، وكسر قائمته.
- ولهذا رأيتك وكنتك تسوقانه الى السرداب
بالعساليج عند الفجر...

- كيف هذا، كيف هذا، يا عزيزي ديمكا! حكم
عقلك! - قال الجد اكييم مذعورا، بل وقف وسط الزقاق
يرمش في ظلام الليل الحالك.
قال ديمكا يهدئه:

- لنذهب، لنذهب، يا جد. مالك وقفت كالمحراث
المغروز في الارض؟ كنت تسوق ذلك الثور الى السرداب...
- هو الذي دخل من تلقاء نفسه، يا ديمكا! لا تسىء
الى الناس. ان ذلك لاثم كبير!

- أنت ماكر، ولكن ليس اكثر مكرًا من الثور. الثور
يستطيع أن يصل بلسانه الى ما تحت ذيله، ولا اظنك
تستطيع ذلك. ها؟. كنت تفكر: «ساعطب الثور، وينتهي
الأمر»؟

كانت ريح رطبة تهب على العزبة. وكانت اشجار الحور
والصفصاف تضح فوق النهر وفي الوهاد. وكان الظلام
الحالك يخيم داجنا فوق العزبة. ظلت الاصوات تتردد طويلا
في الازقة تخنقها الرطوبة. وتساقط الثلج. لقد كان الشتاء
ينفض آخر وبره.

الفصل السادس عشر

خرج دافيدوف من الاجتماع بصحبة رازميوتنوف. كان
الثلج كثيفاً رطباً. وكانت بعض الاضواء تلوح هنا وهناك
في الظلام. وكان نباح الكلاب المتبعثر بدفقات الريح يرن
في العزبة حزينا موصولا. وتذكر دافيدوف قصة ياكوف
لو كيتش عن ضرورة حجز الثلج، فتنهّد: «لا، في هذا العام
لنا ما يشغلنا عن هذا الهم. ولكن كم من الثلج كان يمكن ان

يغطي الحقول المحروثة في عاصفة ثلجية كهذه! مؤسف جدا
ان يضيع. حقيقة!»

اقترح رازميوتنوف قائلا:

- لنذهب الى الاسطبل، نتفرج على خيول الكولخوز.
- هيا.

استدارا الى زقاق. وسرعان ما لاح ضوء باهت. بالقرب
من سقيفة لابشيتنوف لخزن الدريس، والتي حولت الى
اسطبل كان يتدلى فانوس. دخلا الى الفناء. كان حوالى
ثمانية من القوزاق يقفون قرب باب الاسطبل، مجتمعين
بالسقيفة. سأل رازميوتنوف:

- لمن الحراسة هذه الليلة؟

اطفاً احد الواقفين سيكارتته بجذائه، واجاب:

- لكوندرات مايدانيكوف.

فاستفسر دافيدوف قائلا:

- ولم انتم كثار هنا؟ ماذا تفعلون؟

- هكذا، يا رفيق دافيدوف... نقف وندخن جماعيا...

- نقلنا شيئا من التبغ من سقيفة الدريس في

المساء.

- ووقفنا ندخن ونتحدث. نتصور ان العاصفة ستهدأ

عن قريب.

كانت الخيول في مرابطها المحجوزة تمضغ بوداعة.
وكانت روائح العرق وروث الخيل وبولها ممتزجة بالرائحة
المتطايرة لتبغ الافستين السهبي. ومقابل كل مريط علق
طوق ولجام أو سيور على اوتاد خشبية. والممر قد كنس
جيذا، ونثر عليه قليل من الرمل النهري الأصفر.

نادى اندريه:

- يا مايدانيكوف!

- أهوه! - رد صوت في نهاية الاسطبل.

جلب مايدانيكوف ضمة من تبغ الجودار على رأس مذراة،
ودخل الى المريط الرابع من الباب، ولكز بقدمه يستنهض
حصانا اسحم كان راقدا، ونثر التبغ.

- استدر، - يا ابليس! - صاح في غيظ، ولوح بمقبض المدرأة على الحصان الناعس.

نهض الحصان مذعوراً، وراح يضرب الارض الخشبية بجوافره، وحمحم، ومشى الى الملعف، والظاهر انه غير فكره في الاستلقاء. اقترب كوندرات من دافيدوف تفوح منه رائحة الاسطبل والتبن ومد اليه كفه المعروقة الباردة.

- كيف الأمور، يارفيق مايدانيكوف؟

- لا بأس، ايها الرفيق رئيس الكولخوز.

- ولم هذه الرسميات بالكامل: الرفيق رئيس الكولخوز؟... - وابتسم دافيدوف.

- انا الآن اقوم بواجب رسمي.

- ولم الناس مجتمعون قرب الاسطبل؟

- اسألهم بنفسك! - وعبر صوت كوندرات عن ضيق حائق. - حالما اطعم الخيول في الليل حتى يأتي بهم الشيطان الى هنا. الناس لا يستطيعون الغاء فكرة الملكية من اذهانهم. هؤلاء جميعا هم اصحاب الخيول سابقا! ياتون ويسألون: «هل قدمت العلف لحصاني الكमित؟»، «وهل فرشت التبن للاشقر؟»، «هل مهرتي بخير هنا؟» وأين تذهب مهرته، مثلاً؟ هل سأبتلعها؟ الجميع يلحون بالسؤال: «هات اساعدك في علف الخيول!» والجميع يحاولون ان يقدموا لفرسهم علفاً اكثر... مشكلة! يجب اصدار قرار يحرم الغرباء من التلكؤ هنا.

- سمعت؟ - وغمز اندريه لدافيدوف، وهز رأسه مسحوقاً.

- اطرده الجميع من هنا! - امر دافيدوف بصرامة. - بحيث لا يبقى غير الخفير والمساعدين! كم تقدم من التبن لكل حصان؟ وهل تزنه؟

- لا، لا ازنه. بل اقدره بعيني، لكل حيوان نصف بود.

- وتفرش التبن الجميع؟

- ما هذا في الحقيقة! - وهز كوندرات بحدة طاقيته التي تعود الى فترة خدمته في جيش بودوني، فقد تناثرت

قطع التبن على رقبتة السمراء، وياقة سترته المستهلكة. -
اليوم قبيل المساء جاء مديرنا الاقتصادي ياكوف
لوكيتش اوستروفنوف، وقال: «أفرش فضلات العلف
للخيول». وهل هذا معقول؟ وهذا الشيطان يعتبر افضل
مزارع، بينما يتفوه بمثل هذه السخافة!
- كيف اذن؟

- كيف هذا، يا دافيدوف! فضلات العلف كلها صالحة
للاكل تماما. يوجد افسنتين، وهو دقيق ويؤكل، او حشائش
طفيلية وكل ذلك تأكله الخراف والماعز تجتره، بينما يأمر
هو بأن تفرش للخيول! حاولت ان اعترض عليه، فيقول
لي: «ليس من شأنك ان ترشدني!»
- صحيح، لا تفرش الفضلات! وغدا سنحصر له
ذيله.

- وهناك شيء آخر: لقد بدأوا يأخذون القش من
الكومة الموجودة عند البئر. وانا اريد ان اسأل: لأي غرض؟
- قال لي ياكوف لوكيتش أن القش فيها معطار. وهو
ينوي ان يستخدمه لاطعام الماشية في الشتاء، اما الجيد
فيستخدمه عند الحراثة.

وافق كوندرات قائلا:

- هذا صحيح، اذن. ولكن اخبره بخصوص الفضلات.
- سأخبره. خذ ودخن هذه السيكارا اللينينغرافية... -
وسعل دافيدوف. - ارسلوها لي رفاقي في المصنع...
هل الخيول كلها بخير؟

- شكرا. ولع لي... الخيول كلها بخير. ليلة البارحة
اعتل حصاننا الرهوان، حصان لابشينوف سابقا، فعالجناه.
والا فكل شيء على ما يرام. هناك فرس واحد لعين، لا يرقد
ابدا. يقولون يقضي الليل كله واقفا. غدا سننعل بالحدوات
حوافر الخيول الامامية جميعها. فالارض زلقة. والجليد آكل
كل حدواتها. والآن، مع السلامة. علي ان أفرش للخيول
الاخري.

ذهب رازميوتنوف يرافق دافيدوف. قطعاً مسافة وهما يتحدثان، ولكن رازميوتنوف توقف في المنعطف الى مسكن دافيدوف، مقابل بيت الفلاح غير الكولخوزي لوكا تشيبياكوف، ومس كنف دافيدوف، وهمس:

- انظر!

كان شبح انسان يلوح قرب باب الحديقة، على بعد ثلاث خطوات منهما. وفجأة ركض رازميوتنوف مسرعاً، وامسك بيده اليسرى الرجل الذي كان واقفاً في الجهة الداخلية من الباب، وامسك باليمنى مقبض مسدسه.

- اهذا انت، لوكا؟

- اهذا انت، يا اندريه ستيبانوفيتش؟

- ماذا في يدك اليمنى؟ هاته! بسرعة!

- ماذا يا رفيق رازميوتنوف؟

- قلت لك هاته. ساضربك!..

اقرب دافيدوف على الصوت، مقلصاً عينيه لقرص

نظره.

- ماذا تريد ان تأخذ منه؟

- هات، لوكا! سأطلق النار!

- خذه. لماذا انت مسعور؟

- انظر بم كان ممسكاً! آه، منك! لأي غرض تقف

ليلاً والسكين في يدك؟ تنتظر احداً؟ دافيدوف؟ اسألك لماذا

تقف بهذه السكين؟ معاد لنا؟ تريد أن تصير قاتلاً؟

عينا اندريه الحديدتان، عينا صياد، استطاعتا وحدهما

ان تتبيننا حد السكين الابيض في يد الرجل الواقف عند باب

الحديقة. فانطلق يجرده من سلاحه، وجرده بالفعل. ولكنه

حين أخذ يسائل لاهث الانفاس لوكا المصعوق، فتح هذا

باب الحديقة، وقال بصوت آخر:

- لا استطيع ان اسكت مادمت قد حولت المسألة الى

هذا المنحى! لا حاجة الي ان تشك في، يا اندريه

ستيبانيتش، لا سمح الله! تعال.

- الى اين؟

- الى السقيفة.

- ولم؟

- انظر، وسيتوضح لك لماذا كنت اتطلع الى الزقاق والسكين في يدي...

- هيا، لننظر، - اقترح دافيدوف، وبادر في الدخول الى بيت لوكا - الى اين نتجه؟
- تفضل معي.

في داخل السقيفة كانت تتكوم اقراص الجلة، وفانوس مضاء موضوع عن مقعد، وبالقرب منه تفرص زوجة لوكا، وهي امرأة جميلة ممثلة الوجه، رقيقة الحاجبين. نهضت مذعورة، حين رأت الغريبين يدخلان، واخفت بجسمها جردلين للماء وطستا. ووراءها في الركن تماما ينطح خنزير مسمن على قش نظيف يبدو انه قد فرش لتوه. وقد ادخل الخنزير رأسه في طست ضخم، راح يمضغ فضلات الطعام فيه.

- انظرا، ماذا هناك... - كان لوكا يتكلم مرتبكا وبتفكك مشيرا الى الخنزير. - اردنا ان ننحره خلسة... زوجتي تطعمه، بينما كنت أنا أهم بأن اجندله واذبحه، واذا بي اسمع همهمة في الشارع. فاقول لنفسي: «اذهب، والق نظرة لعل احدا يتصنت». فخرجت الى باب الحديقة واكمامي مطوية والسكين بيدي. والمثزر على وسطي. واذا بي اراكما! فماذا كنتما تتصوران عني؟ اتحسبانني اذبح انسانا بكمين مطويين وبمئزر؟ - وخلع لوكا المثزر، وابتسم بارتباك، وصاح على زوجته. بحنق مكظوم: - لماذا انت واقفة، يا بلهاء؟ اخرجي الخنزير!

- لا تذبحه - قال رازميوتوف بشيء من الارتباك - قبل حين انعقد اجتماع حرم ذبح الماشية.
- ولكنني لن اذبحه. افسدتما كل رغبة لي في ذبحه...

خرج دافيدوف، وظل يتفكه بأندريه حتى وصوله الى مسكنه:

- ابطلت محاولة اغتيال رئيس الكولخوز! جردت معاديا للثورة من سلاحه! يا لك من محارب بطل، حقيقة! ها، ها، ها!

فرد رازميوتنوف على مزاحه:
- ومع ذلك انقذت حياة خنزير.

الفصل السابع عشر

في الاجتماع المغلق الذي عقدته خلية غريمياتشي الحزبية في اليوم التالي اتخذ بالاجماع قرار تعميم الماشية كلها، فهي كبيرة كانت ام صغيرة من الابقار والخيول و الاغنام تعود، لتكون ملكا لاعضاء كولخوز غريمياتشي. كما تقرر ايضا تعميم الطيور الداجنة الى جانب الماشية.

في البداية كان دافيدوف يعارض بعناد تعميم الغنم والدواجن، الا ان ناغولنوف أعلن بتصميم ان بذار الربيع سيحبط مالم يتخذ اجتماع الكولخوزيين قرارا بتعميم الماشية كلها، لأن الماشية كلها ستذبح ومعها الدواجن. وقد أيد رازميوتنوف، فوافق دافيدوف بعد تردد.

وبالاضافة الى ذلك تقرر وأدخل في محضر الاجتماع: القيام بحملة تحريضية مشددة لوقف التذبيح الضار، ولأجل ذلك تعهد جميع اعضاء الحزب بزيارة كل بيت في نفس اليوم. اما الاجراءات القضائية ضد المتورطين في الذبح، فقد تقرر عدم اتخاذها في حق أحد، وانتظار نتائج الحملة التحريضية.

قال ناغولنوف فرحا، وهو يضع المحضر في الملف:
- وهكذا ستكون الماشية والدواجن في أمن اكثر. والافلن يسمع في الربيع جوار ثور ولاصياح ديك في العزبة.

اتخذ اجتماع الكولخوز قرار تعميم كل الماشية بهذه الطوعية لأن الماشية المستخدمة في العمل، والماشية المدرة للحليب كانت قد عممت سابقا، فلم يمس القرار غير الماشية

الفتية والاعنام والخنازير. ولكن نقاشات حادة طويلة حدثت بخصوص الدواجن. وجاءت المعارضة من النساء بشكل خاص. وفي آخر الأمر كسر جماهين. وكان لناغولنوف في كسره قسط وافر. فهو الذي قال بعاطفة قوية، وهو يضغط كفيه الطويلتين على وسامه:

- يا عزيزاتي، يا حلوات! لا تتشبثن بالدجاج والوز! من لم يثبت على ظهر الحصان لا يثبت على ذيله! اتركن الدجاج يعيش في كنف الكولخوز. وفي الربيع سنطلب جهاز حزن سيفرخ بنفسه، عوضاً عن الدجاجات، مئات الفراخ. يوجد مثل هذا الجهاز يفرخ الفراخ بشكل ممتاز. فارجو ان لا تعاندين! سيكون الدجاج دجاجكن، ولكن في فناء عام. لا حاجة الى التمسك بملكية الدجاج، يا عماتي العزيزات! ثم أية فائدة من الدجاج لكن! انه الآن لا يبيض. وفي الربيع يكلفكن عناء شديداً. يعني اذا الدجاجة الملعونة ثلاثاً نطت على الحديقة. نقرت الزرع واتلفته، أو اذا أعجبها وضعت بيضتها في مكان لا تستطعن الاهتداء اليه، وقد يلوي فأر الخيل عنقها... فما اكثر المصائب التي تحدث لها؟ وفي كل مرة عليكن ان تتسلقن الى المجاثم وتدسسن ايديكن في خن الدجاج تتلمسن اية دجاجة باضت واية دجاجة لم تبض. يسقط عليكن قمل الدجاج والجراثيم الاخرى. ليس من وراء الدجاج غير التعب ووجع القلب. اما في الكولخوز فسيعيش الدجاج في رعد! وسيشمل عناية جيدة. سنخصص له عجوزاً ارملا يعني به، كأن يكون الجد اكيم ببسخليينوف، ولنتركه يتلمس خننه طوال اليوم، وينسل الى مجاثمه. فانه عمل مريح وخفيف يليق بالشيوخ تماماً، لا يسبب للانسان فتقا. فاعطين موافقتكن، يا عزيزاتي. ضحكت النسوة، وتنهدن، وثرثرن، و«اعطينه موافقتهن».

وبعد الاجتماع مباشرة خرج ناغولنوف ودافيدوف في جولة على البيوت. ومن البيوت الاولى اتضح ان الذبح جار في كل بيت... وعند موعد الغداء عرجا على بيت الجد

شوكار. وكان ناغولنوف يؤكد وهو يدخل الى بيت شوكار:
 - انه كولخوزي نشيط، كان يشير بنفسه الى
 ضرورة الحرص على الماشية. ولن يقدم على الذبح.
 كان «النشيط» مستلقيا على السرير معكوف الساقين.
 وقد طوى قميصه حتى لحيته الملفوفة فتائل، وقلب على
 بطنه الهزيل الشاحب المشعث بشعر اشيب مائل قصعة
 فخارية تسع لحوالي ستة التار. وعلى الجانبين برزت
 علبتان من العلب الطبية كعلقتين. لم ينظر الجد شوكار الى
 الداخلين. كانت يدها المتصالبتان على صدره كيدي الميت
 ترتعشان، وعيناه الجاحظتان المخبولتان من الألم تدوران
 ببطء. وبدا لناغولنوف أن البيت ايضا مشبع برائحة
 الموت. كانت زوجة شوكار البدينة تقف الى جانب الموقد،
 وبالقرب من السرير كانت المطببة ماميتشيخا تروح
 وتجيء، وهي امرأة حركة سوداء، كالفأر، مشهورة في
 المنطقة، بقدرتها على مداواة بكاسات الهواء المفرغ
 والقدرور الحديدية، وتجبير العظام، وفصد الدم وإيقافه،
 والاجهاض بآبرة حياكة حديدية. وهي الآن ايضا كانت
 «تداوي» الجد شوكار البائس.

دخل دافيدوف، وجحظت عيناه:

- مرحبا، يا جد! ما هذا الذي على بطنك؟

- وج ج ج... مان! ب ب... طططني! - تكلم الجد
 شوكار بصعوبة وعلى دفعتين. ثم ولول كالجرى بصوت
 نحيل: - ارفعي القصعة!.. ارفعيها، يا مشعوذة! آوه،
 بطني يتمزق! اوي، يا احبائي، انقدوني!
 - تحمل! تحمل! سيخف الألم حالا، - كانت
 ماميتشيخا تهدئه هامسة، محاولة عبثا أن تنزع حافة
 القصعة المنغرزة في الجلد.

الا ان الجد شوكار صرخ فجأة كالوحش الضاري، ورفس
 المطببة بقدمه، واطبق على القصعة بكلتا يديه. عند ذلك
 هرع دافيدوف لعونه. اختطف شوبكا خشبيا من على الرف،
 ودفع العجوز، وضرب أسفل القصعة بالشوبك. فتساقطت

شظايا جعلت الهواء يصفر. ان الجد شوكار بوهن، وارسل انفاسا متلاحقة مريحة، وقلع العلبتين بدون عناء. نظر دافيدوف الي بطن الجد الطالع من تحت الشظايا كسرة هائلة مزرقة، وانهدب على المسطبة مخوقا بنوبة ضحك عارمة. وسالت الدموع علي وجنتيه، وانحسرت قبعته، وتساقطت علي عينيه خصلات من شعره الأسود...

وتبين ان الجد شوكار يدخر الكثير من طاقة الحياة! ما كادت المطببة ماميتشيخا تبكي علي قصعتها المحطمة، حتى أنزل قميصه، ورفع جسمه علي كوعه.

كانت المطببة تنوح بأعلى صوتها:

- يا خسارة! يا قصعتي العزيزة! حطمتها، يا روح

الشر، اداوي امثالك، ولا القى غير الاذى!

- اخرجي، يا امرأة! اخرجي من هنا حالا! - وأشار

الجد شوكار الي الباب بيده. - اوشكت ان تطلعي روحي.

كان يجب ان احطم هذه القصعة علي رأسك! اخرجي، والا

اقترفت جريمة قتل. انا حين أستفز أقدم علي مثل هذه

الافعال!

ما كاد الباب ينطبق خلف ماميتشيخا حتى سأل

ناغولنوف:

- ما الذي جعلك بهذه الحال؟

- آوه، يا ابنائي، صدقوني: كدت اهلك. لم

اخرج من البيت منذ يومين وسروالي بين يدي... اصبت

باسهال فظيع لا تتمنونه حتى لعدوكم! تصورت انني

مثقوب في مكان ما. ابرز كالبطة المريضة. كل ثانية...

- أتخمت باللحم؟

- لحم...

- ذبحت عجلا؟

- راح العجل... راح دون نفع لي...

نخر ماكار، والقى علي الجد نظرة عدائية، وهس:

- انت، أيها الشيطان العجوز، تستحق ان يوضع

علي بطنك قدر حديدي ضخم، وليس قصعة، ليمتص كل

شيء فيك، حتى امعاءك! سنطردك من الكولخوز، وعندئذ لن يصيبك مثل هذا الاسهال! لماذا ذبحت العجل؟

- اغووني، يا ماكار... اغوتني امرأتي العجوز وهي كوقواق الليل توقوق دائما... ارحمني... يا رفيق دافيدوف! كنت واياك صديقين، فلا تطردني من الكولخوز. كفاني ما لاقيت من عذاب على ما املك...

- طيب، ما جدوى الكلام معه؟ - ولوح ناغولنوف بذراعه. - لنذهب، يا دافيدوف أما انت، يا علة، فأمزج شيئا من زيت البندقية بالملح واشربه. وستشفى. حرك الجذ شوكار شفتيه بتكدر:

- تسخر مني؟

- اقول لك بجد. كنا في الجيش القديم نداوي بطوننا

بذلك.

- اتصورني من حديد؟ استعمل ما تنظف به البندقية التي هي بلا روح؟ لن افعل! أن أموت بين عباد الشمس، خير من أن أتناول زيت البندقية!

في اليوم التالي كان الجذ شوكار يطوف في العزبة دون ان يوافيه الأجل، يحكي لكل من صادفه كيف جاء دافيدوف وناغولنوف لزيارته، وطلبا منه النصح بشأن تصليح آلات البذار وغير ذلك من شؤون الكولخوز. وفي آخر حكايته كان الجذ يتوقف وقفة طويلة، ويلف سيكارة، ويتنهد:

- اصبت بوعدة، فجاء فوراً يزورانني. لا يستطيعان الاستغناء عني. عرضا علي أدوية مختلفة. وهما يقولان «تداو، يا جد، والا فستموت، لا سمح الله، وسنضيع بدونك!» سيضيعون وحق المسيح! ما ان يحصل لهم شيء طفيف حتى يستدعوني الي خليتهم. انظر في امورهم، وانصحهم بشيء ما. وانا لا اتحدث كثيرا، ولكن بدقة. والكلمة التي أقولها لا تضيع هباء، اعتقدا! - ويرفع الي محدثه عينين ناصلتين عابثتين ليحدث وقع حديثه على سامعه.

الفصل الثامن عشر

ومن جديد دبت الحركة في غريمياتشي لوغ بعد ان هدأت... كف الناس عن ذبح الماشية. وخلال يومين كانت الاغنام والماعز من مختلف الشيات تساق الى الزرائب العامة، ويحمل الدجاج بالاكياس. ورجعت العزبة كلها اصداء ثغاء الماشية، وقاقاة الطيور وصياحها.

وصار الكولخوز يضم مائة وستين بيتا. وانشئت ثلاث فرق عمل. فوضت ادارة الكولخوز ياكوف لو كيتش لتوزيع المعاطف والاحذية الطويلة العائدة للكولاك سابقا وغير ذلك من الملابس على الفقراء المحتاجين. ووضعت قائمة أولية. فتيين أن الادارة ليست قادرة على تلبية جميع المحتاجين. استمر لفظ الاصوات الموصول حتى حلول الظلام عند

بيت تيتوك، حيث كان ياكوف لو كيتش يوزع ملابس الكولاك المصادرة. وهناك قرب الشونة على الثلج مباشرة، كان الناس ينزعون احذيتهم وقيسون احذية الكولاك الجيدة، ويلبسون المعاطف والستر والبلوزات. وكان المحظوظون الذين قررت اللجنة تقديم الملابس أو الاحذية لهم على حساب عملهم المقبل يخلعون ما عليهم أمام سياج الشونة، ويلفون ثيابهم القديمة الكثيرة الرقع في حمحة رضى، والعيون متألقة، والوجوه السمرء مشرقة بالبسمات الباهتة الراعشة ليرفلوا بقيافة جديدة لم تعد اجسامهم ترى من خلالها. ولكن كم من الأحاديث والنصائح والشكوك المعلنة والشتائم جرت قبل ان يأخذ المحظوظ ما قسم له... أمر دافيدوف ان تعطي لليوبشكين سترة وسروالا وحذاء طويلا. أخرج ياكوف لو كيتش من الصندوق ضمة من الملابس، وهو عابس، والقاهها عند قدمي ليوبشكين:
- اختر على ذمتك.

وارتعش شاربا هذا المحارب الأبيض السابق، وارتجت يداه... واختار، اختار سترة وكلفه ذلك عرقا غزيرا! يجرب القماشة باسنانه، وينظر اليها في الضوء لعل العث قد خلف

ثقبا فيها، ثم يدعكها باصابعه السود لعشر دقائق او نحوها. وحوله الناس ينفخون بانفاسهم الساخنة، وينصحون:

- خذها، وسيلبسها الاولاد من بعدك.
- اين عيناك! الا ترى أنها مقلوبة على الوجه الآخر.
- كذب!
- ستندم!
- خذها، يا بافل!
- لا تأخذها، قس واحدة أخرى!

ووجه ليوبشكين بلون الآجرة الحمراء المفخورة جيدا، وهو يعلك شاربه الاسود، وينظر كحيوان مقنوص، ويمد يده الى سترة أخرى. ويختار. سترة جيدة من كل النواحي! ويحشر ذراعيه الطويلين في رذنيها، فيصلان الى كوعيه، وتبرز حروز الخياط على كتفيه. ويعود من جديد ينبش في كومة الملابس مبتسما بارتباك وانفعال. وتتقلب عيناه مثلما تتقلب عينا طفل صغير في السوق أمام كثرة من اللعب. وعلى شفثيه بسمة طفولية صافية، حتى لتتوقع أن يمسد أحد على رأس هذا المحارب الابيض السابق بحنان ابوي. وبهذا الشكل لم يختر شيئا حتى الظهر. لبس السروال والحذاء الطويل العنق، وقال لياكوف لو كيتش العابس بعد ان بلع ريقه:

- سآتي غدا لأقيس السترة.

وخرج من البيت بسروال جديد ذي شريطين جانبيين وحذاء طويل العنق مزيق، فبدأ أصغر من سنه عشر سنين دفعة واحدة. خرج الى الشارع الرئيسي متعمدا رغم انه ليس على طريقه، وكان غالبا ما يتوقف عند الازقة، يشعل سيكارة تارة، ويتحدث مع من يصادفه تارة أخرى. واستغرق وصوله الى بيته حوالي ثلاث ساعات، وحين حل المساء كان قد شاع في غريمياتشي لوغ كلها: «اليسوا ليوبشكين وكأنه سيذهب الى الخدمة في الجيش! قضى النهار كله يختار ملابسه... وذهب الى بيته وكل ما عليه

جديد. وسرواله قشيب. وكان يتبختر كالغرائق، وكأنه لا يشعر بالأرض تحت قدميه...»

وتسمرت زوجة ديمكا اوشاكوف عند الصندوق، لا تكاد تتزحزح عنه. لبست تنورة صوفية ذات طيات كانت تعود الى زوجة تيتوك سابقا، ودست قدميها في حذاءين جديدين، والقت عليها منديلا موردا، وعند ذلك فقط لفتت انظار الجميع، فتبينوا ان زوجة ديمكا ليست قبيحة الوجه على الاطلاق، بل امرأة رشيقة. وكيف لا تتسمر هذه المسكينة عند ذلك الصندوق الكولخوزي، وهي التي لم تذق طوال حياتها لقمة سائغة، ولم تلبس بلوزة واحدة جديدة؟ وكيف لا تشحب شفثاها العائلتا اللون من العوز المستديم وقلة التغذية، حين رأت ياكوف لو كيتش يخرج من الصندوق حزمة من الحلل النسائية؟ لقد كانت تلد الاطفال من عام لعام لافة رضعاءها في اقماط رثة، وقطع مستهلكة من فراء الغنم. اما هي التي سلبها الحزن والحاجة المستديمة جمالها السابق وصحتها ونضارتها، فقد كانت تقضي الصيف كله في تنورة واحدة مخرمة كالمنخال، وفي الشتاء كانت تجلس فوق الموقد عارية مع اطفالها، حين كانت تغسل ثوبها الوحيد الحافل بالقمل، لأنها لم تكن تملك ثوبا آخر تستبدله به...

- اعزائي... يا احبائي!.. على مهلكم، ربما لا آخذ هذه التنورة... استبدلها... ربما هناك شيء لأطفالي... لميشاتكا... ولدونيوشكا... - همست مخبولة، متشبثة بغطاء الصندوق، وعيناها المتقدتان لا تفارقان حزمة الثياب المتعددة الالوان.

انخلع قلب دافيدوف الذي حضر هذا المشهد مصادفة... شق طريقه نحو الصندوق، وسأل:

- كم لك من الاطفال، يا مواطنة؟
- سبعة... - ردت زوجة ديمكا همسا، ومن الترقب اللذيذ تخاف ان ترفع بصرها.

سأل دافيدوف ياكوف لو كيتش بصوت خافض:

- هل لديك شيء للأطفال؟

- يوجد.

- أعط هذه المرأة كل ما تريد لأطفالها.

- هذا كثير عليها!..

- ما هذا ايضا؟.. ها؟.. - وكشر دافيدوف عن

سنه المفقودة بغضب، فاسرع ياكوف لوكيتش ينحني على الصندوق.

كان ديمكا اوشاكوف الكثير الكلام عادة واللاذع اللسان يقف وراء زوجته، يبلل شفثيه اليايستين صامتاً، وقد حبس انفاسه. ولكنه لدى سماعه كلمات دافيدوف الأخيرة تفرس فيه... واذا بالدموع تطفر من عينيه المحولتين، كما يطفر النسغ من ثمرة يانعة. انقلع من مكانه، وركض نحو الباب، دافعا الناس بيده اليسرى، مغطيا عينيه باليمنى. وقفز الدرجات، وخرج من الفناء خجلان، يخفي عن الناس دموعه، ولكنها ظلت تسيل على خديه من تحت ستار كفه الأسود، يسابق بعضها بعضاً، دموعاً وضاءة متألثة كقطرات الندى. وعند المساء كان الجد شوكار ايضا قد خف للحصول على نصيبه. اندفع الى مقر ادارة الكولخوز، صوب دافيدوف، وهو لا يكاد يلتقط انفاسه.

- يعطيك العافية، يا رفيق دافيدوف! مسرور

برؤياك!

- مرحباً.

- اكتب لي فاتورة.

- اية فاتورة؟

- للحصول على ملابس.

- ولم نخلع عليك الملابس؟ - ورفع ناغولنوف

الواقف قرب دافيدوف حاجبيه الكثيفين. - ألأنك ذبحت العجل؟

- وما علينا بالقديم، يا عزيزي ماكار؟ كيف لم؟ ومن

قاسى حين خلعنا ملكية الكولاكي تيتوك؟ انا ودافيدوف، دافيدوف ضرب على رأسه، وهذا شيء طفيف. اما انا فماذا

فعل ذلك الكلب بفروتي؟ لم تبق منها الا مزق تصلح لأن ألفها على رجلي! انا المتضرر في سبيل السلطة السوفيتية، ولا استحق أن يكون لي شيء؟ وددت لو ضربني تيتوك على يافوخي، ولم يمس فروتي. كانت الفروة تعود الى امرأتي العجوز. اليس كذلك؟ وزوجتي قد ترهق روحي على فروتها. فماذا سيكون عند ذاك؟ نعم، هذا بالضبط. - لولم تهرب لبقيت الفروة سليمة.

- وكيف لا اهرب؟ الم تسمع، يا عزيزي ماكار، ماذا كانت المشعوذة زوجة تيتوك تفعل؟ كانت تستعدي الكلب علي، وتصرخ: «امسكه، انهشه، يا سيركو! انه اكثر الناس ايذاء!» وهاهو الرفيق دافيدوف يستطيع أن يشهد. - رغم انك عجوز، الا انك تكذب بشكل فاضح!
- اشهد، يا رفيق دافيدوف!
- انا لا اتذكر...

- وحق المسيح، كانت تزعق بهذا الشكل! طيب، ارتعبت، وغادرت. لا بأس لو كان ذلك الكلب مثل سائر الكلاب، ولكنه نمر، وافظع!

- لم يستعد أحد الكلب عليك. مجرد وهم!
- انت لا تتذكر، يا عزيزي ماكار، يا صقرا! فانت نفسك كنت مرعوبا فلم يبق في وجهك دم، فكيف تتذكر؟ عندها قلت لنفسي، انا الآثم: «ماكار علي وشك أن يهرب!» اما انا فقد جرجرتني ذلك الكلب في الفناء كله، حتى لا تذكر كل شيء! لولا الكلب لما طلع تيتوك حيا من بين يدي، فانا رجل خطر!

تلوى وجه ناغولنوف، وكأنما من وجع الاسنان، وقال لدافيدوف:

- اكتب له شيئا، وليذهب الى حيث. ولكن الجد شوكار كان في هذه المرة اميل للحديث من اي وقت آخر.
- انا منذ الصغر قوي في الملاكمة، يا ماكار...
اتغلب على اي كان.

- سمعنا ذلك منك، فلا تهذرا! ربما نكتب لك قدرا حديديا؟ فبأي شيء ستداوي بطنك؟
تناول الجد شوكار الورقة بكدر عميق، وخرج دون ان يودع. ولكن مزاجه الرائق عاد اليه من جديد حين تسلم من ياكوف لو كيتش فروة واسعة مدبوغة. تخاوصت عيناه بشبع وتهللتا. تناول ذيل الفروة باطراف اصابعه، كما يؤخذ الملح من المملحة، وكان يرفع طرفيها مثلما ترفع المرأة ذيل تنورتها حين تعبر بركة ماء. وبعدها، تمطق بلسانه، وتباهى امام القوزاق:

- هذه هي الفروة، والا فلا! كسبتها بعرق جيبني. الجميع يعرفون ان تيتوك حين جننا لانتراع ملكيته الكولاكية هجم على الرفيق دافيدوف بقضيب من حديد. فاقول لنفسي: «سيهلك صديقي!» وفي نفس اللحظة خفت لنجدته، وصددته كبطل! ولولاي لأصاب القضيب صدر دافيدوف. فقال احد المستمعين:

- ولكنهم يقولون انك هربت من الكلب ووقعت، فشق أذنك، كما تشق أذن الخنزير.
- هراء! هؤلاء ناس هذا اليوم. لا يحترمون الحقيقة! ما علاقة الكلب هنا؟ الكلب حيوان ابله وضع، لا يفهم شيئا... - وحول الجد شوكار الحديث ببراعة الى موضوع آخر.

الفصل التاسع عشر

ليلا...

الى الشمال من غريمياتشي لوغ، بعيدا بعيدا وراء طيات التعاريج السهبية الداكنة، وراء الوهاد والمنخفضات، وراء كتل الغابات الصماء تقع عاصمة الاتحاد السوفيتي معمورة بفيض من الاضواء الكهربائية. الزرقاء المتواضعة المعلقة كنار وهاجة صامته فوق البيوت المتعددة الطوابق كاسفة ضوء القمر والنجوم الزائد عن الحاجة.
موسكو البعيدة عن غريمياتشي لوغ بالف وخمسائة

كيلومتر والمقيدة بالحجر تعيش في الليل ايضا. صفارات القطارات تزار فيها داعية ممطوطة، ومنبهات السيارات تصوت كرنات او كورديون هائل، وعربات الترام تجلجل وتصرف وترن. ووراء ضريح لينين، خلف سور الكرملين ترفرف الراية الحمراء وتخفق في الريح الباردة على خلفية السماء المنورة. فتبدو وهي مضاءة من الأسفل بالنور الكهربائي الأبيض الساطع كالوهج الفوار، تنسكب كالدم القرمزي الدافق. طياتها الثقيلة تنهدل لبرهة، ثم ترفعها الريح العالية وتدوم بها، فتعود خفاقة مصوبة طرفها نحو الغرب تارة، ونحو الشرق تارة أخرى، متقدة بلهب الانتفاضات الأحمر تدعو الناس الى النضال...

قبل عامين حين كان كوندرات مايدانيكوف في موسكو لحضور مؤتمر السوفيات لعموم روسيا خرج الى الساحة الحمراء ليلا. فتطلع الى ضريح لينين، والى الراية الحمراء تتألق في السماء مظفرة، واسرع يخلع عن رأسه سدارته العسكرية. ووقف حاسر الرأس في سترته البيتية المحلولة وقفة طويلة بلا حر الك...

بينما يخيم سكون مطبق على غريمياتشي لوغ في الليل، وتتوأمض الآكام المقفرة المحيطة بها متلاثة بالثلج الغض كزغب البجع. والاعشاب الجافة مغمورة بظلال زرقاء كثيفة في المنخفضات والمنحدرات. ومغرفة الدب الاكبر تكاد تمس الافق. وشجرة الحور قرب سوفيت القرية تشرئب نحو السماء السوداء العالية مثل شمع سوداء. ومسيل النبع يترقرق ويغمغم ساحرا متجها نحو النهر. وفي وسعك أن ترى في نهر الماء الجاري تساقط النجوم مرسله بقايا لآلائها للعالم. واذا اصغيت الى سكون الليل العميم، أيها الصديق، فستسمع أرنبا يقضم في العلف، يقرقط غصنا باسنانه المصفرة من نسغ الشجر. وعلى جذع شجرة كرز في ضوء القمر يلمع الصمغ المتجمد ساطعا كحجر الكهرمان. اقطعه وانظر فيه تجد كرة الصمغ الصغيرة كالاجاصة الناضجة التي لم تمس مغطاة بطبقة رمادية خفيفة

رقيقة للغاية. ومن حين لآخر تسقط من غصن كسرة جليد فيطوي الليل ذلك الرنين البلوري بالسكون. والنوامي الجامدة جمود الموت لاغصان الكرز بحلقاتها الرمادية الخشنة يسميها الاولاد «دموع الوقواق»...
سكون...

وعند الفجر فقط، حين تهب الريح الموسكوفية من وراء السحب شمالا، نافخة الثلج باجنحتها الباردة تتردد في غريمياتشي لوغ اصوات الحياة الصباحية: تحف اغصان الحور العارية على ضفة النهر وتزقزق طيور الحجل ينادي بعضها بعضا، وهي تقضي الشتاء في العزبة وتقتات في البيادر. وفي النهار تطير الى الاجمات على منحدرات الوهاد الرملية، مخلقة على الثلج قرب اكوام القش اعواد قش متناثرة وآثار أقدامها المطرزة المتصالبة. ثم تأخذ العجول بالخوار تريد ان تؤخذ الى أمهاتها، وتصيح الديوك الكولخوزية بضراوة أشد، وينتشر فوق العزبة دخان الروث المجفف حريفا مرا.

ومادام الليل مرخيا سدوله على غريمياتشي قد يكون كوندرات مايدانيكوف المستيقظ الوحيد بين سكان العزبة كلها. في فمه طعم المرارة من التبغ البيتي، ورأسه ثقيل ككتلة من الحديد من كثرة التدخين...

منتصف الليل. وتترأى لكوندرات في عيني خياله وهج الاضواء المتهلل فوق موسكو، فيرى الراية الحمراء الخفاقة ترفرف جبارة مغيظة فوق الكريملين، فوق العالم المترامي الاطراف، حيث الكثير من الدموع يذرفها اولئك الذين يكدحون، مثلما يكدح كوندرات نفسه، ويعيشون خارج حدود الاتحاد السوفيتي. وتعود الى ذاكرته الكلمات التي قالتها المرحومة أمه ذات مرة لتجفف دموعه وهو صبي:

— لاتبك، يا عزيزي كوندرات، ولا تثر غضب الرب. فالفقراء في العالم أجمع يبكون كل يوم هذا البكاء، ويشكون الى الرب عوزهم، والأغنياء الذين استأثروا بكل الثراء

لانفسهم. بينما الله يأمر الفقراء بالصبر. وسيغضب لأن الفقراء والجوع يبكون ويبكون، وسيجمع دموعهم، ويجعل منها ضبابا، يلقيه على البحار الزرق، ويحجب به وجه السماء. فتأخذ الكسفن بالضياح في البحار، وتضل طريقها المائي. فتصطدم السفينة منها بصخور البحر وتغرق. او يصنع الرب من الدموع ندى. وفي احدى الليالي يتساقط الندى المالح على الحقول في كل الارض، ارضنا وارض الآخرين، فتحترق سنابل الحبوب بالدموع الحارقة، ويغشي العالم جوع شديد ووباء... اذن لايجوز للفقراء ان يكوا، والا فسيجلبون البلاء لأنفسهم... فهمت، يا حبيبي؟ - واختتمت كلامها بصرامة: - صل للرب، ياكوندرات! فان دعائك سيصل للرب اسرع.

وكان كوندرات الصغير يسأل أمه التقية:

- وهل نحن فقراء، يا اماء؟ وأبي فقير؟

- فقراء نحن.

فكان كوندرات يركع أمام أيقونة قاتمة على طراز المذهب القديم، ويصلي، ويمسح دموعه تماما حتى لا يرى الرب الغضوب دمة واحدة.

كوندرات مستلق يستعرض الماضي في ذاكرته كما يستعرض الصياد شبكته. كان من ناحية ابيه من قوزاق الدون، وهو الآن كولخوزي. لقد قلب فكره كثيرا في الليالي العديدة الطويلة كالطرق السهبية. ابوه، حين كان يخدم في الجيش العامل، أعمل السوط والسيف مع وحدته بعمال النسيج المضربين في ايفانوفو - فوزنيسينسك مدافعا عن مصالح اصحاب المعامل. وتوفي الاب، وكبر كوندرات، وفي عام ١٩٢٠ قاتل البولونيين البيض ورجال فرانغل مدافعا عن سلطته السوفيتية، سلطة نفس اولئك النساجين من ايفانوفو - فوزنيسينسك ضد عدوان اصحاب المعامل ومرتزقتهم.

وكوندرات صب ايمانه، منذ زمان، في الحزب الشيوعي الذي يقود شغيلة العالم كله نحو الانعتاق والمستقبل الزاهر.

وقد ساق الى زريبة الكولخوز العامة كل ماشيته، كل دواجنه. فهو يرى أن من يعمل يستحق وحده أن يأكل الخبز، ويطأ العشب. وانغزت السلطة السوفيتية راسخة الجذور في اعماقه. ولكن كوندرات يأرق في الليالي... يأرق لأن بقية من أسف وحسرة على ملكيته تلدغه لدغ الافعى على مواشيه التي تخلى عنها متطوعا... جثم الأسف على قلبه يثلجه بالوحشة والضجر...

من قبل كان مشغولا النهار كله. في الصباح يسقي ويطعم الثيران والبقرة والاغنام والخيل وفي وقت الغداء كان ينقل التبن والقش من البيدر حاملا اياها في شبكة من الجبال وخائفا من ان يضيع اية قشة، وقبل حلول الليل كان عليه أن يطعم ماشيته من جديد. كما انه كان يخرج في الليل عدة مرات الى زريبة الماشية يتفقد ويعيد الى المعلف القش المتناثر تحت اقدام الماشية. ان عناية المالك بملكه تبهج القلب. اما الآن فزريبة كوندرات خاوية ميتة. وليس لديه ما يخرج ليتفقد. المعالف خالية، والبوابة من الاغصان المضفورة مفتوحة على مصراعها، ولا يسمع في ليله الطويل حتى صياح ديك. وليس له ما يحدد به الوقت خلال الليل ايضا.

ولا يزايله الضجر الا حين يلزم خفارته في اسطبل الكولخوز. في النهار يستعجل الخروج من بيته حتى لا يقع بصره على زربته الخاوية المرعبة، وحتى لا يرى عيني زوجته المتكدرتين.

وهاهي الآن نائمة جنبه، منتظمة الانفاس. وخريستيشكا تتقلب في فراشها على الموقد، تتمطق بشفتيها بحلاوة، وتتمتم في نومها: «بابا، على مهلك!.. على مهلك، على مهلك...» فلعلها ترى قي منامها أحلامها الطفولية المشرقة الخاصة بها. فالحياة يسيرة عليها يسر انفاسها. انها تفرح بعلبة كبريت فارغة. فهي تصنع منها زلاجة لدميتها المصنوعة من الخرق. وتتسلى بهذه الزلاجة حتى المساء، واليوم التالي يشرق عليها بتسلية جديدة.

ان لكوندرات افكاره. وهو يتخبط فيها كما تتخبط سمكة وقعت في شبكة... «متى ستزولين عني ايتها الحسرة اللعينة؟ متى ستجفين، ايتها العفريته المؤذيه؟.. ولم هذا؟ أسير بين مرابط الخيول، وخيول الآخرين واقفة فيها فلا يتحرك في شيء، اما حين اصل الى حصاني، وانظر الى ظهره وعليه الشريطة السوداء تصل حتى عصوصه، وانظر الى أذنه اليسرى المعلمة فان كل ما في صدري يضطرب، فيبدو لي حصاني في تلك اللحظة وكأنه أعز علي من زوجتي. فأسرع لتقديم ألد العلف له، وأنعمه وأدقه. والآخرين بهذا الشكل ايضا. يتسمر كل واحد منهم قرب حصانه، ولا يهمله شيء من خيول الآخرين. مع ان خيول الآخرين لا وجود لها الآن، كل الخيول خيولنا. ولكن الحال بهذا الشكل... لا احد يريد ان يعتني بالماشية، صارت غريبة على الكثيرين... بالأمس كانت الخفارة لكوجينكوف، فلم يذهب بنفسه لارواء الخيول، بل ارسل أحد الاولاد. فركب هذا على فرس، وساق رجيل الخيول كله الى النهر في عدو سريع. فشرب بعضها، والبعض الآخر لم يشرب، وعاد بها الى الاسطبل في عدو سريع ايضا. وانت لا تستطيع ان تعترض على أحد. فسيقولون لك مكشرين: «لم نفسك قبل الآخرين!» كل ذلك لأننا كسبنا املاكنا بصعوبة ومن لا يملك غير منخريه لا أظنه يحسر مثل حسرتنا. علي ان لا انس ان أحكى لدافيدوف غدا كيف سقى كوجينكوف الخيول. بمثل هذه الرعاية لن يبقى لنا في الربيع حصان يجر محراثا. غدا في الصباح سأرى كيف احوال الدجاج. النسوة يقلن سبع دجاجات فطست من ضيق المكان. آه، صعب! ولم كان علينا ان نجمع الدواجن في الحال؟ على الاقل لو ابقوا ديكا في الفناء نعرف الوقت بصياحه بدلا من الساعة... لاشيء يباع في مخزن التعاونية. وخريستيشا حافية القدمين. وهي بحاجة الى حذاء من كل بد؟ وأنا خجلان من ان اطلب ذلك من دافيدوف... لا، لتقض هذا الشتاء على الموقد، وفي الصيف لن تكون بحاجة اليه». ويفكر كوندرات بالعوز

الذي تتحملة البلاد التي تبني الخطة الخمسية، ويضم قبضتيه تحت لحاف الخيش، ويخاطب في ذهنه بكره عمال الغرب الذين لايساندون الشيوعيين: «بعمونا لقاء مرتب جيد من اسياذكم! خنتمونا، أيها الأخوان، لقاء حياة شعبي!.. لماذا ليست لكم سلطة سوفيتية حتى الآن؟ لم تأخرتم هذا التأخر؟ لو كنتم تعيشون حياة ضنك، لكانت لكم ثورة الآن. الظاهر أنكم لم تلسعوا بعد. تتلملون، ولكن لا تنهضون، ولا تجمعون امركم، ولا تتقدمون بثبات... ستلسعون لسعة موحجة!.. ام لا ترون عبر الحدود كيف نعاني لانهاض بلادنا؟ واية ضائقة نتحمل، ونسير شبه حفاة، شبه عراة، ولكننا نطبق افواهنا، ونعمل. ستشعرون بالخجل، يا اخوان، حين تصلون الى شيء جاهز مجهز! حبذا لو اقيم عمودا عاليا لتروه جميعا، واتسلق الى رأس هذا العمود، واخاطبكم بكلام قوى!..» تأخذ الغفوة كوندرات، وترتخي السيكاراة من شفتيه فتحرق ثوبا اسود كبيرا في قميصه الوحيد. ويستيقظ من لسعة النار، وينهض ويشتم همسا، ويتلمس الابرة في الظلام ليخيط الثقب على قميصه، والافستراه زوجته آنا في الصباح، وستظل تناكفه ساعتين على هذا الثقب... ولا يعثر على الابرة. ويغفو ثانية.

ويستيقظ عند الفجر، ويخرج الى الفناء ليتغوط، واذا به يسمع شيئا عجيبا: الديكة الكولخوزية المجتمعة في زرية واحدة تهدر سوية في جوقة من الاصوات الجبارة المتعددة. ويفتح كوندرات عينيه المنتفختين متعجبا، ويظل حوالي دقيقتين يسمع صياح الديكة المكثف الموصول، وحين تخف آخر «عيعيعو!» عجولة متأخرة، يبتسم ابتسامة ناعسة. «يا لهذا الصياح، ايتها العفاريت! موسيقى نفخ حقيقية. الذين يعيشون قربها محرومون من النوم والسكينة. بينما في الماضي كانت مبعثرة في ارجاء العزبة. لا نغم ولا موسيقى... آيه، دنيا!» ويذهب ليوصل النوم.

- بعد ان يتناول فطوره في الصباح، يتوجه الى زريبة الدواجن. ويستقبله الجد اكيم ببسخليبنوف بهتاف غاضب:
- ما الذي جاء بك في هذه الساعة المبكرة؟ -
 - جئت اتفقدك واتفقد الدجاج. كيف الأحوال، يا جد؟
 - كانت لي. اما الان فكم تبق لي احوال!
 - وكيف ذلك؟
 - العمل مع الدجاج سيقضم عمري!
 - لأي شيء؟
 - اقض يوما هنا، وستعرف! هؤلاء الديكة المناكيد تنهاوش طوال النهار، انهكت رجلي وانا اتبعها. وقد تتصور الدجاجات من الجنس الانثوي الوديع، ولكن احداها تمسك بعرف الاخرى، وتخطر في الزريبة كلها! العياذ من هذا العمل! سأذهب اليوم الى دافيدوف واطلب ان يعفيني منه، ويعينني على النحل.
 - سيتعود بعضها على بعض، يا جد.
 - حين تتعود يكون الجد في تابوته. وهل هذا عمل رجال؟ فأنا، على اية حال، قوزاقي شاركت في الحرب ضد الاتراك. بينما هنا نصبوني قائدا عاما على الدجاج، فتفضل. لم يمض غير يومين على هذه الوظيفة، ولا فكأك لي من الاولاد. مان أذهب الى البيت، حتى يلاحقني هؤلاء المشاغبون، ويصبحون: «الجد حاضن الدجاج! الجد اكيم حاضن الدجاج!» كنت موضع احترام الجميع، فهل سأموت في شيخوختي ملقبا بحاضن الدجاج؟ لا، يفتح الله!
 - حلمك، يا جد اكيم! فاي عتاب على الاولاد؟
 - وليت الاولاد وحدهم قد تعابثوا، ولكن بعض النسوان ينضمن اليهم. يوم امس وانا ذاهب الى البيت لأتغدى كانت ناستنكا دونتسكوبا تقف قرب البئر تستقي الماء، فتسألني: «هل تدبر امرك مع الدجاج، يا جد؟» فأقول: «أدبر». «وهل تبيض الدجاجات؟» فأقول: «بعضها

يا أم، ولكن ليس كما ينبغي» فإذا بهذه الفرس الكالميكية
تسهل علي قائلة: «اجتهد لتضع ملء زكبة بيضا
حتى موسم الحرث، والا جعلناك تقفز بنفسك علي
الدجاج!» اني عجوز واسمع مثل هذه النكات. هذا العمل
مهين جدا!

وهم العجوز أن يقول شيئا آخر ايضا الا أن ديكين
تصادما صدرا لصدر عند السياج، فتناثر الدم من عرف
احدهما، وتطايرت حفنة ريش من بلعوم الثاني. اندفع الجد
اكيم نحوهما يعدو، واختطف غصنا، وهو راكض.
كانت ادارة الكولخوز مكتظة بالناس حتى في هذه
الساعة المبكرة من الصباح. وفي الفناء، قرب المدخل
وقفت زلاجة يجرها حصانان بانتظار دافيدوف الذي كان
ينوي السفر الى مركز المنطقة. كان فرس لابشينوفا
العداء يحفر الثلج بحافره، وليوبشكين يراوح قربه، وهو
يشد السيور. وقد تهيأ هو ايضا للسفر الى تويانسكوي،
حيث كان عليه أن يتفق مع ادارة الكولخوز هناك بشأن
مذرة.

دخل كوندرات الحجره الاولى. كان اخصائي الحسابات
الذي قدم من الدسكرة منذ مدة قصيرة ينبش في الكتب
وراء الطاولة. وكان ياكوف لو كيتش الجهوم الناحل الوجه
في الآنة الاخيرة يكتب شيئا، وهو جالس قبالتة. وهنا ايضا
كان يتجمع الكولخوزيون المعينون على نقل التبغ. وكان
رئيس الفريق الثالث اغوفون دوتسوف المجدر واركاشكا
البائع الشاري يتناقشان في شيء في الركن مع ايبوليت شالي
الحداد الوحيد في العزبة. ومن الحجره المجاورة يترامى
صوت رازميوتنوف الحاد المرح.

وكان قد جاء لتوه، وراح يقص لدافيدوف عجولا
متضاحكا:

- جاءت الي اربع عجائز في باكر الصباح. تسوقهن
اوليانا ام ميشكا ايغناطيونوك. أنت تعرفها؟ لا تعرفها؟ عجوز
بدينة تزن سبعة او ثمانية بودات لها ثولول على أنفها. جن،

والعجوز اوليانا كالزوبعة الهائجة لا تكاد تلتقط انفاسها من الغيظ، يوشك الثؤلؤل على أنفها ان ينفجر، وتهاجمني قائلة: «آه، أنت، يا هذا ويا ذلك، يا من كذا وكذا!» وعندي ناس في سوفيت القرية، بينما هي ماضية في شتمي. وبالطبع قلت لها بحدة: «اسكتي، وكفي عن هذه التعابير، والا ارسلتك الى الدسكرة على اهانتك للسلطة. ما هذا الذي تهذرين به؟» فتقول لي: «كيف تتهكم على العجائز؟ كيف تجسر على الهزء بشيخوختنا! وبالكداد عرفت حقيقة الأمر. فقد تبين انهن سمعن من يزعم ان كل العجائز غير القادرات على العمل ممن تجاوزن الستين سيبلغن من قبل ادارة الكولخوز في الربيع بأن... - وانتفح خدا رازميوتوف وهو يكتم ضحكته، وختم حديثه قائلا: - زعموا لهن ان قلة الآلات البخارية التي تفقس البيض ستضطر الادارة الى أن توكل لهن هذا العمل. فجن جنونهن. وتصيح العجوز اوليانا كالمطعونة: «كيف! انا اجلس على البيض؟ لم يخلق بعد البيض الذي اجلس عليه! ساجندلكم جميعا بمقبض المقلاة، واغرق نفسي!» واقنعتهن بالكاد. قلت: «لا تغرقي نفسك، يا جدة اوليانا، كل ما في نهرنا من ماء لا يستطيع اغراقك. كل هذه سفساف وحكايات من تلفيق الكولاك». هذه هي القصة، يا رفيق دافيدوف! الأعداء ينشرون السفساف، ليضعوا العراقيل امامنا. رحت أسألهن من أين سمعن ذلك، فيتبين لي أن راهبة كانت قد جاءت الى العزبة يوم امس الاول قادمة من فويسكوفوي، ونامت عند تيموفي بورتشيف، وزعمت لهن أنهم يجمعون الدجاج ليرسلوه جميعا الى المدينة يطبخون منه حساء الدجاج، وسيصنعون للعجائز مقاعد خاصة وينشرون عليهن القش، ويجعلونهن يجلسن على البيض، ومن ستمانع منهن ستشد على المقعد. سأل ناغولنوف بسرعة، وكان حاضرا يستمع الى الحديث:

- اين هذه الراهبة الآن؟

- زاغت. لم تكن بالبلهاء. كذبت ومضت في حال سبيلها.

- مثل هؤلاء العقاقع يجب أن يعتقلن، ويرسلن الى الجهة المختصة. ليتني التقيت بها! أذن لشددت تنورتها على رأسها، وجلدتها جلدا جيدا... اما انت، يا رئيس السوفيت، فيبيت في عزبتك من هب ومن دب. وتسميه نظاما!

- الشيطان وحده يستطيع ان يراقبهم جميعا! جلس دافيدوف الى الطاولة، وقد القى على معطفه فروة، وراح يدقق، للمرة الاخيرة، الخطة التي صادق عليها اجتماع الكولخوز لأعمال الحقل الربيعية، وقال دون ان يرفع عينيه عن الورقة:

- الافتراء علينا اسلوب قديم للعدو. الطفيلي هذا يريد أن يشين كل ما نبنيه. ونحن احيانا نعطيه الذريعة، كما حدث مع الدواجن...

ارتعش منخرا ناغولنوف، وهو يقول:

- باي شيء نعطيه الذريعة؟

- باقدامنا على تعميم الدواجن.

- غير صحيح!

- حقيقة، صح! ما كان علينا أن نضيع جهودنا في

الصغائر. نحن لم نهيء البذور بعد، بينما انشغلنا في الدواجن. يالها من حماقة! - يمكنني ان اعلن عن ندمي الآن... وفي لجنة المنطقة سينتفون ريشي على تأخري في البذور. حقيقة! وحقيقة مزعجة حقاً...

- ولكن خبرنا لماذا لا يجب تعميم الدواجن؟ الم يوافق الاجتماع؟

فقال دافيدوف متجهما:

- ليست المسألة في الاجتماع! كيف لا تفهم ان الدواجن مسألة طفيفة، بينما علينا أن نعالج الأساسى: تقوية الكولخوز، والوصول بنسبة المنضمين اليه الى المائة، واخيرا البذار. انا ارى، يا ماكار، عن جد أننا

ارتكبنا خطأ سياسياً بصدد هذه الدواجن الملعونة. اخطأنا، حقيقة! هذه الليلة قرأت شيئاً عن تنظيم الكولخوزات وأدركت فيم اخطأنا. كولخوز، اي تعاونية، بينما انجرنا الى كومونة. اليس صحيحاً؟ ذلك هو الانحراف اليساري بعينه. حقيقة! فكر في الأمر قليلاً. أنت الذي حرصتنا على ذلك. ولو كنت في مكانك لاعترفت بهذا الخطأ بجرأة البلشفي، وأمرت باعادة الدجاج وغيره من الدواجن الى بيوته. ها؟ طيب، اذا لم تقم به أنت، قمت أنا به، على مسؤوليتي، حالما أعود. أنا ذاهب. الى اللقاء.

حشر طاقيته في رأسه، ورفع ياقة معطفه المصادر من الكولاك، الياقة العالية الفواحة بالنفثالين، شد ملفه، وقال: - أوزاع الراهبات المتسللات ينشرن الاقاويل ضدنا، يحرضن النساء والعجائز ضدنا. بينما قضية الكولخوز ما تزال في بدايتها وضرورية للغاية. الجميع يجب ان يكونوا في صفنا! في صفنا! وكذلك العجائز والنساء. للمرأة ايضاً دورها في الكولخوز. حقيقة! - وخرج بخطوات عريضة ثقيلة.

- لنذهب، يا ماكار، ونعيد الدجاج الى بيوته. دافيدوف كان محقاً في كلامه.

ظل رازميوتنوف ينظر الى ناغولنوف طويلاً، وهو ينتظر جوابه... وكان هذا جالساً على رف النافذة، وقد فتح فروته، وراح يدير قبعته في يديه، ويحرك شفثيه بلا صوت. وبهذا الشكل مرت زهاء ثلاث دقائق. ورفع ماكار رأسه بسرعة، والتقت عيننا رازميوتنوف بنظرته الصراح: - لنذهب. زلنا، بالفعل! ودافيدوف، ذاك الشيطان ذو السن المفقودة، دقيق وصائب... - وابتسم ابتسامة خجولة قليلاً.

كان دافيدوف يركب الزلاجة، وكان كوندرات مايدانيكوف واقفاً الى جانبه. كانا يتحدثان عن شيء بحيوية. كان كوندرات يشمر ذراعيه، ويتحدث بحمية. وكان الحوذي يقلب الأعنة في يديه بنفاد صبر، ويعدل السوط الكث في

مخبئه تحت المقعد. وكان دافيدوف يصغي عاضا على شفتيه.
وحين نزل رازميوتنوف من مدخل البيت، سمع دافيدوف
يقول:

- لا تنفعل، وكن اكثر هدوءا. كل شيء في ايدينا،
وسنرسخه. حقيقة! سنطبق نظام الغرامات، ونجعل رؤساء
فرق العمل مسؤولين شخصيا عنهم. والآن، الى اللقاء!
وتلوى السوط وقرقع فوق ظهري الحصانين، وتركت
الزلاجة على الثلج اثارا زرقاء مدورة لزحافتها، واختفت
وراء البوابة.

في زريبة الدواجن كانت مئات الدجاج متناثرة كالحصى
الملون. وكان الجد اكييم يتجول في الفناء ويحمل عسلوجا
في يده. والنسيم يداعب لحيته الشائبة، ويجفف قطرات
العرق الدقيقة على جبينه. يسير «حاضن الدجاج» دافعا
الدجاج جانبا بحذائه اللبادي، وقد تدلى على كتفه كيس
مملوء الى نصف بالعصافه. والجد ينثر العصافه في خط
ضيق من الشونة الى السقيفة، والدجاج يفور ويبح عند
قدميه، ويردد بعجالة وحنان: «كو كو كو كو كو!»

وفي ساحة البيدر المسور بسور من العيدان تلوح
اسراب الوز مثل اكوام من الجص. ومن هناك يترامى طنين
عال حاد، واصطفاق اجنحة، وقاقاة. وعند السقيفة جمهرة
من الناس المتحمشدين في حلقة، لأبرى لهم من الخارج غير
ظهورهم وعجائزهم. فالرؤوس محنية الى الأسفل، والعيون
مصوبة الى شيء في الأسفل داخل الحلقة.

تقدم رازميوتنوف، وألقى نظرة من خلال الظهور، محاولا
ان يتبين ماذا يجري في الحلقة. وسمع انفاس الناس.
ينخرون، وهم يتحدثون باصوات خفيضة.

- الأحمر سيغلب.

- لا أظن! أنظر عرفه كيف مال.

- اوه، كيف خبطه!

- فتح منقاره، انهد حيله...

وصوت الجد شوكار:

- لا ترفسه! لا ترفسه! سينصرف من تلقائه! لا ترفسه، يا أزعرا!.. انتظر، وسأرفسك على ضلعك!.. وفي الحلقة يسير ديكان، اجنحتها مرسلة. أحدهما أحمر زاه، والثاني غزير الريش أسود فاهم كالغراب. عرفاهما منقوران مسودان من الدم اليابس، وتحت قوائمهما ريش أسود وأحمر منتوف. والمجاربان متعبان. وهما يسيران متباعدين يتظاهران بأنهما ينقران شيئاً، وينبشان الشلج المذاب بقوائمهما، واحدهما يراقب الآخر بعيون حذرة. ولكن لامبالتهما المصطنعة قصيرة. إذ ان الأسود يقفز فجأة من على الأرض، ويطير الى فوق مثل جذوة فوق نار حريق، ويتوثب الأحمر أيضاً. ويصطدمان في الهواء مرة بعد أخرى...

والجد شوكار ينظر، وقد نسي كل ما في العالم. وفي طرف أنفه يتأرجح مخاط، ولكنه لا يلحظه. كل انتباهه مركز على الديك الأحمر. الديك الأحمر يجب أن ينتصر. وقد تراهن على ذلك مع ديميد الصموت. وإذا بيد تخرج شوكار من حالته المتوترة فجأة. انها تجر الجذوة بفضافة من ياقة فروته، وتخرجه من الحلقة. ويلتفت شوكار، والغيط يحدد وجهه ويشووه مستعداً للهجوم على المعتدى بهمة الديك. ولكن تعبير وجهه يتغير في اللحظة التالية، ويصير بهيجاً حفيماً. إنها يد ناغولنوف الذي يدفع المتفرجين عبوساً، ويهش الديكين، ويقول جهماً:

- ليس لكم شغل غير معاركة الديكة... هيا، تفرقوا الى اعمالكم، أيها المتبطلون! اذهبوا واذروا القش في الاسطبل، اذا لم يكن عندكم شغل. اذهبوا لنقل الروث الى حدائق الخضروات. وليذهب اثنان منكم الى البيوت ليخبرا النسوة بأن يأتين لأخذ دجاجهن.

ويسأل أحد هواة عراك الديكة، وهو مزارع غير كولخوزي في قبعة من فراء الثعلب يدعى بانيك:

- هل ستحلون كولخوز الدجاج؟ الظاهر أن وعيه لم

يرتفع بعد الى مستوى الكولخوز! طيب، في ظل الاشتراكية هل ستتعارك الديكة ام لا؟
وناغولنوف يتفحص السائل بنظرة ثقيلة، ويشحب لونه:

- يمكنك ان تمزح، ولكن اعرف مم تمزح! اروع الناس ماتوا في سبيل الاشتراكية، وأنت، ياخراء الكلب، تنكت عليها؟ اغرب من هنا في الحال، أيها المعادي، والا سددت لك ضربة ارسلتك الى العالم الآخر. فاذهب، يا وغد، قبل ان أجعلك في عداد الموتى! أنا أيضاً أعرف كيف أمزح!

وينصرف عن القوزاق، وقد شملهم السكون، ويلقي نظرة اخيرة على الزريبة المملوءة بالدواجن، ويسير الى الباب ببطء مكور الكتفين، ويرسل زفرة عميقة.

الفصل العشرون

كان دخان السيكاثر يتصاعد في رواق لجنة المنطقة، والآلة الكاتبة تدق والموقد يشع حرارة. إن اجتماعاً للمكتب يجب ان يعقد في الساعة الثانية ظهراً. وسكرتير لجنة المنطقة - الحليق، العرق، بقميصه الجوخ المحلول الياقة من احتباس الهواء - تبدو عليه العجالة. أوماً لدافيدوف مشيراً الى كرسي، وحك رقبتة البيضاء المنتفخة العارية، وقال:

- وقتي ضيق. فانتبه لذلك. طيب، كيف الامور عندك؟ ما نسبة الكلخزة؟ هل ستصلون الى مائة بالمائة قريباً؟ تكلم باختصار.

- قريباً. ولكن المسألة ليست في النسبة المثوية. بل كيف سيكون الوضع الداخلي؟ جلبت خطة اعمال الحقل الربيعية، ربما تلقي عليها نظرة؟

- لا، لا! - قال السكرتير مذعوراً، وقلص عينيه المتهدلتي الجلد بعصبية، ومسح العرق من جبينه بمنديل.

- اذهب بهذه الى لوبيتوف في الاتحاد الزراعي في المنطقة. سيراهما هو، ويصادق عليها. اما أنا فلا وقت لي. وصل رفيق من لجنة الاقليم. والآن سينعقد اجتماع المكتب. طيب، اريد أن أسأل أي شيطان سول لك لترسل الكولاك الينا؟ مشكلة... لقد كنت أقول بلغة روسية فصيحة وأحذر: «لا تستعجل في هذا الأمر، ليست لنا توجيهات محددة». كان الاخرى بك أن تنتهي من اقامة الكولخوز كلياً ولكنك طردت الكولاك وصادرت ملكياتهم، قبل ان تنشئ الكولخوز. ثم ما هو وضع البذور عندكم؟ هل تسلمت توجيه لجنة المنطقة بخصوص انشاء صندوق للبذور على الفور؟ لماذا لم يحقق شيء في تنفيذ هذا التوجيه؟ سأضطر الى طرح قضيتكما، انت وناغولنوف، امام المكتب اليوم. سيتعين علي الاصرار على تسجيل لوم في ملفيكما الحزبيين على ذلك. هذا عيب! احذر، يا دافيدوف! ان عدم تنفيذ اهم توجيه للجنة المنطقة سيعرضك الى عقوبات ادارية مزعجة للغاية! كم جمعتم من البذور حسب النشرة الاخيرة؟ سأؤكد الآن... - واخرج السكرتير من المكتب ورقة مخطوطة بالخطوط العمودية، وقلص عينيه، ومرهما على الورقة، واذا بوجهه يتغطى بحمرة قانية. - آوه، بالطبع! لم تضيفوا بوداً واحداً! لماذا انت صامت؟

- ولكنك لا تدعني اتكلم. صحيح أننا لم نشغل بعد بصندوق البذور. سأعود اليوم ونبدأ. طوال هذه المدة كنا ندعو الى الاجتماعات كل يوم، وننظم الكولخوز وادارته، وفرق العمل. حقيقة! والاشغال كثيرة جداً، ولايجوز كما تريد أنت: لبيك، لبيك ويصير الكولخوز، ويقضى على الكولاك، وتجمع البذور... سنفعل كل هذا، فلا تستعجل وتكتب لومات في ملفينا سيكون لك وقت كاف لذلك.

- وكيف لا استعجل، اذا كانوا يضغطون علينا من مركز الاقليم والدائرة، ولا يتركونا نلتقط انفاسنا! كان يجب ان يتم جمع البذور في اول شباط، بينما انت...

- اما أنا فسأتم جمعها في الخامس عشر منه. حقيقة! وهل نحن نبذر في شباط؟ اليوم أرسلت أحد أعضاء الادارة الى توبيانسكري لطلب مذراة. رئيس الكولخوز هناك يتخايب. بعثنا له رسالة نسأله متى ستفرغ المذراة عندهم، فيكتب قراراً: «في مستقبل الأيام». يعتبر نفسه خفيف الظل ايضاً. حقيقة!

- لا تحدثني عن ذلك الكولخوز، بل عن كولخوزك.
- نظمنا حملة ضد ذبح الماشية. وقد توقف الذبح الآن. وقبل أيام اتخذنا قراراً بتعميم الدواجن والغنم خوفاً من أن يذبحوها، وبشكل عام... ولكنني طلبت من ناغولنوف اليوم ان يعيد الدواجن الى اصحابها.

- ولم هذا؟
- اعتقد من الخطأ تعميم الغنم والدواجن. الكولخوز ليس بحاجة الى ذلك الآن.

- وهل اجتماع الكولخوز اتخذ مثل هذا القرار؟
- نعم.
- ما السبب، اذن؟

- لا يوجد عندنا من يرعى الدواجن، كما أن حماس الكولخوزي قد هبط. حقيقة! فلا حاجة الى اثارته بالصغائر... ولا ضرورة لتعميم الدواجن، فنحن لا نقيم كومونة، بل كولخوزاً.

- نظرية بديعة! وهل هناك حاجة لاعادة الدواجن؟ طبعاً، ما كان من اللازم الانشغال بالدواجن، ولكن ما دمتم قد اقدمتم، فلا يجوز ان تنكسوا. انتم تراوحون في مكانكم، بين بين... ويجب ان تعزموا امركم بحزم! صندوق البذور لم تجمعوه، والمائة بالمائة من الكلخزة لم تصلوا اليها، وآلاتكم الزراعية لم تصلحوها...

- اليوم اتفقنا مع الحداد.
- وهذا ما أقوله: لا وتأثر عندكم! سأرسل لكم فريق دعاية من كل بد، وسيعلمكم كيف تعملون.

- ابعثه. سيكون ذلك جيداً جداً. حقيقة!
- وأنتم خفاف كالبرق فيما لا حاجة الى الاستعجال به. دخن، - ومد السكرتير علية السيكاثر لدافيدوف. - فجأة تنزل علينا العربات المحملة بالكولاك كالصاعقة الهابطة من السماء. ويتلفن زاخارتشكو الي من ادارة الدولة السياسية: «الى اين نرسلهم؟ لا تعليمات من مركز الدائرة. لا بد من قطارات لنقلهم. فبأي شيء نرسلهم، والى اين؟» هل ترى ماذا صنعتهم؟ بلا موافقة، ولا سابق ترتيب...

- اذن، ماذا كان علي ان افعل بهم؟
اعتمل الغضب في نفس دافيدوف وكان اذا استبد به الغضب يأخذ بالتحدث اسرع، ويلثغ قليلا، لان لسانه يقع في فراغ سنه المفقودة، ويجعل كلامه ماطقا وغير واضح. والآن أيضا أخذ يهس قليلا، ويتكلم بنبرته العالية الغليظة. في حرارة وحمية:

- وهل كان علي ان اعلقهم برقبتي؟ لقد قتلوا الفلاح الفقير خوبروف مع زوجته.
قاطعته السكرتير:

- لم يثبت ذلك في التحقيق. قد تكون هناك أسباب اخرى.

- انه محقق سييء، ولهذا لم يثبت. اما الاسباب الاخرى فهراء! انه عمل من اعمال الكولاك، حقيقة! أنهم كانوا يعرفون علينا تنظيم الكولخوز بكل وسيلة، ويقومون بالتحريض ضده، فنفيناهم، وليذهبوا الي الشيطان. أنا لا أفهم لماذا أنت تذكر كل ذلك؟ كأنك غير راض...

- ظن سخيف للغاية! كن أكثر دقة في تعابيرك! أنا ضد التصرف الذاتي، في الحالات التي تستبدل فيها الخطة، العمل المخطط بالتصرفات الاعباطية. انت البادى في نفي الكولاك من عزبتك، حتى جعلتنا في وضع صعب للغاية بنفيهم هذا. ثم ما هذه المصلحية حين لا تنقلهم بعرباتك

الا لمركز المنطقة؟ لماذا لم نقلهم الى محطة السكة الحديدية، الى مركز الدائرة؟

- كنا بحاجة الى العربات.

- هذا ما أقوله. مصلحة! طيب، كفى. اذن، هذه

هي المهمات للأيام القريبة: جمع صندوق البذور بكليته، تصليح الآلات الزراعية قبل موسم البذار، الوصول بالكلخزة الى مائة مائة بالمائة. سيكون كولخوزك مستقلا، وأراضيه مفصولة عن المراكز السكنية الأخرى، وغير داخل - مع الاسف، في المنظومة المسماة... «جبار». ان هؤلاء الذين في المركز - عليهم اللعنة! - لا يستقرون على قرار. مرة يريدون ان تنظم «الجابرة»، ومرة يريدون ان يفرقوها الى اقتصاديات صغيرة! يدوخون الرأس!

وأمسك السكرتير برأسه، وجلس دقيقة صامتاً، ثم

قال بلهجة مختلفة:

- اذهب، ودقق الخطة في الاتحاد الزراعي للمنطقة،

ثم تناول غداءك في المطعم. واذا لم يرق لك الطعام هناك اذهب الى شقتي، وستقدم لك زوجتي طعاماً. انتظر. ساكتب رسالة.

وشخبط شيئاً بسرعة في ورقة، ودسها في يد

دافيدوف، ومد يده العرقة الباردة، وانكب على الاوراق.

- سافر حالا. مع السلامة. ولكنني سأبلغ المكتب

عنكما. او لا، بالأحرى. مع أن عليكما أن تعزما أمركما والا

فالعقوبات الادارية في انتظاركما.

خرج دافيدوف، وبسط الرسالة. كان قد كتب فيها

بالقلم الازرق، وبخط عريض.

«ليزا! اقترح بشكل قاطع ان تقدمي الغداء حالا وبلا

قيد ولا شرط الى حامل هذه الرسالة. التوقيع:

ك. كورتشجينسكي».

«لا، أن اظل بلا غداء خير من هذا الانتداب»، - عزم

دافيدوف على ذلك بضيق بعد ان طالع تلك الرسالة وقد

أخذ يشعر بالجوع، وتوجه الى الاتحاد الزراعي للمنطقة.

الفصل العادي والعشرون

بموجب الخطة كانت مساحة الأرض التي ستحرث في الربيع في غريمياتشي لوغ، في ذلك العام هي ٤٧٢ هكتاراً، من بينها ١١٠ هكتارات من الأراضي البكر. وكان قد حرث في الخريف، في ظل نظام الملكية الفردية ٢٤٣ هكتاراً، وبذر ٢١٠ هكتارات من الجودار الشتوي. وكان من المفروض ان تقسم المساحة المزروعة العامة الى اراض مزروعة بغلال الحبوب، واخرى بالنباتات الزيتية وذلك على المنوال التالي: القمح - ٦٦٧ هكتاراً، والجودار - ٢١٠، والشعير - ١٠٨، والشوفان - ٥٠، والدخن - ٦٥، والذرة - ١٦٧، وعباد الشمس - ٤٥، والقنب - ١٣، والمجموع - ١٣٢٥ هكتاراً اضافة الى ٩١ هكتاراً من الأرض الرملية المخصصة للقرعيات، والممتدة من جنوب غريمياتشي لوغ الى وهدة اوجاتشينا.

في الاجتماع الموسع المنعقد في ١٢ شباط حول مسائل الانتاج، والذي ضم أكثر من أربعين من الكولخوزيين النشطاء طرحت مسألة انشاء صندوق للبذور، وتحديد الحصص في الأعمال الحقلية، وتصليح الآلات قبل البذار، وحجز حصة من احتياطات العلف لموسم أعمال الحقل الربيعية.

وبناء على نصيحة ياكوف لوكيتش اقترح دافيدوف أن تخزن سبعة بودات من القمح لكل هكتار والمجموع ٤٦٦٩ بوداً. واذا بذلك يشير صياحاً مصمماً. أخذ كل واحد يصيح دون ان يستمع الى الآخر، حتى أن الزجاج في بيت تيتوك أخذ يهتز ويرن على الضجيج.

- كثير جداً!
- اخشى أن تصاب الأرض بالأسهال!
- لم نبذر في تربة الرمال الرمادية بمثل هذه الكثرة منذ أن رأينا الدنيا.
- حتى الدجاج يضحك من هذا!

- خمسة بودات بالكثير.
- طيب، خمسة بودات ونصف.
- ان أراضينا الدسمة المتطلبية سبعة بودات للهكتار الواحد قليلة جداً! حبذا لو نحرث أرض المرعى. فلماذا لاتنظر السلطة في هذا؟
- أو تلك القطعة عند احراش بانوشكين!
- أهوه! يريد أن نحرث أحسن الأراضي المعشوشبة! قال دون أن يفكر!
- تحدثوا عن القمح. كم كيلو يحتاج الهكتار الواحد.
- لا تدوخ رؤوسنا بالكيلوغرامات! قس بالبوذ!
- يا مواطنون! يا مواطنون، هدوءاً! يوه، جنوا، الملاعين! اعطوني كلمة! - صاح رئيس الفريق الثاني ليو بشكين موترأ حنجرته.
- تفضل، خذها كلها!
- اي صنف من الناس أنتم! بهائم تماماً... ايغفات! ما لك تجار كالثور؟ وجهك ازرق من الزعيق...
- انت نفسك مزبد الفم، كالكلب المسعور!
- الكلام لليوبشكين!
- لا أحتمل، أذني طرشت!
- ويضح الاجتماع في صيحات ضارية. واخيراً، حين هذا اكثر الزاعقين بعض الشيء، صاح دافيدوق بشراسة غير مألوفة منه:
- من غيركم يجتمع هذا الاجتماع؟.. ولم الزعيق؟ كل واحد يتحدث بدوره، والبقية تصمت. حقيقة! لا مكان هنا للعريضة! يجب ان تظهروا وعياً! - ومضى يقول بهدوء اكثر: - يجب ان تتعلموا من الطبقة العاملة كيف تعقدون الاجتماعات بنظام. عندنا يعقد الاجتماع في الورشة، مثلاً، أو في النادي، فيسير بانتظام، حقيقة! واحد يخطب، والبقية تصغي، بينما أنتم تصرخون دفعة واحدة، فلا يفهم منكم شيء!
- نهض ليو بشكين، وهز رتاجاً بلوطياً سميكاً:

- من يزعم أثناء كلام غيره سأضربه بهذا الرجاج على يافوخه، وحق الرب! حتى اقضي عليه!
فتنبأ ديمكا اوشاكوف قائلاً:

- اذن، ستصرعنا جميعاً حين ينتهي الاجتماع!
وضحك المجتمعون، واشعلوا سيكائرهم، وعادوا يناقشون في جدية الآن مسألة معدل البذور التي ستبذر، ولكن اتضح أن لا حاجة للجدال والصياح... كان ياكوف لو كيتش أول المتكلمين، فحل على الفور جميع التناقضات.
- اتعبتم حناجركم عبثاً. لماذا اقترح الرفيق دافيدوف سبعة بودات للهكتار؟ ببساطة جداً، لقد نصحناه بذلك جميعاً. هل سنعالج البذور وننظفها بآلة التذرية؟ سنفعل. هل ستكون هناك نفايات منها؟ ستكون. وقد تكون كثيرة، لأن بعض المزارعين من الاهمال، بحيث لا تستطيع ان تفرق بذورهم عن العصافة. انهم يخزنونها في مكان واحد مع حبوبهم المستخدمة للطعام، ويفرزونها حسبما أتفق. ولكن هل الفضلات ستضيع هباء اذا وجدت؟ سنستخدمها لاطعام الطيور والحيوانات.

ووافقوا على السبعة بودات. وساء الأمر حين صاروا يناقشون حصة العمل لكل محراث. فقد تضاربت الآراء، حتى كاد دافيدوف يرتبك ويفقد رباطة جأشه.

- كيف تستطيع أن تحدد لي حصة العمل على المحراث مسبقاً، اذا كنت لا تعرف كيف سيكون الربيع؟ - صاح رئيس فريق العمل الثالث اغافون دوبتسوف المجدر الجسيم يهاجم دافيدوف - وهل تعرف حين سيدوب الثلج، اية أرض ستخرج من تحته: رطبة أم يابسة؟ هل تستطيع أن ترى من خلال الأرض؟
فسأل دافيدوف:

- وماذا تقترح انت، يا دوبتسوف؟
- اقترح أن لا ننفق الورق عبثاً، ولا نكتب شيئاً الآن. سينتهي البذر، وستخبرك الأرض بما هي قادرة عليه.

- كيف هذا، رئيس فريق، وتعارض الخطة بلا وعي؟
تتصور أنها غير ضرورية؟

- لا يجوز ان يحدد كذا وكيف مقدماً! - قال ياكوف
لو كيتش مؤيداً دويتسوف بغير توقع - وكيف يمكن تحديد
الحصة؟ فمثلاً عندكم ثلاثة أزواج من الثيران الجيدة المحنكة
للمحراث، وعندني ثور قاصر عمره ثلاث سنوات. فهل
استطيع أن اجاريكم في الحرث؟ لا، قطعاً!

ولكن كوندرات مايدانيكوف تدخل في هذه المرة:

- غريب جداً ان نسمع ذلك من اوستروفنوف، مدير
الاقتصاد! كيف ستعمل بدون ان تضع لك مهمات؟ كما
يحلو لك؟ أظن أنا طوال النهار قابضاً على المحراث بيدي،
وانت تدفئ ظهرك في الشمس، ونحصل على أجر
متساو على هذا وعلى ذلك؟ يعطيك العافية، يا ياكوف
لو كيتش!

- حمدا لله، يا كوندرات خريستوفوريتش! طيب،
وكيف تقيس قوة الثور وقوة الأرض؟ قد تكون أرضك ناعمة،
وأرضي صلبة، وأرضك في منخفض، وأرضي على ربوة. قل
لنا مادمت ذكياً بهذا الشكل.

- للصلبة حصتها، وللناعمة حصة أخرى من حيث القوة.
ويمكن شد الثيران متساوية في ازواجها. كل شيء يمكن أن
يراعي، فلا تحاول اقناعي!

- اوشاكوف يريد الكلام.

- ليتفضل!

- سأقول بهذا الشكل يا اخوان: يجب، كما هو
متعارف عليه، أن نبدأ علف حيوانات الحقل بالعلف الجيد:
الدريس الممتاز، والذرة والشعير قبل البذر بشهر. وهنا
ينشأ سؤال خطير: كيف ستكون الحال مع العلف؟ تسليم
مشتريات الدولة من الحبوب أتى على الحبوب الفائضة...

- سنتحدث عن الماشية فيما بعد. هذا ليس وارداً
الآن، حقيقة! يجب أن نقرر مسألة حصص العمل اليومية

في الحراثة. كم هكتاراً في الأرض الصلبة، كم للمحراث الواحد، وكم للبذارة الواحدة.

- البذارات أيضاً تختلف! انت لا تستطيع ان تساوي ذات الصفوف الأحد عشر بذات الصفوف السبع عشر.
- حقيقة! قدم اقتراحك. وأنت، أيها المواطن، لماذا طوال الوقت صامت؟ اسمك في قائمة النشطاء وصوتك لم أسمع بعد.

نظر ديميد الصموت الى دافيدوف مندهشاً، واجاب بصوت صدري عميق:

- أنا موافق.
- على اي شيء؟
- يجب أن يحرث... وأن يبذر، بالطبع.
- طيب؟
- هذا كل شيء.
- كل شيء؟
- أها.

- لسانك نطق. - وابتسم دافيدوف، وقال شيئاً آخر، الا ان كلماته لم تسمع بسبب انفجار الجميع بالضحك.

وبعده، بدلا من الصموت قال الجد شوكار موضحاً:
- نسيمه في عزبتنا بالصموت، يا رفيق دافيدوف. طول عمره صامت، ولا يتكلم الا عند الضرورة القصوى ولهذا السبب هجرته زوجته. انه قوزاقي ليس بالبليد، ولكنه لا يخلو من حماقة، او بتعبير أرق غريب الأطوار، أو كمن أصيب بضربة صاعقة على غفلة. اتذكره حين كان صيباً، كان ملوث الأنف بالمخاط، لا نفع فيه، ولا سروال عليه، لم يلحظ عليه أية مخايل قطنة، وها قد كبر الآن، ولا يتكلم. في العهد الماضي منعه قسن الكنيسة في توبيانسكوي من تناول القربان المقدس لهذا السبب. وعند الاعتراف كان يغطيه بقماشة سوداء، ويسأله (كان ذلك في الاسبوع السابع من الصوم الكبير): «هل تسرق، يا بني؟» فيصمت. «هل تمارس الزنى؟» فيظل صامتاً. «هل تدخن؟»

هل تدخل في غراميات مع النساء؟» ويبقى على صمته. بينما كان علي هذا الاحمق ان يقول: «خاطيء يا ابانا» فتغفر له خطايا في الحال...

صوت من الخلف وضحك:

- ولكنك طولت!

- سأنتهي حالا، في ثانية! طيب، ولكنه ينشج ويبلق بعينه لا غير، مثل خروف عند بوابة جديدة عليه. وضاق صدر القس، وارتعب. وراح وشاحه يرتعش، ومع ذلك ظل يسأل: «ربما اشتهيت زوجة جارك، أو حماره أو بعض ماشيته؟» وما غير ذلك مما ورد في الانجيل... وديميد ماض في صمته. ثم ماذا يمكنه ان يقول؟ وحتى لو اشتهى زوجة احد جيرانه فانه لن يظفر منها بشيء، حتى ولو كانت اقبح... اوعز دافيدوف بصرامة:

- انتہ، يا جد! حكايك لا علاقة لها بموضوعنا.

- ستكون لها علاقة حالا، وتمس الموضوع. ما هذا الا مقدمة. لحظة واحدة فقط! شوشتم علي... اللعنة علي الشيطان! نسيت عم كنت اتحدث!.. آه، يا ذاكرتي... نعم، تذكرت! - وضرب الجد شوكار صلعته، ولعلع كما يلعلع مدفع رشاش: - نعم، بخصوص زوجة الجار، لا مكسب لديميد ولا مغنم. ثم اي فائدة له من ان يشتهي الحمار أو غيره من الماشية المقدسة؟ ربما يمكن ان يشتهيها لأنه لا يملك حصاناً، ولكننا لا نربي الحمير وهو لم ير حماراً مرة في حياته. وأنا اسألکم، أيها المواطنون الاعزاء من أين تأتينا الحمير؟ لم تكن هنا. وكذلك النمر والجمل... سأل ناغولنوف:

- متى ستسكت؟ سأخرجك من الاجتماع فوراً.

- أما انت، يا عزيزي ماكار، فقد تحدثت عن الثورة العالمية في اول أيار من الظهر حتى غروب الشمس، وذلك في المدرسة. حديث مضجر بدون شك، وعلى نمط واحد. وتكررت علي المسطبة خلسة، وغفوت، ولم احب ان اقاطعك، بينما انت تقاطعني...

قال رازميوتنوف الشديد الولوج بالنكتة، والحكاية المرحّة:

- دعوا الجد يكمل. عندنا وقت.
- ربما بسبب هذا صمت ديميد. لا أحد يعرف.
واندهش القس. فيدس رأسه تحت منديل، ويسأل: «هل أنت أخرس؟» فإذا بديميد يقول له: «لا، بل اضجرتني!»، فيغضب القس، ويخضر وجهه، ويهمس بخفوت حتى لا تسمعه العجائز القريبات منه: «فلمأذا أذن صامت، كالعمود، يا ابن؟» ويضرب ديميد بشمعدان صغير بين عينيه!

ويغطي الضحك على صوت ديميد العالي الهادر:
- انت تكذب! لم يضربني.

فابدى الجد شوكار دهشته العظيمة:

- معقول لم يضربك؟ طيب، لا فرق، اظنه أراد أن يضربك... وبعد هذا حرم عليه تناول القربان. وهكذا، أيها المواطنون، سيصمت ديميد، ونحن نتكلم، وهذا لا يخصنا. رغم ان كلاما مثل كلامي من فضة ولكن السكوت من ذهب.

فنصحها ناغولنوف قائلاً:

- حبذا لو غيرت كل فضتك هذه الى ذهب، فان الآخرين سيكون أكثر راحة...

اندلع الضحك كالنار في الهشيم، ثم خفت. اخلت حكاية الجد شوكار بروح الاجتماع العملية ولكن دافيدوف ازاح البسمة عن وجهه وسأل:

- ماذا كنت تريد ان تقول عن معدل الانتاج؟ ادخل في الموضوع!

- أنا؟ - ومسح الجد شوكار جبينه العرق بكمه، ورمش بعينه. - لم أرد أن أقول عنه شيئاً. بل عالجت قضية ديميد... ولا علاقة بها...

- أمنعك من الكلام في هذا الاجتماع! يجب أن تتكلم في الموضوع، وفيما بعد تستطيع أن تمزح. حقيقة!

افترح الكولخوزي ايفان باتالشيكوف أحد الوكلاء الزراعيين:

- ديسياتينا للمحراث في اليوم الواحد.
الا ان دويتسوف صاح باستياء:
- سخف! احك ترهاتك هذه لزوجتك! لن تحرث ديسياتينا في اليوم الواحد! سيزبد فمك، ولا تنجز شيئاً.

- حرثت ذلك من قبل، طيب، قد يكون أقل من ذلك بقليل...

- هذا ما اعنيه، أقل!
- نصف ديسياتينا للمحراث الواحد، للأرض الصلبة. وبعد نقاش طويل استقروا على الحصاة اليومية التالية للحرثة: الأرض الصلبة للمحراث الواحد - ٠,٦٠ من الهكتار، وللأرض الناعمة - ٠,٧٥ من الهكتار.

أما البذار فللبذارة ذات الصفوف الأحد عشر ٣,٢٥ هكتار ولذات الصفوف الثلاثة عشر ٤ هكتارات، ولذات الصفوف السبعة عشر ٤,٧٥ هكتار.

وبوجود ١٨٤ زوجاً من الثيران و ٧٣ حصاناً في غريمياتشي لوغ بالمجموع لم تكن خطة البذار الربيعي خطة مجهدة. وقد أعلن ياكوف لوكيتش ذلك بكل وضوح:

- اذا اجتهدنا في العمل فسننتهي من البذار في وقت مبكر. وسيكون نصيب حيوان الجر اربعة هكتار ونصف خلال الربيع، وهذا سهل، يا اخوان! ولا حاجة الى كلام. فقال ليوبشكين:

- بينما كان نصيب الحيوان في توبيانسكوي ثمانية هكتارات.

- دعهم يسكبون عرقهم، اذن! فقد قمنا بحرثة الخريف الماضي قبل حلول الصقيع، بينما هم كانوا منذ تشربن الاول يضيعون وقتهم في تقاسم الحطب!

واتخذوا قراراً في تجميع صندوق البذور في ثلاثة ايام. واستمعوا الى اعلان غير سار من الحداد ايبوليت

شالي. وكان يتكلم بصوت عال، لسمعه الثقيل، ويدير طوال الوقت طاقيّة مدهنة مسخمة بيديه السوداوين المسحوقتين من جراء العمل، ويتهيب من الكلام امام اجتماع حاشد.

- استطيع أن اصلح كل شيء. ولا اترك ما يستوجب العتب. ولكن يجب الحصول على الحديد فوراً، وبكل جهد ممكن. لا يوجد عندنا اي حديد لشفرات المحراث وحدائده. ليس لي ما اشتغل عليه. وسأبدأ العمل في الباذرات غداً. كما احتاج الي مساعد وفحم. ماذا سيكون أجري من الكولخوز؟

اوضح دافيدوف له بالتفصيل ما يتعلق بالأجر، واقترح على ياكوف لو كيتش أن يتوجه الي مركز المنطقة غداً لجلب الحديد والفحم. كما أن مسألة تخزين العلف قد حلت بسرعة.

وبعد ذلك تكلم ياكوف لو كيتش:

- يجب ان تناقشوا جيداً، أيها الاخوان، كيف ومتى وماذا نبذر، كما يجب ان تختاروا اخصائياً في زراعة الحقول له معرفة ودراية. قبل انشاء الكولخوز كان عندنا خمسة من الاخصائيين الزراعيين لم نر فائدة منهم. يجب أن نختار اخصائي زراعة الحقول من القوزاق القدامى، يعرف كل أرضنا ظاهرها وباطنها. وسيكون ذا نفع كبير لنا، حتى يتم مسح الأرض. واقول لكم بالشكل التالي: كولخوزنا الآن يضم العزبة كلها تقريباً. والناس ينضمون اليه شيئاً فشيئاً. ولم يبق من المزارعين الأفراد غير ما يقارب الخمسين بيتاً، ولكنهم غداً يصيرون كولخوزيين... ولهذا يجب ان نبذر حسب ما يستوجه العلم. واعتقد أن نصف الديسياتينات المائتين التي لدينا من الأراضي المحروثة يجب أن يعالج بطريقة خيرسون. في هذا الربيع سنحرق مائة وعشرة ديסיاتينات من الاراضي البكر، فلنحرقها بطريقة هيرسون هذه.

- لم نسمع شيئاً عن هذا!

- ما هو هيرسون هذا؟

- زودنا ببعض الحقائق عنه. - طلب دافيدوف، وهو يعتز في سره بمدير اقتصاده الكثير الخبرة.

- هذا النظام يسمى أيضاً بنظام الصفوف العريضة أو النظام الأمريكي. وهو نظام يثير الانتباه، مبتكر بعقل! فمثلاً تزرعون في هذه السنة ذرة أو عباد الشمس، وتزرعونها بصفوف متباعدة، أقل إلى النصف من المعتاد، فتحصلون على نصف ما يمكن أن تحصلوا عليه في الزراعة الاعتيادية الصحيحة. وتقطعون اكواز الذرة، أو زهور عباد الشمس، بينما تبقون اعوادها في اماكنها. وفي هذا الخريف تبيرون القمح الشتوي في الصفوف بين الاعواد.

- وكيف نبذر؟ ستكسر البذرة الاعواد؟ - سأل كوندرات مايدانيكوف بنهم، وكان يصغي فاغر الفم.

- ولم تكسرهما؟ الصفوف عريضة، فتمر بها دون أن تمس الاعواد، وستمر بينها، وحين ينزل الثلج ستمسكه الاعواد وتبقية بينها. وسيذوب بالتدريج، ويعطي نداوة اكثر. وفي الربيع حين يطلع القمح، تكسر هذه الاعواد، وتجتث. انه نظام سديد وجذاب. ورغم انني لم أجربه، الا انني كنت انوي أن اطبقه في هذا العام. انه حساب دقيق، لا خطأ فيه:

- ذلك هو! سأؤيده! - قال دافيدوف، ولكن ناغولنوف بقدمه تحت المنضدة وهمس له: - هل ترى؟ بينما انت دائماً ضده...

- والآن ايضاً...

- هذا لمجرد العناد، حقيقة! تحرن كالثور المخصي... وافق الاجتماع على اقتراح ياكوف لو كيتش. وبعد ذلك أقروا وتشاوروا في جملة من المسائل الصغيرة. وأخذوا يتفرقون. وما كاد دافيدوف وناغولنوف يصلان إلى سوفيت القرية، حتى التقيا بشاب معتدل القامة في سترة جلدية قصيرة محلولة وبزة عسكرية يخرج مسرعاً من فناء سوفيت القرية، وراح يقترب منهما بسرعة ممسكاً بيده طاقة مدنية ذات مربعات، متغلباً على مقاومة خفقات الريح.

قال ناغولنوف مقلصاً عينيه:
 - أحد جاء من مركز المنطقة.
 اقترب الشاب تماماً، ورفع يده الى ظليلة طاقيته في
 تحية عسكرية:
 - هل انتم من سوفيت القرية؟
 - من تريد؟
 - سكرتير الخلية هنا أو رئيس السوفيت.
 - أنا سكرتير الخلية، وهو رئيس الكولخوز.
 - هذا جيد. أنا، ايها الرفيقان، من فريق الدعاية.
 وقد وصلنا لتوننا، ومنتظركم في مقر السوفيت.
 ومرر الفتى الأسمر الوجه الافطس الانف عينيه بسرعة
 على وجه دافيدوف، وابتسم مستطعلاً:
 - أ لست دافيدوف، ايها الرفيق؟
 - نعم.
 - لقد عرفتك. قبل اسبوعين التقينا في لجنة الاقليم.
 أنا أعمل في مركز الاقليم، عامل معصرة في مصنع استخراج
 الزيوت.
 وعند ذاك فقط فهم دافيدوف لماذا كانت تفوح من هذا
 الفتى رائحة زيت عباد الشمس العذبة حين اقترب منه.
 وكانت سترته الجلدية المدهنة مشبعة بهذه الرائحة اللذيذة
 الثابتة.

الفصل الثاني والعشرون

بينما كان دافيدوف يقترب من مدخل مقر السوفيت
 كان على المدخل قصير ممتلىء يدير ظهره اليه، في
 قبعة كوبانية سوداء، واطئة على قمته شريط متصلب
 أبيض، ومعطف فرائي قصير أسود مدبوغ ذي طيات. كان
 كتفا الرجل ذي القبعة الكوبانية عريضين جداً، وكان ظهره
 الواسع بشكل نادر يخفي الباب كله وعضاداته. كان واقفاً
 مباعداً بين رجليه القويتين القصيرتين، واطئاً، جباراً،
 كدردار السهب. وكان حذاؤه بعنقه الطويل العريض

المتجعد، وكعبه المائل الى جانب، يبدو وكأنه قد انغرز على أرضية المدخل، وخسفها بثقل جسمه الدببي.

- هذا رئيس فريقنا الرفيق كوندراتكو، - قال الفتى الذي كان يسير الى جانب دافيدوف، حين لاحظ ابتسامة على شفتي دافيدوف - نحن نسويه بيننا مزاحا «المربع»... إنه خراط من مصنع القاطرات في لوغانسك. وهو لكبر سنه يصلح أبا، ولكنه ما يزال كفتى ممتاز.

في تلك اللحظة سمع كوندراتكو الكلام فأدار نحو دافيدوف وجها أحمر تشع ابتسامة من تحت شاربيه البنين المرتخين كاشفة اسنانه البيض.

- أها، ألعلم سلطتنا السوفيتية؟ التحيات، يا اخوان!

- مرحبا، يا رفيق. أنا رئيس الكولخوز، وهذا سكرتير الخلية الحزبية.

- لطيف! لندخل، فان شباني ينتظرونكما منذ زمان. أنا رئيس فريق الدعاية. واريد أن ادخل في الموضوع رأسا. اسمي كوندراتكو، واذا كان شباني سيسمونني بالمربع، فلا تأخذوا تسميتهم بمحمل الجد لأنهم يخلقون كلمات سيئة، ولا يضارعهم أحد في ذلك.

كان يتكلم بصوت عال النبرة شديد، وهو يدلف من الباب من جنبه.

عمل كوندراتكو اوسيب في جنوب روسيا أكثر من عشرين سنة. في تاغانروغ في البداية، ثم في روستوف على الدون، وفي ماريو بول، وأخيرا في لوغانسك، ومن هناك انخرط في صفوف الحرس الأحمر ليسند السلطة السوفيتية الفتية بكتفه العريضة. وخلال اعوام اختلاطه بالروس فقد نقاء لغته القومية الأوكرانية، ولكنه ما يزال يمكن التعرف بشخصه على الأوكراني، وذلك من وجهه، ومن شاربيه المتهدلين مثل شاربي الشاعر الأوكراني شيفتشنكو. وفي عام ١٩١٨ سار مع عمال المناجم في

الدون بقيادة فوروشيلوف الى تساريتسين خلال قري القوزاق المواراة بالانتفاضات المعادية للثورة... وفيما بعد فقط، حين تطرق الحديث الى سنوات الحرب الاهلية التي صارت في الماضي، والتي مايزال صداها يتردد حيا في قلوب المشتركين فيها وفي ذاكرتهم، صار كوندراتكو يقول بفخر هادى: «كليمنت* من عندنا، من لوغانسك... كان احدنا يعرف الآخر جيدا، وربما سنلتقي في يوم ما. عندئذ سيعرفني فوراً. عندما كنا نحارب البيض في تساريتسين، قال لي عدة مرات حين كنا نلتقي: «كيف الحال، يا كوندراتكو؟ أما تزال حيا، أيها الشاطر؟» فاقول له: «ما أزال، يا كليمنت اخريميتش لوقت للموت الآن، ألا ترى كيف نقاتل المعادين للثورة كالمجانين؟» وختم كوندراتكو كلامه قائلا: «ولو نلتقي مرة أخرى فسيحيني تحية طيبة، من كل بد».

وبعد الحرب وجد نفسه في لوغانسك مرة أخرى، وخدم في هيئات اللجنة الاستثنائية في قسم المواصلات، ثم نقلوه الى عمل حزبي، وفي مصنع مرة أخرى. من هناك، وعند النفير الحزبي، أرسل لمساعدة كلخزة الريف. وفي السنوات الأخيرة سمن كوندراتكو وعرض... حتى أن رفاقه القدامى في القتال لن يعرفوا اوسيب كوندراتكو هذا الذي قتل في عام ١٩١٨ في المعركة على مشارف تساريتسين اربعة قوزاق، وماماليغا، وهو أمر كتيبة كوبانية كان قد تسلم من يدي فرانغل نفسه سيفا فضا مطعما بالذهب «على الشجاعة». وأخذ الكبر يبدو على اوسيب، وطلعت على وجهه عروق زرق وبنفسجية. ومثلما يغطي العدو السريع والتعب الحصان بالزبد المرغى، كذلك الزمن غطى على اوسيب برغوة الشيب، بل أن الشيب الخؤون تسرب حتى الى شاربيه الذابلين. الا أن الارادة

* كليمنت يفريموفيتش فوروشيلوف قائد عسكري سوفيتي من قواد الجيش الاحمر. المترجم.

والقوة ماتزالان في يديه. أما السمنة المفرطة المتزايدة فهي شيء فارغ. «فإن تاراس بولبا كان اضخم مني، ولكن كيف كان يقاتل البولونيين؟ أهوه! ولو سنحارب من جديد، ساكون قادرا على أن أجعل من الضابط اثنين. أعوامي الخمسون ليست كثيرة، فقد عاش أبي مائة عام في عهد القيصرية. وساصل أنا الى المائة والخمسين في عهد سلطتي السوفيتية». كان يقول ذلك حين كانوا يشيرون الى سنه وبدنته المتعاطمة.

كان كوندراتكو اول من دخل الى غرفة سوفيت القرية.

- ارجو التزام الهدوء، يا شبان! هذا رئيس الكولخوز وذاك سكرتير الخلية. علينا أن نستمع الآن الى ماجريات الأمور هنا، وعندئذ نعرف ماذا يجب علينا أن نفعل. طيب، أجلسوا.

كان اعضاء فريق الدعاية، وهم حوالي خمسة عشر يتحدثون، فأخذوا يجلسون، وخرج اثنان منهم الى الفناء، لتفقد الخيول، كما يبدو. تفحص دافيدوف الوجوه الغريبة، فعرّف منها ثلاثة من العاملين في مركز المنطقة: المهندس الزراعي، ومعلما من مدرسة الدرجة الثانية، وطيبا. والبقية كانوا مرسلين من مركز الاقليم، وبعضهم، حسب كل الدلائل، جاء من المصانع. وبينما كانوا يتخذون مقاعدهم همس كوندراتكو لدافيدوف، وهو يحرك المقاعد، ويتنحج.

- أطلب أن يقدموا العلف لخيولنا، وأن يلازم الحوزية عرباتهم - ثم قلص عينيه بمكر، واضاف - وربما نأخذ بعض الشوفان منك؟

رد دافيدوف:

- لا، لم يبق من الشوفان الا للبدار.

وأحس في الحال ببرودة تسرى في داخله، شاعرا شعورا حادا بالحراجة والكراهية لنفسه.

وكان قد بقي من علف الشوفان اكثر من مائة بود، ولكنه رد بالرفض لأنهم كانوا يحرسون هلى الشوفان

المتبقي لبداية الاعمال الربيعية، كما يحرصون على حدقات عيونهم. كان ياكوف لو كيتش يوشك على البكاء، حين يعطي للخبول (ولخيول ادارة الكولخوز وحدها) حفنة من هذه الغلة الثمينة، وذلك قبيل السفرات الطويلة الصعبة فقط. وفكر دافيدوف مع نفسه: «تلك هي ذهنية الملكية الصغيرة! تأخذ بالامسك بي. من قبل لم يكن لذلك وجود، حقيقة! آه، يا انت... ألا تعطيهم شوفانا؟ لا، غير لائق الآن».

- ربما شعير؟

- ليس عندنا شعير أيضا.

وبالفعل لم يكن عندهم شعير، ولكن دافيدوف توهج تحت نظرة كوندراتكو الباسمة العارفة.

- أقول جاداً، ليس عندنا شعير.

- سيطلع منك مزارع جيد... نعم، وربما كولاكي -

قال كوندراتكو بصوته العالي النبرة مبتسماً في شاربيه ولكنه قارب بين حاجبيه. حين نظر الى دافيدوف، وطوقه، ورفع قليلاً عن الأرض - لا، لا! أنا امزح. لا يوجد يعني لا يوجد! ادخر كل شيء لاطعام ماشيتك. والآن لندخل في الموضوع، يا اخوان! صمت الاموات الآن - وتوجه الى دافيدوف وناغولنوف قائلاً - جئنا لمساعدتكم. وآمل أنكم تعرفون بذلك. والآن اخبرونا كيف الأمور عندكم؟

شرح دافيدوف بالتفصيل سير الكلخزة عندهم، وجمع رصيد البذور، وعند ذاك خلص كوندراتكو الى القول:

- اذن، ليس لكم من الأعمال ما يستوعبنا. كلنا -

وتنحج وأخرج من جيبه دفتر ملاحظات، وخارطة، ومرر عليها اصبعاً غليظة - سنذهب الى توبيانسكوى وهي ليست بعيدة عن عزبتكم، وسنترك اربعة شبان معكم، ليساعدوكم في عملكم. أما بخصوص جمع رصيد البذور بأسرع وقت، فاحب أن انصحكم بأن تعقدوا اجتماعاً، وان تشرحوا للفلاحين حالة الأمور، وبعد ذلك قوموا بعمل جماهيري شامل.

وكان يتكلم بأسهاب، وبطء. أصغى دافيدوف الى كلامه باستمتاع، غير فاهم احيانا بعض تعابيريه المغبشة بلغته الاوكرانية التي كان قليل المعرفة بها، ولكنه كان يحس بقوة ان كوندراتكو يعرض خطة لحملة صحيحة من حيث الأساس لجمع البذور. راح كوندراتكو بنفس البطء يرسم الذي يجب أن يسلك في العلاقة مع الفلاحين الأفراد، والفئة الميسورة في العزبة، اذا ما صادف وأن فكروا في التصلب، وقاوموا بشكل أو بآخر اجراءات جمع البذور. وكان يشير الى اكثر الوسائل فعالية، تلك المستندة على خبرة عمل رجال الدعاية في سوفياتات القرى الأخرى، ويتحدث طوال الوقت برفق، دون أقل امارة على الرغبة في القيادة والتعليم، وخلال الحديث كان ينصح دافيدوف مرة، ورازميونوف مرة ثانية، وناغولنوف مرة ثالثة: «هذا ما ينبغي ان يفعله. فماذا ترون أنتم، أهل غريمياتشي؟ أنا أراه بهذا الشكل».

وكان دافيدوف يفكر، وهو ينظر باسمًا الى وجه الخراط كوندراتكو الأحمر بعروقه البارزة، والى البريق الماكر في عينيه الغائرتين: «عفريت ذكي! انه لا يريد أن يعيق مبادرتنا، فيتظاهر بأنه يتشاور معنا، واذا ما بدأ أحدنا في معارضة ترتيبه، أعاده الى نسق تفكيره دون أن يشعر. حقيقة! لقد رأيت أمثاله من قبل، قسما بالشرف!» وحدث حادث صغير آخر عزز انجذاب دافيدوف الى كوندراتكو: فان هذا، قبيل مغادرته، تنحى جانبا برئيس الفريق الذي بقي في غريمياتشي لونغ مع ثلاثة آخرين، ونشأ بينهما حوار قصير.

- لماذا تضع مسدسك فوق سترتك؟ اخلعه حالا.

- والكولاك، يا رفيق كوندراتكو... والصراع

الطبعي...

- ماذا تريد ان تقول لي بهذا؟ الكولاك، طيب ماذا

يعني الكولاك؟ لقد جئت لتحض الناس. واذا كنت تخاف من الكولاك يمكنك أن تحمل المسدس، ولكن لاتحمله على

ظاهر سترتك. تحسب نفسك ذكيا! وتحمل المسدس كما يحمل الطفل لعبة! خبثه في جيبك حالا، والا فسيقول الكولاكي الرذيل عنك: «انظروا اليه، يا طيبون، جاء يحضكم بمسدس» - وختم قوله في غيظ مرة أخرى - لا تكن أحمق!١٠.

وبعد أن جلس في الزلاجة دعى دافيدوف ليدنو منه، وراح يدير زرا في معطفه.

- سيشتغل شباني بشكل ملعون! ولكن يجب أن تشتغلوا انتم ايضا بشكل جيد، لينجز العمل في اسرع وقت. سأكون في توبيانسكوي، فاخبروني اذا حصل شيء. في هذا المساء حين نصل الى هناك ربما سنقوم بعرض تمثيلي. ليتك تراني وأنا أمثل دور الكولاكي! جسمي الضخم يسمح لي بأن أمثل الكولاكي على الطبيعة... انظر ماذا صار على كوندراتكو الجد أن يفعل في شيخوخته! أما بخصوص الشوفان فلا تفكر. لست غاضبا عليك في هذا - وأبتسم، وطرح ظهره العريض على ظهر الزلاجة.

- سعة في الرأس وسعة في الكتفين وفي القدمين - وضحك رازميوتنوف - كالجرار... يمكنك أن تشده وحده على محراث فيجره مقابل ثلاثة أزواج من الثيران. بل أتعجب بأى شيء يصنعون مثل هؤلاء الضخام، ماذا تظن، يا ماكار؟ فرده هذا بغضب:

- انت تتحول الى مهذار، كالجد شوكار.

الفصل الثالث والعشرون

كان الرائد بولوفتسييف اثناء اقامته في بيت ياكوف لو كيتش يعد العدة بنشاط للانتفاضة في الربيع. كان في الليالي يجلس في حجرته الصغيرة حتى صياح الديكة، يكتب شيئا، ويخطط خرائط بقلم كيماوي، ويقرأ. وحين كان ياكوف لو كيتش يطل عليه احيانا، كان يراه يحني رأسه الواسع الجبين على الطاولة الصغيرة، يقرأ، ويحرك شفتيه

القاسيتين بدون صوت. كان ياكوف لو كيتش يعدم أحيانا في أشد الاستغراق. وفي مثل هذه اللحظات كان بولوفتسيف عادة يجلس مستندا على مرفقيه، وقد غرز أصابعه في خصلات شعره البيضاء الناحلة. وكان فكاه البارزان المصطكان يتحركان حركات من يمضغ شيئا صلبا لا يطاوع، بينما كانت عيناه نصف مغمضتين. وكان بولوفتسيف لا يرفع رأسه إلا بعد أن تتكرر مناداته عدة مرات، فيتوهج الغيظ في حدقتيه الصغيرتين المرعبتين بجمودهما. ويسأل بنبرة حادة نابجة: «هيه، ماذا تريد؟». وكان ياكوف لو كيتش في مثل هذه اللحظات يستشعر نحوه رعبا أشد، واحتراما قسريا.

وكان من ضمن التزامات ياكوف لو كيتش أن يبلغ بولوفتسيف يوميا بما يجري في العزبة، وفي الكولخوز، فكان يبلغه مخلصا لالتزامه، إلا أن كل يوم كان يحمل لبولوفتسيف احباطات جديدة، تجعل الغضون العرضانية على خديه أكثر عمقا.

حين سمع بولوفتسيف بطرد الكولاك من غريمياتشي لوغ لم يغمض له جفن في تلك الليلة. ظل خطوه الثقيل والمترفق يتردد حتى الفجر، فكان ياكوف لو كيتش يدنو من باب الحجر على اطراف أصابعه، ويسمع دمدمته، وهو يصك على اسنانه:

- انهم يسحبون الأرض من تحت اقدامنا... يجردوننا من الركائز... يجب ان نقتل! نقتل! نقتل بلا رأفة!
ويسكت، ويسير من جديد، واطنا الارض مترفقا بحذائه اللبادي، ويبلغ الأذن احتكاك أصابعه على جسده يحك صدره، على عادته، ومن جديد يردد بصوت مبجوح:
- نقتل! نقتل! - ثم بشكل أكثر نعومة، وبحسرة خافتة في بلعومه - أيها الرب الرحيم، الرائي لكل شيء، العادل... خذ بأزرننا! ولكن متى ستحين تلك الساعة؟..
يا الهي، عجل بعقابك!

وعند الفجر اقترب ياكوف لو كيتش الهالغ من باب

الحجرة، ومن جديد وضع اذنه على ثقب المفتاح. كان بولوفتسيف يهمس بدعاء، متنحنحا، ركع على ركبتيه، واحنى رأسه الى الأرض. ثم اطفأ الضوء، ووقد، وحين كان بين النوم واليقظة همس مرة أخرى همسا غير واضح: «نقتل الجميع!.. حتى آخرهم» وأخذ يئن.

بعد عدة أيام سمع ياكوف لوكيتش في الليل طرقا على صفاقة النافذة، فخرج الى الرواق.

— من؟

— افتح، يارب البيت.

— من هناك؟

وتردد همس من وراء الباب:

— اريد الكسندر انيسيموفيتش.

— من؟ ليس عندنا شخص بهذا الاسم.

— قل له: أنا مرسل من الأسود، ومعني ظرف.

تريث ياكوف لوكيتش، ثم فتح الباب قائلا لنفسه: «وليكن ما يكون!» دخل شخص قصير ملفوف الرأس والوجه بقلنسوة. قاده بولوفتسيف الى حجرتة، وأغلق الباب بإحكام، ولساعة ونصف ظل يتردد من الحجرة حديث مكتوم عجول. وخلال ذلك قدم ابن ياكوف لوكيتش العلف لحصان الرسول القادم وأرخى سيور السرج، وفك اللجام.

وبعد ذلك صار الرسل الخيالة يصلون كل يوم تقريبا، ولكن ليس في منتصف الليل، بل قرب الفجر، في حوالي الساعة الثالثة او الرابعة ليلا. والظاهر أنهم كانوا يأتون من أماكن أبعد من مكان الأول.

وكان ياكوف لوكيتش في تلك الايام يعيش حياة مزدوجة غريبة. في الصباح كان يخرج الى ادارة الكولخوز، ويتحدث الى دافيدوف وناغولنوف، ومع النجارين ورؤساء فرق العمل. وكانت الأشغال في بناء حظائر الماشية، ومعالجة الحبوب، وتصليح الادوات الزراعية لا تترك مجالا للتفكير في اشياء خارجها. وقد وجد ياكوف لوكيتش النشيط بطبيعته، ودون أن يتوقع هو نفسه في وضع من الحركة

الجادة، والاهتمام المستديم قريب الى نفسه، مع فارق جوهرى وحيد، هو أنه الآن في تنقله في العزبة، وفي الأشغال لا يشتغل لمصلحته الشخصية، بل للكولخوز. ولكنه كان مسرورا حتى بهذا، فقط أن ينصرف بذهنه عن الافكار السوداء، ولا يفكر. كان العمل يجذبه، وكان يريد أن يشتغل، وفي رأسه تتوالد مختلف المشاريع. وقد انغمس بهمة في تدفئة الحظائر، وبناء اسطبل رئيسي، واشرف على نقل «الشون» * المجمعة، وبناء شونة كولخوزية جديدة، وفي المساء، حالما يهدأ لغط عمل النهار، ويحين الوقت للعودة الى البيت كان ياكوف لو كيتش يشعر بتشنج في اسفل صدره من مجرد التفكير بأن بولوفتسيف جالس الآن في الحجرة الأمامية كالنسر الكاسر على حدة قبر، عبوسا رهيبا في وحدته، فتصير حركات ياكوف لو كيتش متراخية، ويحتاج جسمه تعب لا يوصف... فكان يعود الى البيت، وقبل أن يتناول عشاءه يذهب الى بولوفتسيف.

- تحدث. - كان هذا يأمره، وهو يلف سيكارتته، متهيئا لأن يسمع بنهم.

وكان ياكوف لو كيتش يتحدث عن النهار الذي انقضى في اعمال الكولخوز. وكان بولوفتسيف في العادة يصغي صامتا، ولم يقاطعه الا مرة واحدة حين أبلغه ياكوف لو كيتش عما جرى من توزيع ملابس الكولاك واحذيتهم بين فقراء الفلاحين، فقد صرخ بعرامة وحشرجة في البلعوم:

- في الربيع سنقلح حلقوم كل من أخذ! كل هؤلاء... سجل كل هؤلاء الاوغاد في قائمة! هل تسمع؟

- عندي قائمة باسمائهم، يا الكسندر انيسيميتش.

- وهي معك هنا؟

- معي.

- هاتها.

وتناول القائمة، واستنسخها بعناية، مسجلا الأسماء

* جمع شونة: مخزن الفلال. المترجم.

كاملة مع اسم الأب ولقب العائلة، والأشياء المأخوذة، واضعاً صليباً صغيراً أمام كل اسم تسلم ثياباً أو حذاء. وبعد أن يتحدث ياكوف لوكيتش الى بولوفتسيف، كان يذهب ليتعشى، وقبيل أن ينام يذهب اليه ثانية، ويتلقى تعليمات منه بما يجب أن يفعله في اليوم التالي. وبولوفتسيف هو صاحب الفكرة، حين أمر ياكوف لوكيتش رئيس الفريق الثاني في ٨ شباط بأن يخصص اربع عربات مع الرجال اللازمين لنقل الرمل النهري الى حظائر الثيران وجلب الرمل. وطلب ياكوف لوكيتش بأن تنظف أرض الحظائر الترايية جيداً، وتفرش بالرمل. وفي نهاية العمل جاء دافيدوف الى حظيرة الفريق الثاني. وسأل الصموت الذي عين رئيس الفريق المعني بالثيران:

– ماذا تفعلون بالرمل؟

– نفرش.

– ولم؟

صمت.

– أسألك لم؟

– لا ادري.

– من أمر بفرش الرمل هنا؟

– مدير الاقتصاد.

– وماذا قال؟

– حافظوا على النظافة. يبتكر، ابن الكلبة.

– هذا شيء جيد، حقيقة! ستكون الأرض نظيفة

بالفعل، والا فان الروث والنتانة تنتشران هنا، وقد تصاب

الثيران بجراثيم؛ فالنظافة ضرورية لها أيضاً، كما يقول

البياطرة. ولا داعي للأعلان عن... عن استيائك. فالآن

حتى النظر الى حظيرة الثيران ترتاح له النفس. رمل،

ونظافة، ها؟ ما رأيك؟

ولكن دافيدوف لم يستطع ان يجر الصموت للحديث،

فقد لزم هذا الصمت، وذهب الى سقيفة العصافه، وأيد

دافيدوف في ذهنه مبادرة مدير الاقتصاد، وذهب ليتغدى.

وقبيل المساء جاء ليوبشكين. اليه يعدو، وسأل في غيظ:

- اذن سنفرش للثيران الرمل منذ اليوم بدلا من القش؟

- نعم، نفرش الرمل.

- ولكن ما جرى لاوستروفونوف هذا؟ هل، هل... تخبل؟ من اين جاء بذلك؟ وانت، يا رفيق دافيدوف؟... معقول أنك توافق على مثل هذه الحماقة؟

- ولكن لاتعلق، يا ليوبشكين! المسألة كلها في المحافظة على الشروط الصحية، واوستروفونوف كان صائبا في عمله. الأمان في النظافة، عندئذ لا تكون هناك عدوى.

- وأية محافظة على الشروط الصحية هنا، عليها اللعنة! على أي شيء ستنام الثيران؟ ستهلك حالا في مثل هذا الصقيع! القش دافىء، ولكن حاول أن تنام على الرمل.

- أرجوك، لا تعترض! يجب أن نقلع عن الطريقة القديمة في العناية بالماشية! يجب أن نقيم كل شيء على أساس علمي.

- وأي اساس هذا؟ أيه...

وضرب ليوبشكين ساق حذائه بطاقيته السوداء وانصرف عن دافيدوف بوجه أشد حمرة من التوت الأحمر. في صباح اليوم التالي لم تستطع ثلاثة وعشرون ثورا من النهوض عن الأرض. فالرمل الذي جمد في الليل لم يتشرب بول الثيران، فظلت الثيران راقدة على أرض رطبة، وتثلجت... وكان بعضها قد نهض تاركا على الرمل المتحجر مزقا من الجلد، وانكسرت ذيول اربعة منها بعد أن تجمدت، واصيبت البقية بالقشعريرة، ومرضت.

كان ياكوف لوكيتش متطرفا في اجتهاده، وهو ينفذ أمر بولوفتسيف، وكاد يفقد منصبه كمدير الاقتصاد للكولخوز. وكان بولوفتسيف قد قال في العشية: «تلك هي الطريقة

التي تجمد بها ثيرانهم! انهم بله يصدقون بأنك تفعل ذلك للنظافة. ولكن احرص لي على الخيول لتكون جاهزة في اية لحظة». ونفذ ياكوف لو كيتش مطلبه.

في الصباح دعاه دافيدوف اليه، وأوصد الباب بالمزلاج، وسأل دون أن يرفع بصره.

- ماذا تقول عن هذا؟

- وقع خطأ، ايها الرفيق العزيز دافيدوف! ولكنني

والله... مستعد أن أهلس شعري.

- ما هذا الذي فعلته، يا حشرة! - وابيض وجهه

والتهم ياكوف لو كيتش بعينين غارقتين بدموع الغضب -

تمارس التخريب؟ ألم تكن تعرف لايجوز فرش الحظائر

بالرمل؟ ألم تكن تعرف أن الثيران يمكن أن تتجمد؟

- أردت للثيران... قسما بالله، لم اكن أعرف!

- لا تقل هذا!... أنا لا أصدق بانك لم تكن تعرف،

وأنت المزارع العليم!

وأخذ ياكوف لو كيتش يبكي، ويتمخط، وراح يردد:

- كنت اريد المحافظة على النظافة... فلا يكون هناك

روث... لم أعرف، ولم يخطر ببالي أن يحدث هذا...

- اذهب، وسلم العمل الى اوشاكوف. سنحاکمك!

- يا رفيق دافيدوف!...

- اخرج، قلت لك!

وبعد خروج ياكوف لو كيتش فكر دافيدوف فيما حدث

بهدهوء اكثر. وعند ذاك بدا له اتهام ياكوف لو كيتش

بالتخريب باطلا. فياكوف اوستروفنوف لم يكن كولاكياً.

وإذا كان بعضهم ينعته بذلك احيانا فان ذلك بدوافع من

العداء الشخصي. ذات مرة، بعد وقت قصير من ترشيح

اوستروفنوف مديراً لأعمال الكولخوز القي ليوبشكين جملة

عابرة: «فيما مضى كان اوستروفنوف كولاكياً»، وحينذاك

دقق دافيدوف في الأمر، وتبين له أن ياكوف لو كيتش

كان بالفعل يعيش قبل سنين عديدة حياة ميسورة، ولكن

سوء المحصول قد خربه فيما بعد، وجعله فلاحاً متوسط

الحال. وظل دافيدوف يفكر ويمعن في التفكير حتى استقر رأيه على أن ياكوف لو كيتش ليس مذنباً في الواقعة الحالية مع الشيران، وانه في فرشه حظيرة الشيران بالرمل كان مدفوعاً بالرغبة في مراعاة النظافة، وجزئياً بسعيه الدائم الى التجديد. وكان دافيدوف يقول لنفسه: «فلو كان مخرباً لما كان يعمل بهذه الهمة، ثم أن ثوربه أيضاً قد تضررا بذلك. لا، ان اوستروفنوف كولخوزي مخلص لنا. وما وقع له مع الشيران ليس الا خطأ مؤسفاً، حقيقة!» وتذكر كيف كان ياكوف لو كيتش يجعل الحظائر دافئة باهتمام وفطنة، وكيف كان يحرص على القش، وكيف لزم الاسطبل ذات مرة من المساء حتى الصباح، حين مرضت ثلاثة خيول عائدة الى الكولخوز، فكان يحقنها بنفسه بزيت القنب ليزول عنها المغص، وبعد ذلك كان أول من اقترح أن يطرد من الكولخوز المسبب في مرض الخيول، وهو سائس الفريق الأول كوجينكوف الذي تبين أنه طيلة اسبوع كان يطعم الخيول القش الخفيف وحده. وكان ياكوف لو كيتش، حسب مراقبة دافيدوف وحسب رأيه، يهتم بالخيول اكثر من أي شخص آخر. وحين أسترجع دافيدوف في ذهنه كل هذا شعر بالخجل والتقصير ازاء مدير الاقتصاد علي اندفاعه غيظه غير المبرر. كما شعر بالحرج من صياحه بذلك الشكل الفظ على كولخوزي جيد، وعضو في ادارة الكولخوز يحترمه مواطنوه، حتى تصور أنه مخرب، وهو الذي لا يؤاخذ الا بتراخيه في الاحتراس. «أي هراء!» ونفس دافيدوف شعره، وتأوه مربوكا، وخرج من الحجرة.

كان ياكوف لو كيتش يتحدث مع ماسك الحسابات، ممسكا ربطة من المفاتيح في يده، وشفته ترتعشان بتكدر...

— اسمع، يا اوستروفنوف... لا تسلم الأعمال، وواصل عملك، حقيقة! ولكن اذا وقع لك مثل هذا مرة اخرى... باختصار، ستعرف. استدع بيطريا من مركز

المنطقة، وأبلغ رؤساء الفرق بأن يعفوا الشيران المصابة بالبرد من مهماتها.

وهكذا انتهت محاولة ياكوف لوكيتش الأولى في الاضرار بالكولخوز نهاية هينة بالنسبة له. وأعفاه بولوفتسيف مؤقتا من تأدية مهمات أخرى، لأنه كان مشغولا بشيء آخر، فقد جاءه شخص جديد في الليل، كما كان يحصل دائما. ترك الرجل العنان، ودخل البيت، فأخذه بولوفتسيف الى حجرته على الفور وأمر بأن لا يدخل عليه أحد. وظل الرجلان يتحدثان الى ساعة متأخرة، وفي صباح اليوم التالي استدعى بولوفتسيف ياكوف لوكيتش، وهو بادي المرح.

— هذا، يا عزيزي ياكوف لوكيتش عضو اتحادنا، وقيقنا في النضال، كما يقال، الملازم الثاني، أو الخورونجي، كما يسميه القوزاق، لاتيوفسكي فاتسلاف اوفغوستوفيتش. فارجو أن تشمله برعايتك وحبك. هذا مضيفي. قوزاقي على النهج القديم، ولكنه الآن مدير الاقتصاد للكولخوز... مستخدم سوفيتي كما يمكن ان يقال.

رفع الضابط جسمه عن السرير، ومد لياكوف لوكيتش كفا بيضاء عريضة. كان يبدو في الثلاثين من العمر أصفر الوجه، نحيل العود. وكان شعره الأسود المتماوج الصفف الى فوق ينزل حتى ياقة قميصه المرفوعة من الساتان الاسود. وفوق شفثيه المستقيمتين البهيجتين شاربان خفيفان أجعدان. وكانت عينه اليسرى متقلصة الى الأبد، بعد اصابته برجة دماغية، على ما يبدو. وتحتها جمد الجلد متجمعا في طيات ميتة، يابسا، وبلا حياة، مثل ورقة خريفية. ولكن العين المتقلصة لم تكن تخل بالتعبير المرح الضاحك على وجه هذا الضابط السابق لاتيوفسكي، بل تقويه. فكان يبدو وكأن عينه البنية ستترف بخبث في اللحظة التالية، وينبسط الجلد، ويمتد شعاعا من الغضون نحو

صدغه، وسينفجر الضابط البشوش نفسه ضاحكا بفتوة واغواء. وكانت رهاوة ثيابه البادية مقصودة ولم تكن تعيق حركاته الحادة، ولا تخفي قوامه الرشيق.

في ذلك اليوم كان بولوفتسيف مرحاً بشكل غير اعتيادي، ومهدباً حتى مع ياكوف لوكيتش. سرعان ما أنهى الحديث الذي لأيعني شيئاً، وأعلن وهو يستدير بوجهه نحو أوستروفونوف:

- سيمكث الملازم الأول لاتيوفسكي عندك حوالي اسبوعين. أما أنا فسأرحل اليوم، حالما يهبط الظلام. قدم كل ما يحتاجه فاتسلاف اوفغوستوفيتش، فان كل أوامره هي أوامري. فهمت؟ وهكذا، يا ياكوف الفاضل لوكيتش - وشدد على كلماته بدلالة، وهو يضع كفه المنتفخة على ركبة ياكوف لوكيتش - سنبدأ عن قريب! لم يبق الا أن نصبر قليلاً. فأخبر قوزاقنا بذلك ليقوى عزيمهم. والآن، اذهب. ما تزال لدينا بقية من حديث.

لقد حدث شيء غير اعتيادي حمل بولوفتسيف على أن يتغيب عن غريمياتشي لوغ اسبوعين. وكان ياكوف لوكيتش يتحرق شوقاً الى معرفة السبب. ولهذا الغرض انسل الى القاعة، حيث كان بولوفتسيف يتسمع في حينها الى حديثه مع دافيدوف، وضغط أذنه على الحاجز الرقيق. ومن خلال الجدار، من داخل الحجرة الامامية التقط هذا الحديث الذي لا يكاد يسمع:

لاتيوفسكي: بالتأكيد، ينبغي لك أن تتصل ببيكادوروف... وبالطبع سيبلغك صاحب المعالي بالخط، حين تقابله... وضع مؤات... هذا شيء رائع في دائرة سال... قطار مصفح... في حالة الهزيمة...

بولوفتسيف: شش!..

لاتيوفسكي: أمل أن أحدا لا يسمعنا؟

بولوفتسيف: ومع ذلك... التكتم في كل شيء...!

لاتيوفسكي: (بصوت أكثر انخفاضاً، حتى أن ياكوف

لو كيتش وجد نفسه قد فقد الترابط في كلامه) الهزيمة...
بالطبع... أفغانستان... التسلسل بمساعدتهم...
بولوفتسيف: ولكن الموارد... أ. د. س... (وبعد ذلك
بو - بو - بو... فقط).

لا تيوفسكي: المقترح كالاتي: عبور الحدود... في
مينسك... تحاشيا... أوكد لك حرس الحدود... قسم
الاركان العامة، بالتأكيد، يستقبلون... العقيد... اعرف
لقب عائلته... الملتقى المتفق عليه... هذا عون هائل!..
مثل هذه التغطية... ليست المسألة في الأمانة...
بولوفتسيف: ورأي المحترم؟

لا تيوفسكي: متأكد أن الجنرال يتكرر... كثيرا...
ابلقوني شفاها أن... في أقصى الحرجة، بالاستفادة... لا
تضيق الفرصة...

وتحول الكلام الى همس، زفر ياكوف لو كيتش، وهو
الذي لم يفهم شيئا من الحديث المنقطع، وذهب الى ادارة
الكولخوز. ومن جديد شعر بالازدواجية المعتادة، حين اقترب
من بيت تيتوك، ومرر بصره، بحكم عاداته، على اللوحة
البيضاء المسمرة فوق الباب الخارجي، وقد كتب عليها
«ادارة كولخوز غريمياتشي»، ثم خطر في باله الملازم
لا تيوفسكي، وكلمات بولوفتسيف الواثقة: «سنبدأ عن
قريب!» وفكر بشماتة وحنق على نفسه: «ليتهم يسرعون
اكثر! والافسأمزق نفسي بينهم وبين الكولخوز مثل ثور
في مزلق!».

في الليل أسرج بولوفتسيف حصانه، ووضع كل
اوراقه في العدول*، وأخذ بعض الزاد، واستأذن
بالانصراف. وسمع ياكوف لو كيتش تخطر حسان
بولوفتسيف تحت السرج في مشيته امام النوافذ مرحا
متراقصا على وقع حوافره الجاف، بعد استجمام طويل.
وتبين أن الساكن الجديد رجل لا يكف عن الحركة

* جمع عدل: الحقيبة على جانبي الدابة. المترجم.

ولا يعرف الكلفة بطريقته العسكرية. كان طوال ايام كاملة يتنقل في البيت مرحا باسماء يمزح مع النساء، ولا يدع زوجته في هدوء). وكانت تمقت دخان سكاثره مقتاً شديداً، يتمشى في البيت دون أن يخشى مجيء أحد من الغرباء الى ياكوف لو كيتش، حتى أن ياكوف لو كيتش ابدى له هذه الملاحظة:

- حبذا لو تكون اكثر حذرا... قد يفاجئنا أحد بزيارة، ويراك يا صاحب النبالة.

- وهل مكتوب على جبينني أنني «صاحب نبالة»*.

- لا، ولكن قد يسألون من انت، ومن اين؟..

- جيوبني مملوءة بالاوراق المزورة، يا مضيبي، واذا تشددوا، ولم يصدقوا بها، فسأخرج جوازي هذا. فهو جواز مرور نافذ المفعول في كل مكان! - واخرج من عبه مسدس ماوزر أسود خافت البريق، وهو ما يزال على ابتسامه المرح، ناظرا في تحد بعينه الجامدة المخفية وراء طية ناتئة من الجلد.

ولم يكن مرح الضابط الجسور يطيب لياكوف لو كيتش، لا سيما حين عاد من ادارة الكولخوز ذات مساء فسمع في الرواق اصواتا مكتومة، وضحكا مكبوتا، ولغطا، وحين اشعل عود ثقاب وقع بصره في ركن وراء صندوق النخالة على عين لاتيوفسكي الوحيدة لامعة وعلى مقربة منه كنته محمرة كالبنجر، تجذب تنورتها بارتباك، وتعديل المنديل السارح على قفاها... سار ياكوف لو كيتش الى المطبخ دون أن ينطق بكلمة، ولكن لاتيوفسكي لحقه، وهو عند العتبة، وربت على كتفه، وهمس:

- الزم الصمت، يا أب... ولا تقلق أبناك. أنت تعرف الجاري عندنا، نحن العسكريين؟ السرعة والمباغثة! ومن

* لهجة يخاطب بها ضباط الجيش القيصري الذين كانوا من اصل نبيل قبل الثورة. المترجم.

لم يخطيء في شبابه، ايه... خذ، هذه سيكارة، فدخن...
انت نفسك لم يكن لك مع كنتك؟ آه، ياوغدا!..
وذهل ياكوف لو كيتش ذهولا شديدا، حتى أنه تناول
السيكارة، ولم يدخل المطبخ الا بعد أن اشعلها من عود
ثقاب لاتيوفسكي. أما هذا فبعد ان قدم النار لمضيفه قال
بلهجة واعظة وهو يغالب تناؤبه:

- حين يقدم أحد لك خدمة، كأن يشعل لك عود
ثقاب ينبغي أن تشكره آه، يا عديم التهذيب، ومدير الاقتصاد
علاوة على ذلك! في الماضي ما كنت سأخذك حتى جنديا
مكلفا بخدمتي.

فكر ياكوف لو كيتش مع نفسه: «علقوا على رقبتى
مثل هذا الساكن اللعين!»

انزعج ياكوف لو كيتش من سلاطة لاتيوفسكي انزعاجا
شديدا. وكان ابنه - سيميون - قد سافر الى مركز
المنطقة ومعه طلب بارسال بيطري. الا أن ياكوف لو كيتش
عزم ان لا يخبر ابنه بشيء، ولكنه استدعى زوجة ابنه الى
الشونة، واعطاها هناك درسا بالخفاء، حين ساطها بسير
من السيور التي يشد بها السرج، ولم تظهر آثار الضرب
واضحة عليها، لأنه لم يضربها على وجهها، بل على ظهرها
والى الاسفل منه. وحتى سيميون نفسه لم يلحظ ذلك. عاد
من الدسكرة ليلا، فهيأت له زوجته ما يتعشى به، وحين
جلست على المسطبة، على حافتها تماما، اندهش سيميون
بنقاء سريرة:

- ما لك تجلسين، وكأنك ضيفة؟

- عندي دامل.

ونهضت زوجة سيميون محمرة.

- حبذا لو عملت لبخة من الخبز والبصل ووضعت
عليها، عندئذ ستنفجر حالا. نصحها ياكوف لو كيتش بتعاطف.
وكان يعد خيطا لخصف النعال قرب الموقد.

حدجته الكنة بعينيها البارقتين، ولكنها ردت بوداعة:

- شكرا، يا أب، ستزول من تلقائها...

كانت ترد الى لاتيوفسكي رسائل من حين الى آخر. فكان يقرأ محتوياتها، ويحرقها في الموقد فوراً. واخيراً أخذ يشرب في الليالي، ولم يعد يعاكس كنة ياكوف لو كيتش، ولاح البؤس عليه، وصار اكثر فاكثر يطلب من ياكوف لو كيتش أو سيميون أن يجلب له «نصف قنينة» ويدس بايديهما اوراقا نقدية قشبية. وحين كان يسكر كان يميل الى الاحاديث السياسية، والى التعميمات الواسعة في احاديثه، والى تقييم الواقع الموضوعي، على طريقته الخاصة. وذات مرة جعل ياكوف لو كيتش في ارتباك شديد. استدعاه الى حجرته، وضيفه على فودكا، وسأله وهو يغمز بسخرية:

- تخرب الكولخوز؟

فتظاهر ياكوف لو كيتش بالاندهاش:

- لا، ولم أفعل.

- ما هي طرائقك في العمل؟

- ماذا تعني؟

- باي عمل تقوم؟ أنت مخرب مهندس... طيب، ماذا

تفعل هناك؟ تسمم الخيول بمادة الستركنين أم تعطل

ادوات الانتاج، أم شيء آخر؟

فقال ياكوف لو كيتش معترفاً:

- عندي أمر بأن لا أمس الخيول، بل على العكس تماماً.

وكان في المدة الأخيرة لا يكاد يضع الخمرة في فمه،

لذا فان قدح الفودكا أثر فيه تأثيراً صاعقاً، ومال به الى

الصراحة. فكان يريد أن يشكو من توجع روحه، وهو

يمارس بناء وتحطيم اقتصاد العزبة الكولخوزي في الوقت

نفسه. ولكن لاتيوفسكي لم يدعه يتكلم، شرب الفودكا، ولم

يصب لياكوف لو كيتش بعد ذلك. وسأل:

- ولكن لماذا انضمت اليها الأبله المكعب؟

اسألك، لماذا؟ أي شيطان جعلك تفعل هذا؟ أنا وبولوفتسيف

لامخرج لنا، نجابه الموت... نعم، الموت! أو ننتصر، رغم

أن فرص الانتصار، لو تدري أيها الجلف، هزيلة جداً...

واحد بالمائة، لا اكثر! ولكننا هكذا، لا نفقد شيئاً غير اغلانا، كما يقول الشيعيون. وانت؟ أنت، في رأيي، قربان لا اكثر. كان الاولى بك أن تعيش، أيها الأحمق... لنفرض أنني لا اصدق بأن اجلاًفاً من أمثالك يستطيعون بناء الاشتراكية، ومع ذلك... فانتم على الأقل حركتم الماء الراكد في مستنقع العالم. والا فستحدث انتفاضة، وسيرمونك، أيها، الشيطان الأشيب، أو مجرد أن يأسروك، وينفوك الى ولاية ارخانغليسك، كعنصر غير واع. وهناك ستكسر اشجار الصفصاف، الى أن تحين حملة الشيوعية الثانية... آه، يا جاهل! أنا أفهم لماذا يجب أن اتمرّد أنا، فانا من الاشراف! وأبي كان يملك من الاراضي الزراعية زهاء خمسة آلاف ديسياتينا، وثمانئة تقريباً من الغابات. وكان مهيناً للغاية، لي ولأمثالي، أن نغترب عن بلادنا، ونحصل في بلد ما على خبزنا اليومي، بعرق الجبين، كما يقال. أما انت؟ من انت؟ زراع حبوب واكل حبوب! خنفس روث! كأنما لم يكفكم ما قتلوا منكم أيها القوزاق، يا الاولاد الكلبة، في الحرب الأهلية!

اعترض ياكوف لو كيتش قائلاً:

- ولكن لا عيش لنا هنا! خنقونا بالضرائب، ما نملك، ولا يستطيع احدنا أن يعيش حياته الخاصة. والا بالفعل لاي شيء نحتاجكم، انتم النبلاء والآخرين من امثالكم. ما كنت ابدأ سأقدم على اثم كهذا!

- اوه، ضرائب! وكان الفلاحين في الاقطار الاخرى لا يدفعون ضرائب. بل يدفعون ضرائب اكثر!

- لا يمكن!

- أوكد لك!

- ولكن من أين لك أن تعرف كيف يعيشون هناك، وماذا يدفعون؟

- عشت هناك، وأعرف.

- اذن، جئت أنت من الخارج؟

- وماذا يعنيك في هذا؟

- للاطلاع.

- اذا عرفت الكثير، ستهرم بسرعة. اذهب، وأجلب قدرأ آخر من الفودكا.

أرسل ياكوف لو كيتش ابنه سيميون لجلب الفودكا، أما هو فقد اشتاق الى الوحدة، فخرج الى سقيفة الدريس، وجلس حوالي ساعتين تحت كنف الدريس يفكر: «أعوص العين لعين! فاض بالكلام، وجعل رأسي كالطبل. أم لعله يختبرني ليعرف ما سأقوله، وهل سأقف ضدهم، وحين يصل الكسندر انيسيميتش سيخبره... وذلك سيقتلني كما قتل خوبروف؟ أم ربما هذا تفكيره، بالفعل؟ فالسكر يفك عقدة اللسان... أو ربما ما كان ينبغي لي أن ارتبط ببولوفتسييف، وكان علي أن اصطبر قليلا في الكولخوز سنة او سنتين. قد تحل السلطات الكولخوزات بعد أن ترى سوء الأمور فيها؟ فأعيش حياة انسان مرة اخرى... آه، يا إلهي! ماذا علي أن أفعل الآن؟ يقطعون رأسي. واضح منذ الآن ولا فرق أن تضرب البومة بالقرمة، أو القرمة بالبومة. فانت لن تستطيع أن تعيد اليها الحياة على اية حال...»

كانت الريح تخفق في ارجاء السقيفة عبر السياج بسلطان. جمع ياكوف لو كيتش القش المتناثر عند البوابة، وضمه الى كومته، وسد به الثغرات التي أحدثتها الكلاب، وسوى جوانب الكومة المنفوشة غير المصفوفة جيدا، وأزال عن قمته الثلج الجاف المتراكم. كانت الريح قوية واسعة، باردة. جاهد ياكوف لو كيتش طويلا أن يعرف من اي جهة تهب، ولكنه لم يستطع. بدا وكأن الريح تراوح حول كومة القش، وتهب من كل الجهات بالتناوب. أخذت الفئران تتحرك في القش الذي استشارته الريح. وتراكضت موصولة في دروبها الخفية، على مقربة شديدة، احيانا، من ظهر ياكوف لو كيتش، المنطرح على كومة القش. غشى ياكوف لو كيتش ما يشبه الغفوة، وهو يستمع الى خفق الريح، وهسهسة القش، وصواء الفيران، وصرير شادوف البشر. وصارت كل اصوات الليل تبدو له مثل موسيقى

بعيدة، غريبة وحزينة. نظر الى السماء بعينين دامعتين نصف مغمضتين، واستشقى رائحة القش والريح السهبية، فبدا له كل ما يحيط به رائعاً وبسيطاً.

الا أن رسولا وصل على فرسه في منتصف الليل، مبعوثا من بولوفتسيف، من عزبة فويسكوفوي. وقرأ لاتيوفسكي الرسالة التي كتب على طرفها: «مستعجل»، وابقظ ياكوف لوكيتش الذي كان نائما في المطبخ: - خذ، اقرأ.

تناول ياكوف لوكيتش الرسالة الموجهة الى لاتيوفسكي، وهو يفرك عينيه. كانت مكتوبة بقلم حبر على ورقة دفتر بوضوح:

«السيد الملازم!

حصلنا على معلومات موثوقة تشير الى ان اللجنة المركزية للبلاشفة تجمع الحبوب من بين مزارعي الحبوب بحجة استخدامها في بذار الكولخوزات. بينما هي في واقع الأمر تباع في الخارج، سيعاني الفلاحون، ومن بينهم الكولخوزيون من مجاعة قاسية. ان السلطة السوفيتية وهي تتحسس نهايتها المحتومة والقريبة، تبيع آخر الحبوب، وتخرّب روسيا كليا. أمرك بأن تقوم على الفور بحملة تحريضية بين سكان غريمياتشي لوغ، حيث أنت ممثل اتحادنا فيها في الوقت الحاضر، ضد جمع الحبوب للبذور المزعومة. أبلغ ي.ل. بمحتوى رسالتي، واوعز اليه بأن يقوم بعمل توضيحي عاجل. من الضرورة القصوى الوقوف ضد تجميع الحبوب مهما كلف الأمر».

في صباح اليوم التالي وقبل أن يذهب الى ادارة الكولخوز توجه ياكوف لوكيتش الى بانيك والاتباع الآخرين الذين ضمهم الى «اتحاد تحرير الدون».

الفصل الرابع والعشرون

الفريق المكون من ثلاثة اشخاص، والذي تركه أمر فصيلة الدعاية كوندراتكو في غريمياتشي لوغ أخذ يجمع

صندوق البذور. واتخذ أحد بيوت الكولاك المهجورة مقراً له. كان الاخصائي الزراعي فيتيونيف يقوم منذ الصباح بوضع ومراجعة خطة البذار الربيعي بمساعدة ياكوف لوكيتش، ويقدم للمراجعين من القوزاق الايضاحات في مسائل الزراعة، ويقضي بقية وقته في المراقبة المستديمة في تنظيف وتصنيف البذور الداخلة الى الشونة، وحيانا يذهب على حد قوله، «ليبيطر»، أي ليعالج بقرة أو غنمة مرضت لهذا أو لذلك. وكان يحصل على كل «عيادة» على «عينة» عادة أي يتناول غدائه عند صاحب الدابة المريضة، بل ويجلب لرفيقه أحيانا جرة من الحليب أو قدراً من البطاطس المسلوقة. أما الآخرون - بورفيري لوبنو العامل في مصنع الدائرة التابع للدولة، وإيفان نايدينوف الكومسومولي من معمل استخراج الزيوت - فقد كانا يستدعيان أهالي غريمياتشي الى مقر فريقهم، ويتحققان، بموجب قائمة مدير الشونة، في مقدار ما جمعه المواطن المدعو من بذور، ويحرضانه حسب مالهما من قوة ومقدرة.

واتضح من الأيام الأولى للعمل أن جمع رصيد البذور سيلاقي مصاعب غير قليلة، ويتأخر في مواعده كثيراً. إذ كانت جميع التدابير المتخذة من قبل الفريق والخلية المحلية للاسراع في وتائر الجمع تصطدم بمقاومة هائلة من قبل غالبية الكولخوزيين والفلاحين الافراد. وشاع في العزبة أن الحبوب تجمع لترسل الى الخارج، وأن البذار في هذا العام لا يحصل، وأن الحرب متوقعة من ساعة الى أخرى... وكان ناغولنوف يعقد الاجتماع كل يوم، ويوضح بمعونة الفريق، وينفي هذه الشائعات السخيفة، ويتوعد بالعقوبات الصارمة من يثبت تورطه في «الدعاية المعادية للسوفيت». كان القوزاق يبدأون في مغادرة بيوتهم منذ الصباح، الى الغابة للاحتطاب، أو الى السهب لجمع الاعشاب، أو يذهب احدهم الى جاره، ليقضي معه نهاره المضطرب في مكان خفي متجنباً الحضور الى سوفيت القرية أو الى مقر الفريق عند الاستدعاء. وكفت النساء عموماً عن حضور الاجتماعات،

وحين كان يأتي الى بيوتهن رسول من قبل سوفيت القرية،
كن يتملصن بعبارة مختصرة: «رب البيت غير موجود،
وأنا لا اعرف».

وبدا وكأن يداً جبارة تمسك الحبوب...

وفي مقر الفريق كانت مثل هذه الاحاديث تجري عادة:

- هل جئت بحصتك من البذور؟

- لا.

- ولماذا؟

- لا توجد عندي حبوب.

- وكيف هذا، لا توجد؟

- هكذا، في غاية البساطة... تصورت أنني

سأقتصد شيئاً للبذار، وبعد ذلك سلمت مالدي من فائض
كحصتي من الحبوب الى الدولة. ولم يبق لي ما آكله.

- اذن، فأنت لم تفكر في أن تبذر؟

- فكرت، ولكني ليس لدي ما ابذره...

وزعم كثيرون بأنهم قدموا حصتهم من الحبوب للدولة
وحصتهم للبذور أيضاً. وكان دافيدوف وايفان نايدينوف
الأول في الادارة، والثاني في مقر فريق الدعاية ينقبان في
قوائم وفي وصولات نقطة التجميع، ويدققان، ويفضحان من
كان يصر على تقديم المعلومات غير الصحيحة، بينما هو
في الحقيقة لم يسلم حصته من البذور. وكان ذلك يقتضي
احيانا حساب الكمية التقريبية للحبوب التي درست في
عام ١٩٢٩، وحساب الكمية الاجمالية لمشتريات الدولة من
الحبوب، واستخراج الباقي. ولكن هذا الناكر سيظل على
نكرانه، حتى حين يتبين أنه يحتفظ بحصته:

- هذا صحيح، بقي قليل من الحبوب. ولكن ألا

تعرفون ما يحصل عندنا في العائلة، يا رفاق؟ تعودنا أن

نستهلك الحبوب بلا كيل، وننفقها بلا حساب. لم يبقوا لي

غير بود واحد لكل فم للشهر، بينما أنا، مثلاً، استهلك من

القمح ثلاثة الى اربعة ارطال في اليوم، وذلك لأن أدامنا

قليل. فنسرف في استهلاك القمح. ليس لدي قمح، ولو
فتشتموني!

اقترح ناغولنوف في اجتماع للخلية القيام بحملة تفتيشية
في بيوت الميسورين من اهل العزبة ممن لم يسلموا
حصصهم من البذور، الا أن دافيدوف ولوبنو ونايدينوف،
ورازميوتنوف اعترضوا على ذلك. كما أن التفتيش محظور
حظرا باتاً بموجب تعليمات لجنة المنطقة بشأن جمع البذور.
وخلال ثلاثة أيام من عمل فريق الدعاية وادارة الكولخوز
لم يجمع من الفلاحين الكولخوزيين غير ٤٨٠ بودا، ومن
الفلاحين الأفراد ٣٥ بوداً فقط. وقدم نشطاء الكولخوز
حصتهم بكليتها. فمذ اليوم الأول جلب كوندرات
مايدانيكوف، وليوبشكين، ودويتسوف، وديميد الصموت،
والجد شوكار، واركاشكا البائع الشاري، والحداد شالي،
واندرية رازميوتنوف، وآخرون حصصهم من الحبوب. وفي
اليوم الثاني جاء سيميون ابن ياكوف لوكيتش وياكوف
لوكيتش نفسه الى شونة الكولخوز في عربتين، وتوجه
ياكوف لوكيتش الى ادارة الكولخوز، بينما صار سيميون
ينزل من العربتين اشوال الحبوب. وكان ديميد اوشاكوف
الصموت يتسلمها ويزنها. أفرغ سيميون اربعة اشوال،
وحين فك عنق الشوال الخامس، هجم أوشاكوف عليه
كالعقاب.

- أبهذا النوع من الحبوب يريد ابوك أن يزرع؟ -
وقرب من أنفه حفنة من الحبوب.
فقال سيميون محمرا:

- وماذا بها؟ انت بعينك الحولاء حسبت الحنطة ذرة!
- لا، ليس ذرة! أنا أحول، ولكنني احد منك بصراً،
يا محتال! نحن نعرفكما، انت و اباك! ما هذا؟ بذور؟ لاتدر
أنفك علينا. اي دبش تخلط بالحبوب النظيفة، يا بوز
البومة؟

وقرب ديمكا كفا من وجه سيميون، وفي الكف حفنة
من حثالة الحبوب المخلوطة بالتراب والبيقة.

- سأنادي الناس حالا...

قال سيميون مدعورا:

- على مهلك، لا تصرخ! الظاهر أننا اخطأنا بالشوال.

ساعود به حالا، وأبدله... عجيب امرك! مالك تعربد كالحصان الجامح؟ قلت لك سأبدله. حصل سهو...

رفض ديمكا ستة اشوال من اربعة عشر شوالا، وحين طلب سيميون أن يساعده في حمل أحد الاشوال المرفوضة، استدار ديمكا نحو الميزان، متظاهرا بأنه لم يسمعه.

سأله سيميون والرجفة في صوته:

- يعني، لا تساعدني؟

- اخجل! يبدو أنها كانت خفيفة، حين حملتها من

بيتك، والآن ثقلت؟ احملها بنفسك، يا عديم الحياء!

تناول سيميون الشوال بين يديه محمراً من الجهد،

وحمله...

وخلال اليومين التاليين لم يرد الى صندوق البذور أي شيء تقريبا. وتقرر في اجتماع الخلية الطواف في البيوت.

وفي عشية ذلك سافر دافيدوف الى محطة التصنيف في

مركز المنطقة المجاور ليحصل، خارج نطاق الخطة الموضوعية،

على ما يكفي من البذور لزراعة بضعة هكتارات من الحنطة

الربيعية المقاومة للجفاف، والحسنة التحمل لفترة طويلة

من انقطاع المطر، والتي كانت قد انتجت محصولا ممتازا

في العام الماضي، في الحقل التجريبي التابع للمحطة. وكان

ياكوف لوكيتش ورئيس الفريق اغافون دويتسوف يتحدثان

كثيرا عن هذا الصنف الجديد من الحنطة الذي أنتج في

المحطة عن طريق تهجين الحنطة «الكاليفورنية» بـ«البيلوزرنية»

المحلية. وكان دافيدوف، في الآونة الأخيرة، قد انعكف في

الليالي على مجالات التكنيك الزراعي فقرر السفر الى مركز

المنطقة للحصول على الحنطة الجديدة.

وقد عاد من سفرته في ٤ آذار، وقبل يوم من وصوله

حدث مايلي: كان ماكار ناعولنوف الذي ضم الى الفريق الثاني

قد خرج منذ الصباح مع ليوبشكين وطاف على ما يقرب من

ثلاثين بيتا، وفي المساء حين غادر رازميوتنوف والسكرتير سوفيت القرية راح يستدعي الى هناك ارباب البيوت التي لم يلحق أن يطوف بها في النهار. وترك اربعة منهم يذهبون دون أن يظفر بطائل. كانوا يقولون «لا توجد لدينا حبوب للبدور. فدع الدولة تتكفل بها». كان ناغولنوف يستميلهم بهدوء في البداية، ثم أخذ يضرب بقبضته.

- كيف تقولون لا توجد لدينا حبوب؟ انت مثلا، ياكونستنتين غافريليتش، ألم تدرس حوالي ثلاثمئة بود في الخريف؟

- وحصاة الدولة من المشتريات هل دفعتها انت عني؟

- كم دفعت؟

- طيب، مائة وثلاثين.

وأين البقية؟

- ألا تعرف أين؟ اكلتها!

- تكذب! ستنفجر لو تأكل هذا القدر من الحنطة.

أفراد عائلتك ستة، فكيف تلتهمون هذه الكمية؟ اجلب

حصتك، دون نقاش، والا طردناك من الكولخوز حالا!

- اطرّدوني من الكولخوز، أو افعلوا ما تشاؤون،

فليس لدي قمح، وحق المسيح! خل السلطة تقرضني

بفائدة...

- تعودت على امتصاص السلطة السوفيتية. هل

اعدت الفلوس للرفاقية التي اقترضتها منها لشراء البذارة

والحصادة؟ لا، قطعاً. لم تردها، والآن تريد أن تحصل على

القمح أيضا؟

- البذارة والحصادة كلتاهما عائدتان الى الكولخوز

الآن، ولم ألحق أن استخدمهما، فلا حاجة الى تقريعي!

- اجلب القمح، والا سيصيبك مالا تحمده! اسرفت

في الكذب، فاحجل!

- بكل سرور، لو كان هناك...

ومهما حاول ناغولنوف، ومهما استمال، ومهما هدد، لم

يظفر بطائل، فأضطر الى أن يترك الممتنعين عن اعطاء البذور يذهبون الى حال سبيلهم.

خرجوا، وتحدثوا فيما بينهم في الرواق دقيقة وأخرى، ثم صرت الدرجات تحت اقوامهم. وبعد قليل دخل الفلاح الفردي غريغوري بانيك. ولعله كان يعرف بم أنتهى الحديث مع الكولخوزيين الذين خرجوا لتوهم، فقد كانت ترف على زاويتي فمه ابتسامة واثقة متحدية. سوى ناغولنوف القائمة على الطاولة بيدين مرتجفتين، وقال أجوف الصوت:

- اجلس، يا غريغوري ماتفيتش.

- شكراً على الدعوة.

- اجلس بانيك موسعا بين ساقيه.

- لماذا لا تجلب البذور، يا غريغوري ماتفيتش؟

- ولماذا علي أن أجلبها؟

- الاجتماع العام أوجب الكولخوزيين وغير الكولخوزيين

أن يجمعوا بذور الحبوب. انت عندك بذور؟

- بالطبع، عندي.

نظر ناغولنوف في القائمة، فرأى رقم «٦» أمام اسم بانيك في حقل «المساحة المخمئة للاراضي المزروعة في ربيع عام ١٩٣٠».

- لقد تهيأت أن تزرع ستة هكتارات في هذا العام؟

- بالضبط.

- يعني لديك اثنان واربعون بوداً من البذور.

- بالتام، منقاة ومنظفة كالأبريز.

فتنفس ناغولنوف الصعداء، وامتدحه قائلاً:

- بطل! اجلبها غداً الى الشونة العامة. يمكنك أن

تبقئها في اكياسك. نحن نقبل من الفلاحين الافراد ما كان

في اكياسهم أيضاً، اذا كانوا لا يريدون خلطها بالحبوب

الأخرى. اجلبها، واعطها لامين الشونة بعد أن يزنها،

وسيضع اختاماً من الشمع على الأكياس، وفي الربيع

ستتسلم حبوبك كاملة والا فالكثيرون يشكون بأنهم لم

يدخروا الحبوب، واكلوها. بينما ستكون الحبوب اكثر
أماناً هنا، وهي في الشونة.

- دعك من هذا، يا رفيق ناغولنوف - وابتسم بانيك
بسلطة ومسد شاربيه الفاتحين - اترك هذه اللعبة! لن
اعطيك حبوا.

- والسبب، اذا سمحت لي أن اعرف؟
- السبب أنها ستكون أكثر أماناً عندي. اذا اعطيتك
الحبوب، لن أحصل في الربيع حتى على الاكياس فارغة.
نحن أيضا تعلمنا الآن، ولا يمكن أن نخدعنا.
قطب ناغولنوف حاجبيه المقوسين، وبهت لونه قليلا.
- كيف يمكنك أن تشك في السلطة السوفيتية؟
يعني، لانتق؟!

- نعم، لا أثق! امتلأت آذاننا باكاذيب جماعتكم.
- من كذب؟ وباي شيء؟
وصار شحوب ناغولنوف اكثر وضوحا، ورفع جسمه
ببطء.

الا أن بانيك ظل يبتسم بهدوء، وكأنه لم يلحظ شيئا،
مبدياً اسنانه القوية المتفرقة الا أن صوته ارتجف مهانة
وغيظا لاذعاً، حين قال:

- انتم تجمعون الحبوب، وبعدها تحملونها في البواخر،
وترسلونها الى بلاد الآخرين؟ وتشترون الاتمبيلات ليركبها
الحزبيون مع نسائهم المقصوصات الشعر؟ نحن نعرف
لماذا تريدون قمحنا! هذه هي المساواة!

- هل جنت، يا ملعون؟ ما هذا الهذر؟
- أظنك ستجن انت ايضا حين يمسونك من خناقك!
اعطيت مائة وستة عشر بوداً للدولة! والآن تريد أن تأخذ
البذور، آخر ما لدي من حبوب... حتى... يموت اطفالي...
جوعاً...

- اصمت! انت تكذب، يا وغدا!
وضرب ناغولنوف الطاولة بقبضة يده.
فسقطت الحاسبة الخشبية على الأرض، وانكفت.

قارورة الحبر. ودب خط الحبر البنفسجي المتلامع على الورق، وسقط على طرف معطف بانيك الفرائي المدبوغ. ازاح بانيك الحبر بكفه، ونهض. وقد تقلصت عيناه، وظهر الزبد الأبيض على أطراف شفتيه، وبيح بضراوة مكبوتة: - لا تقل لي اصمت! وأدخر قبضتك لتخوف بها زوجتك! لوشكاه، أنا لست زوجتك! وليس الآن سنة ٢٠، هل فهمت؟ لن اعطيك قمحا... فاذهب الى حيث!.. دفع ناغولنوف جسمه نحوه، عبر الطاولة، ولكنه تمايل على الفور، فانتصب بقامته.

- كلام من تردد؟.. ما هذا الذي تقوله لي ايها المعادي؟ تهزأ من الاشتراكية، يا وغد؟.. الآن... - ولم يجد الكلمات المناسبة، وغص، الا أنه سيطر على نفسه، على كل حال، ومسح العرق المتلجج عن وجهه بظاهر كفه، وقال: - اكتب لي تعهداً حالا بان تجلب الجيوب غداً، وسنرسلك في الغد الى حيث ينبغي، وهناك سيعرفون من اين سمعت هذه التعابير!

- تستطيع أن تعتقني، ولكن لن اكتب تعهداً بالحبوب!

- اكتب، قلت لك!..

- أجله قليلا.

- اطلب منك بالحسنى...

اتجه بانيك الى باب الخروج، ولكن الغيظ كان قد استبد به، على ما يبدو، حتى أنه لم يسيطر على نفسه، فامسك بمقبض الباب، وقال دون أن يلتفت:

- حالما سأصل الى البيت سألقي هذا القمح الى الخنازير، لتأكله، فذلك أفضل من أن تأكلوه أنتم، يا أكلة السحت...

- للخنازير؟ القمح للخنازير؟!

وبطفتين وصل ناغولنوف الى الباب، واخرج مسدسه من جيبه خطفاً، وضرب بانيك بمقبضه. ترنح بانيك، ومال على الجدار، وأخذ يتهاوى على الأرض، ماسحاً الجص

بظهره. وسقط. سال دم أسود من جرحه على الصدغ، مبللا شعره. وكان ناغولنوف قد خرج عن طواره فرفس الطريح عدة مرات برجله، وانصرف. ثئاب بانيك كسمكة وجدت نفسها على اليابسة، ثم أخذ يتشبث بالجدار، وينهض. وما كاد يقف على قدميه حتى ازداد تدفق الدم. فكان يمسحه بكمه في صمت، وغبار الجص يتساقط من ظهره المبيض به. شرب ناغولنوف الماء المقزز الفاتر من فم الجرة رأساً، وأسنانه تطقق على حوافها. ونظر بطرف عينيه الى بانيك، وهو ينهض، وتقدم منه، وقبض على كوعه كما تقبض كلابتان، ودفعه الى الطاولة، ودس القلم في يده:

– اكتب!

– سأكتب، ولكن المدعي العام سيعرف ذلك... تحت تهديد المسدس اكتب لك ماتشاء... السلطة السوفيتية لا تسمح بالضرب. والحزب أيضا سيحاسبك على ذلك. كان بانيك يتمتم بذلك مبجوح الصوت، وقد جلس على المقعد خائر القوى.

وقف ناغولنوف قبالته، وهياً المسدس للاطلاق.

– اها، يا ايها المعادي، تذكرت السلطة السوفيتية والحزب الآن! لن تحاكمك محكمة شعبية، بل أنا، الآن، في محكمتي. واذا امتنعت عن الكتابة رميتك كحشرة ضارة، ولأسجن بسببك بعد ذلك، ولو عشر سنين! لن اتركك تهزأ بالسلطة السوفيتية! اكتب: «تعهد». كتبت؟

«أنا، الذي كنت سابقا من نشطاء الحرس الأبيض من جيش هامونتوف، وحاربت الجيش الاحمر بالسلاح، انسحب كلماتي...» هل كتبت؟ «...كلماتي المهينة بشكل لا يصدق بالنسبة للحزب الشيوعي لعموم الاتحاد السوفيتي (البلشفي)». بحروف كبيرة، ها؟ «... والسلطة السوفيتية، واطلب الاعتذار منهما، وأتعهد بالمستقبل، رغم أنني معاد للسلطة مدسوس...»

– لا اكتب! لماذا تجبرني؟

- بل ستكتب! وماذا كنت تتصور؟ أن اتساهل مع كلماتك، أنا الذي عذبني البيض واثخنوني بالجراح؟ هزأت بالسلطة السوفيتية امام بصري، وتريدني أن أسكت؟ اكتب، والا ازهقت روحك!

انحنى بانيك على الطاولة، من جديد دبت يده على الورقة ببطء، وهي ممسكة بالقلم. وأملى ناغولنوف مقطعا الكلمات، دون أن يرفع أصبعه عن زناد المسدس.

- «...رغم أنني معاد مدسوس، الا أنني لن ألحق الضرر لا شفاهاً ولا كتابة ولا افعالا بالسلطة السوفيتية العزيزة على كل الشغيلة، والمنتزعة بما ضحى به الشعب العامل من دم غزير. ولن أشتها، ولا اضايقها، وسانتظر بصبر وقوع الثورة العالمية التي ستشلنا جميعا نحن اعداءها على النطاق العالمي. واتعهد أيضاً بان لا اقف في طريق السلطة السوفيتية، ولا أخفي البذور وغداً، المصادف آذار عام ١٩٣٠، أجلبها الى الشونة العامة...» في تلك الآونة دخل الحجرة رسول، ومعه ثلاثة كولخوزيين.

- انتظروا قليلا في الرواق - صاح ناغولنوف، وتابع وهو يدير وجهه الى بانيك - «...اثنان واربعون بوداً من بذور القمح عيناً. وعلى هذا أوقع». وقع! شخبط بانيك توقيعه، وقد ظهرت على وجهه الحمرة القانية مرة أخرى، ونهض.

- ستحاسب على ذلك، ياماكار ناغولنوف!..
- كل واحد منا سيحاسب على فعله، ولكنني ساقنتك اذا لا تجلب القمح غداً.

طوى ناغولنوف التعهد، ووضع في جيب قميصه الكاكي، عند الصدر، وألقى المسدس على الطاولة، وصاحب بانيك حتى الباب. وبقي في سوفيت القرية حتى منتصف الليل، ولم يصرف الرسول، وبمساعده حجز ثلاثة كولخوزيين آخرين امتنعوا عن تسليم البذور، وجبسهم في حجرة شاغرة. وبعد منتصف الليل فقط غلبه النعاس، وهو

جالس وراء طاولة سوفيت القرية موسداً رأسه المشعث الشعر على كفيه الطويلتين، وقد هذه التعب، وتوتر الاعصاب. والى الفجر حلم ماكار بحشود هائلة من الناس الراقلين بثياب الأعياد، تتحرك في تيار دافق غامرة السهب كسيول الربيع. وفي الفواصل بين الناس سارت كوكبة من الخيالة، والخيول المختلفة الألوان تضرب بحوافرها أرض السهب الناعمة، ولكن كركبة الحوافر الهادرة كانت، لسبب ما، حادة مرنة، وكان تلك الخيول كانت تسير على بساط من صفائح الحديد. وإذا بفرقة موسيقية متألثة الابواق كالفضة تعزف قرب ماكار تماماً «النشيد الأممي»، ويشعر ماكار، كما يشعر عادة في اليقظة، بارتعاش قوي، وبتشنج حار في الحلقوم... رأى في نهاية الكوكبة السائرة صديقه الراحل ميتكا لوباتش، الذي صرعه رجال فرانغل في عام ١٩٢٠ في معركة قرب كاخوفكا، ولكنه لم يندهش لمرآه، بل فرح، وانطلق نحو الكوكبة الماضية، شاقاً طريقه بين الناس. ناداه، دون أن يسمع صوته: «ميتيا! ميتيا! قف!». التفت ميتكا على سرجه، ونظر الى ماكار بغير اكتراث، كما ينظر الى رجل غريب لايعرفه، ومضى يعدو على فرسه. وبعد ذلك تماماً رأى ماكار جنديه المراسل السابق تيوليم يخب نحوه على حصانه وكان هذا قد قتل برضاة بولونية قرب برودي، في عام ١٩٢٠ نفسه. كان تيوليم يخب مبتسماً، ممسكاً بيده اليمنى مقود حصان ماكار. والحصان، نفس الحصان الأبيض القوائم، الاعجف الرأس، يسير منقاداً، رافعاً رأسه بعلو وشمم، وقد قوس عنقه...

كان صريف الصفاقات التي كانت الريح الربيعية تحركها طوال الليل تبدو لماكار في نومه موسيقي، وقعقة السطح الحديدي ترن مثل كركبة سريعة لحوافر خيول... دخل رازميوتنوف الى سوفيت القرية في الساعة السادسة صباحاً فوجد ناغولنوف، ما يزال نائماً. وقد جمدت ابتسامة مجهدة مترقبة على خده الأصفر وقد اضاءه صباح آذاري

بضوئه الليلي، وكان حاجبه المقوس يتحرك بتوتر موجه...
هز رازميوتنوف النائم، وشتم:

- تفعل الافاعيل، وتنام؟ تحلم بأحلام بهيجة، وتكشر؟
على أي شيء ضربت بانيك؟ منذ الفجر جلب بذور القمح،
وسلمها، وتوجه الى مركز المنطقة فوراً. هرع ليوبشكين
الي ليقول لي ان بانيك ذهب ليبلغ الميليشيا عنك.
لعبت لعبتك! سيأتي دافيدوف، فماذا سيقول الآن؟ آه،
ماكارا!..

فرك ناغولنوف بكفيه وجهه المنتفخ من نومته غير
المريحة، وابتسم بسهوم:

- اندريوشكا! اي حلم رأيت قبل حين! حلم جذاب
جدا!

- دعك من التحدث عن أحلامك! وابلغني عن بانيك.
- لا أريد أن أبلغك عن تلك الحشرة السامة! تقول:

جلب القمح؟ يعني، قد أثر... اثنان واربعون بوداً من بذور
القمح قليلة عندك! لو طلع من كل معاد للثورة اربعون بوداً
من القمح بعد ضربة واحدة بمسدس، لظلت طوال حياتي،
اضربهم واضربهم! ضربتني تلك لم تكن تناسب الكلمة
التي قالها! وليكن مسروراً لأنني لم أعوج له رجلية! -
وختم قوله بضراوة، وعيناه تلتمعان - الخنزير كان في
صف الجنرال مامونتوف، وظل يحارب معه حتى رميناهم في
البحر الأسود، والآن أيضا يقف في طريقنا، ويضر بالثورة
العالمية! وأي كلام تفوه أمامي عن السلطة السوفيتية
والحزب؟ أوقف شعر رأسي من الاهانة!
- وليقل ما يقول! ما كان لك أن تضربه، والاحسن
أن تعتقله.

- لا، الأخرى أن يضرب، لا أن يعتقل! - وبسط
ناغولنوف ذراعيه في يأس - ولماذا لم اقتله؟ غاب عن
بالي! وهذا ما آسف عليه الآن.

- ستزعل لو نعتك بالاحمق، بينما حماقتك فاقت كل
تصور! سيأتي دافيدوف، وسيلقنك على فعلتك هذه!

- سيأتي سيميون، ويؤيدني. فهو ليس دماغاً ناشفاً
مثلك!

ضحك رازميوتنوف، ونقر بإصبع معكوفة على الطاولة،
ثم على جبين ماكار، وقال مؤكداً:
- نفس رنة الخشب!

الا أن ماكار ازاح يده غاضباً، وأخذ يرتدي فروته،
وبربر وكفه على مقبض الباب، دون أن يدير رأسه:

- ايه، يا حصيف! أطلق البرجوازيين الصغار من
الحجرة الشاغرة، وابلغهم بأن يجلبوا الحبوب اليوم، والا
فساعيدهم الى الحجز من جديد حالما استحم، وأعود.

طلعت عينا رازميوتنوف على جبينه من الدهشة، اندفع
الى الحجرة الشاغرة، حيث كان تحفظ الارشيفات الزراعية،
وعينات السنابل من معرض المنطقة الزراعي للعام الماضي،
وفتح الباب، ووجد ثلاثة كوخوزيين: كراسنوكوتوف،
وانتيب غراب القيط، وابولون بيسكوفاتسكوف بوز الذبابة،
وقد قضوا ليلتهم بسلام على فرش من الجرائد القديمة
بسطت على الأرض. نهضوا حين ظهر رازميوتنوف، فشرع
هذا يقول:

- علي، بالطبع، أيها المواطنون... - الا أن أحد
المعتقلين، وهو القوزاقي الهرم كراسنوكوتوف قاطعه
بحماس:

- لا حاجة للكلام، يا اندريه ستيبانيتش، العتب
علينا، دون شك... اطلق سراحنا، وسنجلب القمح حالاً...
اثناء الليل تشاورنا فيما بيننا قليلاً، وقررنا جلب القمح...
إذا اردت الحقيقة كنا نريد أن نحتفظ بالقمح...

كان رازميوتنوف قد تهيأ للاعتذار من تصرف ناغولنوف
المتسرع الا أنه أخذ ما سمعه بعين الاعتبار، فعدل موقفه
على الفور:

- كان ينبغي أن تفعلوا ذلك من زمان! فانتم
كوخوزيون! ومن العيب أن تبقوا البذور عندكم!

- اطلق سراحنا، رجاء، ولا حاجة الى ذكر ما مضى...

- قال انتيب غراب القيط ذلك مبتسما بارتباك في لحيته الشديدة السوداء.
فتح رازميوتنوف الباب على سعة، وانصرف الى الطاولة. لا بد من القول أن فكرة عنت في ذهنه في تلك اللحظة: «أو ربما كان ماكار على حق؟ لو تشددنا، لجمعنا الحبوب في يوم واحد».

الفصل الخامس والعشرون

عاد دافيدوف من سفره الى محطة التصنيف باثني عشر بوداً من الحنطة ذات النوعية الجيدة، عاد مرحا مرتاحا بغنيمته. وبينما كانت ربة البيت تعد له الغداء اخبرته بأن ناغولنوف، في غيابه، ضرب غريغوري بانيك، واحتجز ثلاثة كولخوزيين في سوفيت القرية ليلا. والظاهر أن خبر هذا الحادث قد شاع في غريمياتشي لوغ شيوعاً واسعاً. تناول دافيدوف غداءه على عجل وقد ذعر، وذهب الى الادارة، حيث أكدوا له رواية ربة البيت، وأكملوها بالتفاصيل. وقد اتخذ الجميع مواقف مختلفة من تصرف ناغولنوف. بعضهم أيده، وبعضهم آخذه، وقليل منهم صمتوا مكرهين. ليوبشكين، مثلاً، وقف كلياً الى جانب ناغولنوف، بينما مط ياكوف لوكيتش شفتيه، وبدأ عليه التكدر الشديد، وكأنما كان عليه هو أن يتذوق تقريع ناغولنوف. وسرعان ما جاء ناغولنوف نفسه الى الادارة. وكان اكثر جهامة من المعتاد وحياء دافيدوف متحفظاً، ولكنه نظر اليه بقلق خفي وتوقع. ولما بقيا لوحدهما لم يتحمل دافيدوف، وسأل بجدة:

- ما هي هذه الاخبار عنك؟
- سمعت، فلا تحاول...
- أبهذه الاساليب تبدأ بالحض على جمع البذور؟
- دعه اذن، لا يقول لي مثل تلك البذاءة!.. قطعت عهداً بأن لا أتحمل سخرية من عدو، من وغد أبيض!

- وهل فكرت في تأثير هذا على الآخرين، وكيف سينظر الى ذلك من الناحية السياسية؟
- في حينها لم يكن لي الوقت لأفكر.
- هذا ليس جواباً، حقيقة! كان عليك ان تعتقله علي اهانتة للسلطة، لا أن تضربه! هذا عمل يشين الشيعوي! حقيقة! اليوم حالا سنطرح قضيتك أمام الخلية. لقد ألحقت بنا ضرراً شديداً بتصرفك هذا! ويجب أن ندينه! وسأتحدث عنه في اجتماع الكولخوز، دون أن انتظر قرار لجنة المنطقة، أنا أتكلم جدياً! لأننا اذا صمتنا فسيظن الكولخوزيون أننا متواطئون معك، ونشاطرك الرأي في هذا الخصوص! لا، يا أخ! سننفصل عنك، وندينك. انت شيعوي، ولكنك تصرفت كالجنדרمة. هذا عار! اللعنة عليك وعلى تصرفك هذا.

الا أن ناغولنوف حرن كالثور، ورد علي جميع استنتاجات دافيدوف الذي حاول أن يقنعه بأن مثل هذا التصرف غير مسموح به لشيعوي ومضر من الناحية السياسية:

- كنت محقاً في ضربي له! لم أوسعه ضرباً كما ينبغي، بل ضربته ضربة واحدة، كان يجدر أن أكثر من ضربه! حل عني! فات الوقت لاعادة تثقيفي، أنا نصير، وأعرف بنفسي كيف علي أن أحمي حزبي من هجمات مختلف الاوغاد!

- ولكنني لا اقول ان بانيك هذا واحد منا، عليه اللعنة! بل أقول ما كان ينبغي لك أن تضربه. وكان من الممكن حماية الحزب من الاهانات بطريقة أخرى، حقيقة! اذهب، واهداً قليلاً، وفكر في الأمر، وفي المساء ستأتي الى الخلية، وستقول لي انني كنت صائباً، حقيقة!

في المساء، وحالما دخل ناغولنوف مقطب الجبين قبيل اجتماع الخلية، بادره دافيدوف بالسؤال:

- هل ترويت في الأمر؟
- ترويت.

- طيب؟

- أعطيته أقل مما يستحق، ابن الكلبة ذاك. كان علي أن اقتله!

انضم فريق الدعاية الى دافيدوف بكليته، وصوت على توجيه توبيخ شديد لناغولنوف. وامتنع اندريه رازميوتنوف عن التصويت، ولزم الصمت طوال الوقت. ولكن ناغولنوف نظر شزراً قبيل الخروج، وبربر: «أنا باق على رأيي الصائب»، وعندئذ وثب رازميوتنوف، وخرج من الحجره راکضاً، متطائر اللعاب، شاتما بضراوة.

ولما اشعلوا سيكائهم في الرواق، وتمعن دافيدوف، على ضوء عود الثقاب، في وجه ناغولنوف الذي اصابه الشحوب في ذلك اليوم، قال متصالحاً:

- عبثاً، يا ماكار، ان تتكدر منا، حقيقة!

- لست متكدرًا.

- أنت تعمل باساليب الانصار القديمة، بينما نحن الآن في زمن جديد لا تجري فيه غارات بل معارك مواقع. كلنا كنا مرضى التصرفات الاعتباطية، ولاسيما نحن، رجال الاسطول، وأنا من بينهم، بالطبع. ورغم أنك مريض عصبياً، ولكن يجب أن تكبح جماح نفسك، يا عزيزي ماكار... ها؟ انظر الى من سيخلفك، الى فتانا الكومسومولي فانيوشكا نايدينوف، من فريق الدعاية أي معجزات يصنع! دخل في قسمه من البذور اكثر مما دخل في الأقسام الأخرى، كل ما هو مطلوب تقريباً. وهو في مظهره لا يدل على الحذق الكثير، انه منمش ضئيل الجسم، ولكنه يعمل أحسن من الجميع. ولا أعرف كيف يطوف على البيوت، ويمزح، ويروي النوادر للفلاحين، حسبما يقولون... فيأتون له بالحبوب، دون ضرب على البوز، ولا احتجاز في «الانفرادي»، - حقيقة! - وشابت صوت دافيدوف بسمة ونبرات دافئة، حين راح يتحدث عن نايدينوف، فشعر ناغولنوف بما يشبه الحسد لذلك الكومسومولي الحذق يدب في داخله، ومضى دافيدوف

يقول - من باب حب الاستطلاع اذهب معه غداً في تنقله في البيوت، وأعرف بأي الوسائل يتوصل الى ذلك. وليس في ذلك انتقاص منك، وحق الرب. أحياناً نجد ما نتعلمه من الشبان أيضاً، حقيقة! انهم ينشأون نشأة تختلف عن نشأتنا، وهم أكثر مقدرة منا، على نحو ما...

لزم ناغولنوف الصمت، فلم يقل شيئاً، وحالما استيقظ في صباح اليوم التالي أخذ يفتش عن فانيوشكا نايدينوف، حتى وجده، وقال وكأن ذلك عرضاً:

- أنا اليوم غير مشغول، وأريد أن اذهب معك، واساعدك. كم من البذور بقيت في فرقتك الثالثة لم تجمع؟
- بقيت الخفايف، يا رفيق ناغولنوف! لنذهب سوياً، فسيكون ذلك أبهج.

وذهباً. وكان نايدينوف يتحرك بسرعة لم يتعودها ناغولنوف، متمائلاً متفطحاً كالبطة، وقد فك أزرار سترته الجلدية الفواحة برائحة زيت عباد الشمس الثقيلة، وانزل طاقيته ذات المربعات على حاجبيه تماماً. راح ناغولنوف يتمعن من جنب في الوجه المزروع بالنمش، وجه الكومسومولي الذي سماه دافيدوف، يوم أمس، بصيغة التحبب «فانيوشكا» على غير عادته. كان في هذا الوجه شيء قريب الى النفس وأليف بشكل كبير، ربما كان بسبب تينك العينين الصريحتين الرماديتين المرقطتين، او الحنك البارز المرتفع، الذي لم يفقد بعد تدويره الصبا...

وصلا الى بيت «حاضن الدجاج» الجد أكيم بيسخيلينوف حين كانت عائلة بيسخيلينوف كلها تتناول فطورها. وكان الجد نفسه جالسا وراء المائدة في الركن الأمامي، والى جانبه ابنه - في نحو الاربعين من عمره - واسمه أكيم أيضاً، ويكنى بالاصغر، والى يمينه زوجته وحماته العجوز المترملة، وعلى الطرف الآخر من المائدة جلست ابنتاه الكبيرتان، وعلى جانبي المائدة التصق الأطفال كثراً كالذباب.

- مرحبا، يا أهل البيت! - وخلق نايدينوف طاقيته
المدهنة، وراح يصفف خصلات شعره الناتئة.

- مرحبا، اذا كنت لا تمزح! - أجاپ اكيـم الأصغر
البسيط البشوش، وهو يبتسم ابتسامة لا تكاد تبين.
ولو كان على ناغولنوف أن يرد على هذه التحية المازحة
لقطب حاجبيه المقوسين، وقال بصرامة محتدة: «لا وقت
عندنا للمزاح. لماذا لا تجلب القمح؟»، ولكن فانيوشكا
نايدينوف قال مبتسما، وكأنما لم يلحظ الانكماش البارد
على وجوه أهل البيت.

- بالهناء والشفاء!

وما كاد اكيـم يفتح فمه ليقول «شكرا» المقتضية، دون
أن يدعوها الى المائدة، أو يتملص بمزحة فظة بعض
الشيء: «أكل من ما عوني، ولا أريد أن تعينوني!» حتى
عاجله نايدينوف بقوله:

- ولكن لا تتعبوا انفسكم! لا! وعلى العموم يمكن أن
اشارككم الفطور أيضا... فأنا بصراحة، لم أكل شيئا اليوم.
الرفيق ناغولنوف من أهل العزبة، بالطبع، قد شمر عن
ساعده للأكل بالفعل. نحن نأكل بين يوم ويوم، عند
الضرورة... مثل «طيور السماء».

ضحك اكيـم وقال:

- يعني كسرة خبز لا تقطع، جرة ماء لاترفع، وكل
الى أن تشبع؟

- لسنا شعبانين كل يوم، ولكننا مرحون دائما.
وبهذه الكلمات خلع سترته الجلدية عن كتفه في ثانية
واحدة، وجلس الى المائدة وسط دهشة ناغولنوف.
حمحم الجد اكيـم، وهو يرى الضيف يرفع الكلفة بهذا
الشكل. بينما انفجر اكيـم الأصغر ضاحكا.

- آوه، على طريقة الجنود! أنت محظوظ، يافتى،
بأن سبقتني والا فقد كنت أنا ايضا اريد أن أرد على
عبارتك «بالهناء والشفاء» «أكل من ما عوني، ولا أريد أن
تعينوني!» يا بنات! اعطينه ملعقة.

نهضت احدى البننتين، وركضت الى المطبخ لتجلب ملعقة، وهي تضحك في مئزرها، ولكنها اعطتها لنايدينوف بطريقة اصولية، اي بانحناءة، حين يسلم شيء الى الرجل. ظهر المرح والنشاط على المتحلقين حول المائدة. ودعا اكييم الاصغر ناغولنوف أيضا، ولكن ناغولنوف رفض، وجلس على الصندوق. قدمت زوجة اكييم البيضاء الحاجبين قطعة خبز الى الضيف مبتسمة، وركضت الفتاة التي جلبت الملعقة الى الحجرة الامامية وجلبت فوطة نظيفة، ووضعتها على ركبتى نايدينوف. قال اكييم الاصغر، وهو يتمعن بفضول واستحسان غير مخفي في وجه الشاب المنمش، الشاب الذي يظهر جسارة غريبة على شباب العزبة:

- ها انت ترى، يا رفيق، كيف نلت اعجاب ابنتي، طول عمرها لم تقدم فوطة نظيفة لوالدها، ولكنها قدمتها لك قبل أن تلحق وتجلس على المائدة. اذا خطبتها اعطيناك اياها في الحال.

توردت الفتاة من مزحة أبيها، فغطت وجهها بيدها، ونهضت من وراء المائدة، بينما رد نايدينوف المزحة بمزحة أخرى، ليزيد الجو مرحاً:

- لا اظنها سترضى بزواج منمش الوجه مثلي. واحسن لي اخطبها في جنح الظلام، حين ابدو وسيماً والفتيات عند ذلك يعجبن بي.

وقدم نقيع الفواكه. وانقطع الحديث. ولم يسمع غير مضغ الأفواه، واحتكاك الملاعق الخشبية على قعر الاناء. ولم يكن الصمت يختل الا حين كانت ملعقة واحد من الشبان تدور داخل الاناء بحثا عن كمثري مسلوقة. وعندئذ كان الجد اكييم يلحق بملعقته، ويرن بها على جبين الشاب المتجاوز حده مفرعاً:

- لا تصطد!

ابتدرت ربة البيت قائلة:

- لم هذا الصمت المفاجيء، وكأننا في كنيسة.

- ليست الكنيسة صامته دائما - قال فانيوشكا، وقد ملأ بطنه بالعصيدة. والفواكه المغلية - عندنا مثلا وقع قبيل عيد الفصح حادث يضحك الشكالي.

كفت ربة البيت عن تنظيف المائدة. ولف اكييم الأصغر سيكاره، وجلس على المسطبة، متهيئا للاستماع، وحتى الجد اكييم نفسه أصغى الى كلمات نايدينوف متجسنا راسماً علامة الصليب. وقال ناغولنوف لنفسه، وقد اظهر امارات واضحة على الضيق: «متى سيبدأ في الكلام عن البذور؟ الظاهر أن امورنا تعبانة! لن يستطيع أحد أن يحرك اكييم الأب و اكييم الابن بسرعة، فهما أشد أهالي غريمياتشي عناداً. ولا مجال للتخويف أيضا. فاكييم الأصغر حُدم في الجيش الأحمر، وعرف وشاف، وهو - بشكل عام - من قوزاقنا؟ وهو لايعطي القمح حباً في الامتلاك، بل بخلا. انه يبخل عليك حتى بالثلج في الشتاء، انا أعرف ذلك!».

وخلال ذلك أقتنص فانيوشكا نايدينوف فرصة سانحة، ليتابع كلامه ويقول:

- أنا من مواليد منطقة تاتسينسكي وذات مرة وقع عندنا هذا الحادث في الكنيسة قبيل عيد الفصح. كان القداس في الكنيسة على قدم وساق، وأهل التقوى من الناس محشورين مختنقي الانفاس، والقس والشماس، بالطبع، يرتلان ويتلوان الصلوات، والصبيان يلعبون في الخارج عند سياج الحديقة. وكانت عندنا عجلة خطافه نظاحة، ما ان تمسها حتى تهجم عليك كالكرابي، وتنطحك بقرونها. وكانت هذه العجلة ترعى وادعة قرب السياج، ولكن الصبيان ظلوا يعاكسونها، حتى راحت تطارد أحدهم، وتوشك ان تلحق به، فيدخل الصبي الحديقة، والعجلة وراءه، و يصعد الصبي الدرجات، فتصعد خلفه. وكان الرواق مكتظاً بالناس كيوم الحشر، وتخفض العجلة رأسها، وتنطح الصبي في جنبه. فيندفع بكل قوته، ويوقع عجوزاً، فتصطدم العجوز بعلبائها على الأرض، وتصيح: «النجدة، يا طيبون!

أنا أموت!..» ويمسك زوجها العجوز عكازته ويهبط بها على ظهر الصبي! ويقول: «عساك احترقت، أيها الشيطان الرجيم!» والعجلة تنخور: «با...ء...ء...!» وتهجم على العجوز بقرنيتها. ويحصل هلع وفزع! والذين كانوا واقفين قرب المحراب لا يعرفون ماذا جرى، وحين يسمعون الضجة في الرواق، يقطعون صلاتهم. ويقفون قلقين، وأحدهم يستفسر من الآخر: «ما هذه الضجة هناك؟» «ماذا حصل؟»

والتهب فانيوشكا حماساً، وقد بتعابير وجهه تهامس أهل قريته وفزعهم بشكل حي جعل أكيمة الاصغر أول من يفقد السيطرة على نفسه، يضحك قائلاً:

– فعلت الافاعيل هذه العجلة!

ومضى فانيوشكا يقول مكشراً عن ابتسامة:

– وقال أحد الشبان مازحاً: «ربما اقتحم الكنيسة كلب مسعور. الأفضل ان نروح!» وكانت تقف الى جانبه امرأة حبلى، فارتعبت وراحت تصرخ صراخاً ملاً الكنيسة كلها: «أوي، يا أمنا العزيزة! ستعضنا جميعاً في الحال!». والذين في الخلف دفعوا الذين في القدام، وانكفأت الشمعدانات، وطلع الدخان... وأظلم المكان. وصاح أحدهم: «حريق!» وهكذا، على هذا المنوال! «كلب مسعور!»، «ح... ر... يق!»، «ماذا حصل؟..»، «يوم القيامة!»، «ماذا؟ يوم القيامة؟ يا زوجة! الى البيت!» وتدافعوا على الابواب الجانبية، وكانوا من الزحمة بحيث لم يستطع أحد أن ينفذ منها. وقلبوا طاولة الشموع، وتطايرت قطع الكوبيكات، ووقع خادم الكنيسة ويصيح: «نهيبه!..» وتدافعت النسوة نحو المذبح كالمعزات، والشماس يطوف على رؤوسهن بالمبخرة: «أتنن، يا مخبولات! الى أين؟ لا تعرفن يا كافات، ان النساء لا يجوز أن يطان المذبح؟» ويندحس عمدة القرية في الباب وكان بديناً يطوق كرشه بسلسلة، ويدافع الناس قائلاً: «دعوني أمر! مرروني، يا ملاعين. أنا عمدة القرية!» وأين يمر في «يوم القيامة» هذا؟

ويختتم فانيوشكا حديثه وسط الضحك:

- وكان في قريتنا لص خيول يدعى ارخيبي تشوخوف. وكان يسرق الخيول كل اسبوع، ولا أحد استطاع أن يمسك به. وكان ارخيبي هذا موجوداً في القرية يكفر عن ذنوبه. وحين كانوا يصيحون: «يوم القيامة!» سنهلك، يا اخوان!» اندفع ارخيبي الى نافذة، وحطمها، وهم أن يشب منها، ولكنها كانت محاطة بشبكة من القضبان من الخارج، والناس ما يزالون يتدافعون عند الباب، فراح ارخيبي يتراكم في ارجاء الكنيسة، ويتوقف، ويبسط ذراعيه حيرة، ويقول: «انمسكت! انمسكت تماماً!»

ضحكت البنتان واكيم الاصغر وزوجته الى أن دمعت العيون، وبعث الحناجر. وحتى الجد أكيم فغر فمه الخاوي في ضحك صامت، الا المرأة العجوز، فهي لم تسمع نصف القصة، ولطرشها لم تفهم شيئاً فبكت لسبب مجهول وغمغت، وهي تمسح عينيها الحماوين الممختلن بالدموع:

- يعني انمسك، المنكود! ايتها الطاهرة! ماذا فعلوا به؟

- بمن، يا جدة؟

- بذلك القاصد؟

- اي قاصد، يا جدة؟

- بهذا الذي تحدثت عنه، يا عزيزي... بالحاج...

- ولكن اي حاج، هنا؟

- أوه، يا عزيزي، لا ادري... صرت ثقيلة السمع،

ثقيلة، يا مناي... لم أسمع الى الآخر...

وأثار الحوار مع الجدة نوبة جديدة من الضحك، وسأل أكيم الاصغر للمرة الخامسة، ربما، وهو يمسح دموع الضحك:

- ماذا قال لص الخيول؟ «انمسكت؟» أوه، يا فتي،

حكايتك حلوة جداً! - قال معلناً عن اعجابه بطريقة ساذجة، مرتباً على كتف فانيوشكا.

أما الفتى هذا، فقد حول حديثه الى طابع جدي بسرعة وبدون أن يلحظ، اذ تنهد قائلاً:

- هذه حكاية مضحكة، بالطبع، ولكن اليوم تحدث أشياء لاثير الضحك... اليوم قرأت في الجريدة، وتوقع قلبي في صدري.
- توجع؟ - سأل أكيم، وهو يتوقع حكاية أخرى مرحة.

- نعم، توجع من الطريقة التي يسخرون بها من الانسان في الاقطار الرأسمالية، ويعذبونه. اذ قرأت هذا الوصف: في رومانيا فتح اثنان من الكومسوموليين عيون الفلاحين، وتحدثنا اليهم بوجوب أن ينتزعوا الأرض من أصحاب الاراضي، ويوزعوها فيما بينهم. فالفلاحون في رومانيا يعيشون عيشة بؤس شديد...
قال أكيم:

- نعم، أنا اعرف بؤسهم، فقد رأيتهم حين حاربت مع الفوج على الجبهة الرومانية في عام ١٧.
- طيب، كانا يحرضانهم على الاطاحة بالرأسمالية. واقامة السلطة السوفيتية في رومانيا. الا أن الجندرة الشرسين قبضوا عليهما، فضربوا أحدهما حتى الموت، وأخذوا يعذبون الثاني. قلعوا عينيه، وנתفوا شعر رأسه كله. ثم احموا حديدة رقيقة الى حد الاحمرار، وراحوا يدحسونها بين أظفاره.

- ملا... عين! - وأخذت زوجة اكيم تتأوه، باسطة ذراعيها بيأس - تحت أظفاره؟

- نعم، تحت أظفاره... ويسألونه: «خبرنا من عندكم في الخلية أيضاً، وانبذ الكومسومول» فيرد الكومسومولي بصلاية: «لن اخبركم، يا مصاصي الدماء، ولن أنبذ!» فأخذ الجندرة يقطعون له أذنيه بالسيوف، وجدعوا أنفه قائلين: هل ستقول لنا؟ فيقول: «لا، أموت على ايديكم الدامية، ولا أقول! عاشت الشيوعية!» عندئذ علقوه على السقف من يديه، واشعلوا النار في الأسفل.

قال اكيم الأصغر في حلق:

- لعنة على كل جندرة العالم! هذه فظاعة!

- ... ويلسعونه بالنار، ولكنه يبكي دموعاً دامية،

ولا يشي بواحد من رفاقه الكومسومولين، ويظل يهتف:

«عاشت الثورة البروليتارية والشيوعية!»

- روعة أنه لم يش برفاقه! هذا ما يجب! مت بشرف،

ولا تش باصدقائك! وقد جاء في الانجيل: «هب الحياة

لصديقك...» - وشد الجد اكيم قبضته، وحث المتحدث

قائلاً: - واصل، ماذا بعد هذا؟

- ... يعذبونه، وينكلون به بكل وسيلة، بينما هو

صامت. وهكذا من الصباح حتى المساء. يغمى عليه،

فيسكبون عليه الماء، ويعيدون الكرة وحين رأوا أنهم لا

يستطيعون أن يحصلوا على شيء منه، ذهبوا للقبض على

أمه، وجلبوها الى المعتقل. ويقولون لها: «انظري كيف

سنفعل بابنك الأفاعيل! ولكن قللي له: أن يمتثل، والا

فسنقتله ونرمي لحمه للكلاب!.. فاعمي على الأم في الحال،

وحين افادت على نفسها ارتمت على ابنها، واحتضنته،

وراحت تقبل يديه الداميتين...

وصمت فانيوشكا شاحب الوجه، وطاف على المستمعين

بعينين متسائلتين: كانت الفتاتان فاغرتي الفم، مغرورقتي

العيون، وكانت زوجة اكيم تتمخط بمزرها، وتهمس ناشجة:

«يا عيني... على الأم... على ابنها... يا ربي!» وتأوه

اكيم الأصغر، والتقط كيس تبغه، وأخذ يلف سيكارة

بسرعة. وناغولنوف وحده احتفظ بهدونه الظاعري وهو

جالس على الصندوق، ولكن خديه في فترات الصمت كانا

يختلجان اختلاجات مربية، وفمه ينحرف جانباً.

- وتقول له أمه: «ولدي العزيز! من أجل خاطر أمك

امتثل لهؤلاء الأشرار!». ولكنه يجيب حين يأتيه صوتها:

«لا، يا أمي العزيزة، لن أغدر برفاقي، وسأموت في سبيل

عقيدي، أما انت فخير لك أن تقبليني قبل موتي، وعندئذ

سيكون استقبال الموت أهون علي...»

وختم فانيوشكا قصته بصوت مرتعش فروى كيف مات الكومسومولي الروماني تحت تعذيب الجندرية السفاحين. وساد الصمت برهة، ثم سألت ربة البيت دامعة العينين:

- كم كان عمر هذا المعذب يومها؟

- سبعة عشر - أجاب فانيوشكا رأساً وبلا تردد، ونكس طاقيته ذات المربعات على جبينه - نعم، مات بطل الطبقة العاملة، رفيقنا العزيز، الكومسومولي الروماني. مات من أجل حياة أفضل للشغيلة. وواجبنا مساعدتهم في الاطاحة بالرأسمالية، واقامة سلطة العمال والفلاحين، وهذا يقتضي بناء الكولخوزات، وتقوية اقتصاد الكولخوز. ولكن مايزال عندنا مزارعون يساعدون، بدون وعي، مثل هؤلاء الجندرية، ويعيقون بناء الكولخوز، فلا يقدمون بذور القمح... طيب، شكراً لأهل البيت على الفطور! والآن الى القضية التي جئنا من أجلها. عليكم الآن حالا تسديد بذور القمح. والحصة المحسوبة لبيبتكم هي سبعة وسبعون بوداً بالتمام. هيا، يارب البيت، سلمها!

- ولكن... من يدري... ربما، ليس عندنا قمح... تقريباً... - بادر اكيم الاصغر يقول بتردد، منذهلاً من الهجوم المباغت، الا أن زوجته ألقت نظرة حائقة الى ناحيته، وقاطعته بحدة:

- ما هذا الكلام! اذهب، وأملأ الاكياس، وأجلبها!

أعترض اكيم قائلاً:

- ليس عندنا سبعون بوداً... وليس مغربلاً ايضاً.

وأيد الجد اكيم كنته:

- اجلبه، يا عزيزي اكيم. لا حاجة الى الممانعة مادام

يجب أن نعطيه.

- نستطيع ان نساعد في غربلته، ولا تتهيب. هل عندكم غربال؟

- عندنا... ولكن ليس سليماً تماماً...

- لا بأس! سنصلحه! عجل، عجل، يارب البيت!

فحن بدون ذلك قد طولنا في الاحاديث...

وبعد نصف ساعة ساق اكييم الاصغر من حظيرة الكولخوز عربتين يجرحهما ثوران، بينما راح فانيوشكا، وحبات العرق تنقط وجهه كالنمش، ينقل أكياس القمح المغربل، القوي المدور المتلامع بحمرة الذهب الخالص، من سقيفة العصافة في بيت اكييم الى كرار لدى الشونة.

سأل فانيوشكا احدى بنات اكييم، وهو يغمز بشيطنة: - لماذا تحفظون القمح في سقيفة العصافة؟ شونتكم واسعة، والقمح مهمل بهذا الشكل؟ فردت هذه مرتبكة:

- هذا من تدبير أبي...

وبعد أن نقل بيسخليبونوف حصته من البذور - سبعة وسبعين بوداً - الى شونة الكولخوز، وذهب فانيوشكا وناغولونوف الى البيت التالي، بعد أن توادعا مع أهل البيت. سأل ناغولونوف بانفعال فرح، وهو ينظر الى وجه فانيوشكا المتعب:

- قصة الكومسومولي هذه من عندك؟

- لا - أجاب فانيوشكا سارحاً - منذ زمن بعيد قرأت عن حادث كهذا في مجلة المنظمة العالمية لمساعدة المناضلين الثوريين.

- بينما قلت: قرأت اليوم...

- وهل هناك فرق؟ المهم هنا أن مثل هذا الحادث قد وقع، هذا هو المؤسف، يا رفيق ناغولونوف! فمضى هذا يستفسر:

- وانت أضفت عليه ما يشجي النفس؟

- ولكن هذا غير مهم! - رد فانيوشكا بضيق، واضاف وهو يرتعش برداً، ويزرر سترته الجلدية - المهم أن يشعر الناس بالكراهية نحو الجزائريين، والنظام الرأسمالي، والعطف نحو مناضلينا. المهم أن البذور قد جلبت... ثم انني لم اضف شيئاً تقريباً. ونقيع الفواكه الذي تناولته عندهم لذيذ! ما كان لك أن ترفض، يا رفيق ناغولونوف.

الفصل السادس والعشرون

في التاسع من آذار خيم الضباب على غريمياتشي لوغ منذ المساء، وظل ماء الثلج الذائب يشرشر من سطوح البيوت حتى الصباح، وهبت ريح دافئة رطبة من مرتفعات السهب جنوباً. وصارت الليلة الأولى فاتحة الربيع ترفل بحلل حريرية سوداء من الضباب المتدفق والسكون، وتتهوى بالنسائم الربيعية. وفي الضحى أخذ الضباب المتضائل ينقشع كاشفاً عن السماء، والشمس، ومن الجنوب عصفت ريح كالسيل الجارف. ونزل ثلج كبير الجبات في فرقة وخشخشة ناشراً الرطوبة، وصارت السقوف بنية، وتغطت الطرقات بفلوع سود، وعند الظهيرة كان ماء المرتفعات الصافي كالدموع يبقبِق بضاوة في الوهاد والمنخفضات، ويندفع سيولا لاحصر لها الى القيعان والأجمات وحدائق البيوت، كاسحاً جذور الكرز المرة، غامراً القصب عند شواطئ النهر.

وبعد قرابة ثلاثة ايام تعرت الآكام المعرضة لكل ريح، والتمعت المنحدرات المغسولة حتى القاع بطينها الرطب، وتكدر ماء المرتفعات، ولبست امواجه الفوارة المتعرجة قبعات صفراً من الزبد المواري، وعلتها جذور القمح المجروفة، والسويقات الجافة من الاراضي المحروثة، وجدامات القنب الفرعاء.

وفاض النهر على الشاطئين في غريمياتشي لوغ. وجاءت صفائح الجليد الزرقاء من روافده العليا، طافية، وقد اطلقتها الشمس فكانت تصطدم في المنعطفات وتخرج من مجرى النهر، وتدور، ويضرب بعضها ببعض كالاسماك الكبيرة حين تضع بيضها. واحياناً كان التيار يلقيها على المنحدرات الشديدة، واحياناً يجرفها سيل منصّب في النهر، الى الحدائق، فتندفع بين الاشجار متسلقة جذوعها صارفة، ساحقة نوامي النبات في الحدائق، مؤذية اشجار التفاح، حانية اكثف شجيرات الكرز.

ووراء العزبة كانت حقول الحراثة الخريفية تدعو الناس إليها، مسودة بعد أن تحررت من اسار الثلج. وكانت الأرض السوداء الدسمة التي قلبتها أمشاط المحارث تتدفأ بالبغار. وفي ساعات الظهيرة كان السكون المهيب الرخي يخيم على السهب. والشمس فوق الحقول، وبغار ناصع البياض، وصياح مؤثر لقبرة مبكرة، ونداء هتوف لسرب ثلاثي الشكل من طيور الغرانيق تشق بصدورها زرقة السماء الكثيفة الصافية. وفوق الآكام يحوم سراب مرتعش صنعه الدفء، وتشرئب نحو الشمس رؤوس العشب الخضراء الحادة من خلال أعواد العشب المتخلف من العام الماضي. ويبدو الجودار الشتوي وقد جففته الريح كالناهض على أطراف أصابعه، ماذا اوراقه للقاء الاشعة حاملة النور. ولكن امارات الحياة ماتزال قليلة في السهب، ولم يستيقظ المرموط والسولق من سباتهما الشتوي بعد، والحيوانات البرية الاخرى أوت الى الغابات والمنخفضات، ومن حين لآخر فقط كان يركض جرذي حقل خلال العشب الميت، أو يطير زوج من طيور الحجل ليحط على القمح الشتوي.

في نحو الخامس عشر من آذار كان صندوق البذور في غريمياتشي لوغ قد جمع بكامله. وجمع الفلاحون الافراد بذورهم في شونة منفصلة، حفظ مفتاحها في ادارة الكولخوز، ملأ الكولخوزيون ست شون كولخوزية الي الآخر. وكانت البذور تدرى حتى في الليل على ضوء ثلاثة فوانيس. وكان منفاخ الكور الواسع الشدق يظل شغالا في حدادة ايبوليت شالي حتى حلول الظلام، وحببات الشرر الذهبية تتطاير من تحت المطرقة، ويرن السندان صداحاً. وشمر شالي للعمل، وعند الخامس عشر من آذار كان قد أصلح كل المساحي والبذارات والمحارث التي قدمت له لاصلاحها. وفي مساء السادس عشر من آذار، وأمام حشد حاشد من الكولخوزيين المجتمعين في المدرسة كافاه دافيدوف بأدواته التي جلبها من لينينغراد، وألقى هذه الكلمة:

«نحن، ادارة الكولخوز، نقدم هذه الادوات الى حدادنا العزيز الرفيق ايبوليت سيدوروفيتش شالي على عمله الطليعي حقاً، الذي يجدر بسائر الكولخوزيين السير على جنوالة.

وكان دافيدوف قد حلق جيداً، ولبس معطفاً قطنياً قصيراً نظيفاً خصيصاً لحفلة تقديم الهدية للحداد الطليعي، فتناول الادوات المصفوفة على قماشة حمراء، بينما دفع ناغولنوف ايبوليت الى المسرح، والرجل خجل محمر. - اليوم أتم الرفيق شالي التصليح مائة بالمائة - هذه حقيقة، يا مواطنون! ومجموع ما قدم اليه من المساحي اربعة وخمسون، وعشرون بذارة من مختلف المقاييس هي الآن في أهبة الاستعداد للعمل، واربعة عشر محراثاً وغير ذلك، حقيقة! تفضل، يا رفيقنا العزيز، وتسلم هدية أخوية لك على سبيل المكافأة، ولكي تعمل، تخطفك الشيطان، بهذه الطريقة الطليعية في المستقبل أيضاً، ولكي تكون جميع الادوات في كولخوزنا في حالة جيدة دائماً، حقيقة! أما أنتم، يا سائر المواطنين الآخرين، فيجب أن تعملوا في الحقل بطريقة طليعية أيضاً، وعند ذلك فقط نستأهل اسم الكولخوز، والا فستعرضون الى العار والشنار في عيون الاتحاد السوفيتي كله.

وبهذه الكلمات قدم دافيدوف الهدية الى شالي ملفوفة بثلاثة امتار من القماش الأحمر. آنذاك لم يكن أهل غريمياتشي قد تعلموا اظهار الاستحسان بالتصفيق، الا ان ضجة ارتفعت في المدرسة حين تناول شالي اللفة الحمراء: - انه يستحقها، فقد عمل كثيراً.

- جعل غير الصالح صالحاً مرة أخرى.
- وحصل على أدوات وقطعة قماش تصلح ثوبا لزوجته.

- ايبوليت، انت مطلوب عزومة، أيها الثور الأسود!
- هزه!
- دعك، يا مشاغب! كفاه هزهة وهو عند السندان!

وبعد ذلك تحولت الصيحات الي جلبة متماسكة، ولكن
الجد شوكار تحايل في اختراق الضجة بصوته النسوي
الحاد:

- ما لك واقف معقود اللسان؟! تحدث! قل شيئاً في
الرد! وضعتك أمك خشبة أم قرمة؟
وحظي شوكار بالتأييد، وراح المجتمعون يصيحون بين
الجد والهزل:

- دعوا ديميد الصموت يلقي خطاباً بالنيابة عنه!

- ايبوليت! تكلم بسرعة، والا فستسقط!

- انظروا اليه، فرائضه ترتعش بالفعل.

- هل بلع لسانه من الفرحة؟

- ليس هذا مثل ضربك المطرقة!

ولكن اندريه رازميوتنوف الذي كان يهوى الاحتفالات
مهما يكن نوعها، وكان مهيمناً على الاحتفال بتقديم الهدية
هذه المرة ايضاً، اسكت الضجة، وهدأ المجتمعين المفعلين:

- أوه، ابردوا قليلاً! ما لكم تضجون؟ هل شعرتم

بقدوم الربيع؟ صفقوا بايديكم كما يفعل المهدبون، ولا

حاجة للصياح! اسكتوا، ارجوكم، دعوا الرجل يرد بكلمة -

واستدار نحو ايبوليت، ولكزه بجمع كفه على جنبه دون

ان يلحظه أحد وهمس - املاً صدرك بالهواء، وانطق.

تفضل، سيدوروفيتش، وتكلم بزيادة، على طريقة المتعلمين.

أنت الآن بطل الحفل عندنا، ويجب ان تقول كلمة رحية حسب

كل الاصول.

ولم يكن ايبوليت شالي موضع اهتمام قط، ولم يلق

طوال حياته أية كلمات «رحبة»، ولم يكافئه أهل عزبته

على عمله بغير اقداح من الفودكا، فاذا بهدية الادارة هذه،

وجو الاحتفال بتسليمها له، يخرجانه كلياً عن توازنه الدائم.

واذا بيديه ترتعشان، وهما تضمان الصرة الحمراء على

صدره بشدة، وبرجليه ترتجفان، وهما اللتان كانتا تقفان عند

السندان بثقة وتماسك دائماً... دون ان يترك الصرة من

يديه، مسح بكمه الدمعة عن وجهه المغسول الي حد الاحمرار

لهذه المناسبة غير الاعتيادية له، وقال بصوت فيه حشرجة:
- الأدوات ضرورية لنا بالطبع... نحن متشكرون...
للادارة على هذه... شكراً، ومرة أخرى شكراً! أما أنا...
فما دام عندي دكان حدادة أقدر... أقصد
أنا دائماً كما أنا الآن - كولخوزي، بكل رحابة
صدر... أما القماش فسينفع زوجتي، بالطبع... - ومرر
عينيه بذهول في حجرة الدرس المكتظة، باحثاً عن زوجته،
أملاً في سره بأن تسعفه في موقفه هذا، ولكنه لم يرها،
فارسل زفرة، وختم كلمته غير الراحبة قائلاً: - تشكراتي
لك، يا رفيق دافيدوف وللكولخوز على الادوات الملفوفة
بالقماشة، وعلى اعمالنا!

وحين رأى رازمبوتنوف أن كلمة شالي المؤثرة موشكة
على النهاية، أوماً للحداد المتصعب بالعرق ايماءات تدل
على اليأس، ولكن بدون جدوى. لم يرد شالي أن يلتفت
اليها، فأنحنى محيياً، ونزل من المنصة، حاملاً الصرة على
ذراعيه الممدودتين كما يحمل طفل نائم.
أسرع ناغولنوف فخلع قبعته، ولوح بذراعه، فأخذت
الفرقة الموسيقية المؤلفة من آليتين للبلالايكا وكمان،
تعزف «النشيد الأممي».

* * *

كان رؤوساء الفرق - دوبتسوف، وليوبشكين، وديمكا
اوشاكوف - يركبون الخيول ويخرجون كل يوم الى السهب،
ليروا ما اذا كانت الأرض مهيأة للحراثة والبنذار. جاء الربيع
الى السهوب بانفاس الرياح الجافة. كان الطقس لطيفاً، وقد
تهيأ الفريق الأول لحراثة الاراضي الرملية الرطبة الموجودة
في منطقتة.

أستدعي فريق الدعاية والتحريض الى عزبة فويسكوفوي،
الا أن كوندراكو أبقى فانيوشكا نايدينوف في العزبة اثناء
البنذار استجابة لرجاء ناغولنوف.

في اليوم الذي أعقب يوم الاحتفال بتقديم الهدية لشالي طلق ناغولنوف زوجته لوشكا. فنزلت عند عمه لأمها، وكانت هذه تعيش في طرف العزبة، ولزمت البيت ليومين أو نحوهما، ولكنها التقت بدافيدوف بعد ذلك قرب ادارة الكولخوز، فاستوقفتها:

- انصحني، يا رفيق دافيدوف، كيف أعيش الآن؟
- هذا لا يحتاج الى سؤال! نحن نفكر في تنظيم دارٍ للحضانة، فاشتغلي هناك.
- لا، وشكراً! لم ارزق بأطفال، وتريدني أن أربي أطفال الآخرين الآن؟ ليس هذا بالحل!
- طيب، انضمي الى فريق عمل.
- لست صالحة للعمل! العمل في الحقل يصيبني بالدوار...

- ياالرقتك! اذن، اسرحي وامرحي، ولكن لن تحصلي على خبزك. عندنا «من لايعمل لا يأكل»!

تنهدت لوشكا، واطرقت رأسها حافرة الرمل الرطب ببوز حذائها المدبب.

- صديقي تيموشكا الأشرم ارسل لي رسالة من مدينة كاتلاس في الاقليم الشمالي... يعد بأن يأتي عن قريب.

- لا اظن ذلك صحيحاً، - وابتسم دافيدوف - وحتى اذا عاد، فسنرسله الى مكان أبعد من مكانه الحالي.

- يعني لن تكون له مرحمة؟

- لا! فلا تنتظريه، ولا تضيعي الوقت عبثاً. يجب أن تشتغلي، حقيقة! - ردها دافيدوف بحدة وهم بالانصراف، الا أن لوشكا اوقفته، وقد ارتبكت قليلاً. وحين سألته بلهجة ممطوطة كان صوتها مشوباً بنبرات الهزه والتحدي:

- ربما وجدت لي عريساً منسياً؟
- خاوص دافيدوف عينيه بغيظ، وغمغم:
- أنا لا أزاول هذه الشغلة! مع السلامة!
- انتظر قليلاً! اريد أن اسألك أيضاً!

- طيب؟

- ألا تتخذني زوجة لك؟ - رن في صوت لوشكا تحد سافر وسخرية.

فارتبك دافيدوف هذه المرة. واحمر حتى بصيلات شعره المسرح الى الأعلى، وحرك شفتيه بلا صوت.

- عايني، يارفيق دافيدوف - مضت لوشكا تقول بوداعة مفتعلة - أنا امرأة جميلة، واصلح للحب كثيرا...

انظر الي: عيناى جميلتان، وكذلك حاجباى، وساقاى، وكل الأشياء الأخرى... - ورفعت باطراف اصابعها ذيل تنورتها

الصوفية الخضراء، وتخوصرت مستقيمة القد، وانفتلت امام دافيدوف المصعوق - أم ليس كذلك؟ قل لي بصراحة...

دفع دافيدوف طاقيته على علبائه بحركة يائسة، واجاب:

- انت فتاة رائعة، بدون شك؟ وساقاك جميلتان، سوى... سوى أنهما لا تسيران بك الى حيث ينبغي، وهذه حقيقة!

- اسير بهما، حيث أشاء! اذن، لا أمل لي فيك؟

- نعم، الأفضل ان لا تأملني.

- لا تتصور أنني متيمة بك، أو اطمع في العيش في كنفك... مجرد أنني اشفق عليك واقول: «هذا شاب غير

متزوج، اعزب، ولا يهتم بالنساء...» اشفقت عليك من الطريقة التي تنظر بها الي، وفي عينيك جوع...

- عجيب أمرك... طيب، مع السلامة! لاوقت لي اصرفه عليك. - واضاف مازحاً - سنفرغ من البذار،

وعند ذاك تفضلي وقابلي البجار السابق، ولكن شريطة ان تأخذي أذنًا من ماكار، حقيقة!

ضحكت لوشكا، وقالت في اثره:

- كانت الثورة العالمية تصرف ماكار عني باستمرار، وأنت يصرفك البذار. أوه، خل عني! لست بحاجة الي أمثالك! أنا بحاجة الي حب لاهب، وماذا احصل منك؟ دمك

تصدأ من الأشغال ولا نفع باناء مثقوب لا يحفظ شيئاً!

سار دافيدوف باتجاه ادارة الكولخوز مبتسماً بسهولة. وكان يفكر: «يجب أن نضمها الى عمل، والا فستنحرف عن سواء السبيل. حتى في ايام الاسبوع العادية، تلبس بهذه الاناقة، وتتفوه بمثل هذه الأحاديث...» الا أنه طرد عنه هذه الأفكار قائلاً لنفسه «اوه، الى جهنم. فهي ليست طفلة، ولا بد أن تفهم. وهل أنا سيّدة برجوازية تقوم بأعمال البر والاحسان؟ عرضت عليها عملاً، والآن لنتركها تسرح، اذا كانت لا تريد!»

واستفسر من ناغولنوف باختصار:

– طلقت؟

– بلا اسئلة، رجاء! – غمغم ماكار، وهو يتفحص اظافر اصابعه الطويلة باهتمام بالغ.

– مجرد أنني...

– طيب، وأنا كذلك!..

– اذهب الى الشيطان! لا أحد يستطيع ان يسألك، حقيقة!

– حان الوقت لخروج فريق العمل الأول. واعضاؤه يتلكؤون.

– كان حرياً بك أن تضعها في الطريق القويم. ستركب رأسها الآن، وتفلت!

– هل أنا قس لها ام ماذا؟ اتركني! أنا اتحدث عن الفريق الأول، غداً يجب عليه أن...

– الفريق الأول سيخرج غداً... وهل تتصور أن الأمر بهذه السهولة: تطلق وينتهي الأمر؟ لماذا لم ترب المرأة بروح الشيوعية؟ ليس من ورائك غير المتاعب،

– غداً سأخرج بنفسني الى الحقل مع الفريق الأول... ولكن مالك لصقت بي كما يلتصق الشوك؟ «ربها، ربها!»

وكيف أربيه، اذا كنت أنا نفسي جاهلاً كلياً؟ طيب، طلقت، ثم ماذا؟ انت، يا سيميون، تأكل في الانسان، كالمرض

الجلدي! وقصة بانيك هذا!.. كفاني ما، أنا فيه، وتريدني أن أهتم بزوجتي السابقة...

هم دافيدوف بأن يرد، إلا أن منه سيارة صدر في فناء الإدارة. ودخلت سيارة «الفورد» العائدة للجنة المنطقة، وهي تترنح وتخوض في ماء الثلج الذائب. وفتح بابها، وطلع منه ساموخين رئيس لجنة الرقابة في لجنة المنطقة الحزبية.

- جاء بشأني... - وتقلص وجه ناغولنوف، ونظر الى دافيدوف بحنق - حذار أن تذكر له شيئاً عن زوجتي، والا فستضعني في موضع الحساب. هل تعرف اي شخص ساموخين هذا؟ سيقول «لماذا طلقت، والعلة والسبب؟» انه يتضايق جداً، حين يطلق الشيعوي زوجته. انه قس، وليس رئيس رقابة حزبية. أنا اكرهه، هذا الشيطان ذا الجبين العالي! آه من بانيك، ليتني قد قضيت على هذا الوغد... دخل ساموخين الغرفة، وقال في شبه مزاح، دون أن يسلم، ودون أن يترك حقيبته الجفافية من يديه.

- هكذا تفعل، يا ناغولنوف؟ وتضطرنني أن اجيء بسببك، واخوض هذه الوحول؟. من هذا الرفيق؟ أظنه دافيدوف؟ آوه، مرحباً - وصافح ناغولنوف ودافيدوف، وجلس الى الطاولة - اتركنا لوحدنا، يا رفيق دافيدوف، لنصف ساعة، اذ علي أن اتحدث قليلا مع هذا الغريب الاطوار (وأوماً باتجاه ناغولنوف).

- هيا، تحدثنا.

ونفض دافيدوف، واندھش حين سمع ناغولنوف يطلق لسانه، وهو الذي رجاء قبل لحظة أن لا يتحدث عن الطلاق. والظاهر أنه آمن بالمثل القائل: «المبلل لا يخاف من المطر».

- صحيح أنني ضربت معادياً للثورة، ولكن ليس هذا كل شيء، يا ساموخين...

- وأي شيء آخر؟

- منذ حين طردت زوجتي من البيت!

- ايه؟! - مط ساموخين صوته مذعوراً، ونخر نخرة رهيبه، وراح ينبش في محفظته، مخشخشا بالاوراق في صمت، كبير الرأس، نحيل الجسم.

الفصل السابع والعشرون

في الليل سمع ياكوف لو كيتش من خلال النوم وقع خطوات ولغطاً قرب الباب الخارجي، ولكن النوم كان يشده الى الفراش، غير أنه كافح وتغلب عليه بجهد، وفي صحوه سمع صريف لوح السياج تحت ثقل جسم انسان، ورنيناً كرنين المعدن. تقدم ياكوف لو كيتش من النافذة على عجل، وألصق عينيه بفتحة النافذة وعين، ورأى في الظلمة الزرقاء المشفة شخصاً طفر عبر السياج ضخماً كبيراً (سمع صوت الطفرة الثقيل)، وحده من قبعته القوزاقية المبيضة في الظلام أنه بولوفتسيف. ألقى ياكوف لو كيتش سترته على كتفيه، وانزل حذائه اللبادي من سطح الموقد، وخرج. وكان بولوفتسيف قد ساق حصانه خلال البوابة، وأغلقها بالترباس. تسلم لو كيتش المقود من يده. كان الحصان مبللاً حتى الناصية، وينخر نخيراً صدرياً، ويتميل. سأل بولوفتسيف بصوت هامس مبجوح، دون أن يحي!

— هل... لا تيوفسكي هنا؟

— نائم، ويل منه... طوال هذه المدة كان يشرب الفودكا.

— اللعنة عليه! الوغد... يبدو أنني اتعبت الحصان بالجري.

كان صوت بولوفتسيف هادئاً الى حد لا يعرف به، تلمس ياكوف لو كيتش فيه توتراً وهلعاً شديداً وتعباً...

في حجرة الجلوس خلع بولوفتسيف حذائه، واخرج من الخرج سروالا قوزاقياً أزرق له شريطان جانبيان، ولبسه، وعلق سرواله المبلل حتى نطاقه العالي فوق سطح الموقد ليجمف.

كان ياكوف لو كيتش يقف عند الباب، يتابع حركات سيده المتباطئة. جلس هذا على سطح الموقد، وطوق ركبتيه بيديه، وهمد ناعساً لبرهة مدفنناً كعبيه العاريين.

والظاهر أنه نعسان الى حد مرهق، الا أنه جاهد وفتح عينيه، ونظر طويلا الى لاتيوفسكي الذي كان يغط بنوم مخمور عميق، وسأل:

- يشرب منذ زمان؟

- منذ البداية، ويسكر بشدة! يضعني في حرج امام الناس. كل يوم يجبرني على جلب الفودكا له. والناس قد يشكون.

- خنزير! - هس بولوفتسيف بازدرء عميق من خلال اسنانه، وغشيه النعاس في جلسته مرة أخرى، وتمايل رأسه الأشيب الكبير.

ولكنه جفل بعد دقائق قليلة من غلبة النعاس عليه، ودلى ساقيه من سطح الموقد، وفتح عينيه.

- لم أنم منذ ثلاثة أيام... الانهار في فيضان. وقد قطعت نهركم في غريميا تشي خوضاً.

- حبذا لو تنام، يا الكسندر انيسيميتش.

- سأنام. اعطني شيئاً من التبغ. تبغي تبلل.

وانتعش بولوفتسيف بعد مصتين نهمتين، وأختفى غشاء النعاس من عينيه، وقوي صوته:

- طيب، كيف الامور هنا؟

حكى ياكوف لو كيتش باختصار، وسأل بدوره:

- وأنتم، ما هي اخباركم السارة؟ عن قريب؟

- في هذه الأيام أو... لا، على الاطلاق. غداً في الليل سنذهب أنا وانت الى فويسكوفوي. يجب أن نبدأ بالانتفاضة من هناك، اقرب الى الدسكرة. وهناك الآن فريق للدعاية والتجريض. سنجرب حظنا معهم. وأنت ضروري لي في هذه السفرة. فالقوزاق هناك يعرفونك، وكلمتك تبعث العزيمة فيهم. - وضحك بولوفتسيف قليلا، وراح لوقت طويل يمسد بيده برقة على القط الأسود الذي قفز الى ركبتيه، ثم همس، وقد خالط صوته الدفء والرقة المجبول عليهما - كوسينكا، يا حلو، كيسوتشكا، يا قط! يا قطيظ! ما اشد سوادك! أنا احب القطط، يا لو كيتش.

الحصان والقط أنظف الحيوانات. كان لي في بيتي قط سيبيري، ضخمة، غزير الشعر... كان ينام معي باستمرار... شعره... - وقلص بولوفتسيف عينيه باستغراق، وابتسم، وحرك أصابعه - شعره رمادي داخن مع رصعات بيض. كان قطاً ر... عة! وانت، يا لوكيتش، ألا تحب القطط؟ الكلاب مثلاً لا أحبها أنا، بل أكرهها! في طفولتي حدث لي حادث، على الأغلب عندما كنت في نحو الثامنة. كان لنا جرو صغير، وكنت أعب معه، ذات مرة، والظاهر أنني آلمته، فعض أصبعي، وعضها حتى أدمأها. وهاج غضبي، واختطفت غصناً وأخذت أسوطه به. وهو يركض، وأنا ألاحقه واضربه ب... بتلذذ ومتعة! فينسل تحت الشونة، وأنا في اثره، وتحت مدخل البيت وأخرجه من هناك واضربه واضربه حتى تبلبل ببوله، ولم يعد يعوي، بل يولول ويوحوح... وعند ذلك أخذته على يدي... - وابتسم بولوفتسيف بطرف فمه بنوع من الشعور بالذنب وبارتباك - أخذته، وانفجرت باكياً بكل قوتي راثياً له، حتى تمزقت نياط قلبي! وحصلت لي رخصة... جاءت أمي راكضة، فرأتني راقداً على الأرض قرب العربة ارفس برجلي... ومنذ ذلك الحين لم أعد أطيق الكلاب. أما القطط فمولع بها تماماً. والأطفال الصغار أيضاً. أحبهم جداً، الى حد المرض. ولا اتحمل دموع الأطفال، فان أحشائي كلها تتقلب، حين أسمع بكاءهم... وأنت، يا شيخ، هل تحب القطط ام لا؟

هز ياكوف لوكيتش رأسه نفيماً، وهو في غاية الدهشة من هذه المشاعر الانسانية البسيطة التي يظهرها سيده، ومن حديثه غير الاعتيادي، وهو الضابط الكهل المجرب المعروف حتى في الحرب الالمانية بقسوته في معاملة القوزاق. صمت بولوفتسيف قليلاً، وعلت وجهه قساوة، وسأله بجفاف هذه المرة، وبطريقة صاحب عمل:

- منذ زمان لا يوجد بريد؟

- الآن وقت فيضان، والمنخفضات كلها مملوءة

بالمياه، والطرق مقطوعة. ومنذ اسبوع ونصف لم يرد أي بريد.

- ألم تسمعوا في العزبة شيئاً عن مقالة ستالين؟
- أية مقالة؟
- الصحف نشرت مقالته عن الكولخوزات.
- لا، لم نسمع. الظاهر أن هذه الصحف لم تصل إلينا بعد... وماذا جاء فيها، يا الكسندر انيسيميتش؟
- آوه، ضحالة... انها لا تهكم. طيب، اذهب، ونم: وبعد ثلاث ساعات ارو الحصان. وغداً في الليل احصل لنا على حصانين من الكولخوز، سنخرج الى فويسكوفوي حالما يحل الظلام. المسافة قصيرة، فلا تحتاج الى سرج.
- في الصباح ظل بولوفتسيف يتحدث طويلاً مع لاتيوفسكي الذي صبحا من سكره، وبعد الحديث خرج لاتيوفسكي الى المطبخ شاحباً محنقاً.
- لعلك تحتاج الى كسر خمار البارحة؟
- سأله ياكوف لوكيتش بملاطفة، ولكن لاتيوفسكي نظر في نقطة فوق رأسه، وقال بوضوح:
- الآن لست بحاجة الى شيء. وذهب الى حجرة الجلوس، وانكفاً على السرير.
- كانت خفارة اسطبل الكولخوز في تلك الليلة لايفان باتالتشيكوف احد الذين استمالهم ياكوف لوكيتش الى «اتحاد تحرير الدون». ولكن ياكوف لوكيتش لم يخبر حتى هذا بمقصدهما والغاية من سفرهما. فقد رد على سؤال باتالتشيكوف بمراوغة: «عملنا يقتضي السفر الى مكان قريب». ولم يتردد هذا، وفك حصانين من أجود الخيول. قاد ياكوف لوكيتش الحصانين من وراء سقائف الدريس الى أجمة بتولا حيث ربطها هناك، وذهب لاستدعاء بولوفتسيف. وحين اقترب من باب حجرة الجلوس سمع لاتيوفسكي يصيح: «ولكن هذا ليعني هزيمتنا، افهمني!» ورد بولوفتسيف على ذلك بصوته العالي النبرة. دق ياكوف لوكيتش الباب بهدوء يعذبه الاحساس بوقوع مصيبة.

حمل بولوفتسييف سرجاً، وخرج الاثنان. وفكا الحصانين. وانطلقا في عدو سريع. وعبرا النهر وراء العزبة خوفاً. التزم بولوفتسييف الصمت طوال الطريق، وقد منع التدخين، وأمر بأن يسيرا على بعد ما يقرب من خمسين ذراعاً عن الطريق.

كانوا في انتظارهم في فويسكوفوي. كان كوخ القوزاقي من معارف ياكوف لوكيتش يضم حوالي عشرين شخصاً من أهل هذه العزبة، معظمهم من كبار السن. صافح بولوفتسييف الجميع، ثم ابتعد بواحد منهم الى احدى النوافذ، وظل يتحدث معه همساً خلال خمس دقائق. وكان الآخرون ينظرون صامتين مرة الى بولوفتسييف، ومرة الى ياكوف لوكيتش. الذي كان جالساً قرب العتبة شاعراً بالضياع والحرج، وهو بين قوزاق لا يعرفهم الا قليلاً...

كانت النوافذ قد عميت من الداخل باسدال الخيش، باحكام، وأغلقت الصفاقات، وكان نسيب صاحب البيت يحرس في الفناء، ومع ذلك فقد أخذ بولوفتسييف يتحدث بصوت خافض:

— حسناً، أيها السادة القوزاق، الساعة قريبة! وعهد عبوديتنا يقترب من النهاية، ويجب ان نتحرك. ومنظمتنا القتالية على أهبة الاستعداد. سنهجم بعد غد ليلاً. ستأتي اليكم في فويسكوفوي فصيلة من خمسين فارساً، ومن الطلقة الأولى يجب أن تنطلقوا، وتباغتوا أولئك... رجال الدعاية والتحريض... في بيوتهم. فلا يخرج واحد منهم حياً! وأنا اعهد قيادة جماعتكم الى الضابط الخورونجي الثاني ماريك. وانصحكم بأن تخططوا قبيل الهجوم شرائط بيضاء على قبعاتكم، حتى لا تخطوا بين رجالكم والغرباء. ويجب أن يكون لكل واحد في هيئة الاستعداد حصان وكل ما يملك من سلاح، — سيف. او بندقية وان تكن بندقية صيد — ومؤنة من الطعام تكفي لثلاثة أيام. وبعد أن تصفوا رجال الدعاية والتحريض وشيوخكم المحليين تندمج

جماعتكم بفصيلة الفرسان التي ستأتي لمساعدتكم. وتنتقل القيادة الى أمر الفصيلة. و بأمره تتحركون حيث يسير بكم - واطلق بولوفتسيف زفرة عميقة، واخرج من وراء حزامه أصابع يسراه السميكة ومسح العرق على جبينه بظاهر كفه، وتابع بصوت أعلى - جاء معي من غريمياتشي لوغ القوزاقي المعروف لكم جميعاً، وأحد أفراد فوجي ياكوف لوكيتش اوستروفونوف. وهو سيؤكد لكم استعداد غالبية سكان غريمياتشي الى السير معنا نحو الهدف العظيم، الا وهو تحرير الدون من نير الشيوعيين. هيا، تحدث، يا اوستروفونوف!

وجعلت نظرة بولوفتسيف الثقيلة ياكوف لوكيتش يرفع جسمه من مقعده. نهض ياكوف لوكيتش بخفة شاعراً بالثقل في كل جسمه، وبسخونة في حلقومه المتيبس، الا انه عفي من مؤونة الكلام، فقد سبقه احد المجتمعين وهو أكبرهم سناً، قوزاقي، وعضو في مجلس الكنيسة، والوصي الدائم على مدرسة الكنيسة في فويسكوفوي. اذ نهض مع ياكوف لوكيتش وسأل دون أن يدعه يتكلم:

- وانت، يا صاحب النبالة، السيد الضابط، هل سمعتم عن... أقصد قبل وصولكم عقدنا ندوة بيننا... وصلت جريدة مهمة جداً...

سأله بولوفتسيف بصوت مبجوح:

- ما... ذا؟ ماذا تقول، يا جد؟

- أقول جاءت جريدة من موسكو، منشورة فيها رسالة لرئيس عموم الحزب...
- سكرتيره!

صحح له أحد المتجمهرين قرب الموقد.

- اي، نعم، سكرتير عموم الحزب، الرفيق ستالين. وهذه هي، بتاريخ اثنين الجاري - كان العجوز يتكلم بتؤدة، وبصوت شائع اخرج من جيب سترته الداخلي جريدة طويت بعناية طيات اربعاً - كنا نقرأها بيننا بصوت عال،

قبل مجيئكم بوقت قصير و... الخلاصة أن هذه الجريدة تضع حدوداً بيننا وبينكم... الخلاصة ان لنا، نحن المزارعين، طريقاً في الحياة يختلف عن طريقكم. يوم أمس سمعنا بهذه الجريدة، واليوم صباحاً ركبت حصاني، ورغم كبر سني، انطلقت الى الدسكرة. وعبرت مخاضة ليفشوف وتجشمت ما تجشمت، ولكنني عبرتها. وطلبت من احد معارفي في الدسكرة واستحلفته بالمسيح أن يشتري لي هذه الجريدة، ودفعت ثمنها. خمسة عشر من الروبلات دفعت! وبعد أن اشتريتها عرفت ان سعرها المحدد هو خمسة كوبيكات! لا يهم، سيجمع لي الناس هذا المبلغ، عشرة كوبيكات من كل بيت. وهذا ما فعلناه. ولكن الجريدة تستأهل هذا المبلغ، ان لم يكن اكثر...

- عم تتكلم، يا جد؟ ما لك تشرق وتغرب؟ هل اخرف عقلك من الهرم؟ من الذي فوضك أن تتكلم باسم جميع الحاضرين هنا؟ - سأل بولوفتسييف ورعشة الغيظ تخالط صوته.

عند ذاك خرج من الجمع الواقف عند الجدار، قوزاقي قصير القامة يدل مظهره على أنه في نحو الاربعين من العمر، له شاربان ذهبيان قصيران، وانف مفلطح، وأخذ يتكلم بغيظ متحد:

- لا تشخط في شيوخنا، أيها الرفيق الضابط السابق، شخطت فيهم بما فيه الكفاية في العهد البائد. تعجرفتم في الماضي وكفي، والآن يجب أن تتكلموا بلافاظظة. صرنا، في عهد السلطة السوفيتية، لا نألف هذه المعاملات، مفهوم؟ وشيخنا صدق حين قال باننا عقدنا ندوة فيما بيننا، وبسبب هذه المقالة في جريدة «برافدا» قررنا أن نمتنع عن القيام بتمرد. طريقنا وطريقكم اختلفا تماماً! السلطة في عزبتنا ارتكبت حماقة، حين جرت بعض الناس الى الكولخوز، وجعلت الكثير من متوسطي الفلاحين كولاكا، والذي لم تفهمه سلطتنا هو أنك تستطيع أن تسير فتاة واحدة بالحماقة، ولكن لا تستطيع أن تسير الناس كلهم.

وهذا رئيس سوفيت قربتنا ألجم افواهنا، حتى لم نستطع أن نقول كلمة ضده في الاجتماع. وشد السيور علينا حتى اختنقت أنفاسنا، بينما السائق الجيد يرخي العنان لفرسه إذا سار في الرمل أو في طريق صعب، ويسعى لتسهيل المهمة عليه... طيب كنا من قبل نتصور بالطبع، أن هذا الأمر صادر من المركز، ليعتصرونا، وتصورنا أن هذه الدعاية جاءت من ناحية اللجنة المركزية لحزب الشيوعيين، وقلنا لأنفسنا «طاحونة الهواء لاتسير بدون ريج» ولهذا السبب عزمنا على التمرد، ودخلنا في «اتحاد» كم. هل فهمتم؟ بينما يتضح الآن أن ستالين ينتقد بشدة أولئك الشيوعيين المحليين الذين ساقوا الناس الى الكولخوز عنوة، وأغلقوا الكنائس بدون ترخيص، ويعفيهم من مناصبهم. ويعني ذلك أن المزارع يتنفس الصعداء، والسيور ترخي عنه فمن أراد أن ينضم الى الكولخوز أنضم، ومن أراد أن يبقى فلاحاً مستقلاً، بقي مستقلاً. ولهذا قررنا أن ننهي الأمر معكم والتي هي أحسن، فاعطونا العرائض التي وقعناه لكم لحماقتنا، واذهبوا الى حيث تشاؤون، ولن نصيبكم بأذى، لأننا نحن انفسنا لم نخل من خطيئة. اقترب بولوفتسيف من النافذة، واسند ظهره الى عضادتها، وشحب لونه حتى لحظه الجميع، ولكن صوته رن قوياً حامياً جافاً، حين سأل مجيلاً بصره في الجميع:

- ما هذا، يا قوزاق؟ خيانة؟

- كما تشاء - اجابه شيخ آخر - سمه كما تشاء، ولكن طريقنا الآن غير طريقك. ومادام ولي الأمر صار يدافع عنا، فلماذا نحرف، اذن؟ ها أنذا قد حرمت من التصويت بدون سبب، وارادوا أن ينفوني، ولكن ولدي في الجيش الأحمر، ومعنى ذلك أنني سأسترد حقوقي وصوتي. لسنا ضد السلطة السوفيتية، ولكن ضد التجاوزات في العزبة بينما تريد أنت أن نثقل ضد السلطة السوفيتية بأسرها! لا، هذا لا يناسبنا! أعد لنا عرائضنا، مادامنا نطلب ذلك بالحسنى.

وتكلم قوزاقي كهل آخر، وهو يمسد بيده اليسرى
لحيته الجعداء بحركات سريعة:

– اخطأنا، يا رفيق بولوفتسيف... وحق الرب
اخطأنا! أخطأنا بالاختلاط معك، ولكن لا بأس في المحاولة،
وبعد الآن سنكون متعقلين... في المرة الماضية سمعناك
تعدنا بجبال من الذهب، وأندهشنا من وعودك الخيالية هذه!
ورحت تقول طوال الوقت ان حلفاءنا – عندما نشور –
سيمدوننا حالا بالسلاح والعتاد. وليس علينا إلا أن نقتل
الشيوعيين. وبعد ذلك أخذنا نتروى في المسألة، فماذا
استنتجنا؟ انهم سيرسلون لنا الاسلحة، فهذا لا يكلفهم
كثيراً، ولكنهم سينسلون الى ارضنا؟ ينسلون بحيث لا
تخرجهم الا بعراك! وقد نضطر الى أن نطردهم من الارض
الروسية بالسلاح. والشيوعيون من أهلنا، من صلبنا، اذا
صح القول، اما اولئك فالشيطان يعرف بأية لغة يتكلمون،
وهم متكبرون جميعاً، ويبخلون عليك بحفنة من الثلج في
عز الشتاء، واذا وقع أحد بأيديهم فلا ينتظر رأفة منهم! في
عام عشرين كنت في الخارج، وأكلت الخبز الفرنسي في
غاليبالي، وما كنت أمل بأنني سأتلخص من هناك! خبزهم
مرير الطعم جداً. وقد رأيت الكثير من الاقوام في زماني،
وأقول لك صراحة ليس هناك أرق قلباً من الشعب الروسي.
في القسطنطينية وفي اثينا عملت في الموانئ، وشاهدت
الانجليز والفرنسيين. حين يمر بك وغد سافل حسن
الهندام يرميك بنظرة شزاء ويتقرز من النظر اليك لأنك
غير حليق، قدر كالتراب، وتصدر منك رائحة العرق
الكريهة. بينما هو مثل حصان الضابط منظم ومشذب حتى
عجيزته، ولهذا يتكبر، ويستتكف منا. وكان بحارتهم
يتحارشون بنا في الجانات، وبأقل عذر يدخلون في ملاكمة
معنا. ولكن فتياننا من الدون وكوبان قد تعودوا على
البلدان الغريبة، فاخذوا يكيلون لهم الصاع صاعين! –
وابتسم القوزاقي، ولمعت اسنانه في لحيته كشفرة مزرقه –
يأتي أحد فتياننا، فيضرب ضربته الروسية، ليسقط

الانجليزي رأسه قبل رجليه، وينطرح ممسكاً رأسه بيديه، متقطع الأنفاس. القبضة الروسية صعبة عليهم، فهم رخوون، رغم أنهم يأكلون جيداً. نحن تذوقنا هؤلاء الحلفاء، وعرفناهم بالتجربة! لا، يا حضرة؟ سنتصالح مع سلطتنا على نحو ما، ولا حاجة الى نشر غسيلنا خارج البيت... ارجو أن تعيد لنا عراضنا!

وكان ياكوف لوكيتش يقول لنفسه وهو يتلمل على المسطبة، مثبتاً بصره في بولوفتسيف: «سيطر الآن من النافذة، وابقى أنا لوحدي، كجراد البحر على الساحل. بأية ورطة وقعت!.. آه، يا أمي العزيزة، في أية ساعة نحس ولدتني! ربطت نفسي بملاعين! وسوست بي روح شريرة!». بينما ظل بولوفتسيف يقف هادئاً عند النافذة، ولكن الشحوب الذي كان يشيع في وجنتيه تحول الآن الى زرقة غيظ وتصميم. وانتفخ على جبينه عرقان سميكان عرضيان، وكانت يدها تتشبثان بافريز النافذة لتبارحانها. - طيب، ايها السادة القوزاق، الأمر متروك لكم. نحن لانح، اذا كنتم لا تريدون أن تأتوا معنا، ولا نترجي. أما العرائض فلا أردھا، فهي ليست معي، بل في مقر الأركان. ثم لا حاجة الى التخوف، فأنا لن أذهب الى الدائرة السياسية لأبلغ بأنكم.

- وليكن كذلك، - وافقه أحد الشيوخ...

واذا ببولوفتسيف الذي كان حتى ذلك الحين يتكلم ببطء وخفوت، يصرخ بأعلى صوته:

- لا حاجة الى أن تخافوا من الدائرة السياسية... وعليكم ان تخافوا منا! سنرميكم بالرصاص كخونة! والآن، تنحوا عن طريقي!.. تراجعوا! الى الجدران! - واختطف المسدس، وأمسكه بذراع ممددة، واتجه نحو الباب.

تراجع القوزاق مصعوقين. أما ياكوف لوكيتش الذي كان قد سبق بولوفتسيف، فقد فتح الباب بكثفه، وانقذف الى الرواق مثل حجر مقذوف بمقلع.

فكا حصانيهما في الظلام، وانطلقا من الفناء في عدو سريع. ترامي من البيت لفظ أصوات منفعلة، ولكن أحداً لم يخرج، ولم يحاول أحد من القوزاق أن يوقفهما.

* * *

بعد أن عاد بولوفتسيف الى غريمياتشي لوغ، استدعى الى حجرته ياكوف لوكيتش الذي كان قد ارجع الى اسطبل الكولخوز الحصانين المتصببين عرقاً من العدو السريع. ولم يخلع بولوفتسيف عنه فروته القصيرة، ولا قبعته القوزاقية بل أمر لاتيوفسكي، حال دخوله، بالاستعداد للسفر، وقرأ الرسالة التي جاء بها رسول خيال، قبيل وصولهما بوقت قصير، وأحرقها في الموقد وأخذ يدحس أمتعته في عدول فرسه.

عندما دخل ياكوف لوكيتش الحجره وجده جالساً الى الطاولة. وكان لاتيوفسكي ينظف مسدسه الماوزر بارق العينين، ويجمع الاجزاء المدهونة بزيت البندقية بحركات سريعة دقيقة. أنزل بولوفتسيف كفه عن جبينه، لدى سماعه صريق الباب، وادار وجهه الى ياكوف لوكيتش، فرأى هذا، الدموع لأول مرة تسيل من عيني الضابط المحمرتين الغائضتين، ولمح قصبه أنفه العريضة تلمح مبتلة بالدموع.

- أبكي على فشل قضيتنا... هذه المرة... - قال بولوفتسيف بصوت صдах، وخلع قبعته الفرائية البيضاء بحركة واسعة ونشف بها عينيه. - صار الدون فقيراً الى القوزاق الاصائل، وغنيا بالأوباش، بالخونة والأوغاد... سنرحل الآن، يا لوكيتش، ولكننا سنعود! تلقيت الآن هذه الرسالة... القوزاق في توبيانسكوي وفي دسكرتي أيضا رفضوا التمرد... ستالين ضللمهم بمقالته... آه، لو يقع في يدي الآن... لو يقع... - وقرقر شيء في حلقوم

بولوفتسيف وتحشرج، واختلجت المضائغ تحت وجنتيه، وتقلصت اصابع يديه الضخمتين وانضمت بقبضتين متشنجتين الى حد انتفاخ المفاصل، وزفر بولوفتسيف زفرة جشء عميقة، وفك اصابعه ببطء، وابتسم بأحد طرفي فمه - أي قوم هؤلاء! حقراء!.. حمقى، ملعونون من الرب!.. انهم لا يفهمون أن هذه المقالة خداع قدر، مناورة! ولكنهم يصدقون... كالأطفال. أوه، يا لحقارة العالم! يلعبون بهؤلاء الحمقى لعبة سياسية كبيرة، كما يلعبون بسمكة واقعة في شص، ويرخون لهم المشدات حتى لا يموتوا اختناقاً، فيأخذون ذلك مأخذ الجد... ولكن، لا بأس! سيدركون، ويندمون، ولكن بعد فوات الأوان. سنرحل، يا ياكوف لو كيتش، وليحفظك المسيح على الضيافة وكل شيء. وهذه وصيتي لك: لا تترك الكولخوز، وألحق بهم الضرر بكل وسيلة، وأبلغ كل الذين كانوا في «اتحاد»نا بكلمتي الثابتة هذه: نحن نتراجع في الوقت الحاضر، ولكننا لا ندحر. وسنعود من جديد، والويل، عند ذلك، لمن يتخلى عنا، ويخون قضيتنا العظيمة... قضية تحرير الوطن والدون من حكم اوزاع العالم! قل لهم: سيدفعون الثمن موتاً بسيوف القوزاق.

فهمس ياكوف لو كيتش: «سأقول» وقد تأثر بكلام بولوفتسيف ودموعه، ولكنه كان في قرارة نفسه مسروراً جداً بخلاصه من نزليه الخطرين، وبانتهاء هذا كله هذه النهاية الطيبة، وبأنه منذ الآن لم يعد يجازف بجلده وبما يملك.

- سأقول، - كرر وتجراً على ان يسأل: - والى أين راحل، يا الكسندر انيسيميتش؟
فسأل بولوفتسيف محترساً:
- ولم تريد أن تعرف؟
- ربما تحتاج، أو يأتي شخص يسأل عنك.
هز بولوفتسيف رأسه، ونهض:

- لا، لا استطيع أن اخبرك بذلك. ولكن توقعني، بعد حوالي ثلاثة اسابيع. مع السلامة. - ومد اليه يده الباردة.

اسرج الحصان بنفسه، وتفحص برزعة الظهر بعناية، واحكم شد السيور، وكان لاتيوفسكي قد توادع مع ياكوف لوكيتش في الفناء، ودس في يده ورقتين. فسأله ياكوف لوكيتش:

- هل ستسير ماشياً؟

- لأخرج من فناءك فقط، وفي الشارع تنتظرنى سيارتي الخاصة - قال الملازم مازحاً، ولم تكن عزيزته قد خلت بعد، وأخذ بسير الركاب وهو ينتظر أن يمتطي بولوفتسيف حصانه - انطلق، يا أمير، الى معسكر الاعداء، أما أنا فلا اظنني سأتحلف عنك في السير على قدمي. رافق ياكوف لوكيتش ضيفيه حتى الباب الخارجي، وبشعور عميق بالفرج بعد الشدة أغلق الباب بالمزلاج، ورسم علامة الصليب وبشروود بال اخرج من جيبه الورقتين النقديتين اللتين اعطاها لاتيوفسكي له، وحاول طويلا في ظلمة ما قبل الفجر أن يخمن قيمتهما، ويعرف باللمس والخشخشة هل هما مزورتان ام لا.

الفصل الثامن والعشرون

في صباح العشرين من آذار جلب الساعي الى غريمياتشي لوغ الجرائد التي تأخرت بسبب الفيضان، وفيها مقالة ستالين «دوار النجاحات». وطافت النسخ الثلاث من جريدة «مولوت» كل البيوت خلال النهار، وفي المساء تحولت الى مزق متسخة مبللة مهلهلة. ان أية جريدة خلال تاريخ غريمياتشي لوغ كله لم تجمع حولها ما جمعته تلك الجريدة من المستمعين في غضون يوم واحد. قرأها الناس جماعات مجتمعة في البيوت، والازقة، وفي الافنية، وفي دهاليز الشون... كان احدهم يقرأ بصوت عال،

والآخرون يستمعون، خائفين أن تفلت كلمة منهم، ملتزمين الصمت المطبق. وكان الجدل ينشأ في كل مكان حول المقالة، وكان كل واحد يفسرها بطريقته الخاصة، الغالبة حسب ما تهوى. وإينما ظهر ناغولنوف أو دافيدوف كانت الجريدة دائماً تقريباً ولسبب ما، تنقل بعجالة من يد الى يد لتطوف في المجتمعين كالطائر الأبيض، حتى تستقر بعد ذلك في جيب عريض من جيوب أحد المجتمعين.

وكان بانيك المنتصر أول من خمن قائلاً:

– الآن ستتفتق الكولخوزات كالهدم الرث.

فرد ديمكا اوشاكوف عليه:

– الغث يذهب جفاء، والأصيل يبقى.

قال بانيك في غل:

– احذر أن يحصل العكس، بالمقلوب.

وانصرف مسرعاً يهمس في مكان آخر الى أناس اكثر

وثوقاً: «خفوا للخروج من الكولخوز، ماداموا قد أعلنوا

تحرير الاقنان!»

– المزارع المتوسط الحال يقوم بحركة بهلوانية:

رجل في الكولخوز والرجل الاخرى مرفوعة في الهواء عسى

أن تسنح الفرصة ليقفز ثانية من الكولخوز الى النظام

القديم.

كان بافلو ليوبشكين يقول ذلك للبائع الشاري مشيراً

الى المزارعين المتوسطين – الكولخوزيين يتحدثون

بحيوية.

أما النسوة اللواتي لم يفهمن الكثير من الأمور فقد

انشغلن بالتخمينات والظنون على عاداتهن النسوية.

– انهم يحلون الكولخوزات!

– جاء أمر من موسكو باعادة الابقار الى أصحابها.

– سيعيدون الكولاك، ويضمونهم الى الكولخوزات.

– سيعيدون حق التصويت للذين جردوهم منه.

– سيفتحون الكنيسة في توبيانسكوي، والبذور

المخزونة هناك ستوزع على الكولخوزيين للطعام.

ولاحث في الأفق ارهاصات احداث كبيرة. وكان الجميع يحسون بذلك. وفي اجتماع مغلق للخلية الحزبية عقد في المساء قال دافيدوف متنرفزاً:

- مقالة الرفيق ستالين جاءت في وقتها تماماً! انها اصابنا ماكار، على سبيل المثال، في الصميم لأن النجاحات ادارت رأس ماكار كما ادارت رؤوسنا قليلاً. فاطرحوا اقتراحاتكم، أيها الرفاق، عما ينبغي أن نفعله لتقويم الأمور. حسناً، لقد اعدنا الطيور الى اصحابها، وقد أدركنا ذلك في الوقت المناسب، فماذا نفعل بخصوص الاغنام والأبقار؟ كيف نتصرف معها؟ هذا هو سؤالنا لكم. نحن، اذا لم نعالج ذلك معالجة سياسية صحيحة، فإن ذلك، في الحقيقة سيكون كالانذار. وكأننا نقول للناس «لينج من يستطيع النجاة!» و «أهربوا بجلودكم من الكولخوز!» وسيهرب الناس، ويأخذون الماشية كلها معهم، ونبقى نحن بلا شيء، لا اكثر ولا أقل!

كان ناغولنوف آخر من جاء الى الاجتماع، فنهض، وتفرس في دافيدوف بعينين دامعتين مترعتين بالدم وشم دافيدوف رائحة الفودكا القوية تفوح منه:

- تقول أن هذه المقالة أصابتنني بالصميم! نعم، ونفذت الى النخاع وخرجت من الجانب الآخر! ولكن رأسي لم يدر، حين انشأنا الكولخوز، بل الآن، بعد هذه المقالة...

فانبرى فانيوشكا نايدونوف يقول بخفوت:

- بعد زجاجة من الفودكا دار رأسك.

ابتسم رازميوتنوف، ورمش بتعاطف. احني دافيدوف رأسه فوق المنضدة، بينما نفخ ماكار ناغولنوف منخريه الشاحيين، ولمعت الضراوة في عينيه الكدرتين:

- انت أصغر من أن تعلمني وتوجه لي الملاحظات، أيها الأرعن. لقد حاربت أنا في سبيل السلطة السوفيتية، وكنت عضواً في الحزب، حتى قبل أن تلحق صرتك أن تجف... نعم، بالضبط! أما أنني شربت اليوم، فهذه

حقيقة، كما تعود دافيووف أن يقول. وليس زجاجة واحدة، بل زجاجتين!

فتدخل رازميوتنوف وقال بجهامة:

– وجدت ما تفخر به! لهذا أنفلت لسانك بالهذر... نظر ماكار صوبه بمؤخر عينه، ولكن صوته صار أكثر خفوتاً، وكف عن التلويح بيده، بلا داع بل ضمها الى صدره بقوة، وبقي واقفاً بهذا الوضع حتى نهاية خطابه الحار غير المترابط.

– انت تكذب، يا اندريوشكا، لم يفلت الآن هذر من لساني. وقد شربت لأن مقالة ستالين هذه نفذت في كالرصاصة، وفار الدم الملتهب في شراييني... – وارتعش صوت ماكار، وصار أكثر خفوتاً – أنا سكرتير الخلية هنا، أليس كذلك؟ وكنت أحض الناس، وأحضكم، يا شياطين، على جمع الدجاج والبط، أليس كذلك؟ ثم كيف كنت أروج للكولخوز؟ سأقول لكم كيف كنت أقول لهذا او ذاك من الأوغاد، رغم أنهم محسوبون ضمن الفلاحين المتوسطين: «لاتريد ان تنضم الى الكولخوز؟ انت ضد السلطة السوفيتية، اذن؟ في عام ١٩١٩ كنت تحاربنا، وتقاوم، والآن أيضاً تقف ضدنا؟ طيب، لا تتوقع مني مهادنة وسأقضي عليك قضاء يجعل كل شياطين الأرض ترتجف هلعاً!» هل كنت أقول ذلك؟ نعم، كنت أقول! بل وكنت أضرب الطاولة بالمسدس. أنا لا أنكر! وان لم اكن أقول ذلك لكل الناس، حقاً، بل لبعضهم، لأولئك الموغورة صدورهم ضدنا بشكل خاص. أنا الآن لست سكران، فلا تفوهوا بهذه السخافة ارجوكم. ولكن هذه المقالة اخرجتني عن اطواري، وبسببها شربت لأول مرة بعد ستة اشهر من الانقطاع. ماهي هذه المقالة؟ هذه مقالة كتبها رفيقنا ستالين وهي، بالنسبة لي، أنا ماكار ناغولنوف، رفسة اصابتني فطرحتني أرضاً، فأنا مرمرى مسحوق مسربل بالوحل... فكيف هذا؟ يارفاق! أنا موافق على أنني انحرفت يساراً في قضية الدجاج وغيره من الحيوانات...

ولكن، يا اخوان، يا اخوان، عن اي شيء انحرفت؟ لماذا تعلقون على رقبتي رقعة تروتسكي وتشدونني معه؟ فهل أنا احث معه في محراث واحد؟ وانت، يا دافيدوف، طوال الوقت كنت تلومني في وجهي على انني تروتسكي يساري. ولكنني لست متعلماً مثل تروتسكي، ولست من أولئك المتعلمين الذين ينمون كالزوائد الغضروفية في جسد الحزب، بل أنا من الحزب قلباً ودماً.

– تكلم في الموضوع، يا ماكار! ما هذه كثرة الكلام والوقت ثمين؟ لاوقت لنا. قدم الاقتراحات لتصحيح اخطائنا المشتركة والا فانت مثل تروتسكي: «أنا في الحزب، أنا والحزب...»
صرخ ماكار:

– دعوني أتكلم – واحمر، وضغط يده اليمني على صدره اكثر – أنا أتبرأ من تروتسكي. اهانة ان اوضع معه في صعيد واحد! لست خائناً، واحذرکم مسبقاً بأن من يصفني بالتروتسكي سأضربه على بوزه! سأسحق عظامه! واذا كنت قد أخذت يساراً في قضية الدجاج، فليس ذلك بسبب تروتسكي، بل لأنني كنت استعجل مجيء الثورة العالمية، لانني كنت اريد بذلك أن أعجل واكون اكثر شدة على البرجوازية الصغيرة. فان ذلك سيكون خطوة اقرب في الطريق الى تحطيم الرأسمالية العالمية! طيب؟ لماذا انتم ساكتون؟ والآن من أنا في ضوء مقالة الرفيق ستالين؟ ان هذا ما جاء في قلب هذه المقالة – وأخرج ماكار من جيب فروته القصيرة جريدة «برافدا» ونشرها، وأخذ يقرأ ببطء: – «من بحاجة الى هذه التشويهات، الى هذا التوجيه المكتبي للحركة الكولخوزية من قبل الموظفين، هذه التهديدات الحقيرة للفلاحين؟ لا أحد غير اعدائنا! الى أي شيء يمكن أن تؤدي هذه التشويهات؟ الى تقوية اعدائنا، والى الانتقال من أفكار الحركة الكولخوزية. أليس واضحاً أن مؤلفي هذه التشويهات المسمين أنفسهم بـ «اليساريين» يصبون الماء، في واقع الامر، في

طاحونة الانتهازية اليمينية؟» وهذا يعني، قبل كل شيء، أنني موظف صاحب توجيهات، ومؤلف وانتقصت من الكولخوزيين وصببت الماء لأدير طاحونة الانتهازيين اليمينيين. وكل ذلك بسبب اغنام ودجاج ملعونة الى أبد الآبدين! ولأنني اربعت بعض البيض السابقين الذين تلكأوا في الدخول الى الكولخوز. هذا غير صحيح! لقد كنا ننشئ وننشئ الكولخوزات، والمقالة تنفخ في بوق الانسحاب. لقد كنت أقود كوكبة الخيالة ضد البولونيين وضد فرانغل، وأعرف: اذا بدأت في هجوم فلا تستدر عائداً في منتصف الطريق.

- أراك قد انطلقت بكوكبتك اكثر من اللازم - قال رازميوتوف عبوساً، وكان في الآونة الاخيرة، مؤيداً متحمساً لدافيدوف - ثم ارجوك أن تنتهي، يا ماكار. يجب أن تدخل في صلب الموضوع! وحين تنتخب سكرتيراً للجنة المركزية يمكنك أن تركب رأسك وتنطلق في الهجوم. ولكنك الآن جندي نفر، فالتزم بالنظام، والا أصدرنا توبيخاً بحقك!

- لا تقاطعني، يا اندريه! أنا امثل لأي أمر من الحزب، وأنا لا اتوي من كلامي هذا أن أعارض حزبي العتيد، بل أريد له الخير! لقد كتب الرفيق ستالين: يجب مراعاة الظروف المحلية، هكذا؟ اذن، لماذا تقول، يا دافيدوف، أن المقالة تعينني في الصميم؟ فهل هي تذكر صراحة أن ماكار ناغولتوف مؤلف وموظف؟ ربما هاتان الكلمتان لا تعنيانني على الاطلاق؟ ولو جاء الرفيق ستالين الى غريمياتشي لوغ لقلت له: يا رفيقنا العزيز جوزيف فيساريينوفيتش! هل انت تعارض توجيه تحذير للفلاحين المتوسطين؟ هل أنت تشفق عليهم، وتريد أن تستميلهم بالملاطفات؟ اذا كان الفلاح المتوسط منضوياً الى القوزاق البيض في العهود السابقة، ومتشبهاً حتى الآن بالملكية الى حد لا يصدق، فاي موضع الحس له ليدخل الكولخوز،

وتسرع الثورة العالمية بالاقتراب؟ وحتى لو انضم الفلاح المتوسط هذا الى الكولخوز فانه لن يستطيع التخلي عن الملكية، ويسعى دائماً الى تقديم احسن العلف الى مواشيه، هذا هو! طيب، واذا كان الرفيق ستالين، بعد أن يرى هؤلاء الصنف من الناس، سيصر من جديد على أنني اقوم بتشويهات، وانتقص من الكولخوزيين، فسأقول له رأساً وبصرامة: «ليباركهم الشيطان، اذن، يا رفيق ستالين، أنا لا استطيع أن أواصل بسبب صحتي التي بددتها في الجبهات. فأبعثني الى الجبهة الصينية، فسأكون هناك انفع للحزب، واترك اندريوشكا رازميوتنوف يكلخز في غريمياتشي. فهو أليّن ظهراً، ويستطيع أن يحنيه للبيض السابقين بشكل ممتاز... كما يستطيع ان يذرف الدموع أيضاً!».

- لاتتحارش بي، فأنا أيضاً استطيع ان اتحارش بك...

- أوه، كفي! يكفي لهذا اليوم - ونهض دافيدوف واقترّب من ماكار تماماً، وسأله في برودة غير مألوفة في صوته - رسالة ستالين، يا رفيق ناغولنوف هي خط اللجنة المركزية. هل أنت غير موافق على الرسالة؟ لا.

- وتعترف باخطائك؟ فأنا، مثلاً، أعترف باخطائي. فالانسان لا يستطيع أن يتغاضى عن الحقيقة، ولا أن يقفز أعلى من قامته. وأنا لا اعترف فقط بأننا ذهبنا بعيداً في تعميم الماشية الصغيرة، العجول، بل وسأصحح اخطائي. لقد انغمرنا كثيراً في النسبة المئوية للكلخزة، رغم أن لجنة المنطقة تتحمل جزءاً من الذنب في هذا، ولم نقم الا بعمل ضئيل جداً في تقوية الكولخوز فعلياً. هل تعترف بذلك، يا رفيق ناغولنوف؟ اعترف.

- اذن، ما المسألة؟

- المقالة غير صحيحة.

راح دافيدوف لدقيقة واحدة، يمسد بكفيه مشمع الطاولة الوسخ، ولسبب ما أدار فتيلة المصباح الذي كان يشتعل باعتدال والظاهر أنه كان يحاول أن يتغلب على انفعاله، ولكنه لم يستطع.

- أنت، ناشف المخ، شيطان!.. لو كنت في مكان آخر لطرودك من الحزب على أقوالك هذه! نعم، حقيقة! هل فقدت عقلك أم كيف؟ طيب، اذا كنت لا تتوقف عن... عن... معارضتك هذه في الحال، فسنفعل بك.. حقيقة! لقد تحملنا عندياتك بما فيه الكفاية، ولكن اذا كنت تعني ذلك جدياً، فتفضل. سنبلغ لجنة المنطقة رسمياً بوقوفك ضد خط الحزب.

- بلغ! أنا نفسي ساخبر لجنة المنطقة. وسأتحمل مسؤولية بانيك وكل الاشياء الأخرى دفعة واحدة...

هدأ دافيدوف قليلا، وهو يصغي الى صوت ماكار الضائع، ولكن الغيظ لم يفارقه كلياً. قال، وهو يهز كتفيه: - اسمع، يا ماكار! اذهب، وخذ غفوة، وبعد ذلك

سنحدث معك بشكل ملموس. والا فسيكون مثلنا ومثلك كالثور الابيض في الحكاية الشعبية: «ألم نخرج سوية؟» «خرجنا...»، «ألم نعر على فروة؟» «عثرنا»، «طيب، تعال نقسم الفروة حسب اتفاقنا»، «أي فروة؟»، «طيب، ألم نخرج سوية؟»، «خرجنا...» وهكذا الى ما لا نهاية. فانت تقول انك تعترف باخطائك، وبعد ذلك مباشرة تعلن أن المقالة غير صحيحة. عندئذ باية اخطاء تعترف، اذا كانت المقالة غير صحيحة في رأيك؟ أنت في بلبلة، حقيقة! ثم من أي وقت صار سكرتير و الخلايا عندنا يأتون الى اجتماعات الخلايا في حالة سكر؟ ما هذا، يا ناغولنوف؟ هذه جريمة حزبية! أنت عضو حزبي، ونصير أحمر، وحامل وسام الراية الحمراء، واذا بك تتصرف هذا التصرف... هذا نايدينوف، الكومسومولي، ماذا يمكن أن يتصور من المثل الذي تضربه؟ ثم ان يصل الى لجنة الرقابة الحزبية خبر سكرك، وفي مثل هذا الاجتماع المهم، فان ذلك سيعني

بالنسبة لك، يا ناغولنوف، حقيقة مؤسفة. فانك، لن تكون سكرتير خلية، بل ولا عضواً في الحزب. فاعلم ذلك! وأنا اقول لك ذلك كحقيقة - ومرر دافيدوف يده على شعره، وصمت قليلا، شاعراً بأنه مس ماكار في موضع حساس، ومضى يقول: - لا حاجة لأن نشير الجدل حول المقالة. فانت بطريقتك لن تستطيع أن تقلب الحزب، فقد كسر الحزب شوكة من هم اقوى منك، وجعلهم يخضعونه له. فكيف لا تفهم هذا!

- كف عن تضييع وقتك معه! دردشت طوال ساعة كاملة. اتركه يذهب لينام. اذهب، يا ماكار! حري بك أن تخجل من نفسك. انظر الى وجهك في المرأة، وسترتعب: البوز منتفخ، والعينان كعيني كلب مسعور، فلماذا جئت الينا بهذا الشكل؟ اذهب! - وقفز رازميوتنوف، وهز ماكار من كتفه بحدة، الا أن هذا رفع يده من كتفه بحركة رخوة مينة، وتقوس أكثر...

وفي الصمت المرهق نقر دافيدوف على الطاولة باصابعه. كان فانيوشكا نايدينوف ينظر طوال الوقت الى ماكار، والابتسامة المتحيرة على شفثيه. فطلب:

- لئننا الموضوع، يا رفيق دافيدوف.

فعادت الحيوية الى دافيدوف فقال:

- حسنا، يا رفاق، أنا اقترح ما يلي: أن نعيد الماشية الصغيرة والابقار الى الكولخوزيين، على أن نقنع الذين أعطوا بقرتين أن يبقوا بقرة واحدة في حظيرة الكولخوز العامة. وغداً منذ الصباح يجب ان نعقد اجتماعاً، ونقوم بعمل توضيحي. ويجب أن نركز كل جهدنا الآن على التوضيح. أخشى أن يبدأ الفلاحون بترك الكولخوز، بينما نحن على ابواب الخروج للعمل في الحقول... هنا اثبت جدارتك، يا ماكار! اقنعهم بأن لا يتركوا الكولخوز، فسيكون ذلك عملاً أصيلاً! طيب، هل سنصوت؟ هل نصوت على اقتراحي؟ من معه؟ هل ستمتنع، يا ماكار؟ هذا ما سنسجله: «مع امتناع صوت واحد...»

اقترح رازميوتنوف البدء بمكافحة السوائل منذ الغد. وتقرر تعبئة قسم من الكولخوزيين للقضاء على هذه القوارض، من بين أولئك الذين لا يخرجون الى اعمال الحقول، وتخصيص بعض أزواج الثيران لهم لجلب الماء، والطلب الى مدير المدرسة المعلم شبينيا أن يخرج بالتلاميذ الى الحقل للمساعدة في اصطياد هذه القوارض.

كان دافيدوف طوال الوقت لا يحسم أمره في سره: هل يضغط على ماكار؟ هل يطرح مسألة محاسبته حزيباً على معارضته لمقالة ستالين، وعلى عدم رغبته في التخلص من الاخطاء «اليسارية» التي وقع فيها اثناء العمل لتأسيس الكولخوز؟ غير أنه قرر في نهاية الاجتماع، بعد أن نظر الى وجه ماكار العرق الشاحب شحوب الموتى بالعروق المنتفخة على صدغيه: «لا، لا حاجة! سيدرك من تلقاء نفسه. فلأتركه يعي دون ضغط. أنه مرتبك الفكر، ولكنه مخلص جداً... وفوق ذلك مرضه... النوبات. لا، خير ان نتغاضى عن هذا الأمر!».

أما ماكار فقد ظل حتى نهاية الاجتماع جالساً في صمت، لا يترك انفعاله يقلت منه الى الخارج. ولم يلحظ دافيدوف اثناء نظره اليه الارعشة قوية سرت مرة واحدة كالموجة القوية في يديه المرتمتين على ركبتيه بارتخاء.

همس دافيدوف لرازميوتنوف:

— خذ ناغولنوف لينام عندك، واحرص على أن لا يشرب.

فهز هذا رأسه موافقاً.

عاد دافيدوف الى بيته لوحده. كان بعض القوزاق جالسين على سور متهدم قرب بيت لوكاشكا تشيباكوف، منخرطين في حديث ناشط. كان دافيدوف يسير في الجانب المقابل من الشارع، وحين حاذاهم سمع من الظلام شخصاً غريباً عليه يقول بصوت عالي النبرة واثق، بسام:

— «...قليل عليهم مهما قدمت، ومهما دفعت! فيقول

آخر: «في الحال نما للسلطة السوفيتية جناحان: يسار ويمين. فمتى تنطلق وتطير عنا الى حيث ما...».

وترامى ضحك من اصوات مختلفة، وسكت بسرعة مفاجئة. وصدر همس محذر. - شش!.. دافيدوف!

وإذا بالصوت السابق العالي النبرة يقول بلهجة ممطوطة مفتعلة بجديتها، دون أي أثر للسخرية السابقة: - نعم... أعتقد أننا سنفرغ من البذار قريباً، اذا لا ينزل مطر... الأرض تجف امام اعيننا... طيب، يا اخوان، هل ننام؟ ليلتكم، سعيدة!

سعال، ووقع خطوات...

الفصل التاسع والعشرون

في اليوم التالي قدم ثلاثة وعشرون طلباً للخروج من الكولخوز، ومعظم الخارجين من الفلاحين المتوسطين الذين دخلوا الكولخوز مؤخراً، وكانوا يلتزمون الصمت في الاجتماعات عادة، ويتجاولون دائماً مع المراقبين ولا يخرجون الى العمل الا على مضض. وهم الذين كان ناغولنوف يعينهم بقوله: «وهل يعقل أنهم كولخوزيون؟ هؤلاء لا هم فجل ولا شلغم! لقد خرج في الحقيقة أولئك الذين كانوا ثقلاً زائداً على فرق العمل، والذين صاروا كولخوزيين اما تخوفاً من التورط مع السلطة، واما لمجرد انجرفهم مع المد الجبار والانجذاب الى الكولخوز الذي بدأ منذ كانون الثاني.

وحتى هؤلاء حاول دافيدوف أن يستميلهم لدى تسلمه عرائضهم، وراح ينصحهم بالتروي، وتأجيل الأمر، الا أنهم اصروا على طلبهم، فاستسلم دافيدوف في آخر الأمر قائلاً:

- انصرفوا، يا مواطنون، ولكن ليكن في بالكم أنكم اذا عدتم وطلبتم الانتساب الى الكولخوز مرة أخرى فاننا سنفكر كثيراً قبل أن نقبلكم.

- لا أظننا سنطلب اعادتنا الى الكولخوز! ونأمل أن نعيش بلا كولخوز مرة أخرى.. ثم أننا، يا دافيدوف، قد عشنا بلا كولخوز من قبل، ولم نمت من الجوع، وكنا المتصرفين في ملكيتنا، ولم يشر علينا اوصياء غرباء بأن نحرث هكذا، ونبذر هكذا، ولم نرهن انفسنا عند أحد... ولهذا نعتقد أننا الآن أيضا سنعيش بدون كولخوز ولا نشعر بوحشة!»

قال ذلك نيابة عن الجميع ايفان باتالشيكوف الذي كان الى يوم أمس كولخوزياً، قالها مبتسماً في شاربيه الكستنائيين المفتولين.
فقاطعته دافيدوف قائلاً:

- ونحن أيضا سندبر أمرنا بدونكم، ولا نبكي أو نتفجع على فراقكم، حقيقة! بعض الناس يغادر، ولكن القافلة تسير!

- هذا أفضل أن نفترق بمودة. ولا أحد يتأذى من أحد. هل تسمحون لنا باسترداد ماشيتنا من الفرق؟
- لا، سنطرح هذه القضية أمام ادارة الكولخوز. انتظروا حتى يوم غد.

- ليس لنا وقت للانتظار. أنتم، في الكولخوز، يمكنكم أن تبدأوا البذار بعد عيد العنصرة، اما نحن فقد آن الأوان لنخرج الى الحقل. طيب، سننتظر الى الغد، ولكن اذا أخذتم تماطلون يوم غد، فسنأخذها بانفسنا!

وكان في صوت باتالشيكوف وعيد صريح، فأحمر دافيدوف قليلاً من الغيظ، حين كان يرد عليه.

- سأرى كيف تجسرون على أخذ شيء من اسطبل الكولخوز دون اذن الادارة! اولاً لن نترككم تفعلون، وثانياً اذا فعلتم فسنحاكمكم؟

- على مواشينا؟

- هي الآن مواشي الكولخوز.

وبهذا أفترق دافيدوف مع الكولخوزيين السابقين، دون أقل شعور بالأسف. ولكن طلب ديميد الصموت للخروج

من الكولخوز أثار في نفسه دهشة غير مريحة: جاء ديميد قبيل المساء في حالة سكر شديد، معقود اللسان كما هو دائماً. ودون أن يسلم حشر قصاصة ورق من جريدة شخبطت فيها كلمات تقول في عرض السطور المطبوعة: «دعوني اخرج من الكولخوز».

أدار دافيدوف في يديه عريضة الصموت بكلماتها القليلة، ويسأل بشيء من الحيرة والامتعاض في صوته:
- ما هذا؟

دمدم الصموت:

- اخرج.

- الى أين؟ ولماذا؟

- اقصد، من الكولخوز.

- ولكن لماذا تخرج؟ والى أين تذهب؟

سكت ديميد، ونشر ذراعه بإشارة عريضة.

فترجم رازميوتنوف اشارته:

- الى أرض الله الواسعة؟

- اها!

- ومع ذلك لماذا تريد أن تخرج؟ - حاول دافيدوف

أن يعرف، وقد حيره أن هذا الفلاح الفقير، النشيط

الصموت، يريد الخروج من الكولخوز.

- الناس يخرجون... وأنا مثلهم.

فسأله رازميوتنوف بخفوت، وهو يبتسم.

- طيب، وإذا قفز الناس برؤوسهم من هاوية

فستفعل مثلهم أيضاً؟

- أوه، لا أظن ذلك، يا أخ.

وضحك الصموت ضحكة خافتة. فكانت شديدة الشبه

بدمدمة برميل فارغ.

تنهد دافيدوف، وقال:

- طيب، تفضل اخرج - وتستطيع أن تأخذ بقرتك.

وباعتبارك فلاحاً فقيراً سنردها لك بدون تردد، حقيقة.

أنردها له، يا رازميوتنوف؟

- نعم، يجب أن نردها - قال رازميوتنوف موافقاً،
الا أن ديميد عاد يضحك من جديد ضحكته المكركة الرحبة.
- وأنا أيضاً لست بحاجة اليها... الى البقرة، اهديها
للكولخوز. أظنني سأصير نسيباً لأحد. مارأيكم؟ اظنكم
مندهشين؟

وخرج دون أن يسلم.

نظر دافيدوف من النافذة. كان الصموت يقف جامداً
قرب مدخل البيت. كانت شمس الغروب تغدق اشعتها الحمراء
على ظهره الساكن، ورقبته البنية الجبارة المغطاة بشعر
ذهبي اجعد حتى الياقة. كان فناء الكولخوز غارقاً بماء
الثلج الذائب، يشكل بركة هائلة من مدخل البيت حتى
الشونة. وقد صنعت الأقدام في الثلج الرخو والوحل درباً
يمتد من الدرجات على طول السياج. فكان الناس يدورون
حول البركة، ويسيرون عادة بمحاذاة السياج مستندين
بايديهم الى اعواده. وقف ديميد في استغراق متبلد ثقيل.
ثم تمايل، وسار فجأة في الماء بلامبالاة السكران، واتجه
الى الشونة، يخوض ببطء ويترنح.

راح دافيدوف يراقب باهتمام، فرأى الصموت يتناول
عتلة كانت مركونة عند الحجر، ويتجه نحو البوابة.
- العل هذا الشقي نوى أن يخربنا؟ - قال رازميوتنوف،
وهو يتقدم من النافذة، وضحك. وكان دائماً يعامل الصموت
بمودة وحنان، ويكن الاحترام البالغ لقوته الجسدية
الجبارة.

فتح الصموت البوابة، وانزل العتلة على كومة ثلج
متصلب بقوة شديدة اطارت قطعة هائلة من القشرة الجليدية.
تزن اكثر من مئة رطل. وتساقط على البوابة وابل من
القطع الصغيرة، وسرعان ما تدفق الماء من الفناء في
المجرى الذي صنعتها العتلة.

قال رازميوتنوف، وهو يمسك بكتف دافيدوف ويشير
الى الصموت:

- ان هذا الرجل سيعود ثانية الى الكولخوز. لاحظ

وضعاً غير اعتيادي، فاصلحه، ومضى في حال سبيله
يعني أن قلبه بقي في كولخوزنا. أليس صحيحاً؟

* * *

بعد وصول الجرائد الى المنطقة تحمل مقالة ستالين
ارسلت لجنة المنطقة لخلية غريمياتشي توجيهاً موسعاً
يتحدث بشكل غامض ومعمر عن القضاء على آثار
الانحرافات. وكان كل شيء يشير الى أن المنطقة في حالة
من البلبلة التامة، ولم يظهر أحد من رئاسة المنطقة في
الكولخوزات، ولم ترد لجنة المنطقة الحزبية ولا الاتحاد
الزراعي للمنطقة عن استفسارات اللجان المحلية حول ما
ينبغي عمله بخصوص ملكية الخارجين من الكولخوزات.
ولم تتحرك لجنة المنطقة الا بعد أن تلقت قرار اللجنة
المركزية حول «مكافحة تشويهات سياسة الحزب في الحركة
الكولخوزية». فتدفقت على غريمياتشي لوغ أوامر تقضي
بأن توضع على وجه السرعة قوائم بأسماء الذين صودرت
ملكياتهم من الكولاك، وبأن تعاد الى الكولخوزيين الماشية
الصغيرة والدواجن المشاعة، وينظر من جديد في قوائم
الذين جردوا من حق التصويت. وفي الوقت ذاته وصل
استدعاء رسمي بأن يمثل ناغولنوف أمام اجتماع مشترك
لمكتب لجنة المنطقة الحزبية ولجنة الرقابة للمنطقة في
الساعة العاشرة من صباح ٢٨ آذار.

الفصل الثلاثون

خلال اسبوع خرج حوالي مائة بيت. وحصل تقلص شديد
بشكل خاص في فريق العمل الثاني، حيث لم يبق غير
تسعة وعشرين بيتاً، من بينهم بعض الأشخاص «المؤهلين
للهرب» على حد تعبير رئيس الفريق ليوبشكين.
وهزت العزبة احداث واحداث. وكان كل يوم يجلب

لدافيدوف متاعب جديدة. قدم الى الاتحاد الزراعي للمنطقة والى لجنة المنطقة الحزبية استفساراً ثانياً عما اذا كان يجب تسليم حيوانات الجر والادوات الزراعية الى الخارجين من الكولخوز حالا أم بعد البذار، فجاءه أمر صاعق كان معناه يتلخص في أن يسعى المسؤولون في غريميا تشي بكل ما لهم من جهد ووسيلة لتفادي انهيار الكولخوز، والحيولة دون خروج اكبر عدد من الكولخوزيين، وتأجيل كل التسويات مع الخارجين بما في ذلك اعادة ممتلكاتهم، الى الخريف.

وبعد وقت قصير وصل الى غريميا تشي رئيس قسم الارض في المنطقة، وعضو مكتب لجنة المنطقة الحزبية بيغليخ. وتعرف على الوضع بعجالة (فقد كان عليه أن يطوف بعدة سوفيتات قروية في ذلك اليوم) وأعلن:

- في كل الاحوال لاتردوا الماشية والادوات الزراعية الآن الى الخارجين، انتظروا الى الخريف. وعند ذلك نرى. حاول دافيدوف أن يعترض قائلاً:

سيهجم الناس على مخانيقنا.

وبيغليخ رجل حازم وصلب، فاكتمى بالابتسام.

- وانت أيضاً اهجم على مخانيقهم. في الحقيقة يتوجب أن نردها لهم بالطبع، ولكن هناك توجيهها من لجنة الاقليم: لاترد الا في الحالات الاستثنائية مع الالتزام بالاساس الطبقي.

- يعني؟

- طيب، يجب عليك أن تعرف هذا بدون «يعني»! أن ترد الى فقراء الفلاحين، ويوعد المتوسطون منهم بأن ترد لهم في الخريف. مفهوم؟

- ألا يحصل يا بيغليخ، ما حصل لمسألة المائة بالمائة من الكلكزة؟ فقد كان هناك توجيه أيضاً من لجنة المنطقة «الوصول بالكلكزة الى مائة بالمائة بأسرع وقت ممكن، ومهما كلف الأمر». فكانت النتيجة دواخاً في الرأس... الامتناع عن رد الماشية الى الفلاحين المتوسطين يعني

التضييق عليهم. أليس كذلك؟ فبأي شيء سيحرثون ويبدرون؟

- ولا يهكم. لا تفكر في الفلاح المستقل، بل في كولوخوزك. بأي شيء ستشتغل اذا اعطيتهم الماشية؟ ثم أن هذا ليس توجيهنا، بل توجيه لجنة الاقليم، ونحن، بوصفنا جنود الثورة، ملزمون على الأخذ به كلية. فكيف ستنفذ خطتك اذا سينقل خمسون بالمائة من الماشية الى الفلاحين الافراد؟ بلا كلام ولا مناقشة! تمسك بالماشية باسنانك ويديك. واذا لم تنفذ خطة البذار سنقطع رأسك.

وبعد أن استقر في عربته قال على الماشي: على العموم صد... ع... بة! سيتعين دفع ثمن هذه الانحرافات، يا أخ. التضحية بأحد الناس... هذا هو المتبع. رجالنا المسؤولون في المنطقة موغورون ضد ناغولنوف بشراسة. ما هذا الذي فعله هنا؟ ضرب أحد الفلاحين المتوسطين، واعتقله، وهدده بالمسدس. حدثني ساموخين بذلك. لديه دعوى كاملة ضده. نعم، ظهر أن ناغولنوف «يساري» على نطاق واسع. وهل تعرف اي اتجاه الآن؟ العقاب الى حد الطرد من الحزب! طيب مع السلامة. احرص، احرص على الماشية!

غادر بيغليخ الى فونيسكوفوي. وقبل أن تجف الرياح اثار عجلات عربته جاء اغافون دوبتسوف رئيس الفريق الثالث يركض منفعلا:

- يا رفيق دافيدوف! اخذوا مني الثيران والخيول. انتزعوها بالقوة!

صرخ دافيدوف محمراً:

- كيف انتزعوها؟

- ببساطة جداً! حبسوا حارس الاسطبل في مستودع التبن، وفكوا الثيران وساقوها الى السهب. ثمانية عشر زوجاً من الثيران، وسبعة خيول. ماذا سنفعل؟

- وانت؟ رحمت تفرج عليهم؟ اين كنت؟ لماذا تركتهم يفعلون ذلك؟ الى أين أخذك الشيطان... ها؟!

ظهرت بقع مبيضة على وجه اغافون المجدر، ورفع صوته ايضاً.

- لست ملزماً لك بأن ابات في الاسطبل أو في مستودع التبن! فلا تصرخ بي! واذا كنت شجاعاً للغاية، اذهب واسترجع الثيران! فقد تحصل على طعنة في ظهرك! وقبيل المساء فقط استطاعوا اعتراض الثيران في السهب، في المرعى الذي ساقها اصحابه اليه تحت حراسه مشددة. ليوبشكين واغافون دويتسوف ومعهم ركب ستة كولخوزيين من الفريق الثالث انطلقوا بخيولهم في السهب وحين رأى ليوبشكين الثيران ترعى على المنحدر المقابل للوهدة، قسم فصيلته القليلة العدد الى قسمين:

- يا اغافون، خذ ثلاثة، وانطلق في عدو سريع عبر الوهدة، والتف من الجناح الأيمن، أما أنا فسأطوقهم من اليسار - ومسد ليوبشكين شاربيه الفاحمين، وأوعز - عنانك! ورائي انطلق... هو هو هو!

ولم يمض الأمر بدون عراك. كان زاخار ليوبشكين ابن عم بافل ليوبشكين يحرس الثيران مع ثلاثة من الكولخوزيين السابقين، فاستطاع أن يمسك ميشكا اغناتيونوك من قدمه، اثناء وثوب هذا على الثيران، وأوقعه عن حصانه، وبعد مصارعة قاسية خاطفة على الأرض ترك عليه كدمات زرقاء في مواضع كثيرة، وجعل قميصه مزقاً. خف بافل ليوبشكين لنجدة، وبينما كان يضرب ابن عمه بسوط الركوب السميك الطويل، تغلب الآخرون على الرعاة، وامسكوا الثيران، وساقوها الى العزبة عدواً.

أمر دافيدوف أن تغلق مخازن التبن والاسطبلات بالاقفال ليلاً، وأن يوضع له حراس من الكولخوزيين. ومع ذلك، وعلى الرغم من الاجراءات المتخذة لحراسة الماشية استطاع الكولخوزيون السابقون أن يستولوا، خلال يومين، على سبعة ازواج من الثيران، وعلى ثلاثة خيول ويسوقوها الى منخفضات بعيدة في السهب، واوكلوا أمر رعيها الى غلمان، حتى لاينكشف الكبار، اذا غابوا.

كان الناس متجمعين في ادارة الكولخوز وسوفيت القرية من الصباح حتى المساء. فقد ظهر خطر جدي في أن يستولي الخارجون من الكولخوز على الاراضي الكولخوزية.

راح هؤلاء يطالبون دافيدوف:

- اما أن تخصص لنا قطعة من الارض حالا، أو نبدأ

بحرث أراضينا القديمة.

فكان دافيدوف يهدئهم قائلاً:

- سنخصص لكم الأرض، فلا تقلقوا، أيها الفلاحون

الافراد. غداً سنبدأ بذلك. راجعوا أوستروفونوف، فهو

الذي سيشرّف على هذه المسألة، حقيقة!

- أين ستخصص لنا؟ أية ارض؟

- اينما تكون شاغرة.

- قد تكون الشاغرة في اقصى العزبة، فكيف

عند ذلك؟

- لا تتحایل علينا، يا رفيق دافيدوف! الاراضي

القريبة كلها تابعة للكولخوز. فهل تريد ان تكون الاراضي

البعيدة من نصيبنا؟ تحرمننا من الماشية فهل نحرث الأرض

مركبين المحارث على أنفسنا وعلى ابقارنا، واطافة على

ذلك تريد أن تفرض علينا الاراضي البعيدة؟ آه، اي حكم

عادل هذا!

وكان دافيدوف يستميلهم ويشرح لهم بأنه لا يستطيع

أن يخصص الأرض لكل فرد، في المكان الذي يحلو له، لأنه

لا يستطيع أن يجرى أراضي الكولخوز، ويمزقها الى قطع

صغيرة، ويحطم النظام المتبع في الارض. فكان الخارجون

من الكولخوز يصخبون وينصرفون، وبعد عدة دقائق كانت

تأتي جماعة أخرى، ومن عتبة الباب:

- أعطونا أراضي! ما هذا منكم؟ بأي حق تحتفظون

باراضينا؟ تمنعوننا من البذار! طيب، ماذا كتب الرفيق

ستالين عنا؟ نستطيع أيضاً أن نكتب له أنكم ليس فقط

لا تعطوننا الماشية، بل والأرض أيضاً، وقد جردتمونا من

كل الحقوق والأموال. لن تسلموا منه في هذه المرة أنتم أيضاً.

- ياكوف لو كيتش، خصص لهم في الغد أرضاً وراء بركة راتشي.

فيصرخ الخارجون:

- هذه أرض بكر؟

فكان ياكوف لو كيتش يوضح:

- متروكة، وليست أرضاً بكرًا. كانت تحرث، ولكن

منذ زمان، منذ حوالي ١٥ عاماً.

فكان يرتفع على الفور صياح صاحب عارم:

- لا نريد أرضاً صلبة!

- بأي شيء سنحرتها؟

- اعطونا أرضاً لينّة!..

- ردوا لنا الماشية، وبعد ذلك سنحرت الأرض

الصلبة!

- سنرسل الرسل الى موسكو، الى ستالين!

- لماذا تقضون على حياتنا؟

وكانت النسوة يظهرن عراמתهن. وكان القوزاق

يساندونهن على طول وبطيخ خاطر. وكان التغلب على

الضجة يتطلب جهوداً كثيرة. وكان دافيدوف عادة يفقد

رباطة جأشه في نهاية الأمر، ويصرخ.

- تريدون أن نعطيكم أحسن الاراضي؟ لن يكون هذا،

حقيقة! السلطة السوفيتية تقدم كل الافضليات للكولخوزات،

وليس للذين يعارضون الكولخوزات. ولوا من هنا، الى

حيث!..

أخذ الفلاحون الأفراد هنا وهناك يحرثون ويعالجون

الأرض التي كانت في حوزتهم سابقاً ثم ضمت الى الاراضي

الكولخوزية. اقصاهم ليوبشكين عن حقول الكولخوز، بينما

طلع ياكوف لو كيتش الى السهب ومعه ذراع خشبي، وخلال

يومين حدد قطعاً من الارض للفلاحين الأفراد.

في ٢٥ آذار خرج فريق ديمكا اوشاكوف لحرثة الارض الرملية. وضع دافيدوف أحسن الكولخوزيين قدرة على العمل تحت تصرف العاملين في الحقول، ووزع القوى العاملة أنضم اغلب الشيوخ الى فرق العمل طوعية ليعملوا على البذارات والمحاريث وآلات تفتيت الأرض. فقد تقرر الاستغناء عن البذار اليدوي. وحتى العجوز الهرم - «حاضن الدجاج» السابق اكيم بيسخليبنوف - ابدى رغبته في العمل على بذارة. وعين دافيدوف الجد شوكار سائساً في ادارة الكولخوز. وتهاياً كل شيء. ولكن البذار تأخر بسبب أمطار ثقيلة ظلت تهطل بغزارة طيلة يومين فانقعت روابي غريمياتشي، والحقول المحروثة التي كانت تتغطى في الصباحات بنقاب ايض من الابخرة.

وتوقف الخروج من الكولخوز. وبقيت النواة الصلبة المعول عليها. وكانت مارينا بياركوكا عشيقة اندريه رازميوتنوف آخر من ترك الكولخوز في غريمياتشي لوغ. فانهما، لسبب ما، لم يستطيعا العيش سوياً. انحرفت مارينا الى العبادة، وصارت تقية، وأدت الصوم الكبير كله، وفي الاسبوع الثالث راحت كل يوم تذهب الى كنيسة توبيانسكري لتؤدي الصلاة، وتقدم القربان، وتعترف. وكانت تتلقى تقريرات اندريه بصمت وخنوع، ولا ترد على شتائه، وتلتزم السكوت أكثر فأكثر، لا تريد أن «تدنس القربان» وذات مرة جاء اندريه الى البيت في ساعة متأخرة من الليل، فرأى قنديلا مشتعلًا في حجرة الجلوس. فدخلها دون تفكير كثير، ورفع القنديل، وسكب زيت الخشب على راحته، وذلك به حذائه الطويل المتصلب بعناية، وحطم القنديل ودعكه.

- مرة بعد المرة قيل للبله أن ذلك أفيون وغشاوة للحقول. ولكن بلا فائدة! مازالت الصلوات تزجي للالصنام الخشبية، ويحرق الزيت، ويستهلك الشمع على الشموع... عسى السوط أن يلهب جلدك، يا مارينا. ان لترددك على الكنيسة ذو مغزى...

وهذا ما كان بالفعل. فقد قدمت مارينا في الخامس والعشرين طلباً للانسحاب من الكولخوز، مستندة على أن الانضمام الى الكولخوز «خروج على طاعة الرب».

سأل ليوبشكين مبتسماً:

- والنوم مع اندريوشكا على سرير واحد أليس خروجاً على طاعة الرب؟ أم ذلك اثم لذيذ؟

التزمت مارينا الصمت في هذه المرة، دون أن يخامرها شك، على ما يبدو، في ان خشوعها سيتفجر بعد لحظات، وأنها... «ستدنس قربانها المقدس» بلسانها.

جاء اندريه راكضاً من سوفيت القرية وهو شاحب محنق ومسح العرق بكمه من جبينه ذي الندبة، وتوسل بحضور دافيدوف وياكوف لو كيتش:

- مارينا! يا عزيزتي! لا تهلكيني، ولا تلحقني بي العار! طيب، لماذا تخرجين من الكولخوز؟ ألم أحبك وأحذب عليك انت، ايها الشيطانة؟ وأعدنا لك البقرة... فماذا تريدين اكثر؟ كيف استطيع بعد هذا أن اشاطرك الحب، اذا كنت تسعين الى حياة انعزالية؟ ردوا لك الطيور والدجاج والديك الصياح... والبطة الهولندية التي ذرفت عليها الدموع، وهي الآن تسرح في بيتك. فاي شيء اكثر؟ استرجعي طلبك!

- لا ولا! - صاحت مارينا بحنق، وهي تخاوص عينيها الحولاوين - لا أريد، لا أريد، فلا تترج! لا أريد أن أكون في الكولخوز! لا أريد ان اشترك في خطيئتك! فأعد لي عربتي ومحراثي.

- مارينا، افريقي على نفسك! والا فساأضطر الى هجرك!

- الى جهنم، ايها الشيطان الأشقر! يا فاسق، يا كلب ملعون! ترمش، ايها الجنى المعتوه؟ تبخلق بعينيك المسعورتين؟ من كان يقف مع مالاشكا ايغناتيونكوف في الزقاق الليلة البارحة؟ أليس أنت؟ أوه يا ابليس، يا ابن

الكلب! اهجرني، أقدر أن أعيش بدونك. انت تنوي على ذلك منذ زمان!

- مارينا، يا تفاحتي، من أين جاءتك هذه الفكرة؟ مع أي مالاشكا؟ لم أقف معها طوال حياتي! ثم ما علاقة الكولخوز في هذا؟

وأمسك اندريه رأسه بين يديه، وسكت والظاهر أنه استنفد كل حججه. وتدخل ليوبشكين مغتاضاً:
- لا تتخضع لهذه الوقحة، ولا تتوسل لها، وحافظ على إباءك. فانت نصير أحمر، فلماذا تترجأها، وتعاملها؟ اصفعها على بوزها! حطم غطرسها، وستلين في الحال!
تبقع وجه مارينا ببقع قرمزية، فقفزت كالملدوغة، وهجمت على ليوبشكين طالعة بصرها الضخم، محرقة كتفيها العريضتين، وطوت كميها كالرجل، كالملاك.

- لماذا تتدخل فيما لا يعنك، أيها الحشرة النتنه؟ أيها الغجري الفطير، أيها الصنم الأسود القبيح! أنا التي ستصفعك على بوزك قبل أن تجرباً انت! أنا لا أخاف كونك رئيس فريق! رأيت الكثير من أمثالك فرميتهم ورائي!

- أنا الذي سأرميك! وأفري شحمك... - زعق ليوبشكين بصوته القوي متراجعاً في زاوية، متهيئاً لشتى المفاجآت المنغصبة.

فقد كان يتذكر جيداً كيف أن مارينا صارعت ذات مرة في الطاحونة في توبيانسكوي قوزاقياً ضليعاً في مظهره من قوزاق وراء الدون، وطرحته أرضاً وسط دهشة الحاضرين الشديدة. بل وهرسته هرساً، وقرصته بلاذع الكلام، اذ قالت وهي تلتقط أنفاسها: «لست صالحاً لأن تعتلي امرأة، يا عم! وكل ما لديك من قوة وقيافة لا يكفي الا لأن تنكفيء على وجهك وتولول كالخنزير». وسارت الى الميزان معدلة خلال سيرها، شعرها، والمندبل الذي سرح اثناء مصارعتها. وتذكر ليوبشكين أيضاً الحمرة القانية التي

شاعت في وجنتي القوزاقي حين نهض هذا على قدميه، وقد تلتخ بالطحين والروث المتناثرين على الأرض. ولهذا دفع ليوبشكين الآن يده اليسرى الى الأمام معكوفة عند المرفق، وقال محذراً:

- لا تثبي، والا فسأجعل منك طحيناً، والله! اخرجي من هنا!

- وانت لم تشم هذا؟.. - ورفعت مارينا ذيل تنورتها عالياً وهففت به أمام أنف ليوبشكين، فلاحت لثانية واحدة التدويرة الباهتة لركبتيها الورديتين، والبياض المصفر لجسدها القوي المكتنز، بلون الشراب العسلي. وبلغت السميت في عرامتها المتلظية. وحتى ليوبشكين المحنك خطفه جيروت جسد مارينا ونصاعته فتراجع وتمتم مهزوماً:

- تعفرت! أوه، يا شيطانة! مهرة، وليست امرأة! اخرجي، ملعونة ثلاثاً!.. - وأنسل شيئاً فشيئاً أمام مارينا الهائجة الصاخبة، وخرج الى الرواق باصفاً شاماً.

قهقهه دافيدوف بكل حيله حتى سقط رأسه على الطاولة، وتقلصت عيناه. وخرج رازميوتنوف راكضاً في أثر ليوبشكين، وصفق الباب بحدة، ويأكوف لوكيتش وحده حاول أن يعيد الصواب الى زوجة الرقيب الثائرة:

- لماذا تصرخين؟ يا امرأة، يا وقحة!
هل يعقل ان ترفعي ثوبك؟ على الأقل لو خجلت مني، أنا العجوز!

- صه! - صاحت به مارينا، وهي تتجه نحو الباب - أنا أعرف العجوز هذا! ماذا عرضت علي في عيد العنصرة في العام الماضي، حين كنا ننقل الحشيش؟ راح من بالك؟ هل جرحت احساساتك؟ قد تستحق ذلك...

واندفعت في الفناء كالزوبعة. شيعها ياكوف لوكيتش ببصره، وهو يسعل بارتباك، ويهز رأسه مؤنباً.
وبعد نصف ساعة رأى مارينا تشد نفسها الى عريش

عربتها، وتحمل المحراث والمعزقة بيسر خارجة بها من فناء الفريق الأول. وكان ديمكا اوشاكوف الذي غادر الحقل بسبب المطر يسير على مسافة وراءها، والظاهر أنه كان يخشى الاقتراب منها اكثر من ذلك وأخطر، وسأل:

- مارينا، أيتها المواطنة بياركوف! هل تسمعين؟
يا مارينا تيرينتفنا! ليس في مقدوري أن اعيد لك ملكيتك،
ما دامت مسجلة في قائمة فريقي.

- لتقدر!

- ليكن في بالك، أيتها الرأس الناشفة، أنها أدوات مشاعة! فارجو أن ترجعها الى حيث كانت، ولا تتركبي حماقة هل انت انسان ام ماذا، تنهينها نهباً؟ ستقدمين الى المحكمة على هذا النصب! لا اقدر أن اعطي شيئاً بدون اذن من دافيدوف.

ردت مارينا باقتضاب:

- لتقدر!

حولت عينا ديمكا مذهولتين، وانضغطت يدها على صدره بترحم. أما مارينا المتصببة عرقاً والمتوردة الخدين، فقد كانت تجر العربة بلا وني، والمعزقة ترن بصوت شاك في ارتطامها بجانب العربة.

وفكر ياكوف لو كيتش مع نفسه، وهو يتحول الى زقاق جانبي باحتراس: «كان يجب أن تؤخذ منها العربة لتعرف كيف تمسك لسانها. ولكن من يأخذها منها؟ ما ان تمسها حتى تريك نجوم الظهر!»

* * *

في اليوم التالي أخذ رازميوتنوف من عند مارينا حاجياته وبنديته وحزام الخراطيش والاوراق، وحملها الى البيت. ألمه بقسوة انقطاع علاقته بمارينا، فكان يعاني ويتحاشى أن يكون وحيداً. ولهذا الغرض ذهب الى ناغولنوف «ليبدد الوحشة».

كان الليل يهبط على غريمياتشي لوغ، الهلال الفتى المغسول بالأمطار يستقر في طرف السماء الغربي كحز من نور. وكانت العزبة غارقة في صمت موات أسود لا يتخلله الا الهسيس المتقطع للجداول المضطربة. كان اندريه يجرجر قدميه فترسلان بقبقة في الوحل المتصلب في الليل. كان يسير بهدوء، ويفكر في ذات نفسه. وكان الهواء الرطب يحمل روائح بواكير الربيع المثيرة، فقد كانت الارض ترسل أنفاسها الماسخة الممزوجة بشيء من المرارة، وسقائف الدريس تزفر بوغرة القش المتعفن، والحدائق تبعث رائحة النبيذ الحريفة، وبوارض العشب النامي قرب الاسيجة تفوح برائحة حادة فتية مسكرة.

كان اندريه يعب روائح الليل المتنوعة بنهم، وينظر الى النجوم وهي تنعكس في مياه البرك تحت قدميه، وتتقطع، وتفتت الى شرر، وكان يفكر في مارينا، ويشعر بدموع الوحشة والقهر تتلظى وتغلي في عينيه.

الفصل العادي والثلاثون

قبل الجد شوكار بفرح شديد تعيينه حوزياً متفرغاً لادارة الكولخوز. قال له ياكوف لو كيتش وهو يسلمه مهرين من خيول الكولاك السابقة بقيتا في الادارة لتستخدما في تمشية اعمالها:

- احرص عليهما حرصك على حدقتي عينيك. وليكونا دائماً في حالة جيدة، ولا تثقل عليهما ولا تعبهما بالركض الشديد. هذا مهر تيتوك الرمادي اصيل، كما أن الاصهب من خيول الدون النقية الدم. ورحلاتنا ليست كبيرة، وقريباً سنطلقهما مع الأناث. وأنت المسؤول عنهما!

رد الجد شوكار:

- أوه، ارجوك! وهل أنا لا اعرف كيف أتصرف مع الخيول؟ خبرت الكثير والكثير منها في حياتي. مر من بين يدي اكثر مما على بعض الرؤوس من شعر.

والحقيقة أن كل ما «مر بين يدي» الجد شوكار في حياته كلها لا يتجاوز الفرسين، استبدل أحدهما ببقرة، أما الحصان الآخر فقد كانت له القصة التالية: قبل عشرين عاماً، والجد شوكار اثناء عودته من عزبة فويسكوفوي وهو شديد السكر، اشترى الحصان من عجر عابرين بثلاثين روبلا. وحين عاين الفرس، لدى شرائه لها، تبين له أنها مكتنزة اللحم، ناعمة الوبر، مرتخية الاذنين، عوراء العين، ولكنها حيوية جداً. ظل الجد شوكار يماكس مع العجري حتى الظهر. تصافحاً حوالي اربعين مرة، وكانا يفترقان، ثم يعودان فيلتقيان.

- هذه ذهب وليست مهرة! تنهب الأرض نهباً، فلا تراها، حين تغمض عينيك! حاذقة وطير من طيور السماء! - كان العجري يؤكد ويحلف بالله، نائراً اللعاب، جاذباً شوكار المتعب من طرف سترته.

- لا تكاد توجد سن واحدة أصلية في فمها، وفي عينها عور. وكل حوافرها مشققة، وبطنها متهدل... فاي ذهب هي! متاعب ومصائب وليست ذهباً! - كان الجد شوكار يقول هاجياً الفرس، ساعياً بلهفة الى أن يتنازل العجري عن الروبل الأخير الذي اختلفا عليه في السعر.

- وماذا يهمك من اسنانها؟ علفها سيكون اقل. انها ليست فرسا، بل مهرة فتية، قسما بالله. سقطت أسنانها بسبب مرض طارئ... وما أهمية العور في عينيها؟ ثم أن هذا ليس عورا، بل زائدة! أما الحوافر فستنمو، وتصير كالجديدة... الفرس رمادية، وليست بارعة الجمال، ولكنك لن تنام معها في السرير، بل تحرث عليها، أليس صحيحاً؟ ثم أنظر لماذا هي منتفخة البطن. ذلك من القوة! اذا ركضت هزت الأرض هزاً، واذا وقعت لن تستطيع أن ترفعها، اه، يا عم! هل تريد أن تشتري فرس رهان بروبلا تك الثلاثين هذه؟ لا تشتري بها حياً، واذا مات لن ينفعك لحمه الميت... والحمد لله على أن العجري كان انساناً طيب القلب، وبعد المماكسة تنازل عن الروبل الأخير أيضاً، وسلم مقود

الحصان للجد شوكار يدأ بيد، بل تصنع النجيب، ومسح جبينه البني بكم سترته الزرقاء الساطعة الطويلة الذيل وما ان انتقلت الفرس الى يد شوكار حتى فقدت حيويتها السابقة. سارت وراه مستجيبة لجهوده البالغة على مضض، منقلة قوائمها المعوجة بصعوبة. وعند ذلك فقط ضحك العجري كاشفاً عن اسنانه المتراصة البيض كالطباشور، وهتف في اثر شوكار:

- هاي، يا عم! أيها القوزاقي من الدون! تذكر طيبتني! هذه الفرس خدمتني أربعين عاماً، وستخدمك أربعين عاماً أخرى، فقط أن تطعمها مرة في الاسبوع، والا ستعربد!.. أبي جاء عليها من رومانيا، وقد خلفها له الفرنسيون، حين فروا من موسكو. انها فرس نادرة! وصرخ بشيء آخر في اثر شوكار الذي كان يجرجر شروته وراه. فقد كان العجريون الصغار يتصايحون وينطون ويضحكون قرب الخيمة، وعند قدمي العجري سوداً كغربان الزرع. بينما سار الجد شوكار غير ملتفت الى شيء، يفكر بطيبة قلب: «ارى بنفسي أي شروة اشتريت. ولو كانت لدي نقود لما اشتريت هذا. أما العجري فرجل صاحب نكتة ومرح مثلي... وعلاوة على ذلك صار عندي حصان. وفي يوم الأحد سانطلق به مع زوجتي الى السوق الريفية في الدسكرة».

وقبل أن يصل الى توبيانسكوي أخذت العجائب تحدث للفرس... التفت الجد شوكار عرضاً وذهل. لم تكن وراه الفرس المنتفخة البطن المكتنزة التي اشتراها، بل كديشة نحيلة ضامرة البطن، لها غوران عميقان عند وركيها. خلال نصف ساعة نحفت الى النصف. رسم الجد شوكار علامة الصليب، وهمس طارداً الجن: «خير، خير، خير!»، وترك العنان يسقط من يديه، وتوقف، شاعراً بالسكر يزول عنه بلمح البصر. وحين دار حول الفرس اكتشف، عند ذلك فقط، سبب النحول العجيب بسرعته، فقد كان يطلع من تحت ذيل الفرس النحيل المائل الشائل الى الأعلى، على

نحو مخجل، هواء غفن مصحوب بصفير ونشيش، وطرشنة من البراز السائل. أمسك الجد شوكار رأسه وتأوه: «أوه، هذا هو العجب!». ثم جذب الفرس بقوة متضاعفة عشرًا متشبثًا باللجام. ولم يتوقف هيجان معدة الفرس البركاني حتى توبيانسكوي، مخلقة في الطريق آثاراً مخجلة. وكان من الممكن أن يصل شوكار الى غريمياتشي لوغ بسلام، لو كان قد قاد الفرس من مقودها، ولكنه ما كان يجاذي اول بيت في عزبة توبيانسكوي حيث كان يعيش فيها قريبه والعديد من المعارف القوزاق حتى عزم على أن يمتطي صهوة الفرس، لابد ان يمتطيتها ولو كانت تسير ببطء، بدلا من يجرجرها من مقودها. فقد استيقظت فيه فجأة أنفة غير مألوفة مع الرغبة المتأصلة به دائما في ان يتباهى، ويظهر للملأ أنه، هو شوكار، قد تخلص الآن من الفاقة، فهو يمتطي صهوة فرس ملك حلال له، وان كانت رديئة. «هيه! يا ملعونة كفاك تخطراً!» صاح بها شوكار بضراوة، وهو يرى من طرف عينه قوزاقياً معروفاً له يخرج من البيت الذي توقف قبالة. ومع هذه الكلمات جذب العنان، واتخذ هيئة العظمة. ولعل فرسه قد تركت التخطر والتوثب منذ طفولتها البعيدة فلم يدر في بالها، في الحقيقة، ان تتخطر. فتوقفت، واطرقت برأسها، وأطبقت رجليها الخلفيتين. ففكر شوكار: «يجدر بي أن أسير أمام قريبي راكباً، فليمتع بصره!» وقفز، و طرح بطنه على ظهر الفرس الحاد. وهنا حدث له ما صار القوزاق في توبيانسكوي يتحدثون عنه بعد ذلك زمناً طويلا. ففي هذا الموضع بالذات وقع شوكار في خزي ما بعده خزي، وقد بقيت حكايته تروى الى أيامنا هذه، ولعلها ستنقل للخلف القادم... ما كادت قدما شوكار تدفعان الأرض، ويتدلى هو على الفرس منطرحاً عرضاً على ظهرها، محاولا امتطاء صهوتها، حتى ترنحت الفرس، وقرقر شيء في بطنها، واذا بها تسقط على الطريق في المكان الذي كانت تقف فيه، شائلة ذيلها. بسط شوكار ذراعيه الى الأمام، ووقع طائراً في عرض الطريق، منبطحاً على عشب الطريق

المترب. وثب على قدميه مغتاضاً، وحين رأى أن القوزاقي شهد خزيه، حاول أن يصلح الأمر بالصياح: «كفاك صكاً لرجليك، يا معتوهة!» صرخ ضارباً الفرس برجليه. فنهضت هذه، ومدت بوزها الى العشب الذابل وكان شيئاً لم يحصل.

كان القوزاقي الذي راقب شوكار منكتاً كبيراً وممراحاً. قفز عبر السياج، وتقدم من شوكار. «نهارك سعيد، يا شوكار! أراك اشتريت فرساً؟..» «نعم، اشتريت، ولكن يبدو أنني هفوت قليلاً، فوقعت على فرس عنود، الشيطانة. ما ان تمتطيها حتى طوب، وتسقط على الأرض. الظاهر أنها لم تتعود بعد على أن تركب، فرس خام». قلص القوزاقي عينيه، ودار حول الفرس مرتين، ونظر في اسنانها اثناء دورانه، وقال بجديّة تامّة: «بالطبع، فرس خام، ولكنها تبدو من دم نبيل. اسنانها تدل على أنها في الخمسين، لا أقل أبداً، لأنها من دم نبيل لم يستطع أحد السيطرة عليها». حين رأى شوكار تعاطف القوزاقي معه تجرأ على أن يسأله: «قل لي، ايغناطي بورفيريتش، لماذا نحفت بهذه السرعة الشديدة؟ أنا اقودها، وهي تدوب أمام بصري، وتطلع منها ريح منننة، والبراز ينسكب منها مداراً. تركت وراءها خطأً منه على الطريق كله!»، «وانت من أين اشتريتها؟ ربما من العجر؟»، «نعم، منهم، كانت خيامهم منصوبة خلف عزبتكم»، «ولهذا السبب نحفت - وضح القوزاقي العارف بالخيل وبالعجر - لأنهم نفخوها قبل أن يبيعوها لك. مثل هذه الفرس تنحف في شيخوختها، وقبيل بيعها يضعون في شرجها قصبه مجوفة، وتتعاون العشييرة كلها فتنفخها بالتناوب الى أن ينتفخ جنبها، وتتكور بطنها وتصير لها كرش. وبعد ذلك، حين ينفخونها كمثانة الثور، يسحبون منها القصبه في الحال، ويدخلون في مكانها خرقة مبللة بالقطران، أو عرنوس ذرة حتى لا يخرج الهواء وأنت اشتريت مثل هذه الفرس المنفوخة. والظاهر أن السدادة وقعت في الطريق، وأخذت فرسك تنحف... أعد من حيث أتيت،

وفتش عن السدادة. ونحن نستطيع أن ننفخها لك في الحال...» «نفختهم العفاريت...» صاح شوكار في يأس، وانطلق نحو مضرب الفجر. ولكنه حين صعد على رابية لم ير عند الجدول خيمة ولا هودجاً. ليس الا دخان أزرق يتصاعد من نار خابية في الموضع الذي كان فيه المضرب، وفي المدى البعيد يتصاعد على الطريق الصيفية غبار تدرؤه الريح. لقد اختفى الفجر، كما في حكاية اسطورية. وبكى شوكار، وعاد ادراجه. وخرج ايغناطي بورفيريتش الأريحي مرة اخرى من بيته. واقترح قائلاً: «سأسندها من تحت، حتى لاتقع من جديد... من العرامة، فاركبها انت». قبل شوكار هذه الخدمة منه، وهو مسربل بالخجل وأبلوى والعرق. ولكن بلاياه لم يكن قد كتب لها ان تنتهي. لم تسقط الفرس في هذه المرة، ولكنها اندفعت في توثب غير معقول تماما. فكانت، كما هو العادة عند الجري، تلقي قائمتيها الاماميتين الى الامام، ولكنها تثب بالخلفيتين فترفعهما أعلى من ظهرها. وعلى هذا المنوال اندفعت بشوكار الى الزقاق الأول. واثناء هذا التوثب المخبول سقطت من رأس شوكار قبعته وصدر من جوفه حوالى أربع فرقعات كالطلقات بفعل الرجات الرهيبة. «يا الهي! من البلاهة أن اركب بهذا الشكل!..» - عزم شوكار ذلك في سره، وهو يترجل من الفرس اثناء توثبها. وعاد ليلتقط قبعته، الا أنه رأى الناس يسرعون نحوه في الزقاق، فخف هو عائداً ليخرج من العزبة بفرسه المنجوسة التي أظهرت هذه الحيوية المفاجئة في العدو. وظل الصبيان يصحبونه حتى الطاحونة الهوائية، وبعدها تخلفوا عنه. أما شوكار فلم يتجرأ مرة أخرى الى ركوب هذه «البدعة» الغجرية. دار حول العزبة دورة كبيرة على الرابية، ولكنه في الرابية تعب من جر المقود وراءه، فعزم على أن يسوق الفرس امامه. وعندها تبين أن الفرس التي اشتراها بهذا الجهد عمياء بكلتا العينين كانت تسيير على غير هدى، وبدلاً من أن تقفز عبر الحفرات والاخاديد تقع فيها، ثم تستند على

قائميتها الأماميتين المرتعشتين، وتنهض من عثرتها،
متنفساً بصعوبة، وتعاود السير، ولكن ليس ذلك السير
المألوف، بل في دوائر ودوائر... ترك شوكار لفرسه
الجل على الغارب، وقد صعقه هذا الاكتشاف الجديد،
فراها حين تفرغ من رسم دائرة تبدأ في رسم دائرة أخرى،
وهكذا بدون توقف متبعة لولباً غير مرئي. فحدس شوكار
دون معونة أحد أن الفرس التي اشتراها قد قضت حياتها
الكادحة الطويلة تدير ناعوراً، وقد عميت هناك وشاخت.
أطلق الفرس ترعى في الرابية حتى حل المساء، خجلاً
من أن يظهر في العزبة في وضح النهار، وتحت جنح الليل
فقط ساق فرسه الى بيته. أما كيف استقبلته زوجته، وهي
المرأة الضخمة والشديدة في هياجها، وماذا لقي شوكار
الهزيل على يديها بسبب شروته غير الموفقة «فذلك في
علم الغيب» على حد قول الاسكاف لوكاتييف الذي كان
صديق شوكار في ذلك الحين. والشيء الوحيد المعروف
هو أن الفرس سرعان ما اصابها داء الجرب، وتساقط
شعرها، وفي هذا الشكل الدميم لفظت انفاسها الأخيرة ذات
مرة في منتصف الليل، وهي في فناء الدار. وباع الجد شوكار
جلدها، وشرب بضمنه مع صديقه لوكاتييف.

كان الجد شوكار يعرف جيداً، وهو يؤكد لياكوف
لوكيتش بأنه رأى الكثير من الخيول في حياته بأن ياكوف
لوكيتش لا يمكن أن يصدق به، لأن حياة شوكار كلها مرت
تحت بصر ياكوف لوكيتش. ولكن هذا طبع الجد شوكار منذ
البداية: لا يستطيع الا أن يتباهى ويكذب. فقد كانت قوة
قاهرة تجبره على أن يقول ما يستطيع أن ينكره بكل سرور
بعد بضع دقائق من صدور الكلام على لسانه.

ومجمل القول أن الجد شوكار صار حوزياً وسائساً في
الوقت نفسه. ويجب القول أنه كان يقوم بواجباته غير
المعقدة بشكل لا بأس به. والشيء الوحيد الذي لم يعجب
ناغولنوف المحب للسفر السريع هو التوقيفات المتتالفة.
فما ان يخرج الجد شوكار بالعربة من الفناء، حتى يسحب

العنان ويقول «وقوفاً، يا احباب!» فيسأل زاغولنوف: «لماذا توقفت؟» فيرد الجد شوكار: «لضرورة تخص الخيول»، ويظل يصفر حائماً حتى يسحب زاغولنوف السوط من تحت مقعده، وينزل به على ظهر الحصان.

كان الجد شوكار يتباهى قائلًا للقوزاق: «اليوم ليس كما في عهود القيصرية، حين كان الجوزي يجلس على كرسيه فوق والراكب يتمايل مرتاحاً على نضده الوثير خلفه. فأنا اليوم حوذي، ولكنني اجلس الى جانب الرفيق دافيدوف في العربة الصغيرة. وأحياناً أحب أن أدخن، فأطلب اليه: «طيب امسك العنان، ريثما ألف سيكارة» فيجيب «بكل سرور». ويمسك العنان، ويسوق ساعة أحياناً بينما أجلس أنا في عظمة استمتع بالطبيعة». وصار يتخذ مظهر العظمة، بل وصار أقل ميلاً للكلام. ورغم موجات البرد في الربيع انتقل الى النوم في الاسطبل أقرب الى الحصانين، الا أن زوجته العجوز اعادته الى البيت بعد اسبوع، بعد أن ضربته ضرباً مبرحاً، وكالت له الشتائم امام الملاء، جزاء على ما زعم بأن النساء الصغيرات يزرنه في الليالي. وكان بعض الفتيان قد مزحوا معها ودسوا له هذه الكذبة الشنيعة، ولكن الجد لم يحب ان يعترض عليها، وعاد الى البيت، ولكنه كان يخرج مرتين في الليل ليتفقد الحصانين تحت حراسة زوجته الغيور.

وتعلم الجد شوكار شد الحصانين على العربة بسرعة شديدة حتى كان ينافس فريق الاطفاء في غريمياتشي بالسرعة، فما كاد يخرج بالحصانين المتوثبين الضجرين من الاحتباس في الاسطبل ليشدهما على العربة، حتى كان يهدثهما، ويصرخ بها بصوت عال لامحالة: «كفى، كفى، صهيلاً، يا ملعون!.. حتى هذا الذي الى جانبك ليس فرساً، بل زهرة مثلك!» وحين يفرغ من شد الحصانين، ويصعد الى كرسيه، كان يقول في رضى عن النفس: «الآن سنخرج في سفر، ونكسب يوم عمل. هذه الحياة صارت تعجيني، يا جماعة!»

في السابع والعشرين عزم دافيدوف الخروج الى حقل الفريق الأول ليتأكد مما اذا كان الفريق، يعزق الأرض بمحاذاة الأخابد السابقة خلافاً لتعليماته. وكان الحداد ايبوليت شالي قد أبلغه بذلك، بعد أن خرج الى الحقل ليصلح بذارة، ورأى عزق الأرض لا يجري بعرض الأخابد بل بطولها. فذهب الى الادارة حال عودته الى العزبة، فقال بجدة وهو يصفح دافيدوف:

- الفريق الأول يعزق على طول الاخابد. ومثل هذا العزق عديم النفع تماماً. فاذهب بنفسك الى هناك، وأعز لهم بأن يعزقوا كما ينبغي. لقد أشرت لهم بذلك ولكن اوشاكوف، الشيطان الأحول، يقول: «اذهب، شغلك أنت الضرب على السندان، والنفخ في المنفاخ، ولا تدس أنفك هنا، والاحرثناه بالمحراث!» فرددت عليه قائلاً: «سانفخك أنت، أيها الاحول، قبل ان أذهب لأنفخ المنفاخ!» وأوشكنا ان نتعارك.

استدعى دافيدوف الجد شوكار.
- أعد العربة!

ولم يصطبر، فخرج يساعد الجد للتعجيل بشد العربة. وانطلقا بها. كانت السماء الغائمة والنسيم الرطب القادم من الجنوب يعدان بالمطر. وكان الفريق الأول يعمل في أقصى قطعة من الأرض الرملية. وهي تبعد حوالي عشرة كيلومترات من العزبة، وراء الممر، وقرب بركة ليوتي. وكان الفريق يحرث مهيناً الأرض لزراعة الحبوب. وكان من الضروري للغاية عزق الأرض جيداً، لتبقى مياه الأمطار على الأرض المسواة، ولا تنحدر عبر الاخابد الى المنخفض.

- اسرع، اسرع، يا جد! - حث دافيدوف الجد شوكار، وهو ينظر الى تلبد السحب الكثيف.

- ها أنا اسرع. انظر الى الرمادي كيف يخرج الزبد منه.

على الرابعة، غير بعيد عن الطريق كان التلاميذ يسرون في صف واحد يتقدمهم معلمهم العجوز شبين. وخلفهم سارت اربع عربات تحمل براميل الماء. قال شوكار:
- الصغار خرجوا لاصطياد السواقي.

نظر دافيدوف الى الأولاد كاتماً ابتسامته. وحين حاذت العربية الأولاد طلب من شوكار أن يتوقف، وصب بصره، واختار صبياً في نحو السابعة من العمر، اشقر الشعر.

- تعال هنا.

- ولماذا؟ - سأل الصبي بلهجة استقلالية، دافعاً الى علبائه طاقة ابيه ذات الحافة الحمراء، وعلى ظليلتها أثر باهت لرقعة مخلوعة.

- كم سولقا قتلت؟

- اربعة عشر.

- ابن من انت؟

- أنا فيدوت ديميديتش اوشاكوف.

- طيب، اجلس معي. يا فيدوت ديميديتش، آخذك لنزهة. وانت أيضاً - وأشار دافيدوف باصبعه الى فتاة عليها منديل. وبعد جلوس الصبيين أوعز - انطلق! - وخطب الصبي - من أي جماعة انت؟

- من الأولى.

- من الأولى؟ طيب، يجب أن تمسح المخاط من انفك، حقيقة!

- بلا فائدة! أنا مزكوم.

- كيف بلا فائدة؟ هات انفك! - ومسح دافيدوف أصابعه على بنظونه بعناية، وزفر - تعال الى ادارة الكولخوز ذات مرة، وسأعطيك ملبساً أو شوكولاته. هل اكلت شوكولاته ذات مرة؟

- لا...

- طيب، تعال الى زيارتي في الادارة وسأضيفك.
- لست بحاجة اليها. اقصد الى الحلوى!
- كيف هذا! ولم ذلك، يا فيدوت ديميديتش؟
- أسناني تتكسر، والسفلى وقعت. هاك، انظر. -
- وفتح الصبي فمه الوردى، وبالفعل كانت سنان من اسنانه السفلى مفقودتين.
- اذن، فانت أردرد، يا فيدوت ديميديتش!
- انت نفسك أردرد.
- اهوه... لحقت أن تكتشف.
- اسناني ستنمو من جديد. أما اسنانك، فلا
- أظن! ها؟

- غير صحيح، يا أخ! اسناني ايضاً ستنمو. حقيقة.
- حاذق في الكذب! الاسنان لاتنمو عند الكبار. وأنا
- بالعليا استطيع أن اعض، والله!
- لا اعتقد!

- طيب، هات اصبعك! لا تصدق؟
- مد دافيدوف سبابته مبتسماً، وبعد ذلك تأوه، وسحبها.
- ظهرت بقع زرق على السلامة العليا من أثر العضة.
- اقترح دافيدوف:
- والآن هات أصبعك، يا فيدوتكا، لأعضها.
- ولكن فيدوتكا تباطأ، وفجأة قفز من العربة اثناء سيرها، مثل جندب كبير رمادي، وصاح وهو ينط على قدم واحدة:

- أنت تحب العض! ولكن لن ادعك تعضني!..
- ضحك دافيدوف مقهقهاً، وانزل الصيبة من العربة، وظل وقتاً طويلاً ينظر الى طاقة فيدوتكا تتراءى في الطريق بحافتها الحمراء. ابتسم شاعراً بدفء نادر في القلب، ونداوة في العينين. «سنبني لهم حياة طيبة، حقيقة! الآن يرتدي فيدوتكا قبعة ابيه القوزاقية الطراز، وبعد عشرين سنة سيقلب هذه الأرض بمحراث كهربائي. لا أظنه سيضطر الى ما اضطررت أنا الى القيام به، بعد وفاة أمي:

اغسل ثياب اخواتي، وارقع، واحضر الطعام، واجري الى المصنع... أمثال فيدوتكا سيكونون سعداء، حقيقة!» كان دافيدوف يفكر مع نفسه، وهو يجيل بصره في السهب المترامي الاطراف، الطازج الخضرة. ولبرهة تسمع الى صفير صادح لقبرات، وراقب ببصره حارثاً منحنيّاً على محرائه في البعيد، وسائقاً يسوق ثورين على طول اخدود، وهو يتعثر بالقرب منهما. وتنفس بكل صدره: «ستنوب الآلة عن الانسان في كل عمل صعب... وسينسى ناس ذلك الزمان رائحة العرق في اغلب الظن... فيا ليت الانسان يعيش الى ذلك الزمان، عليه اللعنة!.. على الأقل ليلقى نظرة عليه! والا فقد يهلك ولا يتذكره واحد من هؤلاء الفيدوتكيين. وستهلك انت، يا عم دافيدوف من كل بد! وبدلا من الذرية سيبقى منك كولخوز غريمياتشي. ومن الكولخوز تنشأ كومونة و - من يدري - فقد يطلقون عليه، فيما بعد، اسم سيميون دافيدوف أحد خراطي مصنع بوتيلوف...» وابتسم دافيدوف لتحول افكاره نحو بوتيلوف، وسأل شوكار:

- هل سنصل قريباً؟

- شمرة عصا.

- كم من الاراضي تموت عندكم هنا، بلا فائدة.

يا جد! تلك حقيقة مرعبة حقاً! بعد خطتين خماسيتين سنقيم مصانع هنا. وكل شيء ملك لنا، كل شيء في أيدينا، حقيقة! تحمل وعش عشر سنين آخر، وستمسك بيدك مقود سيارة بدلا من عنان فرس، وستدوس على البنزين وتنتقل كالريح! زفر الجد شوكار:

- تأخرت قليلا! ولو جعلوني عاملا قبل اربعين سنة أو نحوها، لكنت الآن انساناً آخر، ربما... لم اوفق في حياتي كفلاح. ومنذ شبابي لم تسر حياتي بخط مستقيم، وهكذا دواليك الى الفترة الاخيرة. فكان ريباً كانت تتقاذفني طوال عمري، تطوح بي ذات اليمين وذات الشمال، أو ترسلني الى جهنم وبئس المصير...:

فاستفسر دافيدوف:

- ولم ذاك؟

- سأقص عليك كل شيء الى الآخر. خل الحصانين. يأخذان مضمارهما وسأحكى لك مصاعبي. ولا بد أن تكون لك مشاعر تعاطف وفهم، وان كنت رجلاً جهماً... لقد وقعت معي وقائع جديدة عدة مرات. تبدأ الحكاية حين ولدت، اذ قالت الداية لأمي: «ابنك حين يكبر يصير جنرالاً. كل المخايل تدل على أنه سيصير جنرالاً. الجبهة ضيقة والرأس كقرعة، والبطن مدور، والصوت عال النبرة. فافرحي، يا ماتروننا!». وبعد اسبوعين سار كل شيء عكس توقعات الداية... صحيح أنني ولدت في عيد يفدوكيا، ولكن الدجاج في ذلك اليوم لم يجد ماء ليشربه من التجمد، ليس هذا فقط بل وأن العصافير، حسب ما قالت أمي، كانت تتجمد وهي طائرة، وعليها العفاء! أخذوني الى توبيانسكري لأعمد. وعليك أن تتصور: أية راحة عقل في تظميس طفل في المغطس في مثل ذلك الطقس البارد؟ أخذوا يسخنون الماء، وكان الشمس والقوس سكرانين، كأى اولاد كلب. صب أحدهما الماء الفائز في المغطس، والثاني لم يجرب مقدار سخونته و «أيها السيد المسيح، واحد من عباد الله قد عمدا!»، ويغطسني الماء الفائز الى رأسي... فانسلخ جلدي! وعادوا بي الى البيت، والبثور تملأ جسمي. وبسببه، بالطبع، اصببت بفتق، فقد كنت اصرخ من الألم، وأوتر نفسي بقوة... ومنذ ذلك الحين لازمني النحس، أنا المريض! وكل ذلك لأنني فتحت عيني فوجدت نفسي في منطقة فلاحية. حتى سن التاسعة كانت الكلاب تمزقني، والوز ينقرني الى حد لا يخطر، وذات مرة رفستني فرس برجلها حتى انطرحت بين الموت والحياة. وبعد التاسعة صارت تحدث لي أحداث اكثر قسوة فأكثر. في سن العاشرة اصطادني شص...

- أى نوع من الشص؟ - سأل دافيدوف مندهشاً، وهو يصغي الى حكاية شوكار بشيء من الاهتمام.

- شص اعتيادي، من ذلك الذي يصاد به السمك. في ذلك الزمن كان يعيش عندنا في غريمياتشي شيخ أصم هرم يدعى كوبيير. كان في الشتاء يصطاد طيور الجبل بالشباك، وينصب الاشراك، وفي الصيف كان ينزل الي النهر، ويقضي النهار كله باصطياد السمك بالصنارات. في ذلك الحين كان نهرنا أعمق، بل وكانت هناك طاحونة عائدة للابشينوفا وتحت السدة كانت تتكاثر أسماك اللشبوط والكرافي الضخمة. فكان هذا الشيخ يجلس قرب أجمة بصناراته. وكان ينصب حوالى سبع صنارات، طعم احداها دودة، وطعم الأخرى عجينة، وحتى سمكة صغيرة حية ليصطاد الكراكي. وكنا، نحن الصبيان، نتحايل لنقطع شصوصه والعجوز أصم كالحجر، لا يسمع حتى لو صرخت باذنه. اجتمعنا عند النهر، ونخلع ثيابنا قرب العجوز وراء الأجمة، فينسل أحدنا الى الماء بهدوء، حتى لا يثير حركة فيه، ويغوص تحت خيوط العجوز، ويمسك الخيط الأخير، ويقطعه باسنانه ويغوص عائداً الى الأجمة. ويسحب العجوز الخيط ويلتهب غيظاً، ويهمس: «مرة أخرى قطعته، يا ملعونة؟ لعنة الله عليك!» وهو يقصد سمكة كراكي وطبيعي أنه غاضب على فقدته شصاً. فهو يشتري شصوصه من الدكان، بينما نحن لا نملك ما نشتريها به ولهذا تجدنا نتحايل على العجوز. وفي واحدة من هذه المرات حصلت على شص، و اردت الحصول على شص آخر. رأيت العجوز مشغولاً بالطعم، فغصت. وما كدت ألتمس الخيط بهدوء، واقرب فمي من الشص حتى سحب العجوز الصنارة الى الاعلى بقوة! واذا بالخيط ينزلق من يدي وينغرز الشص في شفتي العليا. فرحت أصرخ، وابتلع الماء. ويجذب العجوز الصنارة، يريد أن يخرجني. وأنا من شدة الألم ألبط برجلي، بالطبع، وأنجر مع الشص، وأشعر بأن العجوز يحشر مغرفته في الماء تحتي... وبالطبع، خرجت من الماء، واطلقت صيحة عريضة. وصعق العجوز، وهم يرسم علامة الصليب، ولكنه لا يستطيع، وصار وجهه من الرعب اكثر

سواداً من الحديد. وكيف لا يرتعب؟ جذب متوقعا سمكة كراكي، فاذا به يخرج صبيّاً. وقف قليلا، ثم أطلق قدميه للرياح! والحذاء ان يكاد ان يسقطان من قدميه. وعدت أنا الى البيت وذلك الشخص منغرز في، فقطعه أبي، ثم راح يضربني حتى فقدت الوعي. طيب، وما الفائدة؟ شفتي اندملت وعادت الى حالتها الطبيعية ولكن الناس منذ ذلك الحين يسمونني شوكار*! ولزمتني هذه الكنية السخيفة... وفي ربيع العام الذي تلى كنت اطلع بالوزات الى الطاحونة الهوائية لأراقبها وهي تسرح. والطاحونة الهوائية تعمل، ووزاتي تسرح بالقرب منها، وفوقها تحوم حداة. والوزات صفر، جذابة، فتحب الحداة أن تختطف واحدة منها، ولكنني، بالطبع احرسها واحافظ عليها، فاهش الحداة واصيح بها: «شو... شووو!»

وفي تلك اللحظة يأتي اصدقائي من الأولاد، فناخذ بالتعلق بأذرع المروحة لترفعنا. نمسك بذراع فيرتفع عن الأرض حوالي ذراعين ثم نفاك أيدينا، ونسقط على الأرض، وننطرح، لكيلا تصطدم بك ذراع أخرى. والأولاد هؤلاء. عفاريت تماما! ابتكروا لعبة هي من يستطع أن يرتفع أعلى من الجميع يلقب بـ«القيصر» ويركب الآخرين، كالمطايا، من الطاحونة الى سقيفة الدريس. وطبيعي أن كل واحد يلذ له أن يكون «قيصراً». وافكر مع نفسي: «سارتفع اكثر من الآخرين في الحال!» ونسيت وزاتي. وترتفع بي الذراع، ولكنني انظر فأرى الحداة تحوم فوق البطات، وتوشك أن تختطف واحدة. ارتعبت. فأنتني سا ضرب على ذلك، من كل بد... فأصرخ: «الحداة، يا أولاد! هشوها!». وأما انا، فقد غاب عن ذهني في تلك اللحظة أنني معلق على ذراع... وحين تذكرت كانت تفصلني عن الأرض مسافة قاصمة للظهر! القفز الى الأرض شيء رهيب، والصعود أعلى شيء

* نسبة الى «شوكا» - وتعني بالعربية سمكة الكراكي.
المرجم.

ارهب. فماذا افعل؟ وبينما كنت أفكر فيما ينبغي أن أفعله، ارتفعت الذراع قائمة، وأنا معلق بها، ورأسي الى تحت. وما ان بدأ ينزل نحو الأرض، حتى فككت يدي منه. ولا أعرف كم استغرق طيراني الى الأرض، ولكن ذلك بدا لي طويلاً جداً، الا أنني سقطت الى الأرض بالطبع، وارتطمت بها ارتطاماً عنيفاً. نهضت على عجل، ورأيت العظام بارزة من يدي قرب الرسغ. وصرت اشعر بألم لا مثيل له. وفقدت الاهتمام بأي شيء. الحدأة اختطفت وزه ولكنني لم أعر لذلك أي اهتمام، أعادت المجبرة عظامي الى موضعها، ولكن ما الفائدة؟ زلت مرة أخرى في العام الذي تلا، حين مزقتني حاصدة علاوة على ذلك. بعد يوم القديس بطرس خرجت وأخي الأكبر لنحصد الشعير. أنا اسوق الحصانين، وأخي يقوم بتشغيل الحاصدة... كنت اسوق الحصانين، وذباب الخيل تجوم حولهما، والشمس بيضاء في السماء، والحر شديد جداً، حتى أخذت أهوّم، ويغلبني النعاس فاسقط في نومي من على المقعد. وحين افتح عيني ارى حباري هائلاً ممدداً كالسوط على أخدود في ناحية مني. اوقفت الحصانين. فيقول أخي: «سأطعنه بأسنان المذراة!» فاقول: «لا، يا أخي، دعني اقفز عليه وامسكه حياً»، فيقول أخي: «طيب، اقفز!» وقفزت، وامسكت بالحباري بالعرض، ولكنه يصارع بشدة حتى حرر جناحيه من قبضتي، ويضربني بهما على رأسي، ويسحبني وراءه، ويلوثني تماماً ببرازه الذي سال منه رعباً (يعني خاف خوفاً شديداً) يسحبني وراءه كما يسحب حصان حرون مجراثاً. ولا اعرف لماذا طراً في عقله أن ينقلب راجعاً. ووثب تحت أقدام الحصانين والى الجنب. فارتعب الحصانان، ومرا علي، ونخرا جافلين. ووجدت نفسي تحت الحاصدة. سحب أخي العتلة في الحال، ورفع الحاصدة. أصبحت تحتها، وأجد نفسي أنجر تحت الحاصدة، وهي تتحرك. قطعت الحاصدة رجل أحد الحصانين حتى العظم الكبير، ومزقت العروق. أما أنا فقد شوهتني تماماً بحيث لا يعرفني من يراني. اوقف أخي

الحصانين على نحوما، وفك سيور أحدهما، ووضعني على ظهره بالعرض، وأخذني الى العزبة فاقد الوعي، ملوناً ببراز الجبارى والتراب كلياً، أما الجبارى الحقير، فقد فر طائراً، بالطبع. وسقطت مريضاً... وبعد نصف عام، بينما كنت عائداً من الجيران يعترض طريقي ثور من العزبة. فادور حوله متحاشياً إياه، ولكنه يلعب ذيله كالذئب الضاري، ويهجم علي بقرنيه. وهل تريدني استسلم له، وألفظ انفاسي الاخيرة على قرنيه؟ اطلقت ساقى للريح، فيلحقني، ويصيبني بقرنه على ضلعي الأسفل، ويرميني عبر السياج. انكسر الضلع وتهشم تماماً. ولو كان لي مائة ضلع لما تأسفت، ولكن أن أفقد ضلعاً في مثل هذا الحادث التافه... ولهذا عدوني غير لائق للخدمة العسكرية، اثناء الاستدعاء للجيش. وما لقيت من مختلف الحيوانات فيما بعد لا يعد ولا يحصى! كأن الشيطان كان يتعقب خطاي. فان أي كلب يفلت من سلسلته، أينما كان هذا الملعون، لا يجري الا نحوي، أو أكون أنا في طريقه بالمصادفة. فيمزق ثيابي بالطبع، ويعض رجلي. وأي نفع اجنيه من ذلك؟ وفئران الخيل لاحقتني من وهدة اوجاتشيننا حتى الطريق، والخنازير البرية هاجمتني في السهب. بسبب ثور ذات مرة تلقيت ضربات ففقدت حدائي. ومرة كنت سائراً في العزبة ليلاً، فالتقي بثور آخر مقابل بيت آل دونتسكوف. «بوووو!..» يلعب بذيله. فأخاطبه في سري. عندي خبرة من الالتقاء بأمثالك والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين! وأسير اقرب الى البيت، والثور ورائي، وأركض فاذا هو يلاحقني حتى كنت أسمع انفاسه خلفي. وفي البيت شباك مفتوح، اقتحمته طائراً كالخفاش تماماً. وأنظر فلا أرى احداً في الحجرة. وأقول لنفسي: لا حاجة الى أن أزعج الناس ساخرج من الشباك. نخر الثور قليلاً، ونطح الدكة بقرنه، وذهب. وما كدت أتهياً للقفز من الشباك الى الشارع حتى احسست بذراعى تمسك، وبشيء صلب يهبط على قفائي. ذلك هو رب البيت العجوز

دونتسكوف، سمع اللفظ، وأمسكني. «ماذا جاء بك الى هنا، يا فتى؟» - قلت: «هروبا من الثور» فيقول: «لا، أبداً، نحن نعرفكم، انتم الثيران، بل جئت منسلا الى كنتنا اوليوتكا؟» وأخذ يضربني، كالمزح في البداية، وبعد ذلك اشتد ضربه واشتد. والعجوز كان قوياً، وهو نفسه كانت له عين على كنته، ومن شدة حنقه أطاح لي سنّاً خلفية. ويقول بعد ذلك: «هل ستأتي لزيارة اوليوتكا مرة أخرى؟» فأقول: «لا، لن افعل، قطع لسانك! ألبس كنتك اوليوتكا على رقبتك بدلا من صليبك». فيقول: «طيب، اخلع حذاءك، والا ضربتك من جديد!» فخلعت حذائي، واعطيته أياه هباء. وهذا أيضا لطيف جداً، أن تفقد آخر حذاء لك! وبعد ظلمت أحقد على اوليوتكا هذه طوال خمس سنين أعقبت ذلك. ولكن ما الفائدة؟ واستمرت مثل هذه الحوادث تقع واحدة بعد الأخرى. على الأقل لو تأخذ مثلا الحادثة التي وقعت لي حين ذهبنا - انت وأنا نجرد الكولاكي تيتوك من ملكيته، فلماذا، يا ترى فيشن كلبه على فروتي بالذات ومزقها؟ كان الأولى به، من كل النواحي، أن يهجم على ماكار، أو على ليوبشكين، ولكن هذا الشيطان طاف في الغناء كله ليتحرش بي. ولكن لطيف أنه لم يشب على بلعومي، والا لداس على خناقي مرتين أو ثلاثاً ويكون شوكار في العالم الآخر. اي، نعم، نحن نعرف هذه الأشياء. وقد انتهت بهذا الشكل، بالطبع، لأنني لم اكن أحمل مسدساً. والا فماذا سيحصل، لا سمح الله، لو كان في يدي مسدس؟ قاتل ومقتول بالتأكيد! وأنا شرس، حين أستفز. في ذلك الموقف كان يمكن أن أصفي الكلب وزوجة تيتوك، وأضع بقية الرصاص في حلقوم تيتوك! عندئذ ستكون هناك جريمة قتل، ويساق شوكار الى السجن. بينما أنا لا أريد السجن على الاطلاق، فان لي اهتماماتي الخاصة. نعم... وهكذا تراني قد صرت جنرالاً. آه، لو كانت تلك الداية حية لأكلتها نية! حتى لا تهذر بما لا ينبغي، ولا تزعج الصغار! آه، هذا مخيم الفريق. وصلنا!

الفصل الثاني والثلاثون

دخل رازميوتنوف الرواق، وحتى هو هناك يزيح الوحل اللزج المتخثر من حذائه بمكنسة رطبة، رأى شريطاً منحرفاً من الضوء ينسل من شق في باب حجرة ناغولنوف. ففكر، وهو يفتح الباب بهدوء: «ماكار مستيقظ. ولكن لماذا لاينام؟»

كان فانوس نفطي ذو ظلييلة محروقة مصنوعة من ورق الجرائد يضيء بضوئه الخافت الطاولة في الركن، وكتاباً مفتوحاً. وكان ماكار منكباً برأسه المتناثر الخصلات على الطاولة باستغراق، وقد وسد خده على يده اليمنى، بينما كانت اصابع يده اليسرى تتشبث بناصية شعره بشدة.

- مرحباً، ماكار! ما الذي يجعل النوم يجافيك؟
رفع ناغولنوف رأسه، ونظر الى اندريه باستياء.

- لماذا جئت؟

- جئت لأتحدث قليلا. هل ضايقتك؟
- تضايق أو لا تضايق. اجلس، فأنا لا أطرديك ما دمت قد جئت.

- ماذا تقرأ؟
- وجدت ما اشغل نفسي به.

وغطى ماكار الكتاب بكفه، ناظراً الى رازميوتنوف بترقب.

- تركت ماريشكا. الى الأبد. -- وزفر اندريه، وانهد على المقعد ثقيلًا.

- كان عليك أن تفعل ذلك منذ زمان.

- ولم ذلك؟
- لأنها كانت عشرة في طريقك. والحياة الآن تقتضي التخلص من كل شيء زائد. الآن لا وقت لنا، نحن الشيوخ، نصرفه على مختلف الأعمال الجانبية!

- واي عمل جانبي هو اذا كان حباً بيننا؟
- أوه، اي حب هو؟ انه طوق في الرقبة وليس حباً.

انت تدبر الاجتماع، وهي لا تصرف بصرها عنك، تراقبك وتغار عليك. هذا ليس حباً، يا أخ، بل عقاب.

- في منطقتك لا يجوز للشيوخيين الاقتراب من النساء؟

طيب، شدة بخيط، وعش كالثور المخصي، ام كيف؟

- نعم لا يجوز، وانت ماذا تظن؟ لنترك الذين ارتكبوا

حماقة في العهد الماضي وتزوجوا، لنتركهم يعيشون مع

زوجاتهم بقية عمرهم، أما الشباب فبودي لو أصدر مرسوماً

امنعهم به من الزواج. فأي ثوري سيطلع منه اذا كان

سيتعلق باذيال زوجته؟ المرأة بالنسبة لنا كالعسل للذبابة

الجشعة. تلتصق وينتهي الأمر. لقد جربت ذلك بنفسي،

وأعرفه معرفة قطعية! يحدث أن يجلس المرء في المساء

ليطالع، ويطور نفسه، بينما زوجته تستلقي لتنام. يقرأ

قليلاً، ويرقد هو الآخر، فتدبر زوجته له ظهرها. فيأخذه

الأسف على وضعها هذا، فاما أن يتشاتم معها، واما أن

يدخن صامتاً ويحقد، فيطير النوم من عينيه. وفي الصباح

ورأسه ثقيل لأنه لم يأخذ كفايته من النوم، يقوم بعمل

سياسي غير صحيح. وهذا أمر مثبت بالتجربة! ومن له

أولاد هو رجل ميت بالنسبة للحزب. ومنذ اللحظة التي

يتعلم فيها حضانة الطفل، ويتعود على رائحة الحليب يكون

قد انتهى! لا يطلع منه غير مناضل سييء، وشغيل ضعيف.

في العهد القيصري كنت ادرب القوزاق الشبان وأرى:

الفتى غير المتزوج صبوح الوجه، سريع الفهم أما الذي

يأتي من زوجته الشابة الى الفوج فيتخشب من الوحشة

حالا، ويصير بليداً مثل قطعة خشب. البلاهة مرتسمة عليه،

فلا تستطيع أن تفهمه شيئاً. تتحدث له عن النظام العسكري،

وعيناه نحوك مدورتان مثل زرين. فتتصور الوغد ينظر

اليك، ولكن بصره، في الحقيقة، متجه الى داخل نفسه،

فيرى زوجته، الحقير. وهل هذا ممكن؟ لا، ايها الرفيق

العزيز، من قبل كان من الممكن ان تعيش كما تحب. أما

الآن، وانت عضو في الحزب، فكف عن أية حماقة. وبعد

الثورة العالمية. بقدر ما يتعلق الأمر بي، تستطيع حتى

أن تموت على صدر امرأة، فهذا لا يعني. ولكنك الآن يجب أن تنصرف كلية الى هذه الثورة - ونهض ماكار، وتمطي، وبسط كتفيه العريضتين المستقيمتين ففرقتا، وربت على كتف رازميوتوف، وابتسم ابتسامة لا تكاد تبين - اظنك جئت الي لتبشني شكواك، فاحزن معك على ما أصابك، وأقول: «نعم، يا اندريه، وضعك مؤسف، وسيكون صعباً عليك أن تكون بلا امرأة. فكيف، يا مسكين، ستتحمّل هذه المشقة؟..» هكذا، أليس كذلك؟ لا، يا عزيزي اندريه، كل شيء الا أن تسمع هذا مني! بل أنا مسرور من هجرك زوجة الرقيب السابق. كان يجب من زمان، أن تضربها بالعصا على عجيزتها السميقة! ها أنذا، مثلاً، طلقت لوشكا، وأشعر بنفسي طليقاً. لا أحد يعيقني، فأنا الآن كالحرية الحادة المصوب رأسها الى صراع الكولاك وغيرهم من اعداء الشيوعية. بل وأستطيع الآن أن أعلم نفسي، واثقف.

سأل رازميوتوف بسخرية وببرود:

- ما هذا الذي تتعلمه؟ أية علوم هذه؟

وكان في قرارة نفسه متكدرًا من كلمات ماكار، ومن كون هذا الرجل ليس فقط لم يتحسس مصيبتة، بل وأعلن عن فرحته الصريحة، وتفوه، حسب رأي اندريه، بالهراء الخالص بخصوص الزواج. وبينما كان اندريه يستمع الي خطبة ماكار الجدية الواثقة فكر مع نفسه، وليس بدون رعب: «لطيف أن الله لم يخلق للبقرة المهوسة قرنيز. والا فماذا سيقترف ماكار لو أعطي سلطة؟ سيقلب الحياة كلها رأساً على عقب بطريقته هذه؟! من يدري، فقد يطرأ في ذهنه أن يخصي طبقة الرجال كلها، حتى لا يلهيهم شيء عن الاشتراكية!».

- ما هذا الذي أتعلمه؟ - كرر ماكار السؤال، وصفق

الكتاب - اللغة الانجليزية.

- ماذا؟

- اللغة الانجليزية. هذا الكتاب للتعلم بدون معلم.

وتمعن ناغولنوف في اندريه باحتراس، خائفاً أن يرى سخرية في وجهه، ولكن اندريه كان من شدة الانصاع بحيث لم يقرأ ناغولنوف غير الدهشة في عينيه المتسعيتين الغاضبتين قليلاً.

- يعني... تستطيع الآن أن تقرأ وتتكلم بلغتهم؟
فرد ناغولنوف بشعور من الاعتزاز الخفي.
- لا، لا أستطيع الآن التكلم بها، فهذا لا يأتي رأساً، ولكن، على العموم، أنا في سبيل أن أفهم ما هو مكتوب. هذا هو الشهر الرابع، وأنا اتعلم.

- لغة صعبة؟ - سأل رازميوتنوف بعد أن بلع ريقه،
ناظراً بشيء من الاحترام الى ماكار، والى الكتاب.
وحين رأى ماكار الاهتمام الحي الذي أبداه رازميوتنوف نحو دراسته نبذ توجسه، وصار يتحدث بطلاقة:

- صعبة بشكل مستحيل! خلال هذه الشهور لم أحفظ في ذاكرتي غير ثماني كلمات. ولكن اللغة نفسها تشبه لغتنا قليلاً. الكثير من كلماتهم مأخوذ منا، سوى أنهم وضعوا نهاياتهم عليها. فمثلاً نحن نقول: «بروليتاريات» وهم يقولون اللفظة نفسها ما عدا النهاية. وكذلك الأمر مع كلمة «ريفوليوتسيه» و «كومونيزم*». أنهم يضيفون على نهاياتها شيئاً كالهسيس، وكأنهم غاضبون على هذه الكلمات. ولكن كيف يمكن الاستغناء عنها؟ ان هذه الكلمات صارت لها جذور في جميع العالم، وهم مضطرون الى النطق بها سواء أرادوا أم أبوا.

- هكذا! هذا ما تتعلمه، اذن. - ثم سأل اخيراً -
ولكن ما حاجتك الى هذه اللغة، يا ماكار؟
أجاب ناغولنوف مبتسماً بتلطف:

- عجيب سؤالك، يا اندريه! بطء فهمك ربما يشير الى الاستغراب... أنا شيوعي، أليس كذلك؟ والسلطة السوفيتية ستقام في انكلترا أيضاً، ها؟ انت تهز رأسك،

* ثورة وشيوعية كما في النطق الروسي. المترجم.

يعني نعم؟ وهل عندنا الكثير من الشيوعيين الروس يتكلمون الانجليزية؟ القليل، بالطبع. والبرجوازيون الانجليز احتلوا الهند، نصف العالم تقريباً، ويضطهدون ذوي البشرة السوداء والسمراء من كل الاجناس. واي شرائع هذه، ها؟ ستقام السلطة السوفيتية هناك، ولكن الكثيرين من الشيوعيين الانجليز لا يعرفون ما هو العدو الطبقي بشكّله العاري، ومن قلة الخبرة لا يعرفون كيف يتصدون له، كما ينبغي، وعند ذلك سأطلب السفر اليهم لأعلمهم، وحين أكون قد تعلمت لغتهم، سأخاطبهم رأساً: «عندكم ريفوليوشين؟ كومونيشين؟ طيب، يا جماعة، اسحقوا الرأساليين والجنرالات! فنحن في عام ١٩١٧، وبسبب سذاجتنا، عفونا عنهم، فأخذوا يقطعون شراييننا، فيما بعد، اسحقوهم حتى لا تقعوا في اخطاء، ويكون كل شيء «أولرايت!» - ونفخ ماكار منخريه، وغمز لرازميوتنوف - لهذا السبب. تتطلب لغتهم. مفهوم؟ سأظل ساهرا الليل كله، واضحي بآخر ما لدي من صحة، ولكن... - وصرف باسنانه الصغيرة المتراصة، وختم كلامه - سأتعلم هذه اللغة! وسأتكلم مع اعداء الثورة العالميين باللغة الانجليزية بدون تعابير رقيقة! وليرتجف هؤلاء الحقراء مقدماً! سيلقنهم ماكار ناغولنوف، أحم... وسيلقون منه ما لا يلقونه من أي شخص آخر! لن يجدوا منه أية رافة. «هل شربتم الدم من الطبقات العاملة الانجليزية، في بلدكم، من الهنود، من الأمم المضطهدة المختلفة الاخرى؟ استثمرتم عمل الآخرين؟ اصطفوا على الجدار، يا مصاصي الدماء!» وهذا كل الحديث! ساتعلم هذه الكلمات قبل كل شيء، لأقولها بدون تلثم.

وظلا نصف ساعة بعد ذلك يتحدثان عن أشياء مختلفة، وبعد ذلك انصرف اندريه، وانكب ناغولنوف على كتابه. وبقي قاعداً حتى الساعة الثانية والنصف محركا شفتيه ببطء، عرقاً مقطباً حاجبيه المقوسين من الجهد. وفي اليوم التالي استيقظ مبكراً، وشرب قدحين من

الحليب، وذهب الى اسطبل الكولخوز. وطلب من خفيه
المناوب:

- اخرج لي أنشط حصان.
فاخرج له الخفير حصاناً صغيراً فاتح الصفرة منحدر
الكفل مشهوراً بقوة تحمله وسرعته، وسأل:
- هل طريقك طويل؟
- الي مركز المنطقة. ابلغ دافيدوف بانني سأعود
اليوم في الليل.

- هل ستركبه؟
- نعم. اجلب لي سرجاً.
اسرج ماكار الحصان، وخلص رسنه، والبسه لجاماً
مزوقاً من مخلفات تيتوك ووضع قدمه على الركاب المسنن
بخنكة. وتحرك الحصان يعدو متخطراً، الا أنه تعثر فجأة عند
خروجه من البوابة، ومست ركبته الأرض، وكاد يقع،
ولكنه تماسك، ووثب على قدميه بخفة.

- عد، يا رفيق ناغولنوف. هذا فال سيء. -
صاح الجد شوكار متنجياً عن الطريق اثناء اقترابه من
البوابة.

انطلق ماكار خلال العزبة دون أن يرد، وخرج الى
شارعها الرئيسي. كان حوالي عشرين امرأة يتحدثن قرب
الادارة بانفعال وصخب.
صاح ماكار مازحاً:

- تنحين، يا عقاقق، والا فسادوسكن بالحصان.
سكتت النسوة، وتنحين عن الطريق، وحين خلفهن
وراءه، سمع من خلفه صوتاً قد أبعه الحنق:
- أوع أن تكون انت المداس، يا وغدا! انتظر،
وستتلقى جزاءك...

* * *

بدأ اجتماع مكتب لجنة المنطقة الحزبية في الساعة
الحادية عشرة. وكان جدول الاعمال يتضمن تقرير بيغليخ
رئيس قسم الأرض في المنطقة عن سير البذار في الأيام

الأولى والى جانب اعضاء المكتب كان يحضر الاجتماع رئيس لجنة الرقابة في المنطقة ساموخين والمدعي العام في المنطقة.

قال خوموتوف رئيس التنظيم لناغولنوف محذراً:
- ستثار قضيتك في فقرة المنوعات، فلا تنصرف.
استمع الحاضرون في سكون متوتر مرهق الى تقرير بيغليخ الذي استمر نصف ساعة.

البذار لم يبدأ بعد في أماكن من المنطقة، رغم أن التربة قد هيئت. وفي بعض السوفيتات القروية لم يجمع صندوق البذور بكامله، وفي سوفيت فويسكوفوي أخذ الكولخوزيون السابقون كل بذور الحبوب تقريباً، وفي اولخوفاتسكي قامت ادارة الكولخوز نفسها بتوزيع البذور على الخارجيين من الكولخوز. وتوقف صاحب التقرير طويلاً على اسباب تعثر سير البذار، وفي الأخير قال:

- ليس من شك، ايها الرفاق، أن تأخرنا في البذار وبودي ان اقول تراوحنا في مكان واحد، وليس تأخرنا، تراوحنا في نقطة التجمد ذاتها، يرجع الى أن الكولخوزيين في عدد من السوفيتات القروية تعرضوا الى ضغط الاداريين المحليين الذين كان مهمهم الأول الحصول على نسب متضخمة من الكلخزة، بل وفي بعض الاماكن، كما هو معروف لكم جميعاً، كانوا يجبرون الناس على الانضمام تحت التهديد بالمسدس. وهذه الكولخوزات الهشة تتهافت في الوقت الحاضر، كما يتهافت حائط طيني مجروف، وفي هذه الكولخوزات بالذات يجري التراخي والتباطؤ، حين لا يخرج الكولخوزيون الى الحقل، واذا خرجوا عملوا بايد رخية.

نقر سكرتير لجنة المنطقة بالقلم على غطاء الدورق الزجاجي محذراً:
- انتهى الوقت.

- سأنتهي الآن، ايها الرفاق! اسمحوا لي أن أتوقف على الاستنتاجات: كما ابلغتكم سابقاً، بموجب احصائيات قسم

الأرض لم يبذر في المنطقة خلال الأيام الأولى غير ٣٨٣ هكتاراً. وارى من الضروري تعبئة كل نشطاء المنطقة حالا، وارسالهم الى الكولخوزات. وفي رأيي يجب ان يوقف بكل الوسائل خروج الكولخوزيين، والزمام ادارة الكولخوزات وسكرتيري الخلايا بالقيام بعمل توضيحي يومي وسط الكولخوزيين، والاعتماد اساساً على اطلاع الكولخوزيين الواسع... على التوسع في الحديث عن الامتيازات التي تقدمها الدولة للكولخوزات، لأن ذلك لم يوضح على الاطلاق تقريباً في عدد من الاماكن. فالكثير من الكولخوزيين لا يعرفون حتى الآن ما هي الاعتمادات المعطاة للكولخوزات، وما الى ذلك. وبلاضافة الى ذلك اقدم الاقتراح التالي: النظر على وجه الاستعجال في قضايا المتورطين في الانحرافات، اولئك الذين تسببوا في عدم استطاعتنا القيام بالبذار، والذين يجب أن ينحوا عن العمل بموجب قرارات اللجنة المركزية المؤرخة في ١٤ آذار. اقترح النظر في قضاياهم على وجه الاستعجال، وانزال العقوبة الحزبية الصارمة بهم جميعاً. انتهيت من كلامي.

- هل هناك أحد يريد التعليق على تقرير بيغليخ؟ -
سأل سكرتير لجنة المنطقة، وهو يجيل بصره في الحاضرين، ويتحاشى عيني ناغولنوف تعمداً.
- لا حاجة الى التعليق، فالصورة واضحة. - قال وتنهد أحد أعضاء المكتب، رئيس ميليشيا المنطقة، وهو رجل مكتنز قوي البنيان ذو قيافة عسكرية يعرق دائماً، وعلى رأسه الحليق الآخذ بالصلع ندوب كثيرة.
سأل السكرتير:

- اذن، سنأخذ استنتاجات بيغليخ أساساً لقرارنا، أم كيف؟
- بالطبع.

- والآن عن ناغولنوف - ولأول مرة خلال الاجتماع نظر السكرتير الى ناغولنوف، ولبضع ثوان أوقف عليه بصره الهائم النافر - انتم تعرفون أنه، بوصفه سكرتير

الخلية الحزبية في غريمياتشي ارتكب جملة من الجرائم الشنيعة ضد الحزب. خلافاً لتعليمات لجنة المنطقة انتهج خطأ يسارياً أثناء الكلخزة، وجمع صندوق البذور. وضرب بالمسدس فلاحاً متوسطاً غير كولخوزي، وحبس كولخوزيين في حجرة باردة. وقد سافر الرفيق ساموخين بنفسه الى غريمياتشي، وحقق في قضيته، وكشف عن تجاوزات ناغولنوف الصارخة على الشريعة الثورية، وعن التشويه الضار لخط الحزب. والآن نترك الكلام لساموخين. يارفيق ساموخين، اعرض على المكتب ما تبينته بخصوص نشاط ناغولنوف الاجرامي.

وأسبل السكرتير على عينيه جفنيه الوطفين، واستند ثقيلًا على كوعيه.

كان ناغولنوف منذ أن وصل الى لجنة المنطقة قد أدرك أن وضعه سييء، وليس في انتظاره اي لين. فقد تبادل سكرتير لجنة المنطقة التحية معه بانكماش غير معهود، ولتحاشي الكلام معه، على ما يبدو، إلتفت على الفور يسأل رئيس اللجنة التنفيذية في المنطقة سؤالاً.

سأله ماكار وليس بدون تهيب:

— ماذا عن قضيتي، يا كورتشجينسكي؟

فرد عليه هذا ببرود:

— سيبتها المكتب.

كما أن الآخرين جميعاً كانوا يتحاشون عيني ماكار المتسائلتين، ويتجنبونه. ومن المحتمل أن يكونوا قد بتوا قضيته فيما بينهم مقدماً. ورئيس الميليشيا بالابين فقط ابتسم لماكار بتعاطف، وصافحه بقوة:

— ناغولنوف، تماسك! طيب، اذنبت، واختلط عليك

الأمر ووقعت في اخطاء، ولكننا غير متضرعين جدا بالسياسة.

أخطأ من لهم عقول أكبر من عقلك! — وهز رأسه المدور

القوي المصقول مثل حصاة نهريّة، ومسح العرق من

رقبته القصيرة الحمراء، وتمطق بشفتيه السميكتين

بأسف.

نظر ماكار متشجعاً في وجه بالابين المفعم بخمرة دافئة، وابتسم ممتناً، شاعراً بأن هذا الشاب ينفذ الى دخليته، ويفهمه ويتعاطف معه. «انهم يبيتون لى عقوبة صارمة، يسحبون السكرتارية مني». كان ماكار يفكر، وينظر الى ساموخين بفرع. وكان هذا الرجل الصغير الجسم العريض الجبين الكاره للطلاق يقلقه اكثر من الجميع. وحين اخرج ساموخين من حقيبتة ملفا كثير الاوراق احس ناغولنوف بلذعة فزع حادة موجعة. وراح قلبه يدق بعنف، والدم يتدفق الى رأسه، وصدغاه يلتهبان، ورغبة خفيفة في القيء كما يحدث للسكران، تتصاعد الى حلقومه. ومثل هذه الحالة كانت تنتابه دائماً قبيل حلول النوبة. «فقط أن لا تكون الآن!»، وارتعد من الداخل، حين كان يصغي الى خطاب ساموخين المتباطيء.

- تحققت في هذه القضية بناء على توجيه من لجنة المنطقة ومن لجنة الرقابة فيها. وقد ثبت لي مايلي عن طريق استجواب ناغولنوف نفسه، والكولخوزيين وغير الكولخوزيين المتضررين بأفعاله في غريمياتشي لوغ وعلى أساس افادات الشهود: إن الرفيق ناغولنوف دون شك، لم يكن أهلاً لثقة الحزب، وقد جلب بأفعاله ضرراً جسيماً للحزب. فهو خلال عملية الكلخزة، في شهر شباط كان يطوف في البيوت، وتحت التهديد بالمسدس كان يقسر الناس على الانضمام الى الكولخوز. وبهذه الطريقة «جذب» الى الكولخوز سبعة الفلاحين المتوسطين. وهذا ما لا ينفية ناغولنوف نفسه...

قال ناغولنوف بصوت مبجوح، وهو ينهض من مقعده:

- انهم بيض اقحاح!
- قاطعه السكرتير بحدة:
- أنا لم اعطك الاذن للكلام. حافظ على النظام!
- ... وبعد ذلك، اثناء جمع صندوق البذور، ضرب بالمسدس الى حد الاغماء فلاحاً متوسطاً، وجرى ذلك أمام

أنظار الكولخوزيين الحاضرين ومراسلي سوفيت القرية.
ضربه لأن هذا امتنع عن جلب البذور حالاً...

قال المدعى العام بصوت عال:

- عار!

فرك ناغولنوف حنجرته بكفه، وأمتقع، إلا أنه لزم

الصمت.

- وفي تلك الليلة تصرف، ايها الرفاق، تصرف

الشرطي فحبس في حجرة باردة ثلاثة كولخوزيين، وابقاهم
فيها طوال الليل، فضلاً عن تهديده لهم بالمسدس على

رفضهم تسليم حصة البذور على الفور.

- لم اهددهم...

- هذا ما قالوه، يا رفيق ناغولنوف، وأرجو ألا

تقاطعني! وبناء على إلحاحه صودرت ملكية الفلاح المتوسط

غايغ وأبعد، وهو الذي لا تنطبق عليه موجبات المصادرة

اطلاقاً، لأنه من حيث الملكية لا ينتمي الى الكولاك في أية

حال من الأحوال، وقد صودرت ملكيته بتأثير ناغولنوف

لأنه كان في عام ١٩٢٨ يشغل أجييراً زراعياً. ولكن من هذا

الأجير الزراعي؟ انه، ايها الرفاق، فتاة من غريمياتشي لوغ

نفسها استؤجرت لمدة شهر أثناء حصاد الحبوب، وقد

استأجرها غايغ لسبب واحد، هو أن ابنه قد أستدعي

للخدمة في الجيش الأحمر في خريف ١٩٢٨، ولم يكن غايغ

الكثير الأطفال قادراً على القيام بالعمل بنفسه. إن القانون

السوفيتي لم يعترض على هذا النوع من الاستفادة من القوة

العاملة الأجييرة. وقد استخدم غايغ هذه الاجيرة بموجب

عقد تاجير، ودفع الاجرة كاملة، وقد تحريت هذه الحقيقة،

وتأكدت منها. وفضلاً عن ذلك فان ناغولنوف يحيا حياة

جنسية غير طبيعية، وهذا أيضاً أمر ذو أهمية بالنسبة

لخلق العضو الحزبي. طلق ناغولنوف زوجته، وحتى لم

يطلقها بل طردها من البيت، طردها كما يطرد الكلب، لمجرد

الزعم بأنها أخذت تغازل شاباً من غريمياتشي. وباختصار

استغل الاقاويل وطردها ليطلق لنفسه العنان. وأنا لا

أعرف أية حياة جنسية يعيش الآن، ولكن كل المعطيات تشير، أيها الرفاق، الى أنه غارق في الفجور. والا فماذا يريد من طرد زوجته من البيت؟ لقد قالت لي صاحبة المنزل الذي يسكن فيه ناغولنوف انه في كل يوم يعود الى البيت في ساعة متأخرة جداً، وهي لا تعرف أين يذهب، ولكنه معروف أين يمكن أن يذهب! نحن لسنا صغاراً، ونعرف أين يذهب عادة رجل طرد زوجته، وراح يبحث عن التسلية فني استبدال النساء... نحن نعرف! هذه أيها الرفاق، قائمة مختصرة لتلك الاعمال البطولية (وابتسم ساموخين بهزء في هذا الموضوع من خطابه الاتهامي) التي استطاع أن يجترحها ناغولنوف سكرتير الخلية الرديء في فترة قصيرة. وماذا كانت العاقبة؟ وما هي جذور هذه التصرفات؟ هنا يجب القول صراحة ان هذا ليس دوار النجاحات، كما عبر قائدنا الرفيق ستالين بشكل عبقرى، بل هو انحراف يساري صريح وتجاوز على خط الحزب العام. فان ناغولنوف، مثلاً، لم يكتف في مصادرة ملكية الفلاحين المتوسطين، وسوقهم الى الكولخوز بالمسدس، بل ودبر قراراً لتعميم الدواجن البيتية، وكل الماشية الصغيرة والحلوبة. وحاول أيضاً، حسب أقوال بعض الكولخوزيين أن يقيم في الكولخوز نظاماً لم يكن حتى في عهد القيصر نيقولاي الدموي.

قال ناغولنوف بخفوت:

— لم تكن لدينا تعليمات من لجنة المنطقة بخصوص الدواجن والماشية.

وكان قد وقف منتصباً بكل قامته، ضاغطاً يده اليسرى على صدره بتشنج. فاحتد السكرتير قائلاً:

— لا، ذهبت بعيداً! لجنة المنطقة اعطت توجيهاتها. فلا تحاول أن تلقي اللوم على الآخرين. هناك ميشاق الكولخوز، وانت لست طفلاً رضيعاً بحيث لا تستطيع أن تفهمه!

ومضى ساموخين يقول:

- ... في كولخوز غريمياتشي يسود التضيق على الانتقاد الذاتي. وقد أشاع ناغولنوف الارهاب، فلا يسمح لأحد بأن يقول كلمة. وبدلاً من القيام بعمل توضيحي يصرخ هو بالفلاحين، ويدق الأرض بقدميه، ويهدد بالسلاح. وهذا هو السبب في الهرجلات التي تجري في كولخوز غريمياتشي، حيث الناس يخرجون الآن منه أفواجا، وقد بدأوا البذار لتوهم، وفي حكم المؤكد أنهم لا يستطيعون انجازه. ان لجنة الرقابة المنطقية الموكلة بتطهير الحزب من كل انواع العناصر المنحلة ومن الانتهازيين من كل الأشكال، الذين يعيقوننا في عملية بنائنا العظيم ستستخلص استنتاجاتها، دون شك، بخصوص ناغولنوف.

سأل السكرتير:

- أهذا كل شيء؟

- نعم.

- نترك الكلام الآن لناغولنوف. فليخبرنا كيف نزل الى هذا الورك من الحياة.

فجأة اختفى الغيظ المريع الذي ألهب ماكار في اواخر خطاب ساموخين، وحل محله عدم وثوق، وخوف: «ماذا سيفعلون معي؟ كيف يمكن هذا؟ يريدون هلاكى؟» جالت هذه الأفكار في خاطره خطفاً، وهو يتقدم من المنضدة. ولم يبق شيء من الاعتراضات الحائقة التي أعدها أثناء اللقاء ساموخين خطابه. وملاً الفراغ رأسه، حتى لم يجد في ذهنه أي كلمة مناسبة يقولها. لقد كان شيء غير اعتيادي يحدث لماكار...

- أنا، أيها الرفاق، في الحزب منذ الثورة... خدمت في الجيش الأحمر...

قاطعه السكرتير في ضيق:

- كل هذا معروف! اقترب من الموضوع اكثر.

- حاربت البيض في جميع الجبهات... وفي جيش الخيالة الأول... منحوني وساماً.

- ولكن تحدث في الموضوع.

- أليس هذا هو الموضوع؟
- لا تزغ، يا ناغولنوف، ولا داعي الآن لسرد خدماتك. - قاطعه بذلك رئيس اللجنة التنفيذية للمنطقة.
- دعوا الرفيق يتكلم! لماذا تلجمونه بهذا الشكل؟ -
صرخ بالابيين محتداً، وغطت زرقة كدرة صرعية لمعة يافوخ رأسه المدور الشبيه بحصوة.
- ليتكلم بشكل ملموس!
ظل ناغولنوف على وقفته السابقة دون أن ينزل يده اليسرى من على صدره، بينما امتدت اليد اليمنى الى حنجرته، التي صلبتها يبوسة واخزة.
- دعوني اتكلم. أنا لست عدواً، فلماذا تعاملونني بهذا الشكل؟ عندما كنت في الجيش جرحت بشدة... واصبت برجة عصبية قرب كاستورنيا... بقذيفة ثقيلة من السطیحة... - وصمت، وكانت شفاه المسودتان تعبان الهواء بنشيش.
'أسرع بالابيين فصب ماء من الدورق، ومد القدح الى ناغولنوف، دون أن ينظر اليه.
نظر كورتشجينسكي الى ناغولنوف، واشاح بصره بسرعة. فقد كانت يد ناغولنوف الممسكة بالقدح ترتجف بشكل لاسيطرة له عليه.
وفي الصمت كانت تسمع بوضوح دربزة الزجاج، وهو يرتطم بأسنان ماكار.
قال بالابيين في ضيق:
- وكفى لا حاجة للقلق، تكلم.
غضن كورتشجينسكي وجهه. ورفت في قلبه شفقة غير مدعوة، ولكنه سيطر على نفسه. لقد كان قوي الاعتقاد بأن ناغولنوف شر للحزب، ويجب ليس فقط اعفاؤه من عمله، بل وطرده من الحزب. وكان الجميع يشاطرونه رأيه باستثناء بالابيين.
شرب ماكار قدح الماء في جرعة واحدة، والتقط أنفاسه، وأخذ يتكلم:

- أنا اعترف بما قاله ساموخين. لقد فعلت ذلك حقاً. ولكن لا عن رغبة في الوقوف ضد الحزب. فهذا من اختلاق ساموخين. كما انه يكذب كالكلب بخصوص فجوري. انها تلفيقات! لملت نفسي عن النساء، وليس لي الوقت لأصرفه عليهن...

سأل خومتوف رئيس قسم التنظيم بسخرية:

- ولأجل هذا طردت زوجتك؟

- نعم، لأجل هذا بالذات - أجاب ماكار بجدية - ولكنني فعلت ذلك... فعلته من أجل الثورة. ربما كنت على خطأ. لا أعرف. أنتم أكثر ثقافة مني. فقد دخلتم دورات، ونظركم أشمل. أنا لا احاول التقليل من ذنبي. فاحكموا كما تريدون. شيء واحد أرجو أن تفهموه... - وضاحت عليه أنفاسه من جديد، وصمت لحظة دون أن يكمل جملته - افهموني، يا اخوان، لقد فعلت ذلك دون أدنى نية في الوقوف ضد الحزب. لقد ضربت بانيك لأنه راح يستهزئ بالحزب، وأراد أن يرمي البذور علفاً للخنازير...

قال ساموخين بسخرية:

- مجرد كلام!

- أنا احدثكم بما حصل. وحتى الآن آسف لأنني لم أقتل بانيك في حينه. وهذا كل ما عندي لأقوله. رفع كورثشجينسكي جذعه. وأن الكرسي تحت ثقله. وكان يريد أن يفرغ من هذه القضية المزعجة بأسرع وقت. فأخذ يتحدث بعجالة:

- طيب، يا رفاق، كل شيء واضح. ناغولنوف نفسه اعترف. رغم أنه حاول التملص بالأشياء الصغيرة، ويبرر أفعاله. ولكن تبريراته هذه غير مقنعة. وكل من يرتكب جريمة يحاول أن يزيح جزءاً من جرمه عن كاهله، أو يحول المسؤولية الى الآخرين... ومن رأيي أن ناغولنوف بخرقه اللفظ لخط الحزب في الحركة الكولخوزية وكشيوعي متحلل في علاقته الخاصة يجب أن يط... - رد من صفوف الحزب! وليس لنا أن ننظر في مناقبه السابقة، فتلك مرحلة

غابرة. وعلينا ان نعاقبه عبرة للآخرين. سنضرب بلا رافة كل من يحاول الحط من قدر الحزب ويدفعه الى اليسار او الى اليمين. ولا يجوز الاقتصار على انصاف الأحكام في الموقف من ناغولنوف ومن هم على شاكلته. فنحن قد رعينا طويلا حتى الآن. وحتى في العام الماضي اثناء تنظيم رفاقيات العمل المشترك في الأرض تياسر، وقد نبهته على ذلك في حينها. فليكن ذنبه على جنبه مادام لم يتعظ. هل نصوت؟ من مع طرد ناغولنوف من الحزب؟ لا يصوت، بالطبع، غير أعضاء المكتب. اذن، اربعة؟ وأنت ضد، يا رفيق بالابين؟

ضرب بالابين المنضدة. وانتفخت على صدغيه شبكات العروق.

- أنا لست ضد فقط، بل اعترض اعتراضاً قاطعاً! انه قرار خاطيء من اساسه.

قال كورتشجينسكي ببرود:

- يمكنك ان تحتفظ برأيك الخاص.

- لا، اسمح لي أن أقول!

- فات أو ان القول، بالابين. قرار طرد ناغولنوف

أخذ بغالبية الأصوات.

- هذه طريقة بيروقراطية في معاملة انسان! اعذروني،

لن اترك الأمر على هذا الحال! سأكتب الى لجنة الدائرة!

تفصلون عضواً قديماً في الحزب، حائز على وسام الراية

الحمراء... هل جننتم، يارفاق؟ وكأنما لا توجد تدابير أخرى

للمعاقبة.

- لا مجال للمناقشة في هذا، فقد صوتنا!

- مثل هذا التصويت يستحق الضرب على البوز!..-

تحول صوت بالابين الى صوت رهيف مصطنع بارتفاعه

وقد توترت رقبته الممتلئة حتى لكان أقل لمس سيجعل

الدم الشاخب يطلع من تحت الاصبع.

قال خوموتوف رئيس التنظيم بمراوغة وخبث:

- الأفضل أن تتساهل بخصوص الضرب على البوز.

نحن نستطيع أن نعيدك الى النظام. أنت في اللجنة الحزبية وليس في إدارة ميليشيا المنطقة.

- أعرف ذلك بدونك! لماذا لا تتركني اتكلم؟

- لأنني أعتبر ذلك زائداً على اللزوم - قال كورتشجينسكي محتداً، واحمر مثل بالابين، و تشبث في ذراعي المقعد - أنا سكرتير اللجنة الحزبية للمنطقة هنا. وأمنعك من الكلام، وإذا كنت تريد تتكلم، فاخرج الى الشارع!

قال رئيس اللجنة التنفيذية محاولاً اقناع بالابين بالحجة:

- لا تحتدم، يا بالابين! لم أنت هائج؟ تفضل اكتب رأيك الى لجنة الدائرة. والا فقد صوتنا، وأنت تلوح بقبضتيك مهدداً بعد العراك.

وأمسك هو بالابين من كم لباسه الرسمي، وقاده الى ركن قائلاً له شيئاً بصوت خافض.

وخلال ذلك رفع كورتشجينسكي الى ماكار عينيه اللامعتين بغضب من تحت جفنين منتفخين، وقد اغاظه الشجار مع بالابين، وقال ببغضاء لم تعد خافية الآن:

- الكلام انتهى، ناغولنوف! أنت مطرود من صفوفنا بقرار المكتب. الحزب ليس بحاجة الى أمثالك. ضع بطاقتك الحزبية هنا! - وضرب على الطاولة بكف يده الصهباء الشعر.

شحب ناغولنوف شحوب الموتى. وسرت في كيانه رعشة قوية، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- لن اعطيك بطاقتي الحزبية.

- سنجبرك على اعطائها.

- اذهب الى لجنة الدائرة، ناغولنوف! - صاح

بالابين من الركن، وقطع حديثه مع رئيس لجنة التنظيم دون أن يتمه، وخرج صافقاً الباب بحدة.

- لن اعطيك بطاقتي الحزبية - كرر ماكار بصوت اكتسب قوة، وراح الشحوب المزرق يزابل جبينه ووجنتيه

الناثنتين - مازال الحزب بحاجة الي... ولا حياة لي بدون الحزب! لن اذعن لك!!.. ها هي البطاقة الحزبية في جيب الصدر، فحاول أن تأخذها! سأقلع لوزتيك!!..
- بدأت الفصول المأساوية - قال المدعي العام وهز كتفيه - أرجوك بلا هستيريا...

ونظر ماكار الي كورتشجينسكي دون ان يعير انتباهاً لكلام المدعي العام، وراح يتكلم ببطء وكأنما بلا تفكير:
- وأين اذهب بدون الحزب؟ ولم؟ لا، لن اعطيك البطاقة الحزبية! نذرت كل حياتي... كل حياتي - واضطرب فجأة بشكل يائس مخذول متملسا المنضدة بيديه، خالطاً الكلمات، مغمغماً بعجالة وغموض - افضل أن تأخذني... قل للآخرين... اقض علي اذن... لا يبقى شيء عند ذلك... لست بحاجة الي الحياة الآن... اقصني عنها أيضاً... يعني اذا الكلب ينبح تحتاجون اليه... واذا شاخ فالي جهنم...

كان وجهه جامداً كقناع من الجبس، وشفتهما وحدهما كانتا تختلجان وتتحركان، ولكنه حين نطق الكلمات الأخيرة سألت الدموع من عينيه الجامدتين كالسيول، لأول مرة خلال حياته الراشدة... سألت غزيرة غامرة خديه، محبوسة في شعر ذقنه الخشن الذي لم يخلق منذ زمان، مبقعة قميصه عند الصدر بلطخات سود.
- كفاك! هذا لا ينفعك، يا رفيق! - وغضن السكرتير وجهه.

فصرخ ماكار:
- لست لك رفيقاً! أنت ذئب مستوحش! جميعكم هنا أصلال سامة! ايديكم والسوط! تعلمتم الكلام المعسول! وانت، يا خوموتوف، لماذا كشرت كال...؟ تضحك من دموعي؟ انت!.. في عام واحد وعشرين حين كان فومين وعصابته يعربد في المنطقة، جئت انت الي لجنة الدائرة، هل تذكرت؟ هل تذكر، يا ذئب الكلبة؟ جئت، ورددت بطاقتك الحزبية، وقلت انك ستشتغل بالزراعة... كنت

تخاف فومين! ولهذا تخليت عن بطاقتك الحزبية... وبعد ذلك تسللت الى الحزب مرة أخرى، مثلما ينسل الحلزون بين الأحجار!.. والآن تصوت ضدي؟ وتضحك من بلواي القاتلة!

- يكفي، ناغولنوف، لا تصرخ، ارجوك، ما تزال امامنا قضايا. - قال خوموتوف الوسيم الأسمر الوجه بلهجة تصالح، وهو ما يزال يخفي بسمه تحت شاربيه الأسودين دون أن يرتبك.

- يكفيني معكم، ولكنني سأنتصر لحقيقتي! سأذهب للجنة المركزية.

- بالضبط! اذهب! وسيحسمون كل شيء هناك في اللحظة! انهم منذ زمان وهم في انتظارك... - وابتسم خوموتوف.

سار ماكار نحو الباب بهدوء ارتطم صدغه بعضادة الباب، فتأوه. امتصت سورة الغضب الأخيرة آخر ما لديه من قوة. فوصل الى الباب الخارجي، لا تشغله فكرة، ولا يخامرهم أي شعور، وفك مقود حصانه من السياج، وسار به من مقوده، لسبب في ذات نفسه. وفي طرف الدسكرة أراد أن يركبه الا أنه لم يقدر. رفع رجله الى الركاب أربع مرات، كان بعدها يبتعد عن حقو السرج مترنحاً كالسكران.

كان شيخ فتى الوجه يجلس على دكة عند البيت الأخير. راح من تحت ظليلة قبعته القوزاقية المقشرة يراقب ماكار بعناية، وهو يحاول امتطاء حصانه، ثم ابتسم مشجعاً.

- نعم الفارس! ما تزال الشمس في كبد السماء وهو لا يستطيع رفع رجليه. أي مناسبة جعلته يسكر مبكراً؟ أعل اليوم عيد؟

- عيد، يا جد فيدوت! - رد عليه جاره وهو يتطلع من وراء السياج - اليوم عيد العاطل سيمون للطواف في الحانات.

- هذا ما أراه - قال الشيخ مبتسماً - يعني لا

شباب أقوى من الشراب! يعيقه عن ركوب حصانه! تماسك،
يا قوزاقي!
صرف ماكار بأسنانه، وما كاد يمس الركاب
بطرف حدائه حتى حط على السرج كالطائر.

الفصل الثالث والثلاثون

في ذلك اليوم وصلت الى غريمياتشي لوغ صباحاً
ثلاث وعشرون عربة كولخوزية قادمة من عزبة يارسكوي.
التقاها بانيك قرب الطاحونة. وكان قد طلع الى السهب
بحثاً عن مهره، وقد علق الرسن على كتفه.
- حبيتم، ايها المواطنون القوزاق!
- حمداً لله! - رد قوزاقي أسود اللحية كان يسوق
حصانين ذيلهما مقطوعان.

- من أين هذه العربات؟

- من يارسكوي.

- ولم خيولكم بلا ذيول؟ لماذا شوهمتموها بهذا الشكل؟-
بررر، قف! ايها الشيطان اللطيف! قطعنا ذيله، ومع ذلك
يتمخطر... تقول لماذا بلا ذيول؟ قطعناها للدولة. وستجعل
نساء المدن من ذيولها مقشاة لطردهن الباب... هل لديك ما
ادخله، أيها الرجل الطيب؟ اتحفنا، فنحن في جوع الى الدخان.
وقفز القوزاقي من العربة.

توقفت العربات الخلفية. وشعر بانيك بالأسف على
مبادرته الكلام. أخرج كيس تبغ على كره منه، وهو ينظر
الى أن حوالي خمسة رجال آخرين يتركون عرباتهم، وهم
يقصون الجريدة في طريقهم ليلفوا بها سيكاترهم.

صاح بانيك البخيل:

- ستأتون على تبغي كله...

- ألا تعرف أننا في كولخوز الآن؟ وكل شيء يجب ان
يكون مشاعاً - قال الملتحي بجهامة، وأخذ قبضة تبغ محترمة
من كيس التبغ البيتي، وكأنما الكيس كيسه.

واشعلوا سيكائهم. اسرع بانيك بحشر كيس التبغ في جيب سرواله، وابتسم، وهو ينظر برثاء مقزز الى ذيول الخيول المقطومة من أرومتها تقريباً. انثال ذباب الربيع المتعطش للدم على الخيول، وحط على اوراقها العرقة، وكواهلها المحكوكه باطواق النير. حركت الخيول اذيالها بحكم عاداتها محاولة هس الذباب، الا أن اعقاب الذيول المقطومة المشوهة الجرداء لم تأت بمفعول.

سأل بانيك بلهجة لاذعة:

- الى أين تشير بذيلها؟

- الى الكولخوز، بالطبع. وعندكم، ألم يقطعوا

الذيول؟

- قطعوها، ولكن بمقدار قليل.

- هذا بأمر رئيس سوفيتنا، وقد حصل على مكافأة.

ولكن لو تصاب الخيول بحكة وتهلك! طيب، لنواصل السير.

شكراً على التبغ. دخنت واستراح قلبي، كنت طوال الطريق

اتشوق للتدخين.

- الى أين ذاهبون؟

- الى غريمياتشي.

- يعني الينا. ولاي غرض؟

- لأخذ البذور.

- كيف... كيف هذا؟

- طلبوا من مركز المنطقة ان نأخذ اربعمائة وثلاثين

بوداً من صندوق البذور عندكم. ديخ، يا حصان!

- هذا ما كنت اتوقعه. - صاح بانيك، وقفل راجعاً الى

العزبة ملوحاً بالرسن.

وما كادت العربات المرسلة من يارسكوي تصل الى

ادارة الكولخوز حتى كان نصف أهل العزبة يعرفون ان رجال

يارسكوي جاؤوا ليأخذوا البذور. راح بانيك ينتقل من بيت

الى بيت دون أن يدخر وسعاً.

في البداية تجمعت النسوة في الأزقة، وأخذن يثرثرن

ويلغظن كسرب من طيور الحجل المستثارة.

- يأخذون قمحنا، يا حلوات!
- وبأي شيء سنبذر!
- آه، يا رأسي!
- الطيبون كانوا يقولون لا داعي لجمع البذور في
مستودع عام...

- ليت الرجال استمعوا لنا!
- يجب أن نذهب، ونطلب من الرجال أن لا يسلموا
الحبوب!

- ونحن أيضاً لا نسلهما! لنذهب الى العنابر،
يا نساء. ونأخذ عصيا، ولا ندع أحداً يقترب من أبقالها!
ثم جاء الرجال القوزاق. وجرت بينهم مثل هذه الاحاديث
أيضاً. ومن زقاق الى زقاق، ومن شارع الى شارع تجمعوا
في جمع غير قليل، وتحركوا نحو العنابر..

وخلال ذلك كان دافيدوف قد قرأ المذكرة الرسمية
التي كان اليارسكويون قد جاؤوا بها من لوبيتوف رئيس
ادارة الاتحاد الزراعي في المنطقة. فقد كتب هذا:

- الرفيق دافيدوف، لقد تبقى في عنبرك ٧٣ سنتنارا*
من مشتريات الدولة من الحبوب لم يسلم بعد. واقترح
عليك ان تسلم هذه الحبوب (٧٣ سنتنارا) الى كولخوز
يارسكوي الذي يشكو من نقص في البذور. وقد وضبت
الامر مع ادارة مشتريات الدولة».

قرأ دافيدوف المذكرة، وأمر باعطاء الحبوب. اتجه
اليارسكويون من فناء ادارة الكولخوز الى العنابر. ولكن
الناس كانوا يملأون الشارع عند العنابر. واحاط العربات
حوالي مائتي امرأة ورجل من القوزاق.

- الى أين ذاهبون؟
- لتأخذوا حبوبنا؟ الشياطين جاءت بكم!
- استديروا.
- لن نعطيكم.

* مقياس كمي يساوي ١٠٠ كيلوغرام. المترجم.

انطلق ديمكا اوشاكوف ليستدعي دافيدوف.
فجاء هذا الى العنابر عدواً.

- ما الخبر، يا مواطنون؟ ما سبب تجمعكم؟
- لماذا تعطي حبوبنا لليارسكويين؟ وهل جمعناها
لنعطيها لهم؟

- من الذي اعطاك هذه الحقوق، يا دافيدوف؟
- وبم سنبذر بعد ذلك؟

صعد دافيدوف الى درج أقرب العنابر، ووضح بهدوء
انه لا يعطي البذور بل متبقيات مشتريات الدولة من
الحبوب، وبناء على أمر صادر من الاتحاد الزراعي للمنطقة.
- لا تقلقوا، ايها المواطنون، حبوبنا ستبقى كاملة.
اما أنتم فلاحرى بكم ان تخرجوا الى الحقل بدلا من التلكؤ
بلا عمل وتقريز الحب. وليكن في علمكم ان رؤساء الفرق
سيسجلون أسماء الذين لم يخرجوا الى العمل. وسيغرمون.
غادر بعض القوزاق الشارع. وتوجه الكثيرون الى
الحقل، وقد طمانهم تصريح دافيدوف. وأخذ الخازن يزن
الحبوب لليارسكويين. وعاد دافيدوف الى ادارة الكولخوز.
ولكن بعد نصف ساعة طرأ تغير حاد في مزاج النساء
اللواتي ما زلن متجمعات قرب العنابر. وقد ساعد ياكوف
لوكيتش على هذا التغير، حين همس لبعض القوزاق.
- دافيدوف يكذب! انهم يأخذون البذور! الكولخوز
سيكون له ما يبذره، ولكن ما جمعه الفلاحون الفرادى يعطى
لكولخوز يارسكوي.

واضطربت النسوة. وتشاور بانيك وديميد الصموت
والجد دونتسكوف وحوالى ثلاثين قوزاقياً آخرين، وتقدموا
من الميزان. وأعلن دونتسكوف باسم الجميع:

- لن نعطي الحبوب!

فرد ديمكا اوشاكوف بلذاعة:

- لا أحد يطلب منكم اذنًا!

وبدأت بينهم مناوشة في الكلام. ووقف اليارسكويون
في طرف ديمكا. والقوزاقي ذو اللحية السوداء الذي

استضافه بانيك على تبغه في مشارف العزبة صعد على
العربة بكل قامته، ولخمس دقائق ظل يرسل شتائم القاسية،
ثم أخذ يصرح:

- ما لكم تغالفون السلطة؟ لماذا تعنفوننا؟ قطعنا في
هذا الحر أربعين فرسخاً، وأنتم تحتجزون حبوب الدولة؟
سيحاسبكم امن الدولة حساباً عسيراً! أنتم، يا أولاد
الكلبة، يجب أن تنفوا الى سولوفكي! انتم مثل الكلاب
الرابضة على التبن لا تأكل منه، ولا تعطيه للآخرين. لماذا
لا تخرجون الى الحقل؟ هل انتم في عيد؟..

- وأنت ما شأنك في هذا؟ هل لحيتك تحكك؟
سنحكها لك!.. الآن في الحال! - صاح بيسخليبنوف
اكيم الأصغر، وهو يطوي كفه، ويتقدم من العربة.

قفز القوزاقي الملتحي اليارسكوي من العربة. لم يطو
كمي قميصه البني الجائل، ولكنه استقبل اكيم الأصغر
بضربة قوية بارعة على فكه جعلت اكيم ينقذف حوالى
مترين دافعاً الناس بظهره مرفرفاً بذراعيه الشبيهتين بأذرع
الطاحونة الهوائية.

ونشب عراك لم تشهده غريمياتشي لوغ منذ زمان.
وهرس اليارسكويون هرساً شديداً حتى تسربلوا بدمائهم،
فعافوا زكائب الحبوب، وصعدوا على عرباتهم، وساطوا
خيولهم، وشقوا طريقهم عبر حشد النساء الزاعقات،
وانطلقوا هاربين.

ومنذ تلك الساعة سرت موجة القلاقل في غريمياتشي
لوغ. ارادوا انتزاع مفاتيح عنابر البذور من ديمكا اوشاكوف،
ولكن ديمكا الحذق أنسل من الحشد أثناء العراك، وجرى
الى ادارة الكولخوز.

- أين أخبىء المفاتيح، يا رفيق دافيدوف؟ أهل
عزبتنا يضربون اليارسكويين والآن يبدو أنهم سيأتون
الينا.

قال دافيدوف بهدوء:

- اعطني المفاتيح.

أخذ المفاتيح، ووضعها في جيبه، وذهب الى العنابر.
وخلال ذلك كانت النسوة قد استطنن اخراج اندريه
رازميوتنوف من سوفيت القرية صائحات بضراوة:

- اعقد اجتماع نقاش!
- يا نساء، يا عمات، يا أمهات، يا حبيباتي! لا وقت
للاجتماعات الآن! يجب أن نذر لا أن نعقد الاجتماعات! ما
حاجتكن الى اجتماع نقاش؟ هذا تعبير الجنود: قبل ان
نتكلم عن اجتماعات النقاش يجب ان نلازم الخندق ثلاث
سنوات! يجب الخروج الى الحرب اولا وتغذية القمل
بدمائنا وبعد ذلك يمكن التحدث عن اجتماع النقاش.
حاول رازميوتنوف بذلك اقناع النسوة ولكنهن لم
يصغين اليه، وتشبثن بسرواله وكميه وذيل قميصه
وسحبته سحباً الى المدرسة، وهو جهم عبوس، وصحن:

- لانريد أن نلازم الخنادق!
- لانريد الخروج الى الحرب.
- اعقد اجتماع النقاش، و الا عقدناه بانفسنا!
- انت تكذب يا ابن الكلبة! فانت الرئيس!
ويحق لك.

دفع اندريه النسوة، وسد اذنيه بأصابعه، محاولاً أن
يعلو على أصواتهن وزعق.
- اسكتن، يا لعينات، ابتعدن قليلاً! لأي غرض تريدن
عقد الاجتماع؟

- عن الحبوب! سنتحدث معكم عن الحبوب!
...وفي آخر المطاف اضطر رازميوتنوف الى ان يقول:
- اعتبر الاجتماع مفتوحاً.
طلبت الارملة يكاترينا السارحة:
- اسمح لي ان اتكلم.
- تكلمي، عليك اللعنة!..
- لا تلعن، يا رئيس! والا رددت لك الصاع صاعين.
بأي وجه حق سمحتم بأن ياخذوا حبوبنا؟ من أمر باعطائها
لليارسكويين ولأي غرض؟

وطوت السارحة جذعها، ويدها على خصرها تنتظر الجواب.

شور اندريه عليها بذراعه، وكأنه يطرد ذبابة لجوجاً.
- الرفيق دافيدوف شرح لكم ذلك شرحاً وافياً. وأنا لم افتح الاجتماع للاستماع الى هذه السخافات، بل لأننا - وتنهذ اندريه - بحاجة الى ان نجتمع كل قوانا، أيتها المواطنين الصالحات، لمكافحة السوائق القارضة؟..
ولم تنفع مناورة اندريه.

- سوائق قال!

- لاشأن لنا بالسوائق

- اعطونا الجبوب!..

- قطع لسانك، يا ابو اللسان الطويل! اذا خرجنا لاصطياد السوائق فمن سيترككم عن الجبوب؟

- لاجابة الى الكلام عنها!

- اها، لا حاجة! اعيدوا لنا جبوبنا!

وبدأت النسوة بقيادة السارحة يتقدمن من خشبة المسرح. كان اندريه يقف بالقرب من كشك الملحن التنكي. وكان ينظر الى النسوة بابتسامة ساخرة، ولكنه في قرارة نفسه كان يحس بشيء من الفزع. فقد ظهرت الجهامة على وجوه القوازيق المتجمعين الى الخلف، وراء الحقل الزاهي الذي كانت تشكله مناديل النسوة المتقاربة.

- انت تلبس الحذاء العالي شتاءً وصيفاً، ونحن لا نملك ما نشترى به حتى الحذاء العادي.

- صار قوميساراً!

- يعني هل مر زمان طويل حين كان يسير في سروال زوج مارينا؟

- سمن له بوزاً.

- اخلعن حذاءه، يانساء!

وهدرت الصيحات كرشقات نيران مرتبكة. تجمعت بضع عشرات من النساء قرب المسرح تماماً. حاول اندريه جاهداً أن يعيد الهدوء. فقد كان صوته لا يسمع.

- اخلعن الحذاء منه! يا نساء، هيا، حالا!
وفي لمحة واحدة امتد نحو المسرح عدد كبير من
الايدي. وامسكت اندريه من رجله اليسرى. تشبث اندريه
بالكشك، وشحب من الغيظ، ولكن فردة الحذاء قد خلعت،
ورميت الى الخلف. تلاقفتها أيد كثيرة، مبتعدة الى الخلف
أكثر فأكثر، وارتفع ضحك خبيث غير ودي. وترددت من
الصفوف الخلفية اصوات رجالية مشجعة:

- اخلعن حذاءه!

- جردنه من بنطال الركوب!

- اخلعن الفردة الثانية!..

- هيا، يا نسوة! اطرحنه، الخنزير!..

وانخلعت الفردة الثانية من قدم اندريه. نفص اندريه
من قدميه اللفتين، وصاح:

- واللفتان أيضاً؟ خذن! ربما ينتفع بهما أحد ليمسح

انفه!

تقدم بعض الفتيان من خشبة المسرح بسرعة. وكان
من بينهم الفلاح الفردي يقيم تروباتشيف، الضخم الغليظ
الشفيتين. ابن رجل كان يخدم في فوج الاتامان. دفع النسوة،
وصعد على المسرح. وقال وهو يبتسم ثقيل الانفاس:
- لسنا بحاجة الى لفافاتك. اما السروال فسنخلعه
منك، يا رئيس...

- نحن في شديد الحاجة الى السروال! الفقراء ليست
لهم سراويل يلبسونها، وملابس الكولاك المصادرة ليس
كافية. - شرح ذلك بطريقة متراخية فتي آخر اصغر سناً،
وأقل حجماً، ولكنه لعوب مشاغب في مظهره.

كان هذا الفتى المكنى بالداخن أجعد الشعر بشكل
نادر المثال. وكان شعره الملتف الفاتح الداخن يسرح من
تحت قبعته القوزاقية العتيقة تلافيف مبعثرة، وكأنما لم
يمشط مرة في حياته كلها. كان ابو الداخن قد قتل في
الحرب ضد الالمان، وأمه ماتت بالتيفوس، فنشأ الداخن
الصغير في وصاية عمته. وكان منذ صغره يسطو على

حدائق الآخرين ليقطلع منها الخيار والفجل، وعلى البساتين ليقطع الكرز والتفاح، ويحمل البطيخ من حقول القرعيات اكياساً، وعندما بلغ سن النضج ولع بافساد فتيات العزبة، وكسب لنفسه في هذا المضمار سمعة سيئة بعيدة الصدى حتى ان ما من أم في غريمياتشي لها ابنة راشدة يمكن ان تتحمل النظر اليه، والى هيئته الصغيرة والمكتنزة في الوقت ذاته كهيئة الصقر. فاذا وقع بصرها عليه فلا بد ان تبصق في ناحية، وتهمس:

– هذا الشيطان أبو العين البيضاء يسير! الكلب السائب لا ينقطع عن التجوال في العزبة... – وتقول لابنتها. وأنت، لماذا بجلقت بعينيك؟ لماذا تتسمرين على الشباك؟ اياك ان تأتي بطفل في أذياك، وساخنقك بيدي! أجلبني بعض الجلة للموقد، يا بنت الكلبة، واذهبي لاستقبال البقرة!

اما الداخن فكان يسير بمحاذاة. سيجة البيوت واطناً الأرض بجذائيه الممزقين مثلما يطأ الأرض وحش ناعم البرائن، صافراً بهدوء ويتطلع من تحت رموشه المعكوفة المشعة الى النوافذ، وباحات البيوت، وما ان يلمع مندبل فتاة في مكان ما، حتى يغير الداخن مظهره المتكاسل الثقيل بلمح البصر. فيدير رأسه بحركة قصيرة دقيقة سريعة كحركة الصقر، وينتصب بجذعه الا أن ما يطل من عينيه المبيضتين ليس هو شراسة الطائر الكاسر بل رقة ونعومة متناهية. وحتى عيناه أنفسهما تبدوان في تلك اللحظة وكأنهما تغيران لونهما، وتصيران زرقاوين بلا قرار كسماء تموز. «فيكتوشكا! يا زهرتي السماوية! حالما ستظلم الدنيا اليوم، سأتي الى ماوراء البيت. اين ستنامين الليلة؟» فترد الفتاة على الماشي بلهجة صارمة جازمة: «أوه، دعني من حماقاتك!»

فينظر الداخن في اثرها بابتسامة فاهمة، وينصرف. وعند غروب الشمس يعزف قرب شونة الكولخوز على اكورديون صديقه المبعد تيموفي الأشرم، ولكن ما أن تهبط

الظلال الزرق على الحدائق والخمائل، ويهدأ لفظ الناس، وأصوات الماشية، حتى يتهدى الداخن في الزقاق متماهلاً متجهاً الى بيت فيكتوشكا، وفوق ذرى أشجار الحور المتهاسسة بحزن، فوق العزبة الساكنة يتهدى بدر مدور كوجه الداخن.

لم تكن الفتيات متعة الداخن الوحيدة في الحياة، فقد كان يحب الفودكا، واكثر من ذلك العراك. فأينما يكون العراك تجد الداخن هناك. في البداية يتفرج ضاماً يديه وراء ظهره بقوة، ساجباً رأسه بين كتفيه، ثم تبدأ ركبتاه بالارتجاف بسرعة، ويتحول الارتجاف الى شيء لا يكبح، ولا يستطيع الداخن أن يسيطر على الهوس المضطرم في نفسه، فيدخل العراك. وفي سن العشرين لحق أن يفقد نصف دوزينة من أسنانه. في بعض المرات كان يضرب حتى يسيل الدم من حنجرته. كان يضرب على محارشته للفتيات، وعلى تدخله في شجارات الآخرين التي كانت تحل بقوة القبضات. ويسعل الداخن، ويبصق دماً، ولنحو من شهر يظل طريح سطحه الموقد في بيت عمته الباكية ابداً ثم يعاود الظهور في تجمعات الشباب للطرب وتعود عيناه الزرقاوان ترقان اشد من ذي قبل، وتجري اصابعه على مفاتيح الاكورديون بخفة أكثر، وصوته وحده يصير، بعد المرض، اكثف واكثر بحة مثل زفرة الهواء التي يطلقها منفاخ اكورديون عتيق.

وكان من الصعب انتزاع الحياة من الداخن، فهو كالقطة، ذو سبعة أرواح. طرد من الكومسومول وحوكم على شقاوته واضرامه للحرائق. وقد اعتقله اندريه رازميونوف غير مرة لاخلاله بالنظام وساقه لقضاء ليلته في سقيفة سوفيت القرية. فكان الداخن يكن له منذ زمان ضعفاً عظيماً، وها هو قد رأى الفرصة سانحة للانتقام، فصعد الى خشبة المسرح ليصفي الحساب.

صار يتقدم من اندريه أكثر فأكثر، وراحت ركبتاه ترتجفان، فبدا وكأنه يرقص.

- اعطنا بنطلون الركوب... - وزفر الداخن زفرة عالية - هيا، اخلعه!..

واشدد تدفق النسوة على المسرح، ومن جديد أحاط باندرية حشد كثير الايدي، وحاصره بطوق لاينفذ لافحاً بانفاسه الحارة وجهه وقذاله.

صرخ اندريه:

- أنا رئيس السوفيت! الهزء بي هزء بالسلطة السوفيتية. ابتعدوا! لن أسمح لكم بأخذ الجيوب! أعتبر الاجتماع قد أغلق!..

- سنأخذها بأنفسنا!

- ها، ها! اغلق الاجتماع!

- سنفتحه.

- ونذهب الى دافيدوف، ونخضه ايضاً!

- هيا، الى الادارة!

- الأفضل ان نحجز رازميوتنوف هنا.

- اضربوه، يا أولاد!..

- مالكم تتطلعون اليه؟!

- انه ضد ستالين.

- احبسوه.

سحبت احدى النساء الغطاء الأحمر من منضدة الرئاسة، وغطت به رأس رازميوتنوف من الخلف. وبينما كان رازميوتنوف يجاهد لازاحة القماشة المشبعة برائحة الجبر والغبار ضربه الداخن على ضلوعه ضربة قصيرة.

حرر اندريه رأسه من القماشة، وأخرج المسدس من جيبه وهو يشهق من الحنق العارم والألم. تراجعت النسوة صارخات متفرقات، الا ان الداخن، ويفيم تروباتشيف وقوزاقيين آخرين من الذين صعداوا الى خشبة المسرح أمسكوه من يده، وجردوه من سلاحه.

- هم أن يطلق النار على الناس! ابن الكلبة! - صاح تروباتشيف متهللاً، رافعاً فوق رأسه مسدس رازميوتنوف بقرصه الخالي من أية رصاصة...
٣٥٠

ابطأ دافيدوف خطوة لارادياً، حين سمع هدير التهديد الموصول قادماً من العنابر «أيايايايايا!» متصاعداً عالياً، وارتفع صياح نسائي ثاقب فوق أصوات الرجال العالية النبرات. وبرز بحدّة من بين جمهرة الأصوات المترصّة، مثلما يحصل خريفاً في غابة مستها نوبات الجمد الأولى، حين يبرز من ضجة الطراد العامة النباح العميق الناشج والناحب بضراوة، ذلك الذي تطلقه كلبة طراد تتعقب مع القطيع الآثار الطرية لوحش معتبر.

وفكر دافيدوف: «يجب أن ابعث لاستدعاء الفريق الثاني، والا فسيتناهبون الحبوب». فعزم على العودة الى ادارة الكولخوز ليخبيء مفاتيح عنابر البذور في مكان ما. كان ديمكا اوشاكوف يقف عند البوابة الخارجية ذاهل البال.

– احاول أن اتواري عن الأنظار، يا رفيق دافيدوف،
والا فسيتحارثون بي بسبب المفاتيح.

– هذا شأنك. هل نايدينوف غائب؟

– مع الفريف الثاني.

– ولا يوجد أحد هنا من الفريق الثاني؟

– يوجد كوندرات مايدانيكوف.

– أين هو؟ ماذا يفعل هنا؟

– جاء ليأخذ البذور. هاهو.

كان مايدانيكوف يقترب منهما مسرعاً. لوح بسوطه
وصرخ وهو مايزال بعيداً عنهما:

– الجمهور اعتقل اندريه رازميوتنوف! وجبسه في
السرداب، وهو الآن في طريقه الى العنابر. توار عن الأنظار،
يا رفيق دافيدوف، والا وقع المحذور... الناس ركبهم
الشیطان تماماً.

– لن اختبئ! هل جننت؟ خذ المفاتيح، وانطلق الى
الفريق، وقل لليوبشكين بأن يرسل حوالي خمسة عشر رجلاً
الى هنا على الفور. أنت ترى الحال عندنا... الشغب

سيبدأ من لحظة الى أخرى. وأنا لا اريد ان اقلق مركز المنطقة، سنسوي الأمر بأنفسنا. في أي واسطة جئت؟

- جئت في عربة.

- فك أحد حصانها، وانطلق به!

- في الحال!..

وحشر مايدانيكوف المفاتيح في جيبه، وهرول في

الزقاق.

كان دافيدوف يسير صوب العنابر متمهلاً. وقد هدأ الحشد بعض الشيء في انتظاره. «الشیطان قادم!» صاحت امرأة بشكل هستيري مشيرة الى دافيدوف. ولكنه لم يستعجل. توقف أمام أنظار الجميع ليلف سيكارة، وأدار ظهره للريح. وأشعل عود ثقاب.

- تعال، تعال. تلحق أن تدخن!

- ستدخن كثيراً في الآخرة.

- هل المفاتيح معك أم لا؟

- أظنها معاً! المذنب يعرف أي ذنب اقترف!

اقترب دافيدوف من الصفوف الأولى وهو ينفث دخان سيكارتته، وقد وضع يديه في جيبه. ترك مظهره الواثق بالنفس والهاديء تأثيراً مضاعفاً على حشد المتجمعين فشعر بعضهم بأن وراء هذه الثقة بالنفس وعياً بالقوة والتفوق، بينما أثار هدوءه الظاهري نائرة البعض الآخر. وترامت الصيحات كالبرد على سطح من حديد.

- هات المفاتيح!

- حل الكولخوز!

- ارحل من هنا. من طلب منك ان تأتي؟!

- هات البذور!

- لماذا لا تدعنا نبذر؟

كان النسيم الرخي يلاعب أطراف مناديل النساء، ويخشخش بجداول القصب على سطوح العنابر، ويحمل من السهب الرائحة العذبة للأرض المتجففة وعبقاً كعبق العنب غير المختمر ترسله الاعشاب الفتية، وكان الشذى العسلي

لبراعم الحور المنتفخة شديد الحلاوة حتى ان دافيدوف، حين أخذ يتكلم خامره الاحساس بأن شفثيه تتدبقان، بل وكان يشعر بطعم العسل.

– ما هذا، يا مواطنون، تركتم اطاعة اوامر السلطة السوفيتية؟ لماذا لم تعطوا الحبوب لكولخوز يارسكوي؟ الا تتصورون ان ذلك يعرضكم للمثول امام المحكمة على تخريبكم الحملة لبذار الربيع؟ هذا ما ينتظركم، حقيقة! السلطة السوفيتية لا تغفر لكم ذلك!

– سلطتك السوفيتية محبوسة الآن عندنا! المحروسة محبوسة في السرداب! – رد الفلاح الفردي ميرون دوبروديف، وهو قوزاقي قصير القامة اعرج، ملمحاً بذلك الى اعتقال رازميوتنوف.

ضحك بعض الاشخاص، ولكن بانيك تقدم الى الامام وصاح في حنق:

– السلطة السوفيتية لا تفرض الشكل الذي تبتدعونه انتم هنا. نحن لن نخضع للسلطة السوفيتية التي ابتدعتها أنت وماكار ناغولنوف! أية بدعة في ان تمنعوا المزارعين من البذار؟ أى شيء هذا؟ هذا تشويه للحزب!

– من نمعه من البذار؟ أنت؟

– وهل تتركونني افعل؟

– هل جلبت حصتك من البذور في صندوق البذور

المشترك؟

– جلبت.

– ألم تتسلمها من جديد؟

– تسلمتها. وماذا بعد؟

– ومن يمنعك من البذار، اذن؟ لماذا أنت تتسكع هنا

قرب العنابر؟

ارتبك بانيك قليلا من الانعطاف المبالغ له في الحديث، ولكنه حاول ان يتملص:

– أنا لا أتكلم عن نفسي، بل عن الناس الذين تركوا الكولخوز، ولم تعيدوا لهم بذورهم، انهم لا يملكون شيئاً.

هذا ما اقصده! ثم أنا، أي أرض خصصتم لي؟ ولماذا في مكان بعيد؟

- اخرج من هنا - قال دافيدوف ولم يصطبر - معك سنتكلم فيما بعد، حقيقة! لا تحشر انفك في شؤون الكولخوز، والا سنبتره لك! أنت تعمل على اثاره الناس! اخرج، قلت لك اخرج!

تراجع بانيك متمماً بكلمات الوعيد، وتقدمت في مكانه كتلة متماسكة من النساء، رحن يصرخن دفعة واحدة، وفي صوت واحد، ولا يدعن دافيدوف يتفوه بكلمة واحدة. حاول ان يكسب الوقت، ليتسنى لليوبشكين الوصول مع فريقه، الا أن النساء احطن به، زاعقات زعيقاً مصماً، يشجعهن تجاوب الرجال الصامت معهن.

تلقت دافيدوف فرأى مارينا بياركوف. كانت تقف على مبعدة، طاوية على صدرها ذراعيها القويتين العاريتين حتى الكوع، وهي تتحدث بحيوية الى النساء، مقطبة حاجبيها الفاحمين المنعدين تقريباً على منبت أنفها. التقت دافيدوف نظرتها العدائية، وفي نفس اللحظة تقريباً رأى بالقرب منها ياكوف لوكيتش يبتسم بانفعال وترقب، ويهمس بشيء لديميد الصموت.

- هات المفاتيح. هاتها بالمعروف، تسمع؟
وامسكت احدي النساء دافيدوف من كتفه، ودست يدها في جيب سرواله.

دفعها دافيدوف بقوة. ترنحت المرأة وسقطت على ظهرها، وصاحت متظاهرة:

- أوي، قتلني، قتلني! يا أعزائي انقذوني!..
- ما هذا؟ - قال شخص من الصفوف الخلفية بصوت قوي راعش - يعني هو الباديء في العراك؟ طيب، يا جماعة، اهرسوه حتى يطفر الدم من أنفه!..

خطا دافيدوف ليسانء المرأة على النهوض من سقطتها، ولكن طاقيته طرحت من على رأسه، ووجهت له عدة ضربات على وجهه وفي ظهره، وأمسكت يدها. حرك كتفيه وألقى

عنه النساء العالقات به، الا أنهم عدن فتشبتن به من جديد،
ومزقن ياقة قميصه، وفي ثوان معدودة نبشن جيوبه وقلبتها
على بطاناتها.

- المفاتيح ليست معه؟

- أين المفاتيح؟

- ها ت...ت! سنكسر الأقفال على كل حال.

شقت عجوز مهيبة، هي أم ميشكا ايغناتيونوك - طريقها
نحو دافيدوف وهي تنشج، وتشم شتائم مقدعة، وبصقت
على وجهه.

- هذه لك، أيها الشيطان، الكافر!

أمتقع دافيدوف، وجمع كل قواه محاولا ان يحرر يديه،
ولكنه لم يستطع. والظاهر ان أحد القوزاق هرع لمساعدة
النسوة. قبضت اصابع معقدة جاسية على كوعيه من الخلف،
وصغطت عليهما كالكماشة. عندها كف دافيدوف عن محاولة
الافلات. أدرك ان الوضع قد تجاوز الحد، وانه لن يجد بين
الحاضرين من يمد له يد العون، ولهذا قرر أن يتصرف
بشكل آخر:

- المفاتيح ليست معي، أيها المواطنون. المفاتيح
محفوظة... - وتردد دافيدوف، فقد اراد ان يقول محفوظة
عند، ولكنه فطن في الحال الى انه حين سيقول ذلك
سينطلق الناس للبحث عن ديمكا اوشاكوف، وسيجدونه
في أغلب الظن، وسيقتلونه لامحالة. «سأقول انها في
بيتي، وسابحث عنها هناك واقول انني فقدتها. وخلال ذلك
يكون ليوبشكين قد وصل، اما انا فلا اظنهم سيقتلونني،
عليهم اللعنة!» وصمت، ومسح الدم بكتفه من خده
المخدوش، ثم قال - المفاتيح محفوظة عندي في البيت،
ولكنني لن اعطيها لكم، اما اذا كسرتم الأقفال فستحاسبون
بكل صرامة، فليكن هذا في علمكم، حقيقة!
اصرت أم ايغناتيونوك:

- قدنا الى هناك، وسنجد مفاتيحك بأنفسنا.

كان خداهما المرتخيان والثؤلول الكبير على أنفها

يرتعش، والعرق يتحدر على وجهها المتغضن بلا انقطاع. وكانت هي أول من دفع دافيدوف، فسار على مضض وببطء باتجاه منزله.

استفسرت اfdوتيا زوجة بانيك:

- وهل المفاتيح هناك حقاً؟ ربما نسيت؟
- انها هناك، يا عمّة! - اكد لها دافيدوف، وخفض رأسه مخفياً ابتسامه.

كانت أربع نساء يمسكن بيديه، وخامسة تسير خلفه تحمل عصا غليظة، وكانت أم ايغناطيونوك العجوز تسير في الجهة اليمنى بخطى رجولية كبيرة مهترزة بكل جذعها، وفي الجهة اليسرى كانت النساء الاخريات يسرن جماعات صغيرة بينما بقي الرجال قرب العنابر في انتظار المفاتيح.
ترجى دافيدوف:

- أتركي يدي، يا عمّة، لا اهرب.

- عليك الطاعون، ربما تهرب.

- لا، أبداً.

- سر في وسطنا، لنكون اهدأ بالا.

وصلوا الى المنزل. طرحت النسوة الباب الخارجي من الاغصان المضفورة، والسياج، واقتحمن الفناء.

- اذهب، واجلب المفاتيح. وإذا لاتجلبها استدعينا القوزاق رأساً، ليدقوا عنقك حالا.

- آه، يا عمّات، بهذه السرعة نسيتم السلطة السوفيتية! انها لن تغفر لكم هذا!

- المبلل لا يخاف من المطر! لا فرق عندنا اذ نحاسب الآن او نموت من الجوع في الخريف، حين لا نبذرا! اذهب، اذهب!

دخل دافيدوف حجرته، ولما كان يعرف انه مراقب تظاهر بأنه يبحث بكل جهده. نبش كل شيء في الحقيبة، وعلى الطاولة، ونفض كل الاوراق، واندس تحت السرير، وتحت الطاولة المائلة القوائم.

وخرج الى مقدمة البيت، وأعلن:

- لم أجد المفاتيح.
 - اين هي اذن؟
 - أظنها عند ناغولنوف!
 - ولكنه مسافر!
 - وماذا في ذلك! سافر وترك المفاتيح في مكان ما، ربما. بل اعتقد أنه فعل ذلك بالتأكيد فقد كان علينا ان نعطي الحبوب اليوم الى الفريق الثاني.
 اخذنه الى بيت ناغولنوف. وصرن يضربنه في الطريق. في البداية كن يدفعنه قليلا ويشتمن، وبعد ذلك غضبن عليه، لانه كان طوال الطريق يتضحك ويمزح، وأخذن يضربنه بشكل معتبر.

- يا مواطنات! يا محبوباتي العزيزات! على الاقل لاتضربنني بالعصا! - راح يستميلهن، قارصاً النساء القريبات بينما خفض هو رأسه وارغم نفسه على الابتسام. امطرنه ضربات لارحمة فيها على ظهره العريض المحني الرنان، ولكنه كان يتأوه فقط، ويحرك كتفيه، ويظل يمزح رغم الألم:

- آه، يا جدة! كان يجب ان تكوني في القبر الآن، ولكنك تتعاركين. دعيني اضربك مرة واحدة على الأقل. ها؟

- يا صنم بلا احساس! يا حجر بارد! - صاحت ناستنكا دونتسكوكا الشابة والدموع تكاد تطفر من عينيها، وأخذت قبضتيها الصغيرتين ولكن القويتين تنزل على ظهر دافيدوف بجدة - رضضت يدي كليهما، وهو لا يحس!..

- لا تضربي بالعصا! - غمغم دافيدوف بجدة لأول مرة، من خلال اسنانه المصكوكة، واختطف من إحدى النساء عصا صفصافية يابسة، وكسرها على ركبته.

لقد آدمين أذنه، ومزقن شفثيه وأنفه، ومع ذلك فقد ظل يبتسم بشفتين متورمتين مظهرأ موضع سنه الامامية المفقودة، ويدفع عنه بتؤدة ورقق النساء اللواتي كن

بهاجمه بضراوة ملحوظة. وكانت ام ايغناطيونوك العجوز
بالتؤلؤل المرتعش على أنفها غيظاً تضايقه كثيراً. فقد كانت
تضربه ضرباً موجعاً، وتسعى لأن تقع ضرباتها اما على
منبت أنفه، واما على صدغه، وكانت لا تضربه كما تضربه
الاخريات، بل بظاهر قبضتها، وباصابعها العظمية
المضمومة. وكان دافيدوف أثناء سيره يحاول جاهداً ان
يدير لها ظهره، فكانت تدفع النساء ناخرة وتركض امامه
وتبج:

- اتركني اضربه على خرطومه! على خرطومه!
وكان دافيدوف يقول في سره بحنق بارد متحاشياً
الضربة: «طيب، انتظري، آيتها العلجوم الشائه. حالما
يظهر ليوبشكين ساضربك ضربة تجعلك تدورين
كالمغزل!»

وليوبشكين وفرسانه لم يطلوا بعد. سار موكب النساء
الى منزل ناغولنوف. وفي هذه المرة دخلت النسوة المنزل
مع دافيدوف. ونبشن كل شيء، ونثرن الاوراق والكتب
والبياضات، بل وبحثن عن المفاتيح عند أهل البيت، ولم
يجدنها بالطبع، ودفعن دافيدوف الى مقدمة البيت.

- اين المفاتيح؟ سنقتلك!
- عند اوستروفنوف! - اجاب دافيدوف، وقد تذكره
واقفا مع الحشد عند العنابر، يتسم بشماتة.
- انت تكذب! سألناه، فقال ان المفاتيح لا بد ان تكون
معك!..

- يا مواطنات! - قال دافيدوف ومس انفه المنتفخ
بفضاعة، وابتسم ابتسامة باهتة - يا مواطنات! ما كان
بحاجة مطلقاً الى ضربتي بهذا الشكل. الآن تذكرت تماماً...
المفاتيح موجودة في منضدتي في الادارة، حقيقة!
- ولكنك تضحك علينا! - صاحت يكاترينا السارحة،
وهي مقبلة من العنابر مسرعة.

- سرن بي الى هناك! اي ضحك في مثل هذا الموقف؟
فقط. ان لا تضربني، رجاء!

نزل دافيدوف درجات البيت. كان العطش يظنيه، والغيظ القاهر يتصاعد في داخل نفسه. كان قد ضرب غير مره حيّاته، ولكنه الآن كان يضرب بأيدي النساء لأول مرة، وهذا ما كان يشعره بعدم الراحة نفسياً: «فقط ان لا اقع، والا فسيجن جنونهن، ولا يكون لديهن رادع للقضاء علي وسيكون ذلك موتاً سخيلاً، حقيقة!» كان يفكر مصوباً بصره الى الهضبة في أمل - ولكن لاغبار تصاعد من الطريق من تحت سنايك خيول، ولا فرسان أنثالوا كالسيل. الهضبة خالية من الناس على امتدادها حتى التل البعيد في الافق...

والشوارع أيضاً خالية. الجميع تجمعوا عند العنابر، حيث كان يتراعى هدير مكثف لأصوات عديدة. والى ان وصلوا الى الادارة كان دافيدوف قد ضرب ضرباً شديداً حتى كان يجد عسراً في البقاء على قدميه. وقد كف الآن عن المزاح، وصار يتعثر أكثر فأكثر حتى في الأرض المنبسطة، ويمسك برأسه، ويربد لونه، طلب اليهن بصوت كامد:

- يكفي! ستقتلني... لا تضربن على الرأس... المفاتيح ليست عندي! سأظل اسير بكن حتى الليل ولا مفاتيح... لن أعطيها!

- أها، الى الليل؟! - تأوهت النسوة المحنقات، ومن جديد التصقن بدافيدوف الخائر القوى كالعلق، ووقعن عليه خدشاً وضرباً وحتى عضاً.

عند فناء ادارة الكولخوز جلس دافيدوف في الطريق. كان قميصه الجفناصي ملطخاً بالدم، وبنطلونه القصير من بنطلونات أهل المدن، المحكوك من الاسفل ممزقاً عند الركبتين، وكان صدره الاسمر الموشوم يبرز من الياقة المفتوحة. وكانت انفاسه ثقيلة صافرة، ونظراته بائسة.

- سر، يا ابن الكلا... بة!.. - وضربت أم ايغنايونوك العجوز الأرض بقدميها.

قال دافيدوف برنة في صوته غير متوقعة، وأجال في الجانبين عينيه المنورتين بشكل غريب:
- نحن نعمل من اجلكم!.. وانتم تقتلونني... آه، بهائم! لن اعطيكم المفاتيح، مفهوم؟ حقيقة، لن اعطيكم! ها؟
- اتركه!.. - صاحت فتاة جاءت راكضة - القوزاق كسروا الأقفال، وهم يقسمون الحبوب!
ترك النسوة دافيدوف قرب بوابة ادارة الكولخوز، وهرعن الى العنابر.

نهض بجهد جهيد، ودخل الفناء، اخرج الى المدخل دلوأ من الماء الدافئ وراح يشرب لوقت طويل، ثم سكب الماء على رأسه، وغسل الدم عن وجهه ورقبته، وهو يشهق، ونشف نفسه بالفوطة المعلقة على الدرابزين، وجلس على الدرجات.

كان الفناء خالياً. وكانت قاقاة دجاج مذعور تترامى من مكان ما. وكانت قبرة سوداء تغرد على سطح صندوق الزرايزر متلعة برأسها. ومن السهب كان يسمع صفير السوالق. وكانت طبقات من الغيوم الليلية الخفيفة تجبج وجه الشمس، ومع ذلك فقد كانت وغرة الهواء، مضنية لا تحتمل حتى ان العصافير بعد ان كانت تنبش في كومة الرماد في الفناء، استقرت جامدة، وقد اشرفت اعناقها، ومن حين لآخر كانت ترفرف بمراوح اجنحتها الصغيرة المرتخية.

سمع دافيدوف كركبة حوافر صماء لينة، فرفع رأسه، فرأى حصاناً بنياً متحدر الكفلين مسرجاً يدخل الفناء في اقصى سرعته. استدار استدارة حادة، وحفر الأرض بقدميه الخلفيتين، ودار في الفناء ناخراً، نائراً من احزمة سرجه نتفاً بيضاء من الرغبة المزبدة على الأرض الحارة. وتوقف عند باب الاسطبل متشهما الدكة.

كان لجامه الأنيق المطعم بالفضة مقطوعاً، وطرفا المقود متدليين، والسرج نفسه سارحاً حتى أسفل الرقبة، واحزمة الصدر المقطوعة تتدلى الى الأرض، لتمس ظلفيه الأسودين

البنفسجيين. وكان جنباه يلهثان لهاثاً شديداً، ومنخراه الورديان ينفتحان وينغلقان، وقد علقت كتل أشواك القراص من العام الفاتت بشعر ناصيته الذهبي وخصلات عرفه المبعثرة.

نظر دافيدوف الى الحصان مذهولاً. وفي تلك اللحظة سمع باب سقيفة التبين. يصرف بثقل، وظهر رأس الجد شوكار. وبعد قليل برز الجد نفسه بعد أن فتح الباب بأشد الحذر، متلفتاً فيما حوله بذعر.

كانت جذامات التبين تغطي قميص شوكار المبلل بالعرق، ورؤوس النجيل المثقلة بالحبوب، والعشب اليابس وأوراق الشجر وطلع الرتم الأصفر مشربكة بلحيته الملفوفة الشعر. وكان وجهه قرمزياً بلون الكرز، وقد انطبع على صفحته الذعر الشديد، وكان العرق يتصبب من صدغيه على لحيته وخديه...

- يا رفيق دافيدوف! - انشأ يقول بهمس ضارع، وهو يتقدم الى مدخل البيت على اطراف اصابعه - خبيء نفسك بحق الرب! ماداموا قد شرعوا بضربنا، فسيصل الأمر الى حد القتل. اوه، ماذا فعلوا بخلفتك، لا يمكن التعرف على وجهك! لقد خبأت نفسي في القش، وكدت اختنق من الوعكة وسبحت بالعرق، ولكن ذلك آمن للنفس، والله! تعالٍ ننتظر قليلاً حتى تهدأ هذه القلاقل، ونختبئ سوياً، ها؟ اخاف ان ابقى لوحدي. ما حاجتنا الى ان نستقبل الموت لغرض مجهول؟ هل تسمع هدير النساء، كالدبابير، قطع الله دابرهن! والظاهر أنهن أوقعن بناغولنوف أيضاً، فهذا هو حصانه. على هذا الفرس سافر الى الدسكرة. اليوم صباحاً تعثر به عند البوابة، فقلت له حينذاك: «عد، يا ماكار، هذه علامة فال سييء جداً! ولكن هل اصغي ذات مرة الى انسان عارف؟ أبداً، طوال حياته! دائماً يتبع طريقته الخاصة. وها هم قد قتلوه الآن. ولو كان قد عاد، لأستطاع أن ينجو بنفسه، احتراماً لكلمتي... فسأل دافيدوف بشيء من التردد:

- ولكن قد يكون في البيت الآن؟
- في البيت؟ ولماذا اذن جاء حصانه فارغاً، ينخر!
وكانه يتشمم ميتاً؟ أنا أعرف هذه العلائم جيداً. والقضية واضحة، عاد من مركز المنطقه، ورأى الناس ينهبون الحبوب قرب العنابر وحاول الاعتراض لهم، لم يحتمل قلبه اللاهب هذا المنظر، وبهذه النتيجة قتل الرجل...
لزم دافيدوف الصمت. كان هدير الأصوات العديدة يترامى من صوب العنابر كالسابق، وتردد صريف عربات، وقرقة عجلات متتابعة.
وفكر دافيدوف: «انهم يأخذون الحبوب. ولكن بالفعل ماذا حصل لناغولنوف؟ معقول انهم قتلوه؟ لأذهب وأرى!» ونهض.

وتصور الجد شوكار ان دافيدوف قرر الاختباء معه في سقيفة القش، فدبت فيه الحركة:

- لنذهب، لنذهب دفعا للشر! والا فقد يطل أحد، ويرانا، ويكون علينا العفاء! انهم يفعلون ذلك في ثانية واحدة! بينما سنكون في سقيفة القش على أحسن مايرام. رائحة القش خفيفة مبهجة للنفس، ويمكنني ان اقضي هناك شهراً، اذا زودت بالطعام. فقط ان ذلك التيس أهلكني، وددت لو ازهق روحه، المؤذي! سمعت ان النسوان يحطمن الكولخوز، ويمزقنك اربا على الحبوب. فقلت لنفسى: «هذه نهايتك، يا شوكار، ستذهب أقل من نشقة دخان، لان النسوان على قاطبتهن يعرفن اننا، أنا وأنت، يا رفيق دافيدوف، على خط الحزب منذ الثورة ونحن الذين وظبنا الكولخوز في غريماتشي، وصادرنا ممتلكات الكولاكي تيتوك. فمن سيقتلون اولاً؟ انا وانت، بالطبع! هذا شيء واضح! فاقول لنفسى: الأمور زفت، ويجب ان اختبىء والا فسيفقتلون دافيدوف، ويأتي دوري. عندئذ من سيدلي بافادته للمحقق في مقتل الرفيق دافيدوف؟ - وبلمح البصر اختبأت في سقيفة القش، وحشرت رأسي، ورقدت. متقطع الانفاس، ولكن بأمان. وبعد ذلك سمعت شخصاً يدب على

القش فوقى... يدب ويعطس بالطبع من الغبار. فاقول
لنفسى «يا امي العزيزة! لا بد أنهم يفتشون عني، لا بد
أنهم جاؤوا لازهاق روحي». واسمع الديب يتردد ويتردد،
حتى يصير على بطني... وابقى مطروحا! وروحي تنفصل
عن الجسد من الرعب، ولكنني أظل راقدا، كالملعون،
مادمت لا أستطيع ان اهرب الى مكان آخر! واذا بذلك الشيء
يصعد على لوزتي، واتلمسه بيدي، فاذا به حافر كله وبر!
وقف شعر رأسي، واحسست بان جلدي ينسلخ عن بدني...
وانبهرت انفاسي من الرعب! هل تعرف ماذا تصورت وأنا
اتلمس الحافر بالوبر؟ تصورته الشيطان! السقيفة غارقة
في ظلام رهيب. وكل ظلام مسكون بالشياطين. واقول
لنفسى: «يعني سيخربشني حالا، ويدوسني حتى الموت...
الآن خير لي ان اموت على ايدي النسوان». نعم، نعم لقد
تلقيت من الرعب ماليس له حصر! ولو كان شخص آخر في
مكاني، جبان، لانفطر قلبه وتمزقت احشاؤه من الهلع، ومات.
وهذا يحدث دائما من الذعر المفاجيء. اما أنا فلم أشعر الا
بقليل من البرد، ولكنني واصلت الاستلقاء. وأشم ايضا
رائحة ماعز قوية جداً. وقد غاب عن بالي أن ماعز الكولاكي
السابق تيتوك يعيش في سقيفة القش، نسيت الذميمة هذا
تماما! نظرت وتأكدت. ماعز تيتوك يدب على القش، يفتش
عن الافسنتين، ويقضم القصعين. ونهضت حالا، بالطبع،
وأخذت ارمي ثقلي عليه، وأجره من عشنونه وغير ذلك! «لا
تصعد، على القش، يا شيطان ابو عشنون، حين يندلع
الشغب في العزبة! لا تتركب بلا سبب، أيها العفريت
المنتن!» واشتد بي الغضب حتى هممت ان اقضي عليه،
فهو، وان كان حيوانا، يجب ان يفهم كيف يتصرف، ومتى
يمكن ان يسرح ويمرح في القش، ومتى يجب ان ينزوي
ويقعد... هاي، الى اين انت، يارفيق دافيدوف!
سار دافيدوف مارا بسقيفة القش دون ان يجيب،
واتجه نحو البوابة.

هس الجد شو كار مذعورا:

- الى اين؟...

ونظر في باب السياج الموارب، فرأى دافيدوف يسير باتجاه عنابر الكولخوز بخطى سريعة، وان كان يترنح كأن الريح الخفاقة تدفعه من ظهره.

الفصل الرابع والثلاثون

الى جانب الطريق ربوة مقبرة على قمته المعراة بالرياح تحف اغصان الافستين والرتم الجرداء من العام الماضي حفيفاً شجياً، وتهدل خصل الحسك جهماً على الأرض، بينما تغطي باقات نجيل السهوب الأصفر الريشي منحدراتها من القمة حتى السفح، وتبسط، فوق الأرض العتيقة المباحة للريح، انصالها الليلية الكامدة الحزينة المصوحة بالشمس والامطار حتى في الربيع، وسط تفتح الاعشاب البهيج، وتبدو هرمة موحشة خاوية من الحياة، ولا تتألق الا في الخريف، حيث تتوامض ببياض ثلجي فخور، فتبدو الربوة المزهوة بعظمة وكأنها تحرس السهب، مكتسية كلها بزرد فضي حرشفي.

وفي الصيف ينقض عقاب السهوب من تحت الغيوم الى القمة تحت اشعة الغروب، ويحط على الربوة صافقاً بجناحيه، وينط مرة ثم أخرى في لهوجة، ويأخذ منقاره المعكوف بتنظيف جناحه المبسوط كمروحة بنية وذيله المغطى بريش صدي اللون، وبعد ذلك يخمد ناعساً دافئاً رأسه، مصوباً عينيه الكهرمانيتين المؤطرتين بالسواد الى السماء الأبدية الزرقة. ويستريح العقاب قبيل صيد المساء جامداً كحجر كريم بني مصفر، ومن جديد ينفصل عن الأرض بيسر، ويحلق. والى أن تغيب الشمس يظل جناحه المهيبان يخططان السهب غير مرة بظلهما الرمادي. فالى اين تحمله رياح الخريف القارسة؟ الى سفوح القفقاس الزرقاء؟ الى سهب ماغانسكيا؟ الى بلاد فارس؟ الى افغانستان؟

وفي الشتاء، حين تكتسي ربوة القبور بدثار الثلج الشبيه بفراء الفاقم يطلع الى قمته كل يوم ثعلب عجوز رمادي الصدر في الزرقة الشاحبة قبيل الفجر. ويقف هناك لوقت طويل جامداً مثل قطعة منحوتة من مرمر كارارا الاصفر كاللهب. يقف مرخياً ذيله الأصهب المزغب على الثلج الليلقي، مستقبلاً الريح ببوزه المدبب المسود الداخن عند الشدقين. وفي مثل هذه اللحظة يكون أنفه العقيقي الرطب وحده يحيا في العالم الجبار، عالم الروائح المتمازجة، ملتقطاً بمنخريه الراعشين المفتوحين بنهم رائحة الثلج العذبة المغلفة لكل شيء، والمرارة المستديمة للافسنتين المضروب بالصقيع، وشميم روث الحصان المبهج الممزوج برفيف القش، والمنبعث من درب قريب، وتلك النكهة المثيرة للغاية، الدقيقة على الالتقاط التي تبعثها صغار طيور الجبل، في مكنها على حيد من الأرض معشوشب بعيد.

ولرائحة طيور الجبل طبقات كثيرة شديدة الاختلاط حتى ان الثعلب العجوز، لكي يتشبع بها، يضطر الى ان ينزل من الربوة، وينساب دون ان يرفع اقدامه من الثلج المتلاليء كالنجوم، ساحبا بطنه المغطى بدلالات الجمد والعيدم الوزن تقريباً على رؤوس العشب حوالي خمسين ذراعاً. وعند ذلك فقط ينصب في منخريه الأسودين المنبسطين شؤبوب الرائحة اللاذعة التي هي خليط من حموضة الذرق الطري، ورائحة الريش المزدوجة. فالريش الرطب في الأعلى، حين يمس العشب يطفح بمرارة الافسنتين، ورائحة العلقمية، بينما تفوح رائحة الدفء والدم المالح من الجذر الازرق المنغرز باللحم الى النصف...

...الرياح اللافحة تسقع أرض الربوة المتيبسة المدكوكة، وشمس الظهيرة ترمضها والأمطار المدرارة تجرفها، ونوبات الزمهرير في أعياد الغطاس تمزقها، ولكن الربوة تظل مسيطرة على السهب منيعة، مثلما هي منذ مئات عديدة من السنين، حين ارتفعت فوق رفات اشلاء امير أتراك قتيل من التراب الذي هالته أيدي زوجاته السمرا

المزينة معاصمهن بالاساور وايدي مقاتليه وأقاربه وعبيده...
الرابية تقف على الفلة على بعد حوالي ثمانية فراسخ
من غريمياتشي لوغ، والقوزاق يسمونها، منذ القدم، بربوة
الموت، وسبب هذه التسمية، كما تقول الاسطورة، أن
قوزاقيا مات عند سفحها في الزمان الغابر، ربما هو نفس
القوزاقي الذي تتغنى به هذه الاغنية القديمة:

... قدح النار بحد السيف
وهواها بعشب الافستين،
وبالانفاس الحرى دفأ ماء العين
وغسل جراحه المميتة:
«يا جراحي ارقت دمائي الكثيرة
ونفذت الى مهجة القلب!..»

... على بعد حوالي عشرين فرسخاً من الدسكرة انطلق
ناغانوف بفرسه البني عدواً، ولم يوقفه الا عند ربوة
الموت. ترجل، ومسح الزبد من رقبة الحصان بكفه.
كان دفء غير اعتيادي بالنسبة لبداية الربيع يشيع
في الجو. وكانت الشمس تفخر الأرض وكأنما في أيار،
وكدره دخانية تلتف فوق دائرة الأفق المسننة. حملت الريح
من بركة سهب بعيدة صثي بط، وطنين وز متعدد الأصوات،
وزعيق شناقب هالعا.

فك ماكار لجام فرسه، وربط المقود برجله الامامية،
وأرخی سيور السرج. مد الفرس عنقه الى العشب الغريض
بنهم، قالعاً معه رؤوس البرسيم أنصاله من العام الفائت.
مر سرب من الوز فوق الربوة يصفر صغيراً مهزوزاً
متوتراً. وتدلّى فوق البركة. راقب ماكار طيرانه دون
تفكير، فرأى الوز يسقط على البركة كالأحجار، فيتطاير
الماء تحت أجنحته قرب جزيرة القصب الصغيرة، وفي
اللحظة ذاتها ارتفع من السدة سرب مذعور آخر.

السهب مقفر لآحياة فيه. استلقى ماكار عند سفح
الربوة وقتاً طويلاً. في البداية كان يتسمع الى حصانه

ينخر ويضرب الأرض بحوافره، فتصلصل شكائمه، وبعدئذ نزل الحصان الى وهدة، حيث الكلاً أمرع، وخيم حوله سكون مطبق لا يكون في السهب الا في اواخر الخريف حين يتركه الناس بعد ان أنهوا أعمالهم فيه.

«سأصل الى البيت، واوادع اندريه ودافيدوف، وألبس معظفي الذي كنت ألبسه لدى عودتي من الجبهة البولونية، وأطلق النار على نفسي. لم يعد يربطني بالحياة رابط. والثورة لن تشعر بفقدي. وهل الذين يناضلون في سبيلها قليلون؟ لا فرق أن ينقص واحد أو يزيد... - كان ماكار يقول لنفسه وكأنه يفكر في شخص آخر، وهو مستلق على بطنه، يصوب بصره الى خيوط نجيل السهوب المشربكة - واظن دافيدوف سيقول على قبري: «ورغم ان ناغولنوف قد فصل من الحزب الا أنه كان شيوعياً جيداً. نحن لا نؤيد اقدامه على الانتحار، حقيقة، ولكننا سنواصل العمل حتى النهاية في القضية التي حارب في سبيلها اعداء الثورة!» وتصور ماكار بوضوح غير اعتيادي كيف سيتجول بانيك في الحشد راضياً مبتسماً، ويمسد شاربيه الأشقرين، ويقول: «واحد منهم ولى، فلنشكر الرب على هذا أيضاً! للكلب ميتة الكلب!».

- لن يكون هذا، ايها الدم الدنس! لن اطلق النار على نفسي! سأقضي على أمثالك أولاً! - قال ماكار بصوت مسموع صارفاً على أسنانه، ووثب على قدميه كالملسوع، وغير التفكير في بانيك ما عزم عليه، وراح يفكر وهو يبحث ببصره عن حصانه: «لا، على الاطلاق! في البداية سأسحقكم جميعاً، وبعد ذلك سأصفي الحساب مع نفسي! لن تتاح لك الفرصة للاستمتاع بموتي! أما كورتشجينسكي، فهل كلمته نهائية؟ سنفرغ من البذار، واسافر الى مركز الدائرة. وسيعيدون لي اعتباري! سأسافر الى مركز الاقليم، الى موسكو... وان لم يعيدوا اعتباري فسأحارب اعداء الثورة الأوغاد وأنا غير حزبي!»

وأجال عينيه المتألفتين في العالم المترامي حوله.

وراح يتصور ان وضعه ليس ميئوساً منه كما كان يتصوره قبل بضع ساعات. أسرع متجها الى الوهدة، حيث ذهب حصانه. طلعت ذئبة جبلي من الاعشاب مذعورة من وقع خطاه. وقفت برهة، وأحنت رأسها العريض الجبين تحديق في انسان، ثم أرخت أذنيها، واسبلت ذيلها، وركضت في المنخفض، وضروعا السوداء المرخوة تتأرجح تحت بطنها الخاسف.

وما كاد ماكار يقترب من الحصان، حتى هز الحصان رأسه بعصبية فانقطع المقود الذي كان يشده الى رجله. - بررر! فاسيك! فاسيك! بررر، قف!

راح ماكار يستميل حصانه الجامح بصوت خافض، محاولا ان يأتيه من الخلف، ويمسك عرفه او الركاب. كان الحصان يسارع خطوه هازماً رأسه، وينظر الى راكبه بمؤخر عينه. ركض ماكار نحوه، ولكن الحصان لم يعطه قياده. وثب، وابتعد عبر الطريق باتجاه العزبة في عدو مندفع مرن.

لعن ماكار، وسار في اثر الحصان. سار حوالي ثلاثة فراسخ عبر الأرض الفضاء باتجاه الحقول التي كانت تتراعى قرب العزبة. طلعت من الأرض المعشوشبة العذراء جباري السهوب، وطيور جبل متزاوجة، وعلى منحدر الوهدة في البعيد كان يتبختر ديك بري يحرس أمن أنثاه في استراحتها. تملكته الشهوة القاهرة فبسط كالمروحة ذيله القصير الأصهب ببطانته من الريش الابيض، وأفرد جناحيه وجرحهما على الارض الجافة، ونثر ريشاً وردي الزغب عند الجذور...

لقد كانت عملية الاخصاب العظيمة تتم في السهب: الاعشاب تنمو بغزارة، والطيور ووحوش البر تتوالد، والارض الزراعية وحدها، المهملة من قبل الانسان، ترنو الى السماء بحقولها غير المبدورة في دثار من البخار. سار ماكار في الأرض الزراعية المتيبسة المكتلة تعتمل في نفسه الضراوة والغیظ. انحنى انحناء سريعة،

والتقط التربة، وفركها بين كفيه. كانت التربة السوداء المتفتتة جافة حارة ممزوجة بخيوط الأعشاب الميتة. ان هذه الارض الزراعية طال عليها الزمن. وهي متروكة! وكانت تتطلب ان ينفذ في قشرتها المتصلبة المخلوطة بجذور الاعشاب محراث عريض، دون تضييع ساعة من الوقت، ليقلب باسنانه الحديدية التربة المتروكة ومن بعده تمر المذاري على الاخايد المفتتة، لتنفذ بذور القمح الذهبية عميقاً فيها.

«تأخرنا كثيراً! سنودي بالأرض!» كان ماكار يفكر، وهو ينظر بأسف لاذع الى الارض السوداء المهملّة المرعبة في عريها. - «بعد يوم أو يومين ستضيع هذه الأرض الزراعية. فالأرض كالمهرة اذا فوت فصل الاخصاب فلن ينفعها فحل. تماماً كالانسان والارض... كل المخلوقات ماعدانا، نحن البشر، انقيا في هذه الأمور. الحيوانات، والأشجار، والأرض تعرف الموسم الذي تضع البذور فيه، ولكننا نحن... الناس اسوأ وأقدر من أحقر حيوان! فها هم الناس لا يخرجون الى البذار، لأن الملكية تأخذ بخناقهم... الملاعين! سأصل، وأسوق الجميع الى الحقل! الجميع الى آخر شخص!»

وظل يحث الخطى، متحولاً أحياناً الى الجري، حتى تحدر العرق من تحت قبعته، وتكدر القميص عند الظهر، وتيبست شفتاه، واشتدت حمرة خديه المبقعة العليلة...

الفصل الخامس والثلاثون

دخل العزبة حين كان توزيع البذور في ذروته. وكان ليوبشكين وفريقه مايزالان في الحقل. وكان الناس يتدافعون قرب العنابر. ويضعون أكياس الحبوب على الميزان بعجالة، والعربات تأتي بلا انقطاع، والرجال والنساء يحملون الحبوب في زكائب، أكياس، ومازر، والحبوب متناثرة بطبقة كثيفة على الارض والعنابر والدرجات...

ادرك ناغولنوف حقيقة الأمر على الفور. شق طريقه الى الميزان مزيجاً للناس عنه.

كان ايفان باتالشيكوف الكولخوزي السابق يزن الحبوب، يساعده في ذلك ابولون بيسكوفاتسكوف الهزيل. ولم يكن دافيدوف ولا رازميوتنوف ولا أحد من رؤوساء الفرق موجوداً عند العنابر. وللحظة واحدة تراءى في الحشد وجه مشرف الكولخوز للشؤون الاقتصادية ياكوف لوكيتش، والذهول مرتسم عليه، ولكن حتى هذا اختفى وراء العربات المتراصة.

- من أذن بتوزيع الحبوب؟ - صاح ماكار، ودفع باتالشيكوف، وتوقف عند الميزان.
صمت الحشد.

- من فوضك لتزن الحبوب؟ - سأل ماكار باتالشيكوف بنفس الصوت العالي.

- الجمهور...

- اين دافيدوف؟..

- لم أفتش عنه!

- اين الادارة؟ هل الادارة سمحت بذلك؟..

ابتسم ديميد الصموت الذي كان واقفاً قرب الميزان. ومسح العرق بكمه. وتردد صوته القوي المرتج بثقة وبساطة نفس:

- نحن انفسنا سمحنا، بدون الادارة. نأخذ بانفسنا!

- بانفسكم؟.. كيف هذا؟ - وبقفزتين وصل ناغولنوف

الى درجات العنبر، وبضربة من قبضته طرح الشاب الذي كان واقفاً على العتبة، وصفق الباب بقوة، واسند ظهره عليه بمتانة - تفرقوا! لن اعطيكم الحبوب! وكل من ينسل الى العنبر اعتبره عدواً للسلطة السوفيتية!..

- اهوه! - قال الداخن باستهزاء، وهو يساعد احد جيرانه في رفع أكياس الحبوب الى العربة.

كان ظهور ناغولنوف مفاجأة لغالبية الناس - قبل سفره الى مركز المنطقة كانت تجري اشاعات قوية تقول

بأنه سيحاكم على ضربه لبانيك، ويقصى عن منصبه، ومن الأرجح ان يسجن أيضاً... وكان بانيك قد سمع بسفر ماكار منذ الصباح، فأعلن:

- ناغولنوف لن يعود بعد الآن! المدعى العام نفسه قال لي بأنه سيعاقب بمنتهى الصرامة. فليفق ماكار على نفسه. سيطرده من الحزب وعندئذ سيعرف كيف يضرب فلاحاً. لسنا نحن الآن في الاوضاع القديمة!

ولهذا قوبل ظهور ماكار عند الميزان بسكون ذاهل ومحير. ولكنه عندما ترك الميزان الى درجات العنابر. ووقف هناك ساداً الباب بظهره تحدد مزاج غالبية الحاضرين على الفور. بعد صيحة الداخن ترددت صيحات أخرى:

- الآن عندنا سلطتنا الخاصة!

- سلطة الشعب!

- حرخوا لسانكم عليه، يا شباب!

- اذهب من حيث أتيت!

- الأمر النهائي... على...

كان الداخن أول من تقدم من العنبر، محركا كفيه بفتوة، متلفتا الى الورا بابتسام. وتحرك في اثره بعض القوزاق في غير ما تصميم. رفع أحدهم حجراً من الارض أثناء تقدمه...

أخرج ناغولنوف مسدس الناغان من جيب سرواله على مهل. توقف الداخن، وتلكأ متردداً. وتوقف الآخرون أيضاً. والذي تسليح بالحجر الثقيل راح يقلبه في يديه، وألقاه جانباً. كان الجميع يعرفون ان ناغولنوف حين يسحب الزناد فلن يتردد في اطلاقه عند الضرورة. وقد أكد ناغولنوف ذلك رأساً حين قال:

- سأقتل سبع حشرات منكم، وعند ذلك ادخلوا العنبر. هيا، من الاول؟ تقدم!

ولم يرد أحد منهم أن يفعل ذلك... وخلال دقيقة سادت بلبله شاملة. كان الداخن يفكر في شيء دون أن يعزم على الاقتراب. أنزل ناغولنوف فوهة مسدسه الى الاسفل وصاح:

- تفرقوا! تفرقوا حالا، والا سأبدأ باطلاق...
 وقبل ان يتم جملته طار قضيب حديدي فوق رأسه،
 وارتطم بالباب بدوي، وقد قذفه يقيم تروباتشيف صديق
 الداخن مسدداً اياه على رأس ناغولنوف، ولكنه حين رأى
 نفسه قد اخطأ الهدف قبح وراء عربة. أتخذ ناغولنوف قراره
 وكأنما في معركة. زاغ عن حجر قذف من بين الحشد،
 واطلق النار الى الأعلى، وهبط الدرجات عدواً على الفور.
 لم يصمد الحشد، فانطلق الذين في المقدمة يركضون
 وبعضهم يدفع بعضاً، وصرفت عرائش العربات، واطلقت
 امرأة اوقعها الرجال صيحة مذعورة. وظهر بانيك من مكان
 ما، فراح يوقف الهاربين ويشجعهم:

- لا تهربوا! لم يبق لديه غير ست طلقات!»
 عاد ماكار الى العنبر من جديد، ولكنه لم يصعد
 درجاته، بل وقف عند الحائط لكي تكون العنابر الأخرى في
 مجال بصره.

- لا تقتربوا! - صرخ بالداخن وتروباتشيف وآخرين
 تقدموا مرة أخرى من الميزان - لا تقتربوا، يا أولاد!
 ساقتلكم!

ومن الجمع المتجمهر على بعد حوالي مائة خطوة من
 العنابر طلع ايفان باتالشيكوف وأتامنتشوكوف وثلاثة
 آخرون من الذين خرجوا من الكولخوز.

- يا رفيق ناغولنوف! انتظر ولا تشهر السلاح.
 - ماذا تريدون؟ قلت تفرقوا!..
 - سنتفرق حالا، ولكن عبثا احتدامك هذا... نحن
 نأخذ الحبوب بترخيص...

- بترخيص من؟
 - وصل شخص من مركز الدائرة... من اللجنة
 التنفيذية هناك، على ما اظن... وهو الذي سمح لنا.

- اين هو؟ وأين دافيدوف؟ رازميوتنوف؟
 - انهم يعقدون اجتماعاً في الادارة.
 - انت تكذب، ايها الوضيع... ابتعد عن الميزان

قلت لك ابتعد! ها؟ - وعكف ناغولنوف ذراعه اليسرى من المرفق، ووضع عليها ماسورة مسدسه الكامدة من القدم.

تابع باتالشيكوف كلامه دون خوف:

- اذا كنت لاتصدق، اذهب بنفسك، وانظر، واذا لاتريد سنأتي بهم الى هنا في الحال. كفاك تهديداً بالسلاح، يا رفيق ناغولنوف، والا فستسوء العاقبة! انت ضد من تقف؟ ضد الشعب؟ ضد العزبة كلها؟

- لا تتقدم! لا تقترب اكثر! لست برفيق لي! انت معاد للثورة، مادمت تنهب حبوب الدولة!.. لن أسمح لك بأن تدوس السلطة السوفيتيه بقدميك.

هم باتالشيكوف ان يقول شيئاً، ولكن دافيدوف ظهر من وراء ركن العنبر في تلك اللحظة. كان يسير بخطى مخلخلة متعثرة، وقد تغطى كله باثار رهيبية من الضرب والكدمات والخدوش والدم المخثر. نظر ناغولنوف اليه، وهجم على باتالشيكوف صائحاً: «آه، يا حشرة، هذه خدعة!.. لتسحقنا؟!»

ركض باتالشيكوف وأتامنتشوكوف هاربين. اطلق ناغولنوف النار عليهما مرتين، ولكنه اخطأهما. على مبعدة قطع الداخن عصا من سياج، ولم يتراجع الآخرون، وراحوا يتدمرون بأصوات كامدة.

- لن ادعكم... تدوسون... السلطة السوفيتية... بالاقدام!.. - صرخ ناغولنوف من خلال اسنانه المصكوكة، واتجه نحو الحشد ركضاً.

- اضربوه!

- على الاقل لو كانت بندقية! - قال ياكوف لوكيتش متأوها في الصفوف الخلفية، ضارباً كفاً بكف، لاعناً بولوفتسيف الذي غادر في وقت غير مناسب.

- يا قوزاق! تناوشوا هذا الشجاع! - تردد صوت مارينا بياركوكفا الحانق العاطفي. وكانت تدفع القوزاق نحو ماكار اثناء ركضه، وتساءل ديميد الصموت في ضغن، وهي تمسكه من يديه - اي قوزاقي انت؟! تخاف؟!!

وفجأة انشق حشد الناس، وتراكم في كل ناحية،
وباتجاه ناغولنوف...

- ميليشيا!!!

صاحت ناستيونكا دونتسكيفا بهلع وحشي.
كان حوالي ثلاثين خيالا يندفعون من الربوة الى العزبة
كالسيل لا يلوون على شيء. وكانت سحب الغبار الربيعي
تتصاعد فوق خيولهم كأدخنة خفيفة شفافة.

وبعد خمس دقائق لم يبق في الساحة عند العنابر
أحد غير دافيدوف وناغولنوف، أخذ دوي سنايك الخيل
يقترّب أكثر فأكثر. وظهر الخيالة على أرض المرعى. كان
بافلو ليوبشكين يعدو في المقدمة على فرس لابشينوف،
والي يمينه اغافون دوتسوف المنمش الرهيب العزم
مسلحاً بهراوة، ووراءه كولخوزيو الفريقين الثاني والثالث
يرقلون بلا نظام على خيول مختلفة الشيات...

وفي المساء وصل من مركز المنطقة رجل من الميليشيا
باستدعاء من دافيدوف. فقام باعتقال ايفان باتالشيكوف،
وابولون بيسكوفاتسكوف، ويفيم تورباتشيف، وآخرين من
«نشطاء» الخارجين من الكولخوز، اعتقلهم رجل الميليشيا
وهم في الحقل. وأعتقل أم ايغناطيونوك العجوز في بيتها.
وأرسل الجميع الى مركز المنطقة مع الشهود... اما الداخن
فقد حضر الى سوفيت القرية بنفسه. فسأل رازميوتنوف
بانتصار:

- طرت، يا حمامة؟

نظر الداخن اليه بهزه، وأجاب:

- هاقد جئت، كما ترى. لا حاجة الى اللعب، مادامت

الاوراق زادت...

قطب رازميوتنوف حاجبيه وقال:

- أية اوراق؟

- الم تلعب لعبة الورق بالتسقيط؟ بقي في يدي ما

يزيد عن واحدة وعشرين نقطة. وهذه كثيرة! الى اين
ساذهب الآن؟

- ستذهب الى مركز المنطقة.
 - واين رجل الميليشيا؟
 - سيأتي حالاً، لا تقلق كثيراً! ستعلمك محكمة الشعب كيف تضرب الرؤساء! ستنزل بك العقاب اللائق!..
 - هذا طبيعي! - وافقه الداخن مطواعاً، وطلب اليه وهو يتشاءب - أنا نعسان، يا رازميوتنوف، احجزني في سقيفة واقفل علي الى ان يجيء رجل الميليشيا. وسانام. أقفل علي، ارجوك، والا ساهرب في المنام.
 وفي اليوم التالي بدأوا بجمع البذور التي نهبت. كان ماكار ناغولنوف يطوف في البيوت التي أخذ أصحابها الحبوب يوم أمس. كان يدخل دون أن يسلم على أحد، ويسأل بتحفظ مشيحاً بصره في ناحية:
 - هل أخذت الحبوب؟
 - نعم...
 - هل ستعيدها؟
 - ملزم أن أفعل...
 - اعدّها. ويخرج من البيت دون أن يودع أيضاً. والكثيرون من الذين خرجوا من الكولخوز أخذوا من البذور أكثر مما قدموه من قبل. فقد كان اعطاء الحبوب يجري بالسؤال فقط. وكان باتالشيكوف يسأل بنفاد صبر: «كم جلبت من القمح؟» فيجيب المتسلم: «سبعة بودات لهكتارين» فيقول له هذا «ضع الاكياس في الميزان!»
 وفي واقع الحال كان المتسلم للحبوب قد جلب اثناء جمع صندوق البذور ما يقل سبعة الى اربعة بوداً عن الرقم الذي يذكره. وبالإضافة الى ذلك كان النسوة قد أخذن حوالي مائة بود في مآزرهن والحقائب دون وزن.
 في المساء جمع القمح كله ما عدا بضع بودات. ولم ينقص غير عشرين بوداً من الشعير، وبضعة أكياس من الذرة. وفي المساء كانت جميع البذور التي كانت تخص الفلاحين الأفراد قد اعيدت اليهم.
 بدأ اهالي عزبة غريمياتشي اجتماعهم في غسق المساء.

وقال دافيدوف أمام حشد كبير لم تشهد المدرسة مثله من قبل:

- ما تعني، ايها المواطنين، تلك الحركة التي قام بها يوم أمس أشخاص كانوا الى وقت قصير كولخوزيين مع قسم من الفلاحين الأفراد؟ يعني ذلك أنهم انجازوا الى جانب الكولاك؟! ويعني هذا في الحقيقة أنهم انجازوا الى جانب أعدائنا. حقيقة مشينة لكم، ايها المواطنين، لأولئك الذين تناهبوا القمح من العنابر يوم أمس، وداسوا الحبوب الثمينة على الأرض، وتخاطفوها حاملين اياها بالمآزر. لقد صدرت منكم ايها المواطنين صيحات غير واعية تحت النسوة على ان يضربنني، وقد ضربنني بكل ما وقعت عليه ايديهن، بل ان مواطنة انفجرت باكية لأنني لم اقع على الأرض من الضعف. أنا أتحدث عنك، أيتها المواطنة! - وأشار دافيدوف الى ناستيونكا دونتسكوبا التي كانت واقفة عند الجدار وقد سارعت في حجب وجهها بمنديل رأسها حالما بدأ دافيدوف يتكلم - انت التي غرزت قبضاتك في ظهري ورحت تبكين شراسة، وتقولين: «أضربه، أضربه، وهو كصنم من الحجر!».

وتوهج وجه ناستيونكا بنار الخجل الشديدة، وهو تحت النقاب. نظر جميع الحاضرين اليها، فخفضت بصرها ارتباكاً وحراجة، واختلج كتفاها فقط، وكشط ظهرها بياض الحائط. ولم يصطبر ديمكا اوشاكوف فقال:

- تتلوين، ايتها الحشرة، كالافعى تحت المذراة.

فانضم اغافون دوتسوف المنمش قائلاً:

- نعم، مسحت كل بياض الحائط بظهرها!

وصاح ليوبشكين:

- لا تزاوغي يا جاحظة العينين! اذا كنت تعرفين كيف

تضربين فأعرفي كيف تواجهين الاجتماع!

ومضى دافيدوف يقول بلا هوادة، ولكن ابتسامة ساخرة

كانت تطل على شفثيه المقرحتين حين كان يتكلم:

- ... كانت تريد أن اركع على ركبتي، واطلب الرأفة،

واعطيها مفاتيح العنابر! ولكننا نحن، البلاشفة، ايها المواطنين، لسنا من عجيبة يصنع منها الآخرون ما يشاؤون! في الحرب الأهلية ضربني أعداء الثورة، ولكنهم لم يستطيعوا ان يستخرجوا مني شيئاً! البلاشفة لم يركعوا أمام أحد ولن يركعوا، حقيقة!
- حقاً!

تردد صوت ماكار ناغولنوف مختلجاً منفعلاً في بحة وعاطفة.

- نحن انفسنا، ايها المواطنين، عودنا أعداء البروليتاريا على الركوع. وسنجعلهم يركعون!
تدخل ناغولنوف مرة أخرى قائلاً:
- سنجعلهم على نطاق العالم كله!

- ... سنفعل ذلك على نطاق العالم كله، بينما انتم قد انحزتم يوم أمس الى هؤلاء الاعداء، وقدمتم لهم السند. والا فماذا يمكن ان يعتبر اقدامكم على كسر أقفال العنابر، ايها المواطنين، وضربي ذلك الضرب الشديد، وربطكم رازميوتنوف اولاً واحتجازه في السرداب، ثم سوقه الى سوفيت القرية ومحاولتكم تعليق الصليب عليه أثناء سوقه؟ ان ذلك عمل معاد للثورة صريح! كانت أم الكولخوزي ميخائيل ايغناطيونوك المعتقلة الآن تصرخ، حين كنتم تسوقون رازميوتنوف: «هاهم يسوقون عدو المسيح! شيطان العالم السفلي!...» وأرادت بمساعدة النسوة ان تعلق في رقبتة صليباً، ولكن رفيقنا رازميوتنوف، مثلما ينبغي من شيوعي، ما كان من الممكن ان يوافق على هذه المهزلة! وحاول ان يقنع النسوة المخدرات العقل بوشاوش الخوارنة بالعدول عن ذلك. ولكنهن مضيّن يضايقنه ولم يتركه الا حين قطع الجبل باسنانه، وصدّهن عنه برجليه ورأسه. ما هذا، ايها المواطنين؟ هذا عداء سافر للثورة. ومحكمة الشعب تحكم بقسوة على المستهزئين والمستهزئات من أمثال أم صاحبنا ميخائيل ايغناطيونوك. صاح ميخائيل ايغناطيونوك من الصفوف الامامية:

- انا غير مسؤول عن أمي! فهي تملك صوت المواطنة، ولتكن مسؤولة عن تصرفاتها!
- انا لا اتكلم عنك. أنا اتكلم عن اولئك الذين وقفوا ضد غلق الكنائس. لم يرق لهم حين كانت الكنائس تغلق، ولكنهم هموا بوضع الصليب في رقبة شيوعي عنوة. يالللروعة! غير انهم فضحوا نفاقهم فضحا! فقد أعتقل الذين كانوا يحرضون على هذه الاضطرابات، والذين ساهموا فيها بنشاط، ولكن الآخرين الذين وقعوا في مصيدة الكولاك يجب ان يفيقوا على انفسهم، ويدركوا أنهم قد ضلوا. أنا اقول ذلك كحقيقة. أحد المواطنين المجهولين ألقى على منصة الرئاسة ملاحظة يسأل فيها: «هل صحيح ان جميع الذين أخذوا الحبوب سيعتقلون وتصادر ملكياتهم ويعدون؟» لا، غير صحيح، ايها المواطنون! البلاشفة لا ينتقمون، وعقابهم الصارم لا ينصب الا على الاعداء، ولآ نعتبركم اعداء رغم انكم خرجتم من الكولخوز تحت اغواء الكولاك، وتناهبتهم الحبوب، وضربتمونا. أنتم فلاحون متوسطون متذبذبون، زغتم عن الطريق السوي موقتاً، ولن نطبق بحقكم اجراءات ادارية، بل سنفتح عيونكم في حقيقة الأمر.
سرى في المدرسة هدير أصوات مكبوت، وتابع دافيدوف يقول:

- وأنت أيضاً، ايها المواطنة، لا تخافي واسفري عن وجهك، ولن يمسك أحد، رغم أنك تماديت في ضربتي أمس. ولكن حين نخرج الى البذار يوم غد، ولا أراك تشتغلين بشكل جيد، فسأعرف كيف اعاقبك، فليكن ذلك في علمك! سأضربك ولكن ليس على ظهرك، بل أوطأ حتى لا تستطيعي القعود ولا الانطراح، وفي ستين داهية! والضحك المتردد راح يشتد، والى ان وصل الى الصفوف الخلفية تضخم الى قهقهة هادرة منفسة عما في الصدور.

- ... تراخيتم بعض الوقت، أيها المواطنون، وهذا يكفي! الأرض طال انتظارها، والوقت يمر، ويجب ان تعملوا،

ولا تتكاسلوا، حقيقة! وحين نفرغ من البذار ستجدون الوقت للمخاصمة والعراك. أنا أطرح المسألة باختصار: الذي في صف السلطة السوفيتية يخرج الى الحقل غداً، اما الذي ضدها فليقبع في داره يقرقش الحب. ولكن من لا يخرج الى الحقل في الغد سنأخذ منه الأرض، - نحن الكولخوز- ونبذرها بانفسنا.

أبتعد دافيدوف عن حافة المسرح، وجلس وراء منضدة الرئاسة، وحين مد يده الى دورق الماء، صدر من الصفوف الخلفية، من الظلمة الشاحبة المضاءة بضوء مصباح برتقالي، صوت عالي النبرة دافىء مرح يقول بتأثر:

- دافيدوف، يا حلاوتك! يا دافيدوف العزيز!.. لأنك لا تظمر حقداً في قلبك،... ولا تتذكر الأشياء السيئة... الناس هنا قلقون، يعذبهم ضميرهم ولا يعرفون اين يوجهون أبصارهم... والنسوة في ارتباك شديد... ولكن يجب أن نعيش سووية... تعال نتفق، يا دافيدوف، لنترك الماضي للماضي! ها؟

* * *

في الصباح قدم خمسون من الذين خرجوا من الكولخوز طلبات الانتساب الى الكولخوز من جديد. وفي الفجر خرج الى السهب الفلاحون الأفراد وكل الفرق الثلاثة في كولخوز غريمياتشي.

وكان ليوبشكين قد اقترح ان توضع حراسة على العنابر، الا ان دافيدوف ضحك قائلاً: - لا أظن ذلك ضرورياً الآن...

وخلال أربعة أيام بذر الكولخوز ما يقرب من نصف الأرض المحروثة في الربيع. وفي اليوم الثاني من نيسان تحول الفريق الثاني الى الحراثة الربيعية. وطوال ذلك الوقت لم يذهب دافيدوف الى الادارة الا مرة واحدة. وقد ارسل الى الحقل كل القادرين على العمل، حتى الجد شوكار

الذي أعفاه مؤقتاً من عمله كسائس وأرسله الى الفريق الثاني. اما هو فكان يخرج منذ الفجر الى قطاعات الفرق، ويعود الى العزبة بعد منتصف الليل، حين تأخذ الديكة بالصياح في افنية البيوت مؤذنة بقدوم الفجر.

الفصل السادس والثلاثون

كان السكون في الفناء المعشوشب لادارة الكولخوز كسكون المرعى خارج العزبة. وكانت قراميد سطح العنبر بلونها الصديء تتألق بدفء وخفوت اشعة شمس الظهيرة، ولكن قطرات الندى الليلية الداخنة ماتزال تتدلى على العشب المداس في ظلال السقائف ثقيلة مرصوفة.

كانت نعجة مشطبة دميمة في هزالها تقف وسط الفناء، وقد فردت قوائمها الشوهاء، وبالقرب منها ركعت سخلة بيضاء الوبر كأها دافعة ضروع أها بخفة.

دخل ليوبشكين الفناء على فلو صغير رضيع، وحين مر بالسقيفة ضرب بسوطه في غيظ ماعزاً كان ينظر اليه من السطح بعينه الخضراوين الشيطانيتين، وبربر:

- كفاك تسلقاً، أيها العفريت العفن! انزل!

كان ليوبشكين محنقاً وعبوساً. جاء على فرسه من السهب، واتجه الى ادارة الكولخوز رأساً دون أن يعرج على بيته. وكان يجري خلف فلوه الأصهب مهر دقيق القوائم سميك عند الرسغ يدندن بجرس صغير معلق على رقبته، ويرفع ذيله الغزير الشعر عالياً. وكان الفلو صغيراً على قامة ليوبشكين حتى ان الركاب المحلولة تتدلى الى الاسفل من ركبتيه تقريباً، فيبدو راكبه المطأطىء مثلما في الاسطورة حيث يحمل العملاق حصاناً بين ساقيه الجبارتين... دب المرح في ديمكا اوشاكوف الذي كان ينظر الى ليوبشكين من مدخل الادارة.

- انت تشبه يسوع المسيح حين دخل اورشليم على برذون... تشبهه تماما!

- انت نفسك برزون! - رد ليوبشكين، وهو يتقدم من المدخل على فرسه.

- ارفع رجليك، والا ستحرت بهما الارض!
ترجل ليوبشكين دون ان يسعف ديمكا بجواب، ولف المقود حول الدرايزين، وسأل بجفاء:
- هل دافيدوف موجود؟

- موجود، قاعد يحلم في مجيئك. هذا هو اليوم الثالث وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يفتأ يردد «أين صاحبي بافل ليوبشكين المدهش؟ سأموت إذا لا أراه، ولا حياة لي في الدنيا بدون!»

- تكلم مرة اخرى! تكلم! وساقطع لسانك.
رمق ديمكا سوط ليوبشكين، وصمت. ودخل ليوبشكين البيت.

كان دافيدوف ورازميوتنوف وممثلات عن النساء قد فرغوا لتوهم من مناقشة مسألة اقامة دار للحضانة. انتظر ليوبشكين قليلا حتى خرجت النساء، وتقدم من المكتب. كانت رائحة العرق والشمس والغبار تفوح من قميصه القطني الخشن المحلول المترب عند المنكبين...
- أنا قادم من الفريق...

- ولاي غرض؟ - وحرك دافيدوف حاجبيه.
- لا فائدة! بقي عندي ثمانية وعشرون شخصا قادراً على العمل، ولكنهم لا يريدون ان يعملوا. ويتلكأون بسفاهة... وليست لي اية سيطرة عليهم. عندي عشرون محراثاً شغالا الآن، وبالكد جمعتم من يعمل عليها. كوندرات مايدانيكوف وحده يكدح كالثور أما أكيم بيسخلينوف وساموखा كوجينكوف او ذاك الناعب الشاكي اتامنتشوكوف وغيرهم فهؤلاء مصيبة على القلب وليسوا حراثاً! وكأنهم لم يسيروا وراء محراث طوال حياتهم! يحرثون بلا اية همة؟ يحرثون اخدوداً ويجلسون ليدخنوا، ولا تسطيع ان تنهضهم.

- كم يحرثون في اليوم؟

- مايدانيكوف وانا نحرث ثلاثة ارباع ديسياتينا، اما اولئك... فنصف ديسياتينا. واذا سار الحرث على هذا المنوال، فسنضطر الى بذر الذرة في عيد القديس ميخائيل.*
راح دافيدوف يقرع الطاولة بقعر القلم في صمت، وسأل بنوع من المجاملة:
- اذن لماذا جئت؟ لنمسح دموعك؟ - ولاعب عينيه في غيظ.

فرد ليوبشكين بغضب:
- لم اجيء لتبادلني الدموع! اعطني رجلا واضف لي بعض المحارث. اما النكات فاستطيع ان اردھا بأخرى، بدون مساعدتك!

- انت تستطيع التنكيت، حقيقة، أما تسيير العمل فموطن ضعف فيك! وتعتبر نفسك رئيس فريق! ليست لديك سيطرة على الكسالي! نعم في الحقيقة، لأنك اهملت الانضباط، واطلقت العنان للتساهل.

- دلني على الانضباط هذا! - رفع ليوبشكين صوته بذلك، وقد عرق من الانفعال - اتامنتشوكوف أساس كل شيء هناك فهو الذي يثير الناس، ويحرضهم على ترك الكولخوز، اما اذا طردته فانه، الحقيق، سيسحب وراءه الآخرين. ثم ما هذا منك في حقيقة الأمر، يا سيميون دافيدوف، هل تسخر مني؟ اي كسحاء ومرضى أنطت بي، وتطلب مني أن انشط العمل؟ ماذا افعل بالجد شوكار؟ ان هذا الثرثار لا يصلح إلا لأن يغرز في حقل قرعيات ليطرد عنه غربان القيط بدلا من فزاعة الطيور بينما انت ادخلته ضمن الفريق، وعلقته برقبتي مثل الرضيع على رقبة غجرية! لأي شيء يصلح؟ لا يصلح لأن يعالج محراثاً، ولا أن يسوق عربة. له صوت كصوت العصفور، وحتى الثيران لاتعتبره انساناً، ولا تهابه قط! يتدلى من رسن الثور المشدود على المحراث، ويسقط حوالي عشر مرات قبل أن يسير معه اخدوداً واحداً

* في اوائل الصيف.

أبو الرجلين الطويلتين هذا! فاما ان ينزل ليربط حذاءه، فاما أن ينطرح ورجلاه أعلى من رأسه ليعدل وضع فتقه والنسوة يتركن الثيران، ويأخذن بالصياح والزعيق: «وقع مصران شوكار من فتقه!..» وينطلقن متراكضات ليتفرجن كيف سيحشر شوكار هذا مصرانه في مكانه من الفتق. اوه، هذه تمثيلية، وليست عملا! يوم أمس حولناه الى طبخ العصيدة، بسبب فتقه، ولكنه لا يصلح حتى لهذا، ويؤدي! اعطيته الشحم المقدد ليطعم به العصيدة، ولكنه ازرددها. وملح العصيدة اكثر من اللازم، وطبخها مع حثالة خشب... طيب. اين اضعه؟ - وأخذت شفتا ليوبشكين ترتعشان بشدة من تحت شاربيه الأسودين. ورفع السوط كاشفا تحت ابطه دائرة ناصلة عرقة على قميصه القذر، وقال بيأس: - اعفني من رئاسة الفريق. ليس لدي الصبر لتضييع الوقت مع هؤلاء واشباههم، فقد قيدوني أنا أيضاً بعملهم هذا.

- لا تجعل من نفسك شهيداً، حقيقة! نحن نعرف متى نعفيك، فأخرج الآن الى الحقل، ليكون عشرون هكتاراً محروثاً جاهزاً في المساء. وإلا فساعرف كيف اتصرف، فلاتزعل. سأتي بعد زهاء ساعتين، لاتفقد الأمر. هيا.

صفق ليوبشكين الباب وراءه بقوة، ونزل الدرجات. كان حصانه المشدود الى الدرايزين يقف كسير الخاطر، تنعكس الشمس رقطات ذهبية على عينيه البنفسجيتين. عدل ليوبشكين البطانة تحت هيكل السرج العاري المفخور باشعة الشمس، وأخذ يصعد الى صهوته ببطء. سأل ديمكا اوشاكوف بلهجة لاذعة، وهو يقلص عينيه:

- هل حرث فريقك مساحة كبيرة، يا رفيق ليوبشكين؟

- هذا لا يعنيك...

- اها، لايعنيني... وحين سأتي وأخرجك من الوحلة فسيعنيني!.

شد ليوبشكين قبضته البنية القوية الى حد احتباس
الدم في الاصابع، وقال متقلباً على السرج:

- حاول أن تأتي! ساعدل حول عينيك لك في الحال!
و سادير لك قفاك لأعلمك كيف تسير وجعبتك الى الأمام!
بصق ديمكا بازدراء.

- اوه، يالك من طيب! عالج حرائك أولاً، حتى
يحرثوا لك اسرع...

اندفع ليوبشكين من البوابة في عدو سريع، وكأنه في
هجوم، وانطلق في السهب. وما كاد يتلاشى رنين الجرس
المربوط على عنق الفلو حتى ظهر دافيدوف على مدخل
الادارة، وقال لديمكا بعجالة:

- سأنضم الى الفريق الثاني بضعة أيام، واترك
نائباً عني في الادارة. تابع بناء دار الحضانة، وساعدهم، ولا
تقدم الشوفان للفريق الثالث، تسمع؟ وعند حصول أي
تخلخل تعال الي فوراً، فاهم؟ شد حصاناً على عربة، واذهب
الى رازميوتنوف، ليأتي الي. ساكون في البيت.

- ربما يتعين أن أتحوّل مع رجالي إلى الأرض البكر
لمساعدة ليوبشكين؟

اقترح ديمكا ذلك، ولكن دافيدوف راح يلعن،
وصاح:

- لاجحة! عليهم أن يدبروا الأمر بانفسهم! سأذهب،
وسأريهم جانب الشدة، وسيعرفون كيف يحرثون جيداً...
هيهيء العربة!

جاء رازميوتنوف الى منزل دافيدوف، على فرس من
خيول ادارة الكولخوز مشدود الى عربة ركوب صغيرة.
وكان دافيدوف يقف في انتظاره عند الباب الخارجي،
ومتأبطاً صرة صغيرة.

- اصعد اما هذا الذي معك، طعام ربما؟ - وابتسم
رازميوتنوف.

- ثياب داخلية.

- اية ثياب داخلية؟ ولم؟

- طيب، تبديلة ثياب داخلية.
- ولأي شيء؟
- لكن تحرك، لماذا توقفت؟ الثياب أخذتها حتى لا يتكاثر القمل، مفهوم؟ أنا طالع الى الفريق، فقد عزمت على البقاء معهم حتى تتم الحراثة. أغلق فمك، وتحرك.
لعلك فقدت عقلك؟ ماذا ستفعل هناك حتى نهاية الحرت؟

- احرت.
- تترك الادارة، وتخرج لتحرت؟ يالها من فكرة!
تعبس دافيدوف:
- تحرك، تحرك!
- لا تستعجل - والظاهر ان رازميوتنوف أخذ يفضب -
قل لي بشكل واضح: هل يمكن ان يستغنوا عنك في عملهم هناك ام لا؟ يجب ان تسير وراء محراث! انت رئيس الكولخوز...

لمعت عينا دافيدوف بضراوة:
- لست بحاجة الى ان تعلمني!.. انا شيوعي اولاً، وبعد هذا... حقيقة!.. بعد هذا رئيس كولخوز! الحراثة تتعثر، وتريدني ان ابقى هنا؟ تحرك، تحرك، قلت لك تحرك!..

- اوه، لا يهمني! هيا، تحرك، يا شيطان، هل نمت؟ -
وساط رازميوتنوف حصانه بسوطه.
أرتد دافيدوف الى الوراء من الحركة المماغطة، وارتطم كوعه بجانب العربة فألمه، فرقعت العجلات فرقعة خفيفة في سيرها على الدرب الصيفي الى السهب.
عند الخروج من العزبة حول رازميوتنوف حصانه الى السير الخفيف، ومسح جبينه ذا الندبة بكمه.
- انت ترتكب حماقة، يا دافيدوف! اجعل عملهم يتحرك، وعد من حيث أتيت. فالحراثة، يا اخ، لا تتطلب شطارة. والامر الجيد لا ينبغي ان ينزل الى الساحة مع جنده، بل ان يوجه بشكل صائب، وهذا هو رأيي!

- دع رأيك لك، ارجوك! ينبغي علي ان اعلمهم العمل، وسأعلمهم، حقيقة! وهذه هي القيادة! الفريق الأول والثالث فرغا من بذار الجبوب، وهنا توجد فجوة، ليوبشكين لا يدبر أمره كما يبدو. بينما انت تتحدث عن «الأمر الجيد» وغير ذلك... هل تحسب انك تضللني بذلك؟ هل تتصور أنني لم أر أمراء جيديين في حياتي؟ الجيد هنا هو من يقود بالمثل الذي يضربه في اوقات الضيق. وهذا ما يجب ان افعله.

- الأفضل ان تحول لهم محرائين من الفريق الأول.
- والناس؟ الناس؟ الناس من أين أتى بهم؟ اسرع، اسرع، ارجوك.

وصلا الى سلسلة المرتفعات صامتين. كانت سحابة بنفسجية كأمدة نفشتها الريح من سمت السماء بعد ان حجبت الشمس. وكانت حوافها البيض تتلولب وتلمع لمعان الثلج، ولكن قلبها الأسود يكلكل رهيباً بسكونه المثلث. وكانت اشعة الشمس تسقط متحدرة وعلى شكل مروحة عريضة من ثغرة في السحابة، من حافة برتقالية تلونها الشمس، وتتخذ اشكال رماح رقيقة، هناك، في السماء الرحيبة، لتنتال كالسيول لدى اقترابها من الارض، وتستقر على طيات السهب البني البعيدة المفروشة تحت الأفق، وتشيع الجمال في السهب، وتمنحه نوعاً من الشباب العذري البهيج...

لقد كان السهب ينتظر المطر بصمت وخضوع تحت ظل السحابة الداخن. وكانت الريح تحمل نداوة المطر الثقيلة، بالفعل. وبعد دقيقة نزل مطر خفيف شحيح. نفذت قطراته المدورة الباردة في غبار الطريق وتحولت الى كرات ضئيلة من الطين. فراحت السوائل تصفر بهلع، وصداح السلوى يصير اشد وضوحاً، بينما صمت نداء الجباري المفعم بالعاطفة. حركت ريح ارضية جذامات الدخن، فارتفعت قليلا عن الارض، وهففت. وامتلاً السهب بهسهسة جافة ترسلها اعشاب العام الماضي. انساب نحو الشرق

غراب تحت سفح السحابة تماماً، جانحاً، ملتقطاً بجناحيه المبسوطين تيار الهواء. وومض البرق أبيض، فارسل الغراب نعيباً عميقاً من حنجرتة، وهبط الى الاسفل بانقضاضة سريعة. ولثانية واحدة التمع جسمه كله وقد مسه شعاع الشمس فكان كشعلة قطران التهبت فجأة. وتردد صوت الهواء، وهو يرتطم بقوادم جناحيه شبيها بصوت الزوبعة، ولكن الغراب طلع من انقضاضه بحركة حادة، قبل أن يبلغ الأرض بجوالي خمسين ذراعاً، ورفرف بجناحيه، وفي تلك اللحظة انفجر الرعد بفرقة جافة تصم الاسماع.

حين لاح مخيم الفريق الثاني على المرتفع، لحظ رازميوتنوف شخصاً مقبلاً نحوهما من تحت المنحدر. كان يسير في ارض لا درب فيها، متجنباً الحفر، متحولاً أحياناً الى عدو مهتز كعدو الشيوخ المسنين. وجه رازميوتنوف فرسه نحوه، وحزر من بعيد أنه الجدد شوكار. وكان كل شيء ينبىء بأن مكروها قد وقع للجدد... تقدم من العربية، وقد سبط شعره تماماً على رأسه الحاسر ببلل المطر، وعلق الدخن المسلوقة على لحيته المبللة وحاجبيه الكثيفين البارزين. وكان وجهه مزرقاً ممتعاً يرتسم عليه الذعر. مرقت في ذهن دافيدوف فكرة مقلقة: «شيء مزعج حصل في الفريق... خلخلة!» سأل:

- ماذا حصل؟
- كدت اموت! - وتنهذ شوكار - ارادوا قتلي...
- من؟
- ليوبشكين وغيره.
- والسبب؟
- لأنهم اصحاب نزوات... بدأت القضية من العصيدة... وانا انسان لا احتمل السكوت، وقلت رأيي... فاذا بليوبشكين يختطف سكيناً، ويركض ورائي... ولولا خفة رجلي لكنت الآن جالساً على السكين! لكنت مجندلاً!..

- اذهب الى العزبة، سنحقق فيما بعد، - أمره دافيدوف بذلك متنفساً الصعداء.

وقبل ذلك بنصف ساعة كان قد حصل في المخيم مايلي: كان الجد شوكار قد ملح العصيدة اكثر من اللازم يوم امس، فاراد أن يسترضي الفريق وذهب في المساء الى العزبة، وقضى ليلته فيها، وفي الصباح تزود بكيس من بيته، وفي طريقه الى الفريق عرج على سقيفة كراسنوكوتوف للدريس في طرف العزبة تماماً، وتسلق السياج، وختل وراء كومة من العصافة. وكانت خطة الجد شوكار عبقرية ببساطتها: ان يختل لدجاجة، ويمسكها بحذر، ويقطع رأسها ليصنع من حسائها عصيدة، وبذلك يكسب تقدير الفريق واحترامه. لبد هناك حابساً أنفاسه لنصف ساعة ولكن الدجاج، من نكد الحظ، كان ينبش في بقعة قرب السياج، وكأنه لاينوي الاقتراب من كومة العصافة. عندئذ أخذ الجد شوكار يدعوه بخفوت: «قيق، قيق، قيق، قيق ايا فراخ، يا حلوات! نق، نق نق!» يدعو الدجاج اليه همساً، بينما كان يكمن وراء العصافة متربصاً كالوحش. وصادف ان كان العجوز كراسنوكوتوف غير بعيد عن سقيفة الدريس، فالتقط سمعه صوتاً متستراً يستدرج الدجاج، فقعده وراء السياج... تقدم الدجاج الى كومة العصافة بحسن ظن، وفي تلك اللحظة رأى كراسنوكوتوف يداً تخرج من العصافة، وتمسد برجل دجاجة رقطاع. كتم شوكار انفاس الدجاجة بسرعة فأرخيل حاذق، وما كاد يحشرها في الكيس، حتى سمع سؤالاً خافتاً: «تسرق الدجاج؟» ورأى كراسنوكوتوف ينهض من وراء السياج. ارتبك الجد شوكار ارتباكاً شديداً حتى أسقط الكيس من يديه، وخلع قبعته، وحيا تحية لاتناسب المقام: «مرحباً، يا افانسي بترفيتش!» «حياك الله» رد عليه هذا واطاف «مهتم بالدجاج؟»، «بالضبط! كنت ماراً فرأيت دجاجة رقطاع! ريشها ألوان عجيبة جعلتني لا اصطبر، فقلت لنفسي: دعني امسكها، وانظر عن

قرب أي طائر عجيب هي؟ طوال عمري لم أر مثل هذه الاعجوبة!».«

وكان خداع شوكار في غير محله تماماً، وقد وضع كراسنوكوتوف حداً له اذ قال: «لا تكذب، ايها المنحصر العجوز! الناس لا ينظر الى الدجاج حين يكون في اكياس! أعترف اية حاجة ساقتك الى السرقة؟» واعترف شوكار بذنبه قائلاً انه كان يريد ان يستضيف حراث فريقه على عصيدة مطبوخة بحساء الدجاج. وأندهش، لأن كراسنوكوتوف لم يعترض عليه بشيء، «لابأس اذا كان الحراث، ولا عيب في ذلك» الا انه نصحه قائلاً: «مادمت قد قصفت عنق دجاجة فاتركها في محلها في الكيس، وأعمد الى دجاجة أخرى واقتلها بعكازتك، ولكن ليست هذه الدجاجة، بل تلك هناك غير البيوض وأم الريش المنفوش... فان دجاجة واحدة لا تكفي لطبخ حساء دجاج لفريق. امسك واحدة بسرعة، وانطلق خفيفاً، والا فان زوجتي العجوز سترانا، لا سمح الله، وسنجد كلانا منها ما يبعث على القرف!»

وارتاح شوكار ارتياحاً لاحد له بهذا التحول في مجرى الحدث، وأمسك دجاجة ثانية، وقفز عبر السياج. وبعد ساعتين وصل الى المخيم، وعند وصول ليوبشكين من العزبة كان الماء قد غلى في قدره الذي يسع ثلاثة لترات من الماء، والدخن المسلوq يتقلب فيه، والدجاجة المقطعة الى قطع تنز سمناً ودسماً. وحصل الجد شوكار على عصيدة ممتازة. والشيء الوحيد الذي كان يخافه شوكار أن الماء الراكد الذي غرفه لها من بركة ضحلة ربما سيترك طعمه الأسن في العصيدة، لأن ماء البركة كان مغطى بغشاء من الأشنة الخضراء لا يكاد يبين. ولكن خوفه لم يكن في محله. فقد أكل الجميع العصيدة واثنوا عليها ثناء عاطراً، بل ان ليوبشكين رئيس الفريق نفسه قال: «لم آكل في حياتي كلها مثل هذه الأكلة! شكراً لك، يا جدنا، باسم الفريق كله».

وفرع القدر بسرعة. وأخذ ذوو الاصابع القوية يكشطون ما ترسب في القعر من الدخن الكثيف وقطع اللحم. وفي تلك اللحظة حصل ما أفسد سمعة شوكار كطباخ مدى الدهر... استخرج ليوبشكين قطعة من اللحم، ورفعها الى فمه، ولكنه ترنح فجأة، وشحب لونه.

- ما هذا؟ - سأل شوكار في حنق، وهو يرفع باطراف اصابعه قطعة من اللحم الأبيض المتهرىء من كثرة السلق.
أجاب شوكار بهدوء:

- اظنه جناحاً.

وببطء اصطبغ وجه ليوبشكين بحمرة مزرقّة إمارة على الغضب الشديد. وصاح:

- ج... نا... ح...؟ طيب، تعال انظر، أيها الطباخ العظيم!

ارسلت احدى النساء آهة:

- آه، يا اوليائي! ولكن له مخالف!..

تصدى لها الجد شوكار قائلاً:

- العمى، يا ملعونة! من أين للجناح مخالف؟ ابحتي عن

المخالب تحت تنورتك!

ألقي مئزره على السفارة، وراح ينظر. لقد كانت تتدلي يد ليوبشكين المترجفة عظمة هزيلة في طرفها مخالب ضئيلة متواشجة...

- يا اخوان! - صاح أكيم بيسخليبونوف مرتعصاً -

أكلنا ضفدعة!..

وهنا حصل غليان في المشاعر. وثبت احدى النساء الموسوسات متأهة، وصمت فمها بكفيها، واختفت وراء كشك الحقل. ونظر كوندرات مايدانيكوف الى عيني الجد شوكار الجاحظتين من الدهول الشديد، وسقط على ظهره يتقلب من الضحك، وصاح منقطع الانفاس: «آوي، يا نسوان! أكلتن الحرام!» وايده الرجال الاقل وسوسة قائلين: «لا يجوز الآن ان تتناولن القربان!» وراح كوجينكوف يصرخ مصطنعاً الذعر. إلا ان الضحك ازعج أكيم بيسخليبونوف

فصاح بضراوة: «وما الداعي الى الضحك هنا؟! علينا أن نضرب شوكار ضربا يخرجه من اصله!..»

تساءل ليوبشكين مستغرباً:

- من أين يمكن ان تقفز الضفدعة الى القدر؟ -
استقى الماء من البركة، يعني غفل عنها حين كانت فيه...
- ابن الكلبة! أيها العجوز المفتوق!.. بم اطعمتنا؟ -
زعقت انيسكا كنة دونتسكوف، وصاحت معولة: - انا الآن حامل. فماذا لو اسقطت حملي بسببك، ايها المحتال!..
وبهذه الكلمات دلقت على الجد شوكار عسيده من قصعتها.

وارتفعت ضجة كبيرة. ومدت النسوة ايديهن سوية الى لحية شوكار غير آبهات بصياح شوكار الشديد، وقد اصابه الذهول والفرع:

- اهدأ قليلاً! هذه ليست ضفدعة! وحق المسيح ليست ضفدعة!

- فما هي اذن؟ - صرخت انيسكا دونتسكوفاً بحنق رهيب.

فقال شوكار محاولاً ان يتملص:

- هذا من خيالكم لا غير! هذا وهم من جانبكم!
ولكنه رفض كلياً ان يقضم عظمة «الخيال» التي عرضها له ليوبشكين. ولعل الأمر كان سينتهي بهذا الحد، لو لم يصرخ شوكار بعد ان اخرجته النسوة عن اطواره نهائياً:

- يا بنات عرس! يا شيطانات في تنورات! تمددن ايديكن الى لحيتي، ولكنكن لا تفهمن ان هذه ليست ضفدعة اعتيادية، بل محارة!

تسألت النسوة متعجبات.

- ماذا؟

- محارة، باللغة الروسية الفصيحة! الضفدعة حيوان حقير، اما المحارة فلها دم نقي! كان لي قريب في العهد البائد يعمل مراسلاً للجنرال فيليمونوف نفسه، وكان يقول

لي ان الجنرال كان يزدرد منها المئات على الريق! يزدردھا من العرق! قبل ان تخرج المحارة من صدفتھا، يطعنھا بشوكتھ. يغرز بھا الشوكة تماماً، ومع السلامة! وھي تولول شاكیة، فلا يمهلھا ويبتلعھا. وكيف لكن ان تعرفن، ربما تلك العظمة من تلك المحارة؟ الجنرالات كانوا شغوفین بھا، ولربما تعمدت أنا ایضا ان اطعم بھا العصيدة، یا حمقوات، لتكون لھا نكهتها الخاصة!..

وعندها لم یحتمل لیوبشکین، فاختطف مغرفة نحاسیة، ورفع جسمه قليلا، وزعق بأعلى صوته:

- جنرالات؟ للنكهة!.. أنا نصیر أحمر، وترید ان تطعمني عصيدة بالصفادع، مثل اي جنرال؟!

وتصور شوکار ان لیوبشکین یحمل سکینا، فانطلق یعدو بكل طاقته لا یلوي علی شیء... .

عرف دافیدوف كل ذلك بعد ان وصل الی المخیم. اما الآن، فبعد ان ارسل شوکار الی بیته طلب من رازمیوتنوف ان یصل الی مخیم الفریق بأسرع ما یمكن. كانت قطرات المطر ماتزال ترن فوق السهب. طلع قوس قزح ملون یربط غریماتشي لوغ بكبد السماء. كان المخیم خالیاً. توادع دافیدوف مع رازمیوتنوف، واتجه الی أقرب قطاع للحراثة علی مقربة منه ثیران تجر محراثاً اما الحارث - اکیم بیسخلیبنوف - فقد تكاسل عن الذهاب الی المخیم، واستلقى علی اخدود، وغطی رأسه بقفطانه، وراح یهوم تحت غمغمة قطرات المطر الهاسة.

- لماذا لا تحرث؟

نهض اکیم کسولا، وتثائب، وابتسم.

- لا تجوز الحراثة فی المطر، یا رفیق دافیدوف. ألا تعرف ذلك؟ الثور لیس جراراً. ما أن یتبلل الوبر علی رقبتھ حتى یحز النیر رقبتھ ویدمیھا، ولا یعود ینفع فی العمل.

- صحیح، صحیح! - انتهى اکیم من القول، وقد لاحظ فی نظرة دافیدوف عدم تصدیق، وعاد ینصح - الأحسن ان

تذهب وتحاجز بين الديكين المتحاربين هناك. منذ الصباح
وكوندرات مايدانيكوف يتحارث بأتامنتشوكوف... وهما
الآن يتعاركان في ذلك القطاع. كوندرات يأمر بحل الثيران
من المحراث، وأتامنتشوكوف يرد عليه: «لا تمس ثيراني،
والا فسأقطع رأسك...» وهما هناك أحدهما بخناق الآخر!
صوب دافيدوف بصره الى طرف القطاع الثاني وراء
الأكمة، ورأى بالفعل أن شيئاً كالعراك يجري هناك. كان
مايدانيكوف يدير في يده نبوتاً حديدياً كما يدير سيفاً،
وأتامنتشوكوف الطويل يدفعه عن النير بيد، ويحتفظ باليد
الأخرى المشدودة القبضة وراء ظهره. ولم يسمع دافيدوف
صوتاً فتوجه الى هناك على عجل، وصاح من بعيد:

- اي شيء هذا ايضا؟

- ولكن كيف يجوز هذا، يا دافيدوف! المطر ينزل
وهو يحرث! وبفعله هذا يحز رقاب الثيران! فاقول له: «فك
الثيران، وانتظر ريثما ينتهي المطر» وهو يشتمني ويقول:
«ليس هذا شأنك!» شأن من اذن، يا ابن الكلبة؟ شأن من،
يا نسل الشيطان؟ - صار مايدانيكوف يصيح محولاً كلامه
الى اتامنتشوكوف، ملوحاً له بالنبوت.

والظاهر أنهما لحقا أن يتشابكا، فقد كان الانتفاخ تحت
عيني مايدانيكوف محتقناً بزرقه كلون الاجاص، وياقة قميص
اتامنتشوكوف مخلوعة، والدم يسيل على شفته الحليقة
المتورمة.

صاح مايدانيكوف متشجعاً بقدم دافيدوف:

- لن أسمح بأضرار الكولخوز! انه يقول «هذه ثيران
الكولخوز وليست ثيراني!»، يعني تسليخ جلودها، اذا كانت
كولخوزية؟ ابتعد، أيها الشرير!

- لا تصدر لي الأوامر! وليس لك الحق في أن
تضربني! وإن تفعل مرة أخرى ساكشطك بمكشطتي هذه!
- بح اتامنتشوكوف ممتقناً، متمسكاً بياقة قميصه بيده
اليسرى يحاول تزييرها.

سأله دافيدوف، وقد أخذ النبوت من يد مايدانيكوف
أثناء سيره، وألقاه أرضاً:

- هل تجوز الحراثة اثناء المطر؟
لمعت عينا اتامنتشوكوف، ورد محنقاً، وهو يدير رقبتة
النحيلة:

- لا تجوز عند الفلاحين الأفراد، ويجب في الكولخوز!..
- كيف «يجب» هذه؟
- لأن الكولخوز يجب أن ينفذ الخطة! علينا ان نحرق
تحت المطر او بغير المطر. واذا لم نفعل سيظل ليوبشكين
ينخر فينا كما ينخر الصدا في الحديد.
- كلام في كلام... يوم أمس كان صحواً بلا مطر فهل
حرثت حصتك؟

- حرثت ما استطعت عليه!

نخر مايدانيكوف:

- حرث ربع ديسياتينا! وانظر اي ثورين له! لا يمكنك
أن تصل الى قرنيهما، ولكن ماذا حرث! لنذهب يا دافيدوف!
وانظر... - وامسك بكم معطف دافيدوف المبلل،
وسار به خلال الاخدود، دون ان يتم جملته من الانفعال ثم
تمتم - قررنا أن نحرق بعمق لا يقل عن شبرين. وهذا!
قسه بنفسك!

انحنى دافيدوف، ودس اصابعه في الاخدود اللين اللزج..
كان عمقه من القاع حتى القمة الممزوجة بالجذور أقل
من شبر.

- وهل هذه حراثة؟ هذا مجرد خدش الأرض وليس
حراثة! في الصباح ايضا أردت أن أضربه على قلة جهده.
تجول في كل الاخاديد التي حرثها هذا فلن تجد اعرق من
ذلك!

- هاي، تعال الى هنا! أريد ان اتحدث اليك، حقيقة!..
صاح دافيدوف على اتامنتشوكوف، الذي كان يحل
الثيران في غير ما رغبة.

تقدم اتامنتشوكوف بتراخ وعلى مهل. فسأله دافيدوف
بهدوء مبدئياً موضع سنه المفقودة:

- كيف هذا منك... تحرث هذه الحراثة؟

- وأنت كيف تريد؟ بعمق نصف متر؟ - وقلص

اتامنتشوكوف عينيه بلؤم، وخلع طاقيته عن رأسه الحليق
تماماً، وانحنى - شكراً لك! حاول بنفسك أن تحرث أعمق!
نحن جميعاً فرسان في الكلام، وفي ساحة العمل لا شيء!

صاح دافيدوف محمراً:

- كم كنا نود ان نظردك من الكولخوز، ايها الوغد!

وسنظردك!

- اعمل معروفًا! ساخرج بنفسي! لست ملعونة

لأجعلكم تستنفدون حياتي هنا... استفرغ قواي لشيء لا
ادري ما هو! - وسار نحو المخيم وهو يصفر.

وفي المساء حالما أجمع افراد الفريق كلهم في المخيم

قال دافيدوف:

- أنا اطرح امام الفريق هذه المسألة: كيف نتصرف

مع كولخوزي مزيف يخدع الكولخوز والسلطة السوفيتية؟

فبدلاً من ان يحرث شبرين يحرث أقل من شبر، ويفسد

الأرض. كيف نتصرف مع من يحاول عن عمد عطب الثيران

بالعمل عليها أثناء المطر، وفي الأيام الصاحية غير الممطرة

لا ينفذ غير نصف الحصبة المقررة له؟

قال ليوبشكين:

- نظرده!

وكانت النسوة أكثر الحاضرين حماساً في تأييده.

- مثل هذا الكولخوزي المؤذي موجود بيننا. هذا هو! -

واشار دافيدوف الى اتامنتشوكوف الذي كان جالساً على

عريش عربة - الفريق مجتمع، وأنا اطرح هذه المسألة في

التصويت: من مع طرد اتامنتشوكوف المؤذي والمتبطل؟

ومن بين الاصوات السبعة والعشرين صوت ثلاثة

وعشرون «مع». عد دافيدوف الايدي المرفوعة ثانية، وقال

لاتامنتشوكوف بجفاف:

- اخرج. لست الآن كولخوزياً، حقيقة! وبعد عام سننظر في قضيتك. فاذا انصلحت اعدناك الى الكولخوز. والآن، ايها الرفاق، أسمعوا كلمتي القصيرة والمهمة اليكم. انتم جميعاً تقريباً تشتغلون بشكل سييء. سييء جداً. لا ينفذ أحد ما عدا مايدانيكوف حصته من العمل. وهذه حقيقة معيبة، ايها الرفاق في الفريق الثاني! هذا كاف لأن يسود سمعة الانسان. بمثل هذا العمل يمكن ان يدخل الانسان في القائمة السوداء ويظل فيها الى الأبد. ويجب ايقاف ذلك على الفور.

قال اكييم بيسغليبنوف:

- الحصنة لا تناسب قوانا! الثيران غير قادرة عليها.
- لاتناسب قواكم؟ ولا يقدر عليها الثيران؟ هراء! ولماذا تقدر عليه ثيران مايدانيكوف؟ سابقى في فريقكم. وآخذ ثيران اتامنتشوكوف وأريكم بالدليل الحي على أنه في الامكان حراثة هكتار وحتى هكتار وربع في اليوم الواحد.

- آى، دافيدوف، ما اشطرك! تعرف من أين تؤكل الكتف، - وضحك كوجينكوف، وقد ضم بكفه ضمة قصيرة من لحيته الشائبة - بثيران اتامنتشوكوف يستطيع الانسان ان يلوي الشيطان من قرنه! أنا أيضاً أستطيع أن أحرث هكتاراً عليهما...

- وعلى ثيرانك لا تستطيع؟

- لا، أبداً.

- طيب، هل تريد أن تتبادل؟ انت تحرث على ثيران اتامنتشوكوف، واذا على ثيرانك! اتفقنا؟
فكر كوجينكوف، وأجاب بجدية وحذر:
- هيا، لنجرب.

قضى دافيدوف ليلة مضطربة. نام في كشك الحقل، استيقظ مرات كثيرة أثناء الليل إما لاهتزاز سقف الكشك الحديدي تحت وطأة الريح، واما لبرودة منتصف الليل، وهي تنفذ من تحت معطفه الذي لم يجف من بلل المطر، واما من

البراغيث المنبثة بكثرة في ثنايا فروة الغنم التي اتخذها فراشاً له...

في الفجر ايقظه كوندرات مايدانيكوف. وكان هذا قد أنهض أفراد الفريق كله. قفز دافيدوف من الكشك. كانت النجوم تفور في طرف السماء الغربي كامدة البريق، والهلل كالقوس الذهبي المزخرف يزهو في السماء اليمامية بلون الفولاذ. اغتسل دافيدوف مغترفا الماء من البركة، بينما وقف مايدانيكوف بالقرب منه، يقول وهو يعض طرف شاربه المصفر في ضيق:

- أكثر من هكتار في اليوم عمل كبير... يوم أمس ذهبت بعيداً، يا رفيق دافيدوف! أخشى أن نفشل في هذه المهمة...

- كل شيء في ايدينا، كل شيء لنا! ولم هذا الخوف، يا عجيب؟ - شجعه دافيدوف بهذا القول، وفي سره كان يفكر: «سأنجز ذلك أو أموت في الحقل. وفي الليل سأحرث على ضوء الفانوس، وأحرث هكتاراً وربع الهكتار، لا مناص من ذلك. والافعالر للطبقة العاملة كلها...».

وبينما كان دافيدوف يمسح وجهه بطرف قميصه الكتاني الخشن كان كوندرات قد شد ثيرانه وثيران دافيدوف الى محراثين، وصاح:
- لنذهب!

وعلى صوت عجلات المحراث شرح كوندرات لدافيدوف الأسس البسيطة التي تجمعت عبر عشرات السنين عن الحراثة على الثيران.

- نحن نعتبر محراث ساكوفسكي أحسن نوع للمحاريث. وحتى محراث اكسايسكي يتخلف عنه بقدر كبير، مع انه محراث جيد! ليست له مثل هذه الحدة. وقد قررنا ان نحرت بهذه الطريقة: فخصص لكل شخص قطعة من الأرض، وليعمل عليها. في البداية أخذ بيسخليبونوف واتامنتشوكوف وكوجينكوف - وليوبشكين نفسه انضم اليهم - يحرثون واحداً خلف الآخر. اذ قالوا: «مادام قد صار لنا كولخوز

قالوا يجب ان نحرق محراثاً وراء محراث». وساروا. ولكنني رأيت الأمر لا يسفر عن النتيجة المرجوة... يتوقف المحراث الأول فيضطر الآخرون على التوقف. وإذا كان الذي في المقدمة يحرق بتماهل فإن الآخرين سيسيروا على خطاهم رغماً عنهم. فانتفضت عليهم قائلاً: «أما أن تجعلوني في المقدمة، وأما أن تخصصوا لكل واحد قطعة يحرق فيها». وعندما فهم ليوبشكين ان الحراثة بهذه الطريقة غير مجدية. ولا أحد يعرف كم عمل هذا وكم عمل ذلك. وهكذا قسمنا الأرض الى قطع، فابتعدت منهم وأريتهم، هؤلاء الشياطين كيف يجب أن يكون العمل: وكل قطعة من قطعنا هكتار واحد، يطول مائة وخمسين ذراعاً، وبعرض خمسين ذراعاً. سأل دافيدوف وهو ينظر الى حوافي قطعة الحراثة:

– ولماذا لا تحرثون بالعرض؟

– لأنك حين تنتهي من حرث الأخدود الطولاني، وتحول الثيران الى الأرض غير الداخلة في الحراثة. تمام؟ وحين تستدير بهما استدارة حادة ستجعل النير ينغرز برقبة الثور، ووداعاً للثور، لا يعود صالحاً للحراثة! ولهذا نحرق بالطول، ونرفع المحراث من داخل الأرض، ونسير به خمسة عشر ذراعاً على الفارغ. الجرار يستطيع أن يستدير استدارة حادة، لأن العجلتين الاماميتين تستديران، ويعود المحراث في الخلف لينغرز في التربة عائداً. اما مع الثيران فهل من الممكن حقاً تدوير ثلاثة أو أربعة أزواج منها؟ حين يكون عليها أن تستدير على القدم اليسرى كصف من الجنود لتحرق رأساً حتى لا تترك قطعة من الأرض لم تحرق. ولهذا السبب لا يستطيع أن تحرق بالثيران قطعاً كبيرة من الأرض، في الجرار كلما زاد طول الأخدود كان أروح، اما في المحراث الذي تجره الثيران فأسير بها مائة وستين ذراعاً، وبعد ذلك أسير بالمحراث عرضانياً على الفارغ، يعني غير مغروس في الأرض، دعني ارسم لك – وتوقف كوندرات، وخط في الأرض قطعة طويلة بطرف كاشطته – لنفرض ان

هذه اربعة هكتارات، مائة وستون ذراعاً طولاً، وستون عرضاً. ولنفرض أنني احرت الاخدود الطولاني الأول، انظر. اذا كنت احرت هكتاراً واحداً، يتوجب علي ان أسير خمسة عشر ذراعاً على الفارغ في الأرض غير الداخلة في الحراثة، اما اذا كنت احرت اربعة هكتار فسيكون المجموع ستين ذراعاً. وهذا لا ينفع، فهمت؟ مضيعة للوقت...

- فهمت، وقد أثبتت انت ذلك حقيقة.

- هل حرثت في يوم ما؟

- لا، يا اخ، لم يحصل لي هذا. أنا أعرف المحراث معرفة تقريبية، ولكنني لا أعرف كيف استخدمه. أرني ذلك، فأنا سريع الفهم.

- ساريك المحراث حالا، واسير معك به مرة ومرتين، وبعد ذلك دبر حالك.

أعد كوندرات محراث دافيدوف، وغير وضع أحدي اسنانه وحدد درجة العمق لشبرين، وشرح أثناء السير بلهجة اقرب الى رفع الكلفة، ولكن دون ان يلحظ.

- لنبدأ بالحرث، ولكن اذا رأيت أن الثيران متضايقه، أدر هذه القطعة دورة ونصف الدورة. نحن نسميها «البرميل» وهي على سلسلة قابلة للتقصير والتطويل، بينما سلسلة التخديد ثابتة. وحين تدير البرميل، تتحرك الشفرة قليلاً، وينحرف انغرازاها في الأرض فيقلل ذلك من عرض انغرازاها فيخف جهد الثيران. طيب، لنتحرك. يله، تحرك، يا أصلع! لا تبخل بشقل بطنك، يا رفيق دافيدوف!

قرقع سائق ثيران دافيدوف الشاب بالسوط فانطلقت الثيران الضخمة. وضع دافيدوف يديه على مقبضي المحراث بشيء من القلق، وسار وراء المحراث، وهو ينظر الى شريحة الارض السوداء الدسمة تفتحها حديدة المحراث الحادة فتتهافت، وتنقلب جانباً مثل سمكة نعسانة.

وفي نهاية الاخدود عند الارض البراح تقدم مايدانيكوف من دافيدوف، وأشار:

- أمل المحراث يساراً، حتى ينسرح، ويكفيك عناء

التنظيف، هكذا، انظر! - وضغط على المقبض الأيمن، وجعله «على الريشة» فكانت شريحة الأرض التي كانت تمر بانحراف وقوة على جسم المحراث تنسرح ثانية عنه جارقة معها بقايا التراب عليه - بهذه الطريقة! - وقلب كوندرات المحراث وابتسم - هذا تكنيك أيضاً! اما اذا لم تضع محراثك «على الريشة» كما يجب، فانك ستضطر الى ان تنظفه من التراب العالق به، حين تكون الشيران سائرة في الخط العرضاني. ولكن محراثك الآن نظيف، وكأنه مغسول، وتستطيع ان تلف لك سيكارة اثناء سيرك بالعرض فتريح نفسك. تفضل!

ومد لدافيدوف كيس تبغ ملفوف كاسطوانة، ولف سيكارة، و اشار الى ثيرانه بهزة من رأسه:
- انظر الى زوجتي كيف تعمل هناك! المحراث في وضعه الصحيح، ونادراً ما يفلت، ويمكن ان تحرث وحدها...

سأل دافيدوف:

- يعني زوجتك تساعدك في الحراثة؟
- نعم. معها يكون العمل أخف. احياناً ارميها بكلمة قاسية، فلا تزعل، واذا زعلت، فالى الليل فقط... وفي الليل نتصالح، ولا بد مما ليس منه بد...
ابتسم كوندرات، وسار في الحقل عريض الخطى مدحداً.

في الفترة ما قبل الفطور حرث دافيدوف حوالى ربع هكتار. وعند الفطور احتسى العصيدة في غير ما رغبة منتظرا ان تكمل الشيران طعامها، وغمز لكوندرات:

- هل نبدأ؟

- أنا حاضر. انيوتكا، أخرجي الشيران.

ومن جديد، واخذودا بعد أهدود، راحت حديدة المحراث تقلب الأرض المتصلبة عبر القرون، وتتوجه صوب السماء جذور الاعشاب المقلوبة، الميتة المسحوقة، وتختفي النهايات الجاسية المهشمة في الشقوق السوداء. والأرض

على جانبي المحراث تتماوج، وتتقلب، وكأنها تطوف.
والرائحة العذبة للأرض السوداء منعشة وحلوة المذاق.
والشمس ما تزال عالية ولكن وبر الثور الناصل داكن عند
البرذعة من العرق...

في المساء كانت قدما دافيدوف المحزوزتان بحذائه
تثنان عليه، وأسفل ظهره يوجعه. قاس قطعته، وهو يتعثر،
وابتسم من شفتين مسفوعتين مسودتين من الغبار: خلال
اليوم حرث هكتاراً واحداً.

- طيب، كم حرثت؟ - سأله كوجينكوف بابتسامة
باهتة، وبلؤم، حين اقترب دافيدوف من المخيم مخرجاً
رجليه.

- وكم تتصور انت؟

- وصلت الى نصف هكتار؟

- لا، وعليك اللعنة، هكتاراً!

كان كوجينكوف يدهن بشحم المرموط قدمه التي
أصابها سن المحراث، فتنجح، وذهب ليقبس قطعة
دافيدوف... وبعد نصف ساعة عاد وقد هبط المساء
تماماً، وجلس بعيداً عن النار.

سأل دافيدوف:

- لماذا انت ساكت، يا كوجينكوف؟

- قدمي توجعني... وليس عندي ما أقوله، حرثت،

وليكن... وما العجب هنا! - اجاب كوجينكوف في تناقل،
واستلقى قرب النار، ساحباً قفطانه على رأسه.

- القموك حجرأ؟ ولا تنبح بعد الآن؟ - وضحك

كوندرات، ولكن كوجينكوف صمت وكأنه لم يسمع شيئاً.

استلقى دافيدوف قرب الكشك، واغمض عينيه، وشم

رائحة رماد الخشب النبعثة من النار. كانت قدماه المنكهتان

من السير تلتهبان من الباطن، وساقاه تثنان متوجعتين.

ومهما غير وضع رجليه لم يكن يشعر براحة، فكان دائماً

يريد تغيير وضعه. وما أن استلقى أو بعد ذلك بلحظة

راحت التربة السوداء تتقلب امام جفنيه المطبقين وشفرة

المحراث البيضاء تنزلق بلا صوت، وعلى جانبه تنهافت الأرض السوداء وتغلي كالقطران، وتغير ملامحها... واحس بدوار خفيف ورغبة في القيء، ففتح عينيه، ونادى كوندرات. فرد هذا:

- أ لست نائماً؟

- لا، رأسي دائخ. والأرض تتراءى أمام عيني خارجة من تحت المحراث...

- هذا يحصل دائماً - وكان في صوت كوندرات بسمّة تعاطف - طوال النهار تنظر الى الأرض عند قدميك، فتدوخ بالتأكيد. وللأرض رائحة جهنمية، تجعلك كالسكران. غداً، يا دافيدوف، لا تنظر الى الأسفل كثيراً، ومتع بصرك في الجانبين أكثر...

وفي الليل غرق دافيدوف في نوم عميق لم يحس فيه بلذع البراغيث، ولم يسمع صهيل الخيول، ولا وزين الوز البري في طيرانه المتأخر الى مهجعه الليلي على قمة الجبل. وحين استيقظ قبيل الفجر رأى كوندرات يقترب من الكشك ملتفماً في قفطانه.

فسأله دافيدوف، رافعاً رأسه بين اليقظة والصحو:

- اين كنت؟

- احرس ثيرانك وثيراني... علفت كثيراً. سقتها الى المسيل، حيث العشب الجيد.

أخذ صوت كوندرات المبجوح يبتعد بسرعة، حتى تلاشى... لم يسمع دافيدوف نهاية جملة كوندرات. جعله النعاس ثانية يلقي رأسه على الفروة المبللة بالندى، ويلفه في لجته.

في ذلك اليوم حرث دافيدوف حتى المساء هكتاراً وعشرين. وحرث ليوبشكين هكتاراً بالتمام، وكوجينكوف أقل من هكتار بقليل، واحتل المكان الاول انتيب غراب القيظ، مما ادهش الجميع تماماً، واذ كان حتى ذلك الحين في مجموعة المتخلفين الذي سماه دافيدوف سخرية «طاقم العاجزين». وكان يعمل على ثيران تيتوك السابقة التي

اصابها النحول، انه سكت وقت الغداء ولم يقل كم حرث. وبعد الغداء قامت زوجته - وكانت تسوق الثيران له - باطعام الثيران من مئزرها الذي وضعت فيه ستة اربال من العلف المركز الذي تجبه الثيران، ممزجاً بفتات الخبز التي صبها انتيب بعد ان تبقت من الغداء. ولاحظ ليوبشكين هذا، فقال مبتسماً:

- أراك تجاهد بشكل جيد، يا انتيب!
- أجاهد. نسلنا لم يكن في العمل آخر الناس. -
رد غراب القيط بلهجة متوعدة، وقد اسود اكثر من لفتح الشمس.

وقد جاهد بالفعل. فقد كان مجموع ما حرثه حتى المساء هكتاراً وربع الهكتار. ولكن كوندرات مايدانيكوف حين ساق الثيران الى المخيم بعد الغروب، رد بعد أن سأله دافيدوف كم حرث: «هكتاراً واربعة اعشار. اعطني ما ألفت به سيكارة... لم ادخن منذ الظهر.» ونظر الى دافيدوف بعينين متعبتين ولكنها منتصرتان.

وبعد حلول المساء استخلص دافيدوف النتائج:

- المباراة الاشتراكية، يارفاق الفريق الثاني، جاءت بنتائج رائعة! الوتائر مشرفة. وادارة الكولخوز ترسل لفريقكم شكراً بلشفيماً على هذه الحراثة. سنخرج من هوة التأخير، ايها الرفاق الاعزاء، وهذه حقيقة! وكيف لا نخرج منها وقد أثبتنا بالدليل الملموس تنفيذنا لحصص العمل؟ والآن يجب أن نضع ثقلنا على المسحاة. أنا اشكر مايدانيكوف بشكل خاص. لأنه الصداقي الاول!
غسلت النسوة الصحن، واستلقى الحراث ليناموا، وأطلقت الثيران لترعى. وكان كوندرات على وشك أن يغفو، حين انسلت زوجته تحت الرداء، ولكزته في جنبه، وسألته:

- كوندرات، يبدو أن دافيدوف اثني عليك... ولكن ما معنى صدامي؟
وكان كوندرات قد سمع هذه الكلمة مرات عديدة،

ولكنه لم يستطع أن يشرحها. وفكر بشيء من الضيق «كان يجب أن استوضح ذلك من دافيدوف!» ولكنه لم يرد أن يسكت فلا يوضح لزوجته، فيحط من قدره في نظرها، فأوضح لها قدر مستطاعه:

- الصدامي؟ آه، يا بلهاء! الصدامي؟ احم... هو... آوه، كيف اشرح لك بفضيح العبارة؟ هذا، مثلاً، للبندقية زناد، فإذا انصدم تنطلق البندقية، ويسمونه «صدام» أيضاً. وهو جزء رئيسي في البندقية، وبدونه لا تنطلق البندقية... وهكذا فإن الصدامي في الكولخوز هو الرجل الرئيسي فيه. فهمت؟ والآن، نامي، ولا تنحشري بي!

الفصل السابع والثلاثون

الى ١٥ أيار تم معظم بذار الحبوب في المنطقة. وفي هذا التاريخ كان كولخوز غريمياتشي لوغ قد أنجز خطته للبذار بالكامل. في ظهيرة العاشر من أيار أكمل الفريق الثالث بذار الذرة وعباد الشمس في الهكتارات الثمانية المتبقية لهذه المحاصيل. فبعث دافيدوف، على الفور، رسولا الى مركز المنطقة يحمل تقريراً الى لجنة المنطقة الحزبية يعلمها باتمام البذار.

كانت بوارض القمح الربيعي بهجة للعيون. الا أن ثمة حوالي مائة هكتار من قمح كوبان قد بذر في الايام الأولى من شهر أيار في قطاع الفريق الثاني. وكان دافيدوف يخشى أن لا ينمو هذا البذار المتأخر من قمح كوبان بشكل جيد. وكان ليوبشكين يشاطره هذه الخشية. أما ياكوف لوكيتش فقد أعلن وبنقة صريحة أيضاً:

- لن ينمو! لن ينمو على الاطلاق! تريدون أن تبذروا الصيف بطوله، وتوقعون أن ينمو كل ما تبذرونه. الكتب تزعم أن الناس في مصر يبذرون مرتين في السنة، يحصلون على محاصيل، ولكن غريمياتشي لوغ، يارفيق دافيدوف، ليست مصر. ويجب التمسك بمواعيد البذار بشدة!

سأل دافيدوف:

- ولكن لماذا تبث الانتهازية؟ سينمو عندنا حتماً!
وإذا كنا بحاجة فسنحصد محصولين. أرضنا ملكنا.
وسنحصل منها ما نريد. حقيقة!

- كلام صبيان.

- ستري. انك، يارفيق اوستروفونوف تبدي في
أحاديثك انحرافاً يميناً، وهذا للحزب شيء غير مرغوب فيه،
شيء مضر... ان هذا الانحراف قد أدين ودمغ بما فيه
الكفاية. فلا تنس ذلك.

- أنا لا اتكلم عن الانحراف، بل عن الأرض. أنا لا
أفهم في الانحرافات التي تتحدث عنها.

ولكن دافيدوف رغم ثقته بنمو قمح كوبان لم يسلم من
الشكوك، فكان يسرج فرس الادارة كل يوم، ويخرج به
ليتفقد الحقول المحروثة جيداً، المتفحمة من الشمس،
والمخيفة بسوادها الهامد.

كانت الأرض تجف بسرعة. وكانت الجيوب البارضة
تتغذى بشحة، ولا تقوى على دفع نواميها الي ما فوق
الأرض. فكانت رؤوسها الحادة الرقيقة الضعيفة، ترقد
خائرة تحت كتل الأرض الهشة الدافئة الفواحة بالشمس،
تواقة الى النور، عاجزة عن اختراق قشرة الأرض المتقلبة
الضامئة الى الماء. وكان دافيدوف ينزل من فرسه عند
الارض المحروثة، ويركع على ركبتيه، ويتناول حفنة من
التربة. ويبسطها على كفه، يعاين حبة القمح بسويقها الرقيق
الطالع، ويشعر بالأسى المرير على ملايين الجبات المدفونة
في الأرض، والمتلعة الى الشمس بعذاب شديد، والمحكوم
عليها بالموت المحتوم تقريباً. وكان يغيظه احساسه
بالعجز. فلو نزل المطر لفرش قمح كوبان الحقل ببساط من
الخضرة. ولكن المطر لم ينزل، فتغطي الحقل بالاعشاب
الضارة القوية بقدرتها على الحياة وبشباتها.

وذات مساء جاء الى دافيدوف في مسكنه وفد من
الشيوخ.

- جئناك برجاء ضارع - قال الجد أكيم كوروتشوب،
بعد ان سلم، وراح يبحث عن الايقونة بعينه بلا جدوى
ليرسم أمامها علامة الصليب.
- بأي رجاء؟ لاتوجد أيقونة، يا جد، فلاتبحث...
- لا توجد؟ طيب، بدونها ممكن، لا بأس... اما رجاء
الشيوخ لك فهو...

- ما هو؟
- بذار الفريق الثاني لن يطلع نبتاً، ها؟
- غير معلوم حتى الآن، يا جد.
- نعم، ولكن يبدو كذلك.
- طيب؟
- والمطر ضروري.
- ضروري.
- فهل تسمح للقس بأن يقيم الصلوات ويدعو الرب؟
- لأي غرض؟ - وتورد دافيدوف.
- معلوم لأي غرض، لكي ينزل الرب المطر.
- ما هذا يا جد... كفاك، يا جد، ولا تتكلم عن هذا
بعد الآن.

- وكيف لا أتكلم؟ الزرع زرعنا.
- زرع الكولخوز.
- ونحن من؟ نحن كولخوزيون.
- وأنا رئيس الكولخوز.
- نعرف ذلك، يارفيق. أنت لاتعترف بالرب، ولكننا
لانطلب منك أن ترفع راية المسيح. ولكن أسمح لنا، نحن
المؤمنين.

- لا اسمح. هل ارسلكم مجمع الكولخوزيين؟
- لا. نحن الشيوخ قررنا بأنفسنا أن نقول.
- ها انتم كما ترون قلة، والمجمع لن يسمح لكم على
أية حال. يجب بناء الزراعة على العلم، يا جد، وليس على
القسس.

وتكلم دافيدوف طويلاً وبحذر، محاولاً أن لا يجرح مشاعر الشيوخ الدينية. وصمت الشيوخ وقبل انتهاء المقابلة جاء ماكار ناغولنوف. وكان قد سمع بأن الشيوخ - وفد المؤمنين - قد توجه يطلب من دافيدوف السماح بإقامة الصلاة، فأسرع بالذهاب الى هناك.

- يعني غير ممكن؟ - وتنهذ الجد أكيم كوروتشوب، وهو ينهض.

- غير ممكن، وبلا لزوم. فالمطر سينزل بدون ذلك. وخرج الشيوخ. فلحقهم ناغولنوف الى الرواق. وأغلق باب حجرة دافيدوف باحكام، وقال همساً:

- انتم اناس متهدمون! أنا اعرفكم. تسعون دائماً الى ان تعيشوا على طريقكم، انتم شياطين مزعجون. تحبون دائماً اقامة اعياد القديسين، ومواكب الايقونات في السهب، وتدوسون ما تنبت الأرض من قمح... واذا جلبتم القس حسب هواكم، وذهبتكم به الى الحقل، فسأخرج أنا في اثركم مع فريق اطفاء، وواجه عليكم خراطيم المياه، حتى تصيروا أبل من الماء نفسه، مفهوم؟ فالأحسن اذن أن لا يرينا القس وجهه. والا فسأقص شعره، شعر الفرس، امام الناس، بالمقص الذي يقص به صوف الغنم أقصه خزيماً، واطلق سراحه. هل فهمتم؟

ثم عاد الى دافيدوف جهماً متضايقاً، وجلس على الصندوق.

سأله دافيدوف في ارتياب:

- عم كنت تهمس الى الشيوخ؟
أجاب ماكار دون ان يرف له جفن:
- تحدثنا عن الطقس.

- طيب؟

- طيب، وعقدوا عزمهم تماماً على أن لا يقيموا الصلاة.

- ماذا كانوا يقولون؟ - وأدار دافيدوف وجهه ليخفي ابتسامته.

- يقولون انهم ادركوا أنهم كانوا علي خطأ... ولكن ما لك تلح علي، يا سيميون، أنت مثل حكة الجلد تماماً، ولافكاك منك ابدأ! ماذا قالوا، وعم تحدثوا؟.. قالوا وخلص. أنت الذي تروج للديموقراطية هنا، تتوسل وتترجي. وهذه الطريقة في الحديث غير ملائمة كلياً للعجائز. فهم جميعاً ذوو تفكير خاطيء، وعقل راكد. يعني لا حاجة حتى الي تضييع الكلمات معهم. بل يجب أن تريحهم العين الحمراء وكفى!

لوح دافيدوف بذراعه بيأس، وابتسم. ماكار لاصلاح له، علي الاطلاق!

كان قد مضى علي طرده من الحزب اسبوعان، وخلال ذلك حدث تغير في قيادة اللجنة الحزبية في المنطقة. فقد أقصي كورتشجينسكي وخوموتوف.

وعندما تلقى سكرتير لجنة المنطقة الجديد من لجنة الرقابة للاقليم استئناف ناغولنوف أرسل الي غريمياتشي لوغ أحد أعضاء المكتب للتحقيق من جديد في القضية، وبعد ذلك قرر المكتب الغاء قرار فصل ناغولنوف من الحزب منطلقاً من أن صرامة العقوبة لاتناسب الفعل، وفضلا عن ذلك سقطت، بعد إعادة التحقيق، جملة من الاتهامات التي اثرت في حينها ضد ناغولنوف («الانحلال الخلقي» و «الفجور الجنسي»). وانتهى الأمر بتوجيه توبيخ لماكار. كان دافيدوف يقوم بأعمال سكرتير الخلية الحزبية مؤقتاً، وقد سأل ماكار، حين اعاد له سجلات الخلية:

- هل تعلمت مما حصل لك؟ ولا مزيد من التجاوزات؟

- تعلمت وبشكل جيد أيضاً. ولكن من الذي تجاوز

أنا أم لجنة المنطقة؟

- أنت ولجنة المنطقة. كلاكما الي حد ما.

- اما أنا فأرى لجنة الاقليم أيضاً تقوم بتجاوزات.

- أية تجاوزات، مثلاً؟

- هذه مثلاً: لماذا لم تأمر باعادة الماشية الي

الخارجين من الكولخوز؟ أليست هذه كلخزة بالاكراه؟ انها

تماماً! خرج ناس من الكولخوز، ولكن لا تعطي لهم ماشية ولا ادوات. والنتيجة واضحة. مادام الكولخوزي ليس له مايتعيش به، ولا مكان يذهب اليه، فسيعود ثانية الى الكولخوز. يولول قليلا، ويدخل.

- ولكن الماشية والادوات الزراعية دخلت في صندوق الكولخوز غير القابل للتجزئة!

- وأية حاجة لعينة لهذا الصندوق، ماداموا يجبرون على الانضمام الى الكولخوز ثانية؟ شمروها لهم!.. قائلين: «خذوها، وكلوا، وغصوا بادواتكم!» وما كنت أجعلهم يقتربون من الكولخوز. ولكنك قبلت مائة من هؤلاء المنافقين، وتتصور أنك ستجعل منهم كولخوزيين واعيين؟ لا، وحق الشيطان! ان هؤلاء الطفيلين سيعيشون في الكولخوز، ولكن لعابهم يظل يسيل على الحياة الانفرادية حتى القبر... أنا اعرفهم!.. وكوننا لم نرد لهم ماشيتهم وادواتهم الزراعية انحراف يساري، أما قبولهم في الكولخوز ثانية فهو انحراف يميني. أنا أيضا صرت متطوراً سياسياً، يا أخ، ولن تستطيع أن تلفني الآن!

- وأين منك التطور سياسياً، اذا كنت لا تفهم حتى كوننا لا نستطيع أن نقوم بأية تسويات مع الخارجين من الكولخوز الآن، قبل نهاية العام الزراعي.
- لا، أنا افهم ذلك.

- آه، ماكار، ماكار! انت لا تستطيع أن تبقى بلا شذوذات! ان دماغك ينز بها. حقيقة!
وظلا يتجادلان فترة طويلة، واخيراً تشاجرا، وخرج دافيدوف.

خلال اسبوعين حصلت في غريماتشي لوغ تغييرات كثيرة. دهشت العزبة كلها لان مارينا بياركوفنا تزوجت ديميد الصموت. وقد انتقل الى بيتها، وفي الليل شد نفسه على عربة، ونقل عليها كل حاجياته القليلة، وسمر شبابيك بيته وبابه بالألواح تماماً.

وكان أهل غريمياتشي يقولون: «وجدت ماريسكا من يناسبها. سيعمل الاثنان اكثر من الجرار نفسه».

صعق اندريه رازميوتنوف بزواج عشيقته بتاريخها الطويل، ولكنه تشجع في الفترة الأولى، وبعدها لم يتحمل فراح يشرب خفية عن دافيدوف. الا أن دافيدوف لاحظ ذلك، وحذره قائلاً:

- اقلع عن هذا، يا اندريه. هذا لا ينفع!
- سأقلع. ولكنني أحس بالاهانة الى حد لا يحتمل!
بمن استبدلتني تلك الكلبة؟ بمن استبدلتني؟
- هذه قضية خاصة بها.
- ولكن ذلك اهانة لي؟
- اهانة، ولكن لا تشرب. الوقت غير مناسب. فقريباً سنبدأ باقتلاع الاعشاب الضارة.
ومن نكد الحظ أن مارينا كانت تبدو لعيني اندريه راضية وسعيدة.

وتسلطن ديميد الصموت في استثماره بيتها الضئيلة كالثور المقتدر. خلال أيام معدودات اعاد ترتيب مرافق البيت، وحفر في يوم واحد سرداباً عمقه مترين وحمل اخشاباً وروافد تزن عشرة بودات... وكانت مارينا، تغسل وترفأ ملابسها، وتكثر من امتداح قابلية ديميد على العمل أمام الجارات.

- انه، يا حلوات، الرجل الذي احتاج اليه في تدبير شؤوني. قوته قوة الدب. وما يمسكه يفور في يديه. أما كونه صموتاً، فهذا لا يعنيني... ستقل المشاحنات بيني وبينه...

أما اندريه الذي بلغ سمعه أن مارينا راضية بزوجها الجديد، فقد كان يهمس مع نفسه:

- آه، مارينا! يعني أنا لم أقدر أن اصلح لك السقائف، أو احفر سرداباً؟ لقد هدمت شبابي!
وعاد غايف الي غريمياتشي لوغ من الابعاد، بعد مصادرة ملكيته الكولاكية. وأعادت اليه اللجنة الانتخابية

في الاقليم حقوقه كمواطن. فاسرع دافيدوف الى استدعاء هذا الكثير الأولاد الى ادارة الكولخوز.

- كيف تفكر أن تعيش، أيها المواطن غايف؟ هل ستزرع على انفراد، ام تنضم الى الكولخوز؟

- حسب الظروف - اجاب غايف ولم تندمل بعد الاهانات التي تلقاها، حين صودرت أمواله.

- ولكن كيف بالضبط؟

- يبدو أن الكولخوز لا مناص منه.

- قدم طلب انتساب.

- وملكيتي كيف؟

- ماشيتك تابعة للكولخوز، وكذلك ادواتك الزراعية.

أما امتعتك الأخرى فسيصعب حلها. فقد وزعنا قسماً منها، أما البقية فستحصل على نقود تعويضاً عنها.

- والحبوب أخذتموها كلها...

- هذا أمر بسيط. اذهب الى مدير الاقتصاد، وسيأمر

الخازن، وسيعطيك الخازن في الفترة الأولى حوالي عشرة بودات من الطحين.

- راحوا يضمنون الى الكولخوز كل من هب ودب! -

قال ماكار في ضيق، بعد أن سمع ان دافيدوف ينوي أن يقبل غايف في الكولخوز وقال لأندريه رازميوتنوف:

- طيب، لينشر دافيدوف في «مولوت» اعلاناً يذكر فيه ان كل المبعدين الذين انهوا مدة ابعادهم سيقبلون في الكولخوز.

بعد البذار نمت خلية غريمياتشي الى الضعف. وقد قبل مرشحين الى الحزب بافل ليوبشكين، وناستور لوشيلين

الكولخوزي من الفريق الثالث والذي قضى ثلاثة اعوام يشتغل كعامل زراعي عند تيتوك، وديمكا اوشاكوف. وفي

يوم اجتماع الخلية للنظر في قبول ليوبشكين والاخرين في الحزب عرض ناغولنوف على كوندرات مايدانيكوف قائلاً:

- انضم، يا كوندرات، الى الحزب، فأنا اتكفلك بكل

سرور. لقد خدمت في كوكبتي، ومثلما كنت في ذلك الحين فارساً بطولياً، فانت الآن كولخوزي في المقام الأولى.

فلماذا تظل بعيداً عن الحزب؟ الأمور تتطور بشكل يجعل الثورة العالمية متوقعة من يوم الى يوم، وقد يتعين علينا، وأنا وانت، ان نخدم ثانية في كوكبة واحدة، وندافع عن السلطة السوفيتية، وانت مع الأيام غير حزبي كما كنت! وهذا لا يجوز! انضم!

زفر كوندرات، وأفضى بسره:

- لا، يا رفيق ناغولنوف، ضميري لا يسمح لي بالانضمام الى الحزب الآن... استطيع أن اقاتل في سبيل السلطة السوفيتية مرة أخرى، وسأعمل في الكولخوز بنقاء ضمير، ولكنني لا استطيع الانتساب الى الحزب... فسأل ماكار متجهماً:

- ولم ذلك؟

- لأنني، وان كنت في الكولخوز الآن، الا أنني اتشوق الى ملكيتي - وراحت شفتا كوندرات ترتجفان فتحول الى همس سريع - نفسي تتشوق الى ثيراني، أنا اشفق عليها... لا تلقي العناية التي تجب. حز اكيم بيسخليبونوف عنق حصاني بالنير، وقد رأيت ذلك فقضيت يوماً وليلة لا اتناول طعاماً. هل يصح أن يوضع نير ضخم على حصان صغير؟ ولهذا لا استطيع. ومادمت لم اتخل بعد عن حب الملكية، فمعنى ذلك أن ضميري لا يطاوعني لأنضم الى الحزب. بهذا الشكل أفهم المسألة. فكر ماكار قليلاً، وقال:

- كلامك صادق. لاتنضم، ولنؤجل الأمر قليلاً. سنقاوم بدون رافة أية تجاوزات في شؤون الكولخوز، وكل الأنيار ستكون مناسبة للحيوان الذي تشد عليه. ولكن مادمت تنام وتحلم بشيرائك السابقة فلايجوز أن تنضم الى الحزب. الانضمام الى الحزب يجب أن يتم بدون أية لوعة على الملكية. الانضمام الى الحزب يتم حين تكون نقياً تماماً، ولاتشغلك الا فكرة واحدة. هي تحقيق الثورة العالمية. كان أبي ميسور الحال، وقد علمني حب الملكية منذ الصغر، ولكنني لم اتعلق بالملكية أبداً، وكانت لا تعني

شيئاً عندي إطلاقاً. لقد تخلت عن الحياة الميسورة واربعة أزواج من الثيران لأعيش في عوز، كشميل... اذن، لا تنضم الى الحزب حتى تشفى كلياً من هذه الدملة: حب الملكية. وشاع في طول غريماتشي لوغ وعرضها أن ليوبشكين واوشاكوف ولوشيلين ينضمون الى الحزب. وقال أحد القوزاق الى الجد شوكار مازحاً:

- وأنت، لماذا لا تنضم الى الحزب؟ فانت أحد النشطاء، فقدم طلب انتسابك! وستسند لك وظيفة، وتشترى لك حقيبة جلدية، وتتأبطها وتسير. وقد فكر شوكار في الأمر ووازنه، وفي المساء ما ان حل الظلام حتى ذهب الى ناغولنوف في بيته.

- مرحباً، يا عزيزي ماكار!

- مرحباً، طيب، ما سبب مجيئك؟

- الناس ينتمون الى الحزب...

- ايه؟

- لم تربطني بعد على عربتك، لتقول لي ايه.

- طيب، وماذا بعد؟

- وبعده، ربما أريد الانتماء الى الحزب. لم يكتب

علي أن اعيش مع الخيول طوال حياتي. لم يعقد قراني

عليها.

- ولكن ماذا تريد؟

- قلت لك بفصيح العبارة: أريد الانتماء الى الحزب.

وقد جئت لأعرف أية وظيفة ستسند لي، وغير ذلك. وضح

لي بالمثل ماذا اكتب وكيف اكتبه؟..

- ما معنى كلامك هذا؟.. هل تظن أن الناس ينتمون

الى الحزب من أجل الوظائف؟

- جميع الحزبيين عندنا في وظائف.

كبت ماكار نفسه، وغير الحديث:

- هل زارك القس في عيد الفصح؟

- هذا طبيعي.

- هل اعطيته شيئاً للقربان؟

- نعم، بالطبع. بيضتين وحوالى نصف رطل من الشحم المقدد.

- يعني ما تزال تؤمن بالرب حتى الآن؟
- نعم، بالطبع، ولكن ليس ايماناً قوياً جداً، ولكن اذا مرضت أو اصابتني ضائقة، أو على سبيل المثال لو هدر رعد بقوة فانني اصلي، وأدعو الرب بالطبع.
أحب ماكار أن يعامل الجد شوكار بلطف، احب أن يوضح له بجلاء لماذا لا يقبلونه بالحزب، ولكنه لم يستطع التذرع بالصبر، حين دخل مع شوكار في الحديث، ولهذا انفجر رأساً:

- اذهب الى الشيطان، أيها البلوطة الهرمة. تقدم البيض للقساوسة، وتصنع محاريب من الحديد وتحلم بوظائف، ولكن اذا جد الجد لا تعرف كيف تخلط العلف للخيول. واي نفع للحزب منك، انت المهدار؟ أتحسب أنك تقوم باضحوكات وتظن أن الحزب يقبل أي رمة؟ ليس لك الا أن تثرثر بلسانك، وتنشر الاكاذيب. أخرج، ولا تثرني والا فانا ذو اعصاب معتلة، وصحتي لا تمكنني من أن أتحدث معك بهدوء. طيب، قلت لك اذهب، ها؟

«لم اجيء في الوقت المناسب! كان يجب أن أتى بعد الغداء» فكر الجد شوكار في سره بأسف، وهو يسرع في سد الباب الخارجي خلفه.

كان موت الداخن آخر خبر هز غريمياتشي لوغ ولاسيما فتياتها.

وكان يفيم تروباتشيف وباتالتشيكوف اللذان ادانتها محكمة الشعب قد كتبوا أن الداخن في الطريق الى المحطة شعر بلوعة الشوق الى الحرية والى غريمياتشي لوغ وحاول أن يهرب.

وكان رجل الميليشيا الذي رافق المحكومين الثلاثة قد صاح على الداخن ثلاث مرات: «قف!»، الا أن الداخن طوى جذعه، وركض عبر الحقل الى الغابة. ولم يبق على بلوغه مجمع الشجيرات غير حوالى خمسة عشر ذراعاً، حين نزل

رجل الميليشيا على ركبته، وصوب البندقية، وبالطلقة الثالثة اصاب من الداخن مقتلا.

ولم يكن لهذا الفتى من الاقارب من يحزن عليه غير عمته، اما الفتيات اللواتي علمهن الداخن فن الحب البسيط، فانهن ان حزن عليه، فلوقت قصير.

«فالحب يدارى والجسد يوارى...» ودموع الفتيات مثل قطر الندى عند مطلع الشمس...

الفصل الثامن والثلاثون

في عام ١٩٣٠ أختفى «موسم الارتغاء» في الزراعة لأول مرة. في الأعوام السابقة، حين كان الناس يعيشون على النظام القديم كان لهم الحق في أن يطلقوا على هذين الشهرين (أيار وحزيران) «موسم الارتغاء» فبعد أن يتم المزارعون البذار كانوا يتهيأون لحش العلف على مهل، وكانت الثيران والخيول تسرح في المراعي، وتستعيد قواها، والقوزاق يسحجون مقابض لمعازقهم، يصلحون العربات، والحاصدات... ونادراً ما يخرج الناس للبذار في أيام أيار. ويلف العزب سكون ثقيل. وفي الظهيرة لن تلتقي أحداً في الشارع الهامد. فالرجال اما أن يكونوا في سفر، أو يستريحوا في بيوتهم أو في السرايدب، أو يشتغلوا بفؤوسهم بارتغاء. اما النساء الناعسات فكن يقلين القمل وقد أحتمين في مكان بارد. والفراغ والارتغاء الناعس يسيطران على العزب.

ولكن العام الأول من الحياة الكولخوزية خرق «موسم الارتغاء» في غريمياتشي لوغ. فما كادت سنابل القمح ترتفع حتى بدأت ازالة الاعشاب الضارة. واعلن دافيدوف في الاجتماع:

- سنجث الاعشاب الضارة في حقول الكولخوز ثلاث مرات حتى لا يبقى منها عشب واحد.

وكان ياكوف لوكيتش اوستروفنوف منشرح الاسارير.

فهو - الرجل الكثير الحركة الحيوي - قد اعجب كثيراً بهذا النوع من الزراعة، حيث تكون العزبة كلها في حركة، في مشاغل، في دأب ولغظ. وكان يقول لنفسه: «السلطة السوفيتية تحلق عالياً، فلنر كيف ينتهي بها هذا التحليق! الحبوب تنظف من الاعشاب الضارة، والحقول تستصلح، والماشية تغذى، والادوات الزراعية تصلح، ولكن هل سيعمل الناس؟ وهل ستجبر النساء على اقتلاع الاعشاب؟ فان هذا الأمر لم يحصل من قبل. لم تجتث الاعشاب الضارة من مقاطعة الدون كلها من قبل. وخسارة انهم لم يفعلوا ذلك. ولو فعلوا، لكانت الغلة أغنى. وكان علي، أنا الأحق العجوز أن اجتث الاعشاب الضارة. فان نسوتي اللعينات يقضين الصيف كله بلاشغل» - وكان يتعذب من أنه في الأيام الغابرة، حين كان فلاحاً مستقلاً لم يكن ينظف حوبه من الاعشاب الضارة.

وحين كان يحادث دافيدوف كان يقول له:

- سنتخم الآن بالحبوب، يا رفيق دافيدوف. في الماضي كان الرجل منا ينثر البذور، وينتظر ماذا سيطلع منها. فيطلع الي جانب القمح الزؤان والنجيل والهرطمان البري وغير ذلك من الأعشاب الضارة. وحين تأخذ بتذريته، تجده جيداً على ما يبدو، ولكن حين تدرسه لاتجد بين يديك غير اربعين بوداً وحتى أقل من الهكتار الواحد.

كان دافيدوف يريد أن يعزل أوستروفونوف من منصبه كمدير الاقتصاد، بعد ما حدث من تناهب اهالي غريمياتشي لصندوق البذور من عنابر الكولخوز. فقد تولد في نفس دافيدوف ارتياب مضمّن، حين رآه مع الحشد قرب العنابر وقد تظلل وجهه العجوز لا بالاحباط فقط، بل وبابتسامة الترقب الشامتة.

وفي اليوم التالي استدعاه دافيدوف الي غرفته، واخرج الناس الذين كانوا فيها، وجرى حديثهما همساً:

- ماذا كنت تعمل قرب العنابر يوم امس؟
رد ياكوف لو كيتش بدون تلجلج:

- كنت أحاول أن أعيد الناس إلى العقل، يا رفيق دافيدوف. أعيد الأعداء إلى العقل، ليفيقوا على أنفسهم، فلا يأخذوا حبوب الكولخوز اعتباطاً وبلا إذن.

- والنساء... لماذا قلت للنساء أن مفاتيح العنابر لا بد أن تكون عندي؟

- ما هذا الكلام! الله يسامحك! لمن قلت هذا؟ لم أقل لأحد قط....

- النساء انفسهن قلن لي ذلك، حين سجنيني إلى الإدارة....

- كذب! واحلف على ذلك! هذه تقولاتهن... حقداً على.

وتزعزع تشكك دافيدوف. ثم إن ياكوف لو كيتش بعد هذا بقليل أبدى نشاطاً متحمساً في الأعداد لاجتثاث الأعشاب الضارة، وجمع الموارد للتغذية العامة، وأمطر إدارة الكولخوز بمقترحات جيدة تخص الكولخوز، حتى عاد دافيدوف إلى الامتثال لمدير الشؤون الاقتصادية لكولخوزه النشيط.

اقترح ياكوف لو كيتش على الإدارة إنشاء بضع برك جديدة في حقول فرق العمل. بل واهتدى إلى أماكن في المنخفضات تصلح أكثر من غيرها للاحتفاظ بمياه الربيع، وبحيث لا تكلف ماشية الفرق أن تقطع أكثر من نصف كيلومتر في طريقها إلى الري، مما جعل دافيدوف، وجميع أعضاء إدارة الكولخوز أيضاً، مضطرين إلى الاعتراف بقيمة مشروع أوستروفنوف، لأن البرك القديمة لم تكن قد وجدت في الأصل لخدمة زراعة الكولخوز. فقد كانت تتناثر في السهب، بلا نظام، وكان يجب أن تساق الماشية، في الربيع، من مخيم الفرق كيلومترين - ثلاثة كيلومترات لتصل إلى المسقى. وكان ذلك يضيع وقتاً هائلاً. كانت الثيران المتعبة تستغرق حوالي ساعتين لتصل إلى المسقى وتعود منه، بينما كان من الممكن، خلال هذا الوقت، حراثة أو عزق أكثر من هكتار من الأرض. وافقت الإدارة على

اقامة البرك الجديدة، واستفاد ياكوف لو كيتش من الانقطاع في أعمال الحقول، وشرع، بموافقة دافيدوف، في اعداد الخشب للسداد.

وليس هذا كل شيء، فقد قدم ياكوف لو كيتش اضافة الى ذلك، اقتراحاً ببناء تنور صغير لفخر الآجر، وأثبت بدون عناء لاركاشا البائع الشاري الذي تشكك في رعية مثل هذا المشروع أن توفر الآجر لديهم لبناء أسطبل وحظائر للمواشي أرخص بما لايقاس مما لو جلب الآجر من مركز المنطقة من على بعد ثمانية وعشرين كيلومترا، فضلا عن دفع اربعة روبلات وخمسين كوبيكاً لقاء كل مائة آجرة. وياكوف لو كيتش هذا هو الذي أقنع أيضاً أعضاء الفريق الثالث بأن يطمروا وهددة الشر «دورني» التي كانت تجرف، عاما بعد عام، الأراضي الغنية قرب العزبة، حيث كانت تنتج غلة ممتازة من الدخن، والبطيخ العجيب بحجمه وحلاوته. وتحت اشرافه سورت الوهدة بالركائز، وطمرت بالاغصان والروث، وحجزت بالاحجار، وغرزت شجيرات الحور والصفصاف الفتية على منحدراتها حتى تنغرز جذورها، وتقوي التربة الهشة، وبذلك انقذت من التآكل مساحة غير قليلة من الأرض.

وكل هذه المجموعة من العوامل قوت وضع ياكوف لو كيتش المتضعع في الكولخوز. واستقر رأي دافيدوف بقوة على ابقاء مدير الاقتصاد في منصبه في كل الاحوال، وعلى اسناد روح المبادرة الفياضة حقاً بكل الوسائل وحتى ناغولنوف نفسه لان في موقفه من ياكوف لو كيتش. فقال في أحد اجتماعات الخلية الحزبية:

- انه مزارع ذكي، وان كان غريبا عنا في نفسيته. سنبقيه مديراً لشؤون الاقتصاد حتى نربي رجلا منا عارفاً مثله. ان لحزبنا عقلا ضخماً. تنصب فيه ملايين العقول، ولهذا يملك حدة الذهن هذه. أحياناً تجد مهندساً وغداً، معادياً للثورة في قرارة نفسه، كان يجب ان يصف الى الحائط منذ زمان ليرمي، ولكنهم لا يفعلون ذلك معه،

ويعطونه عملاً، ويقولون له: «أنت رجل متعلم! خذ هذه النقود، واملاً معدتك الى حد التخمة، واشتر لامراتك ما تشتتهي من الجواريب الحريرية، ولكن شغل دواليب عقلك، وقم بأعمال هندسية في سبيل الثورة العالمية!»، وهو يفعل ذلك بالفعل، وأن كان يحن الى الحياة الماضية. فماذا نحصل منه اذا رميناه؟ ربما يتبقى منه بنظرون خلق او ساعة ذات سوار. ولكنه في حالة الابقاء على حياته يعمل، ويجلب ألافاً عديدة من المنافع. وكذلك الحال مع صاحبنا اوستروفنوف. دعوه يردم الوهاد، ويحفر البرك. وكل ذلك سيأتي بالنفع للسلطة السوفيتية، ولاقتراب الثورة العالمية!

واستعادت حياة ياكوف لو كيتش بعض التوازن، مرة أخرى. فقد كان يدرك أن كل تلك القوى التي كانت تقف وراء ظهر بولوفتسيف، وتشرف على التحضير للانتفاضة، قد خابت هذه المرة. وكان شديد الثقة بأن الانتفاضة لن تقوم لها قائمة الآن، لأن الفرصة قد ضيقت، وحصل بعض التحول في مزاج القوزاق، وحتى في مزاج اكثرهم عداً للسلطة السوفيتية. وكان ياكوف لو كيتش يقول لنفسه «الظاهر أن بولوفتسيف ولا تيوفسكي قد انسلا خارج الحدود»، فكان الأسف الحاد على ضياع الفرصة للاطاحة بالسلطة السوفيتية يمتزج في نفسه بالفرح. فمنذ الآن لن يهدد شيء رفاهية ياكوف لو كيتش. الآن لم يعد يشعر بالرعب المقرف، وهو ينظر الى رجل الميليشيا المناوب، حين يصل الى غريمياتشي لوغ. وقبل هذا كان منظر معطف رجل الميليشيا الأسود وحده يزرع رعدة لاتوصف في اوصاله.

وكانت امه العجوز تسأله حين يختليان:

- طيب، هل قربت نهاية حكم الكفار؟ وهل سيأتي

أصحابنا قريباً؟

فكان ياكوف لو كيتش يضطرب اضطراباً لا حد له من

هذا السؤال الذي في غير وقته، فيجيب بمرارة وانزعاج:

- أليس كل شيء سواء عندك، يا أمي؟
- ليس كل شيء سواء، أبدأً، فهم أغلقوا الكنائس،
وأبعدوا القس... أليس صحيحاً؟

- أنت في آخر العمر، فصلي للرب، ولا تتدخل في
الشؤون الدنيوية. انت تريدين ان تعرفي كل شيء، يا أمي!
- والضابطان الى أين ذهباً؟ أين راح ذاك المدخن
الأعور العاطل؟ وأنت أيضاً!.. مرة تطلب مباركتي، ثم
تعود فتخدم هذه الحكومة! - وهكذا تظل تغزل هذه العجوز،
ولا تفهم لماذا لم يوافق ابنها ياكوف على «تغيير الحكومة».
- آه، يا أمي، أنت تجمدين الدم في عروقي! اتركي
أحاديثك البلهاء هذه! طيب، وما الداعي الى ان تتذكري
هذا؟ أخاف انك تهذين في حضور الناس. انت تعرضين
رأسي للقطع، يا أمي. وقد كنت تقولين: «كل ما يفعله
الرب هو نحو الأحسن». فخذني الحياة كما هي. في أنفك
فتحتان، تنفسي منهما. واسكتي. لا يأخذ أحد منك كسرة
خبز... فماذا تريدين بعد، بحق الرب؟..

وبعد مثل هذا الحديث كان ياكوف لو كيتش يهب
طالعاً من الحجرة الرئيسية كمن سمط بماء فائر، ويظل
وقتا طويلا غير قادر على تهدئة نفسه، ويأمر سيميون
والنسوان بكل شدة:

- افتحوا عيونكم كلها وراقبوا العجوز! سترسلني
في داهية! حالما يأتي الينا غريب احبسوها في الحجرة.
وصاروا يغلقون على العجوز ليلا ونهاراً، ولكنهم
كانوا يطلقون سراحها في أيام الآحاد، فكانت تذهب
الى لداتها، وهن عجائز هرمات مثلها، وتبكي متشكية لهن:
- آه، يا عزيزاتي، يا حبيباتي! ابني ياكوف وزوجته
يغلقان علي الباب بالقفل والمفتاح... ولا يطعماني غير
البقسماط الجاف، فاكله مؤدما بدموعي... وقبل هذا، حين
كان الضابط أمر ياكوف، وصديقه يعيشان عندنا، كانوا
يطبخون لي، أيام الصيام، حساء الصوم، ويقدمون لي
الفواكه المسلوقة... والآن يقسون علي ويقسون...

الكنة، والابن... أوي، أوي، أوي! عشت لأرى حتى ابني، يا عزيزات، يجور علي ولأي شيء؟ لا أعرف. كان يأتي يطلب تبريكاتي للقضاء على حكم الكفرة هذا، أما الآن فلا أقول كلمة ضد الحكم، ولكنه يشتمني ويصب علي اللعنات...
... الا أن حياة ياكوف لو كيتش الهادئة، التي لم يكن يعكرها غير الأحاديث مع أمه، قد أنتهت بسرعة وبشكل مفاجيء.

الفصل التاسع والثلاثون

كانت لوشكا زوجة ناغولنوف المطلقة، وهي الآن امرأة مراحة قد أخذت تشتغل منذ أيام البذار، ضمن الفريق الثالث، وسكنت راضية في كشك الفريق. فكانت في النهار تشتغل في سوق ثيران محراث افانسي كراسنوكوتوف، وفي الليل كانت انغام البالالاياكا تتردد قرب الكشك السفري الأحمر، حيث كانت تعيش، والاكورديون يتنهد ويهمس ناعماً على مفاتيحه الواطئة، والفتيان والفتيات يغنون ويرقصون حتى مطلع الفجر. وكانت لوشكا رأس هذا الفريق المرح المستهتر.

كانت الدنيا بالنسبة للوشكا وضيئة وبسيطة دائماً. ولم يكن علي وجهها الخلي أي غضن ينم عن انشغال بال أو رهبة. كانت تسير في حياتها بخفة وثقة، رافعة حاجبها الرقيقين بتوقع، وكأنما كانت تأمل أن تلتقي بسعودها بين لحظة وأخرى. وقد كفت عن التفكير في ماكار في اليوم الذي اعقب يوم طلاقها منه. كان تيموفي الأشرم بعيداً في مكان ما، ولكن هل كانت لوشكا تحزن علي ضياع الاصفياء؟ فقد كانت تقول للفتيات والنساء اللواتي يذكرنها بوضعها كامرأة شبه مترملة: «هناك من الكلاب ما يكفيني العمر كله!»

وبالفعل كان هناك ما يكفيها وزيادة. فقد كان الفتیان والقوزاق المتزوجون من أعضاء الفريق الثالث يتنافسون في حب لوشكا. وفي ضوء القمر الأزرق المغبش حين يجن الليل

كان الراقصون، قرب الكشك، يضربون الأرض بنعال
أحذيتهم بنقر إيقاعي متنقلين من رقصة الى أخرى. ولكن
السباب الفاحش الذي كان يتبادله الحراث والبدارون
والعزاقون المتبارون في التقرب من لوشكا غالباً ما يتحول
الى عراكات شديدة. وكل ذلك بسبب لوشكا. كانت تبدو
سهلة الوقوع في اليد، على الأخص والعزبة كلها تعرف
علاقتها المشينة بتيموفي الاشرم، فكان كل واحد يريد أن
يرضي غروره بأن يحتل المكان الذي تركه تيموفي مكرها،
وناغولنوف برغبته الخاصة.
حاول اغافون دوبتسوف أن يعيد لوشكا الى الرشاد،
ولكنه اخفق اخفاقاً شديداً.

- أنا في العمل صالحة. أما عن الرقص والغناء فلا
أحد يستطيع ان يشينني. فلا تزعل كثيراً، يا عم اغافون،
وغط نفسك بردائك ونم. اذا تحس بالغيرة، وتريد أن
تشارك في الملاعب، فتعال الينا. فنحن نقبل المنمشين
أيضا. يقولون ان المنمشين لاهبون في الحب! - وضحكت
لوشكا بسخرية.

حينذاك، طلب اغافون لدى أول وصوله الى غريمياتشي،
أن يتدخل دافيدوف في الأمر. اذ قال له ساخطا:
- ان لك، يارفيق دافيدوف، طرائق عجيبة في تسيير
الأمر. حشرت الجدد شوكار في فريق ليوبشكين وحشرت
لي لوشكا ناغولنوفاً... فهل تفرضهما للايذاء ام لشيء آخر؟
تعال ذات يوم ليلا، وانظر ماذا يجري في المخيم. لوشكا زرعت
الجنون في كل رجالي. تبتسم للجميع، وكأننا تمنيمهم
بالوعد، فيجنون بها، كالدوك الفتية. وهم يرقصون في
الليالي حتى تهتز الأرض تحت أقدامهم، وحتى ليأسف المرء
على بلي أحذيتهم من كثر ما يضربون الأرض بها! فتبدو
الأرض قرب الكشك وكأنها ساحة لدرس الحبوب! النجوم
تغور، والضجيج ما يزال قائماً في مخيمنا كما في سوق...
في الحرب الالمانية كنت جريحاً طريح المستشفى في
خاركوف، وكانت الممرضات تأخذن المتماثلين للشفاء

لسماع الاوبرا... فكنا نسمع هناك هرجاً رهيباً، منهم من يزعق بصوت قبيح، ومنهم من يرقص، ومنهم من يصصرص على الكمان. ولا يفهم الانسان شيئاً! موسيقى تخنقك خنقاً! وهم يفعلون مثل ذلك عندنا في اغانيهم الزاعقة وموسيقاهم الرعناء ورقصهم... تماماً كحفلة زفاف اقيمت للكلاب! ويستمرون في خبالهم حتى الفجر، وفي النهار أي عمل يقدمون؟ يسيرون، ويغفون أثناء سيرهم... فاما أن تبعد هذه الغمة لوشكا، يارفيق دافيدوف، واما ان تقول لها أن تتصرف كامرأة صالحة.

رد دافيدوف غاضباً:

- ومن أنا عندك؟ من أنا؟ وصي عليها... رح عني الى حيث!.. يأتون الي بكل قذارة... وهل علي أن أعلمها الحشمة؟ افضلها عن الفريق اذا كانت تعمل بشكل سيء، حقيقة! ما هذه العادة، في اللجوء الى الادارة عند أقل شيء؟ «يارفيق دافيدوف، المحراث أنكسر»، «يا رفيق دافيدوف، الفرس مرضت» أو هذه المسألة. امرأة تستهتر، فهل تريدني أردھا الى جادة الصواب؟ الى جهنم! الحداد مسؤول عن تصليح المحارث، البيطري مسؤول عن تطبيب الخيول! متى تتعلمون على المبادرة؟ الى متى أظل أحرركم؟ اخرج!..

خرج اغافون شديد الاستياء من دافيدوف، أما دافيدوف فقد ذخن، بعد خروجه، سيكارتين متتاليتين، وصفق الباب بحدة، وسده بالمزلاج.

قلق دافيدوف مما رواه دويتسوف، ولكن غضبه وصراخه لم يكونا راجعين الى أن رؤساء الفرق الذين لم يستوعبوا واجباتهم، كانوا يضابقونه بالالتجاء اليه في حل كل صغيرة او كبيرة، بل لأن لوشكا، على حد تعبير دويتسوف، «كانت تبتسم للجميع، وتمنيهم بالعود».

كان موقف دافيدوف من لوشكا قد تغير، دون أن يظن هو نفسه على هذا التغير، منذ ذلك الحديث المازح مع لوشكا، حين التقتة عرضاً قرب ادارة الكولخوز، وسألته

- وبسمة السخرية تختفي وراء رموش عينيها شبه المغمضتين - ان يبحث لها عن «عريس مني» ثم اقترحت عليه أن يتخذها له زوجة. وفي الآونة الأخيرة ضبط نفسه اكثر فأكثر في هذه المرأة التافهة حقاً، والنادرة بفراغها. وإذا كان من قبل ينظر اليها بشيء من الرثاء الازدرائي واللامبالاة فان شعوراً مختلفاً تماماً كان يخامره الآن... ومجىء دويتسوف اليه بشكواه السخيفة من لوشكا لم يكن الا بمثابة ذريعة له ليصب جام شتائه...

يتعلق بلوشكا في مثل هذا الوقت غير المناسب، في أوج أشد الجهود المبذولة للبذار. ولربما، لأن دافيدوف قضى الشتاء كله، وهو «في وضع المطران» على حد تعبير اندريه رازميوتنوف المازح، قد ساعد على ظهور هذا الشعور الذي يراوده من جديد، ولربما الربيع أيضاً ترك مفعوله القوي على مطلب جسد رئيس كولوجوز غريمياتشي هذا الطاهر، الذي خاض غمار كل الحملات الاقتصادية والسياسية.

كان يستيقظ في الليل اكثر فاكثراً، ويدخن، ويكرش وجهه بعذاب، ويتسمع الى ترانيم الشحارير الصداحة وزغرداتها اللاهثة، ثم يطبق النافذة بحدّة، ويلتف حتى رأسه باللحاف القطني، ويظل مستلقياً حتى مطلع الفجر، وعيناه مفتوحتان، ضاعطاً على المخدة صدره العريض الموشوم.

في ذلك الربيع من عام ١٩٣٠ - الربيع الموار السريع التفتح - كانت تغني شحارير كثيرة في البساتين والخمائل، حتى كانت صداحاتها الهادرة لا تملأ فراغ الليل الأصم وحده بل كانت لا تهدأ حتى في وضوح النهار. اذ لم يكن ليل الربيع القصير يسع مسرات الشحارير في الحب. «هؤلاء الاوغاد يتناوبون التغريد على وجبتي عمل!» كان دافيدوف يهمس عند الفجر، وقد هذه التعب المضني ومغالبة الأرق.

ظلت لوشكا ناغولنوفاً في الفريق حتى نهاية البذار، ولكن حالما فرغ الفريق بذار المحاصيل، وعاد من الحقل،

حتى ذهبت الى دافيدوف في مساء ذلك اليوم ذاته.
وكان دافيدوف قد تعشى، واستلقي في حجرته يطالع
جريدة «البرافدا». تردد صريف الباب في الرواق ناحلا،
اشبه بخربشة فأر، اعقبه صوت نسائي خافت:

– هل ممكن أن ادخل؟
– ممكن، – وقفز دافيدوف من تخته، لبس سترته
على عجل.

دخلت لوشكا، وسدت الباب خلفها بهدوء. كان شالها
الأسود الصغير يضيف مسحة من كبر السن على وجهها
المسمر الملوح بالريح. وكان النمش الصغير والكثيف
على خديها يبدو أكثر وضوحاً، وقد سفعت الشمس، ولكن
عينها كانت تضحكان، وتشعان بتوهج أشد من تحت طرف
شالها الداكن النازل على جبينها.

– جئت لزيارتك...
– تعالي، اجلسي على هذا المقعد.
وقدم دافيدوف لها مقعداً وهو مندهش وفرح بمجيئها،
وزرر سترته، وجلس على التخت.
صمت مترقباً، شاعراً برهبة وحرص. ولكن لوشكا تقدمت
من الطاولة بيسر، ولوت تنورتها بحركة بارعة وغير
ملحوظة (حتى لا تتجدد) وجلست.

– كيف أحوالك، أيها الرئيس الكولخوزي؟
– لا بأس.

– ألا تستوحش؟
– ليس لي الوقت لأستوحش، ولا ما أستوحش له.
– وأنا؟ ألا تستوحش لي؟
تورد دافيدوف الذي لم يفقد تماسكه قط، وانعقد
حاجباه. اسبلت لوشكا رموشها بوداعة مصطنعة، ورفت على
طرفي شفيتها ابتسامة جامحة.

رد دافيدوف بشيء من الخلخلة:

– أنت تختلقين ما لا يعلمه الا الشيطان.
– يعني لم تستوحش أبداً؟

- لا، قطعاً! هل لديك شغل عندي؟
- نعم... أي أخبار يكتبون في الجرائد؟ ماذا سمعت عن الثورة العالمية؟ - وارتفعت لوشكا على كوعها، واسبغت على وجهها تعبيراً جدياً يناسب الحديث. وكأنما لم تطل على شفيتها تلك الابتسامة الشيطانية قبل حين.
- يكتبون أشياء مختلفة... ما هو الشغل الذي جئتني من أجله؟ - ولملم دافيدوف نفسه.

كان دافيدوف يتصور أن صاحبة البيت تتسمع الى حديثهما. فكان كالجالس على جمر متقد. كان في وضع اهوج تماماً، لا يطاق البتة! غداً ستنشر صاحبة البيت في طول غريمياتشي وعرضها أن زوجة ماكار السابقة تأتي في الليالي الى نزيلها، فتسقط سمعة دافيدوف النقية الخالية من كل شائبة! وتأخذ النساء المتعششات الى الشرثرة ينزلن الاقاويل، بلا انقطاع، في الازقة، وعند الآبار، وسيضحك الكولخوزيون متفهمين، عندما يلتقون. ويأخذ رازميوتنوف بالسخرية من رفيق وقع في حبال لوشكا، وبعد ذلك يصل الأمر الى مركز المنطقة، والى فرع الاتحاد الزراعي في المنطقة. وقد تحاك عليه قضية، ويقولون: «لم ينته من البذار الا في العاشر من الشهر، لأن النسوان كن ينسلن اليه في الليالي. الظاهر أنه كان مشغولاً بالعشيقات والغراميات اكثر من انشغاله بالبذار!» لم يكن عبثاً أن سكرتير لجنة الاقليم الحزبية كان يقول قبيل أن يرسل اعضاء «الخمسة والعشرين ألفاً» الى المناطق: «يجب الاحتفاظ بمكانة الطبقة العاملة - طليعة الثورة - في أعلى مستوى في الريف. يجب أن تراعوا اقصى الحذر في تصرفاتكم، أيها الرفاق. يجب أن تكونوا متبصرين لا في المسائل الكبيرة فقط، بل وفي الصغائر الحياتية أيضاً. في الريف حين يشرب الواحد منكم ما قيمته كوبيك واحد من الخمرة، سيسبب من الاقاويل ما قيمته مائة روبل من العلة السياسية...»

وتصعب دافيدوف عرقاً، حين مرت في ذهنه خطفاً كل

عواقب زيارة لوشكا له، وحديثه الطليق معها. لقد كان يواجه خطراً صريحاً لتشويه السمعة. ولكن لوشكا كانت تجلس دون أن تفتن كلياً الى تلك الاحاسيس الموجعة التي كانت تساور دافيدوف. الا أن دافيدوف عاد يسألها بجدة، وفي صوته بحة طفيفة من الانفعال:

- اي شغل عندك؟ تكلمي وانصرفي، ليس لي الوقت للانشغال معك بالسفاسف، نعم، حقيقة!
- هل تذكر ماذا قلت لي آنذاك؟ أنا لم أسأل ماكار، فانا أعرف أنه يعارض...

هب دافيدوف وشم ذراعيه:
- لاوقت لي! بعدين! فيما بعد!
وكان في تلك اللحظة مستعداً لأن يصم فيها الباسم بكفه، فقط أن تسكت.

وقد ادركت هي ذلك، فحركت حاجبيها بازدياء.
- آه، أنت! وتعتبر نفسك... طيب، لا بأس. اعطني جريدة الطف من غيرها. ليس لي شغل آخر عندك. اعذرني على الازعاج...

وخرجت، وتنفس دافيدوف الصعداء. ولكن بعد دقيقة، حين اتخذ مكانه وراء الطاولة، راح يفكر، وهو يشد على شعره بقسوة: «أي خرقه أنا! سحقاً لكل ما سيقولونه في هذا الخصوص! يعني حرام تأتي امرأة الي؟ ثم ما شأن الآخرين بهذا؟ انها تعجبني، وبالتالي استطيع أن اقضي معها بعض الوقت... فقط أن لا يضر ذلك بالعمل، والباقي أبصق عليه! ولكنها الآن لن تعود، حقيقة! كنت فظاً معها جداً، كما أنها لاحظت أنني مرعوب قليلاً... أوه، يا للجهيم، أية حماقة ارتكبت!».

ولكن توجساته هذه لم تكن في محلها. فان لوشكا لم تكن من صنف الذين يتراجعون بسهولة عن خطتهم. وكان من ضمن خططها الاستحواذ على دافيدوف. هل يجدر بها، في الواقع، أن تربط حياتها بحياة شاب من غريمياتشي؟ ولكن لأي شيء؟ لتجف حتى شيخوختها قرب الموقد، وتضيق

حياتها في السهب وراء الثيران والمحراث؟ ولكن دافيدوف كان شاباً بسيطاً حلواً عريض الكتفين، لا يشبه قط ماكار الذي تيبس في اشغاله، وفي ترقب الثورة العالمية... ولا يشبه تيموفي. كان له عيب واحد، هو ثغرة سنه الساقطة، وفي موضع ظاهر في الحقيقة، في مقدمة فمه، ولكن لوشكا قبلت بهذه النقيصة في مظهر معشوقها. فقد ادركت خلال عمرها القصير والغني بالتجارب أن الاسنان، عند تقييم الرجل، ليست شيئاً أساسياً... وعند الغروب، في اليوم التالي، جاءت مرة أخرى، متأنقة هذه المرة، وأكثر تحدياً. وكانت الجرائد ذريعة لمجيئها.

- جئتك بجريدتك... فهل ممكن ان آخذ جرائد أخرى؟ ثم هل عندك كتب؟ بودي أن اقرأ كتاباً جذاباً، عن الحب.

- خذي الجرائد. لكن ليست لي كتب. ليست عندي قاعة للمطالعة.

جلست لوشكا، دون انتظار لاذن بالجلوس، وشرعت تتحدث بجدية عن البذار في الفريق الثالث وعن النقائص التي تلحظها في الملبنة التي نظمت في غريمياتشي لوغ. وتقربت بسداجة لا مكر فيها من دافيدوف، ومن دائرة الاهتمامات التي تصورت أنه يعيش فيها.

استمع دافيدوف اليها في ارتياب في البداية، ثم انجر الى الحديث، وتحدث عن خطه في اقامة مزرعة الألبان، وأعلن في سياق الحديث عن أحدث المنجزات التكنيكية في الخارج، وعن معالجة منتجات الألبان، واخيراً قال دون كدر: - نحتاج الى أموال طائلة. يجب أن نشترى عدة عجول من أبقار كثيرة الحليب، ويجب أن نربي ثيراناً من ذريات أصيلة. وكل ذلك يجب أن ينجز في أقرب وقت ممكن. لأن انتاج الألبان المبنى على أساس سليم يعطي مداخيل هائلة! والحقيقة أن كولخوزنا سيعدل ميزانيته على هذا الأساس. ولكن ماذا عندهم الآن؟ فرازة قديمة تساوي قرشاً، ولا

تستطيع أن تستوعب محصول الربيع من الألبان، وهذا كل شيء. كما لا توجد صفيحة واحدة لحفظ الحليب، فيصبون الحليب في الجرار الفخارية كما في الماضي. أي شيء هذا؟ وانت تقولين ان الحليب يحمض عندهم، ولماذا يحمض؟ لأنهم يصبونه في آنية وسخة، على ما أظن.

- الجرار ليست مفخورة جيداً، ولهذا يحمض.
- وهذا ما أقوله أنا، لا يعتنون بأنيتهم جيداً. خذي على عاتقك هذا الأمر، ورتبيه. وقومي بما هو ضروري، والادارة ستساعدك على الدوام. والا كيف؟ سيفسد الحليب دائماً، اذا لم تراقب الآنية، واذا كانت الحلابات يحلبن بالشكل الذي رأيتهن يحلبن به قبل وقت قصير: تجلس تحت البقرة دون أن تغسل ضروعها القذرة المبقعة بالروث، ويذا الحلابة نفسها غير مغسولتين في الحقيقة. وربما قبل هذا تناولت بهما ما يخطر وما لا يخطر على بال. تجلس الى البقرة بيدين قدرتين. لم يكن لي وقت لأعالج هذا الموضوع. فعالجه انت! حبذا لو تهتمين بمزرعة الألبان، بدلا من التبودر بالبودرة وتجميل نفسك. ها؟ سنعينك مديرة، وتدخليين في دورة دراسية وتعلمين كيف يجب أن تدار الأعمال بشكل علمي، وستكونين امرأة ذات كفاءة.

- لا، دعهم يديرون الأعمال بدوني - وتنهدت لوشكا - عندهم من ينظم كل شيء بدون حاجة لي. ولا أريد أن اكون مديرة، ولا أن اسافر الى دورة دراسية، ففي ذلك كثير من المتاعب. وأنا أريد عملاً خفيفاً لأعيش في طلاقة، والا كيف؟ العمل يحب الحمقى من الناس.

- ها انت تعودين الى التفوه بالسفاسف! - قال دافيدوف في ضيق، ولكن لم يرد أن يقنعها.

وبعد قليل أستأذنت للانصراف. وخرج دافيدوف يرافقتها. سارا في الزقاق المعتم صامتتين لفترة طويلة، وبعد ذلك سألت لوشكا وقد ألت بسرعة غير اعتيادية بكل مشاغل دافيدوف:

- هل ذهبت الى قمح كوبانكا في المدة الاخيرة؟

- ذهبت.

- وكيف الحال؟

- سيئة! أخشى أن لا تطلع السنابل، اذا لم ينزل المطر هذا الاسبوع. وهل تعرفين الى اي شيء سيؤدي هذا، عليه اللعنة؟ سيشتفي الشيوخ الذين جاءوا الي يطلبون اقامة الصلاة. حقيقة! سيقولون: «أها! لم يسمح باقامة الصلاة، فلم يرسل الرب المطر!» بينما لا علاقة للرب في هذا الأمر، مادام الباروميتر قد تيبس على درجة الصحو. ولكنهم يتشبثون بايمانهم الأحمق. فظاعة تماماً، حقيقة! ونحن نتحمل جزءاً من المسؤولية في ذلك... كان يجب أن لا نشغل أنفسنا في القرعيات وفي جزء من المحاصيل الجانبية، ونهتم أكثر في بذر الحنطة وهذا سر فشلنا! والشيء نفسه حصل مع مليونوبوس وقد أثبت فعلياً لصاحب الدماغ الناشف ليوبشكين، أن هذا النوع من الحنطة أكثر ملائمة لظروفنا وفق جميع معطيات الفن الزراعي - وسرت الحيوية في دافيدوف من جديد، وكان من الممكن ان يتحدث طويلا وبحماس بعد أن ركب بغلته المفضلة هذه، ولكن لوشكا قاطعته بنفاد صبر واضح:

- اترك الحديث عن القمح! والأفضل أن نجلس قليلا هنا. - وأشارت الى دكة ساقية يسبغ القمر عليها ضوءه الأزرق.

وتقدما منها. ولملمت لوشكا تنورتها، وأقترحت عليه كربة بيت متبصرة:

- حبذا لو خلعت سترتك، وفرشتها، فانا أخشى أن ألوث تنورتي التي ألبسها في أيام الأعياد...
وحين جلسا جنباً الى جنب على السترة المفروشة، قربت من وجه دافيدوف الساخر البسمة وجهها الذي احلولى بشكل غريب، واكتسى صرامة وقالت:

- كفاك حديثاً عن القمح والكولغوز! الآن لاداعي للحديث عن هذا... أتشم رائحة الاوراق الغضة على شجرة الحور؟..

...وأنتهى عند هذا تردد دافيدوف في انجذابه الى
لوشكا، وخوفه من أن تشوه علاقته بها سمعته...
وفيما بعد، حين نهض، وتدحرج فتات الطين اليابس
المخرخش من تحت قدميه الى الساقية كانت لوشكا ما تزال
مستلقية على ظهرها، طارحة ذراعيها، مطبقة عينيها بوني.
لزما الصمت برهة. وبعد ذلك قعدت بحيوية مبالغتة، وطوقت
ركبتيها بيديها، وأهتزت بنوبة طاغية من الضحك.
وكانها مستسلمة لدغدغة. فسألها دافيدوف في حيرة
وتكدر:

— ماذا بك؟

ولكن لوشكا قطعت ضحكها بشكل مفاجيء، ومدت رجليها،
وقالت بصوت متفكر هانى متحشرج قليلا، وهي تمسد
وركبتيها وبطنها بكفيها:
— كم أنا خفيفة الآن!..
قال دافيدوف غاضباً:

— يعني لوركبت ريشة ستطيرين؟

— لا، لا، لا داعي، لاداعي لأن تزعل... زال التوتر
عن بطني الآن... صار فارغاً وخفيفاً، ولهذا ضحكت. وهل
تريدني أن أبكي، يا عجيب؟ اجلس، لماذا وقفت على
رجليك؟

أطاعها دافيدوف على مضض «ماذا علي أن أفعل معها
الآن؟ يقتضي أن أسجل هذا في عقد، في الحقيقة، والا
فسأكون في حرج أمام ماكار، وبشكل عام... تأتيك
الدواهي من حيث لا تدرى!» كان دافيدوف يقول لنفسه،
وهو ينظر بمؤخر عينه الى وجه لوشكا المخضوضر في ضوء
القمر.

أما لوشكا فقد نهضت لدنة القوام دون أن تمس الأرض
بيديها، وسألت باسمة مخاوصة عينيها:

— جميلة أنا؟ ها؟

— كيف اقول لك... — أجب دافيدوف بلا تحديد
مطوقا كتفي لوشكا الضيقتين.

في اليوم التالي بعد هطول المطر المدار على غريمياتشي لوغ ركب ياكوف لوكيتش فرساً، وخرج الى الغابة الحمراء. فقد كان عليه أن يعلم بيديه أشجار البلوط المقرر قطعها، لأن الفريق الثالث كله تقريباً كان يجب أن يخرج الى هناك ليبدأ في تحضير الأخشاب اللازمة للسدود. خرج ياكوف لوكيتش منذ الصباح. وكانت فرسه تسير متمهلة تهفّف بذيلها المعقود بمهارة. وكان حافراها الأماميان غير المحذوبين ينزلقان على الوحل الزيتي الزلق. ولكن ياكوف لوكيتش لم يرفع سوطه مرة واحدة، فلم يكن هناك ما يدعو الى الاستعجال. فقد ألقى العنان على حنو السرج، واشعل سيكارة، وراح يجيل بصره في السهب الممتد حول غريمياتشي لوغ، حيث كان كل خندق، كل منخفض، كل جحر للخلد، معروفاً له منذ الطفولة وعزيزاً على قلبه، كان يتملى الحقول المحروثة المفتنة التربة المنفوخة بندى الماء، وزروع الحبوب المغسولة التي احنى المطر سيقانها، ويفكر في ضيق شديد وغم: «سحر المطر فنزل، ذلك الشيطان الفاقد السن! وحنطة كوبانكا ستطلع أيضاً! عجيب، كأن الله نفسه الى جانب هذه السلطة الملعونة! كنا نعانى من سوء المحاصيل سنة بعد سنة، وإذا بالوفرة في المحاصيل تتوالى منذ عام ١٩٢١! الطبيعة بكاملها تساند السلطة السوفيتية، فمتى نتوقع انهيارها إذا سار الأمر على هذا المنوال؟ لا، مستحيل ان تقدر بأنفسنا التطويح بالشيوعيين، اذا لم يساعدنا الحلفاء على ذلك. لن يقدر أمثال بولوفتسيف ان يفعلوا ذلك مهما أوتوا من عقل. القرة تقهر بالقوة، وكيف تقدر أن تقف أمام القوة؟ ثم أن الناس ملاعين مؤذون... ثم أن يفتن احدهم على الآخر، ويشي به شتى الوشايات. ليعيش هو وحده ابن الكلبة، وليذهب الآخرون الى جهنم. أيام صعبة! ولا أظن أحداً يعرف كيف ستصير الحال بعد سنة او سنتين...

ولكنني ولدت في برج السعد، كما يبدو، والا لما انتهى
أمري مع بولوفتسيف هذه النهاية المحمودة. عساه أن
يروح في داهية! والحمد لله أن كل شيء سوى ومر بسلام.
لننتظر قليلا لنرى ماذا سيحصل بعد. لا يجدر الآن الانفصال
عن السلطة السوفيتية، فقد يحصل شيء موثوق!»

كانت قطرات الندى المنظومة ترتعش على سيقان
الاعشاب المنفوشة تحت الشمس، ونباتات السنابل الناضجة.
وكانت الريح الهابة من الغرب تهزها، فتساقط قطراتها
وتنلألاً بهجة، وتسقط على الأرض الفواحة بالمطر، والمترعة
بالحنان والرغبة.

كانت مياه المطر ماتزال في اخاديد الطريق لم تتشربها
التربة، ولكن الضباب الصباحي الوردى قد نهض فوق
غريمياتشي لوغ أعلى من ذرى اشجار الحور، والهلال الفضي،
كأنما غسله المطر، والذي ادركه الفجر يقف كامد الضوء
في زرقة السماء الشاحبة. وكان رقيقاً منحرفاً حاد الأطراف
يبشر بامطار غزيرة، نظر ياكوف لو كيتشس اليه، وقد تيقن
كلياً بأن المحصول سيكون جيداً.

وصل الى الغابة الحمراء حوالي الظهر، عقل رجلي
الفرس وتركه يرعى، واخرج من وراء حزامه فأساً صغيرة
يستخدمها في النجارة وذهب يضع الحزوز على اشجار
البلوط في الجزء الذي خصصه حارس الغابة لكولخوز
غريمياتشي.

على طرف الوهدة حز حوالي ست اشجار بلوط، وتقدم
من شجرة تالية. كانت شجرة بلوط سامقة وارفة الظل،
بطول صارية باخرة، نادرة في قوامها الممشوق تطل بشموخ
على اشجار الدردار الشائخة المتطامنة المرتخية الأغصان.
وكانت اعشاش الغربان تلوح مسودة في أوراقها الداكنة
الخضرة اللامعة في ذروتها العليا.

كانت هذه الشجرة في عمر ياكوف لو كيتشس، كما يدل
سمك جذعها. وقد بلل ياكوف لو كيتشس يديه ببصاقه، ونظر
الى الشجرة الهالكة بشعور من الاشفاق والأسى.

وأحدث حزاً عليها، خط حرفي «غ.ك» بالقلم الأسود على اللحاء المنزوع القشرة، وضرب بقدمه القشرة الرطبة المترعة بالنسغ، وجلس ليدخن وانشأ يفكر، وهو ينظر الى قمة الشجرة المفروشة كالخيمة: «كم من السنين عشت، يا اختي! لم يكن لاحد عليك سلطان، وهاقد حانت ساعة منيتك. وسيطوحون بك، ويشقونك، ويقطعون جمالك بالفؤوس، يقطعون الأغصان والأماليد، ويأخذونك مقطعة الى البركة، ويجعلون منك ركائز للسدة وستتعفن في بركة الكولخوز، حتى تتفسخي. وبعد ذلك تجرفك مياه الربيع الكاسحة الى آخر الوهدة، وتزولين عن الوجود!» وشعر ياكوف لو كيتشش بألم مفاجيء من هذه الأفكار، وبوحشة غامضة ورهبة. فاضطرب وخاطبها في سره «ولكن ربما اشفق عليك، ولا اقطعك؟ ليس كل شيء مرعى للكولخوز - وعزم في فرج سار - سأبقىك! فاستمري في نموك! وازهي بجمالك! وأي شيء ينغص عليك حياتك؟ لا ضريبة تدفعين، ولا تبرعاً يؤخذ منك، ولا كولخوزاً تحشرين فيه... فعيشي، كما قسم لك الرب أن تعيشي!» ونهض مضطرباً، وأخذ حفنة من الطين اللزج، وسوى به حزها بعناية. وخرج من الوهدة مرتاح النفس، هادئ الاعصاب...

علم ياكوف لو كيتشش جميع الاشجار السبع والستين بقلب غمرته الرقة. وركب فرسه، وسار الى طرف الغابة. سمع من يناديه من أول الأرض الفضاء:
- ياكوف لو كيتشش، انتظر قليلاً!
وبعد هذا ظهر من وراء أجمة زعرور بري رجل في قبة من فراء الغنم، وجاكته سميكة محلولة الازرار من جوخ المعاطف العسكرية. كان وجهه مسوداً ملوحاً بالريح، وجلدة وجنتيه مشدودة بقوة من شدة الهزال، وعيناه غائبتين، وقد لاح شاربان غزيران مسودان وكأنما خطا بالفحم بدقة فوق شفثيه المبيضتين المسفوعتين.
- ألا تعرفني؟

خلع الرجل قبعته، وتلفت فيما حوله في حذر، وخرج الى العراء، وعند ذاك فقط عرف ياكوف لو كيتش في الغريب تيموفي الأشرم.

- من أين أنت؟ .. - سأل ياكوف لو كيتش وقد اذهله هذا اللقاء مع تيموفي الذي كان رهيباً في نحوله متغيراً الى حد لا يعرف.

- من حيث لا يعود الناس... من النفي... من كوتلاس.

- يعني هربت؟

- هربت... ألا يوجد معك شيء، يا عم ياكوف؟ ألا يوجد خبز؟

- يوجد.

- اعطني، بحق المسيح!.. أربعة ايام وأنا اقتات على الاعناب البرية المتفسخة...

وابتلع ريقه بحركة متشنجة. وكانت شفثاه ترتعشان، وعيناه تبرقان كعيون الذئب، وتتبعان يد ياكوف لو كيتش، وهي تخرج من وراء زيقه كسرة خبز.

وقع على الخبز بشراسة جوع جعلت أنفاس ياكوف لو كيتش تتكسر في صدره. نهش بأسنانه القشرة اليابسة المحروقة، وترف اللباب باصابعه المعكوفة، وابتلعها بنهم، يكاد لا يمضغها، محرراً تفاحة آدم الناتئة في اعلى رقبته بصعوبة. وعندما انتهى من ابتلاع آخر قطعة وشهق بها، عندئذ فقط رفع الى ياكوف لو كيتش عينيه الثمليتين، وقد زايلهما البريق المحموم الذي كان يلتهمها قبل حين. قال ياكوف لو كيتش باشفاق:

- جوعك شديد، أيها الشاب...

- قلت لك منذ خمسة ايام وأنا اتغذى على الاعناب العفنة، واليابسة من العام الماضي... جعت كثيراً..

- ولكن كيف وصلت الى هنا؟

اجاب تيموفي بتعب:

- مشياً من المحطة. في الليل فقط.

ظهر الشحوب عليه، وكأنما ستنفد على الأكل آخر قواه، وراح جسمه كله يهتز بفواق قاهر، جعل وجهه يتلوى بآلم.

- هل ابوك ما يزال حياً؟ وكيف عائلتك أهي سليمة؟ -
تابع ياكوف لو كيتش، ولكن دون ان يترجل من فرسه، متلفتاً يميناً وشمالاً من حين لآخر.
- أبي توفي بالتهاب البطن. وأمي واختي ما تزالان هناك. وكيف الاحوال في عزبتنا؟ ولوكيريا ناغولنوبا أما تزال هنا؟

- طلقت زوجها، يا شاب... -

فسأل تيموفي بحيوية:

- وأين هي الآن؟

- تسكن عند عمته، وتكسب عيشها بنفسها.

- أريد منك، يا عم ياكوف... حين تصل، أن تخبرها

بأن تجلب الطعام لي هنا منذ اليوم. أنا أهوت جوعاً، ولا أستطيع الذهاب، ويجب أن أستريح وأقضي النهار في الاستراحة. فقد تعبت كثيراً، قطعت مائة وسبعين فرسخاً وكل ذلك في الليل، وهل تعرف كيف يسير الانسان في الليل في اماكن غريبة عليه؟ أسير متمسكاً بطريقي. دعها تجلب الطعام لي. وحالما استعيد شيئاً من قواي سأذهب الى العزبة بنفسي... اشتقت الى أماكني الحبيبة أشد الاشتياق. - وابتسم بشعور بالذنب.

- وكيف ستعيش في المستقبل؟ ماذا تتصور؟ -

سأل ياكوف لو كيتش وقد ترك هذا اللقاء في نفسه دهشة غير مريحة.

فرد تيموفي والقسوة على وجهه:

- لا اعرف كيف. أنا الآن كالذئب المتوحد. ولكنني

سأستريح قليلاً، وأتي الى العزبة ليلاً، وأخرج البندقية من مخبئها تحت الأرض... انها مدفونة في أرض سقيفة الدريس... وأبدأ بالاعتناص! ليس لي غير طريق واحد... وما داموا قد عاقبوني فسا عاقبهم أنا... ومن سيتلقى طعمني

سيفيق على نفسه!.. سأعيش في الغابة حتى الخريف...
وعند حلول البرد ساذهب الى كوبان او الى اي محل آخر.
فالدنيا واسعة... ومن أمثالي يتجاوزون المائة عدا.

- يبدو أن لوشكا زوجة ماكار أخذت تميل الى رئيس الكولخوز. - أعلن ياكوف لوكيتش بغير جزم، وقد لاحظ لوشكا غير مرة متجهة الى منزل دافيدوف.

استلقى تيموفي تحت أجمة. هذه ألم لا يطاق في معدته. ولكنه ظل يتكلم، ولو بتقطع:

- سيكون دافيدوف الوغد أول من... في قائمة

الذين يصلى عليهم في الكنيسة... ولكن لوشكا مخصصة لي... الحب القديم لا ينسى... ليس هو الخبز يؤكل وينتهي... أجد دائماً الطريق الى قلبها... ولا أظنه أمحي... قتلتني انت، يا عم، بخبزك هذا... معدتي تتمزق... أبلغ لوشكا، اذن، بأن تأتي الى هنا... وتجلب خبزاً... اكثر ما تستطيع من الخبز.

حذر ياكوف لوكيتش تيموفي بأن قطع الاشجار سيبدأ غداً في الغابة، وغادر الغابة متجهاً الى حقل الفريق الثاني، ليتفقد الحقل المزروع بحنطة كوبانكا. كانت بوارض الزرع قد طلعت أخيراً كالممنمات الخضرة الرقيقة في كل الحقل الذي كان الى حين ارضاً سوداء كالفحم...

ولم يعد ياكوف الى العزبة الا في الليل. وسار من اسطبل الكولخوز الى بيته مثقلاً بالتأثير الذي ترك فيه النهار كله لقاءه بتيموفي الأشرم. وفي البيت كان في انتظاره انزعاج جديد أمض من ذلك بما لا يقاس... طلعت كنته من المطبخ، وهو ما يزال في الرواق، ونبهته هامسة:

- يا أب، عندنا ضيوف...

- من؟....

- بولوفتسيف، وذاك... الأحوال. جاء حالما حل الغروب... وكنت وماما نحلب الأبقار... هما الآن في الحجرة. بولوفتسيف سكران كثيراً، والآخر لا تفهم منه

شيئاً... الاثنان في حالة رهيبة! القمل يطفح منهما و...
يدب حتى فوق ملابسهما!
وتردد كلام من الحجرة الامامية. كان لاتيوفسكي
يقول بسخرية لاذعة، متنحنحاً:
- أوه، بالطبع! ومن انت يا حضرة المحترم؟ أنا
اسألك أيها السيد المبجل بولوفتسيف. ولكنني سأقول
لك من أنت... هل تريد؟ وطني بلا وطن، قائد بلا جيش،
وإذا كنت ترى هذين التشبيهين رفيعين أكثر من اللازم
وتجريديين، فهناك هذا التشبيه: مقامر بلا فلس في جيبه». .
ترامى صوت بولوفتسيف العالي النبرة فاقد الرنين.
اسند ياكوف لوكيتش ظهره على الحائط خائراً، وأمسك
رأسه بين يديه...
كان القديم يعود مرة أخرى.

١٩٣٠ - ١٩٣٦

الى القراء

ان دار «رادوغا» - فرع طشقند - تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: المركز ١٤ العمارة ٣٣
طشقند - الاتحاد السوفيتي



ميخائيل شولوخوف
(١٩٠٥ - ١٩٨٤) هو أحد
كبار الكتاب المعاصرين،
ومنح جائزتي لينين ونوبل.
وروايته «أرضنا البكر»
تعرض لمرحلة ادخال
التعاونيات في الزراعة
وانتصار نظام الكولخوزات
في الريف السوفيتي.
وترجمت الى ٧٥ لغة
وصدرت بأكثر من ٣٠
مليون نسخة.

لهذه الرواية قصة
فريدة. في عام ١٩٣٢
نشرت مجلة «نوفي مير»
الكتاب الأول منها. الا أن
اكمال روايته الشهيرة

«الدون الهادي» كان
يتطلب بذل أقصى جهد من
الكاتب، ولهذا أجل اكمال
«ارضنا البكر». وابن
الحرب الوطنية العظمى
للشعب السوفيتي ضد
الفاشية الالمانية، حين
كان شولوخوف في الجبهة،
سقطت قنبلة للعدو على
بيت الكاتب واحرقت
ارشيفه الخاص، فاحترقت
أيضا مسودات الكتاب
الثاني من «ارضنا البكر»
بعد ان شارفت على الانتهاء.
بعد الحرب اضطر
شولوخوف الى البدء بكتابة
الكتاب الثاني من جديد.
ابتداء من العام ١٩٥٤
بدأت فصول الكتاب الثاني
من الرواية تظهر في
الصحف والمجلات، وفي
عشية العام ١٩٦٠ تمت
كتابة الرواية كاملة.
على الرغم من البعد
الظاهر للأحداث الموصوفة
في الرواية: عام ١٩٣٠،
عهد كلخزة الزراعة، حين
«سبت الحياة مثل حسان
جامح امام الحوائل
العسيرة» فانها مفعمة
بمشاعر وأفكار العصر.

ISBN 5-05-000704-6

ISBN 5-05-000706-2

Twitter: @ketab_n

مخائيل شولوخوف

«...لم يمر يوم دون ان اتلقى عشرات الرسائل من قرائي الذين كانوا يفسرون أحداث «أرضنا البكر» ويحللون طبائع أبطالها. ومن بين تلك الرسائل، رسائل اعطتني ككاتب عرف الصنعة الأدبية بقدرها أكثر مما افادتني مقالات في النقد الادبي كتبها نقاد معترف بهم».

ميخائيل شولوخوف.

«لن يستطيع كاتب ان يكتب كتاباً حقيقياً تخفق له قلوب القراء الا حين يعيش حياة الشعب، ويعاني ما يعانيه، ويسعد بهجومه وحاجاته».

ويشعر شعوراً كاملاً لسعادته، ويشعر شعوراً كاملاً ويحزن حزنه، ويحزن حزنه، ويحزن حزنه.

ميخائيل شولوخوف.



دار «رادوغا»
فرع طشقند